الدكتور
أسعد أحمد علي
أستاذ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة دمشق



ومقتضى الحال

الجزء الثاني

مقتضى حال المعاني في بلاغة الخبر

١٤٠٧ - ١٤٠٨ هـ
١٩٨٧ - ١٩٨٨ م

علم المعاني

و

مقتضى الحال

— 2 —

الخبر والإنشاء : جناحان ؛ فطِرْ بهما ..

كلُّ بوّابةٍ : مطـار ..

والجوُّ : واسعُ الصدر ..

فطابِقْ مع الجوِّ اتساعَ صدرِكَ :

تَكُنْ بليغاً ..

٧ رمضان ١٤٠٨

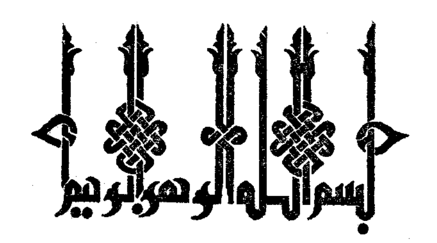
٢٣ نيسان ١٩٨٨

الطبعة الأولى

محتـــويات

القسم الثاني من : عــلم المعاني ومقتضى الحال

مقتضى الحال في بلاغــة الخبر



وما جعـلـه الله إلاّ بُشْرَى
ولتطمئنّ به قلوبُكم
وما النصر إلا من عند الله
إن الله عزيز حكيم •• (٩/٨)

أولئكَ عليهم صلواتٌ من ربّهـم
ورحمـةٌ ••
وأولئكَ همُ المهتدون •• (٢/١٥٧)
(قرآن كريم)

حفظُ العهـود :
من أخـلاقِ المعبود :
(من النور الثاني عشر •• الهادي)

فتّشْ مَصادرَ « مُقتضاكَ » فهاهُنا
بِئْرانِ تَشْرَبُ منهما : فَتَرى الرؤى
بنتُ الغيـوبِ شـهادةٌ وشـهيدةٌ
طَهُرَ « الهدى » بالوعد فاعتصمت به
ليسَ الكـلام بغـايةٍ في ذاتِـهِ

شيخُ التلطّفِ « زمزمٌ » يدعو لَنا
وتعيشُ أحـلامَ السعادةِ مثلَنـا
بجمالهـا القدوسِ يَسطعُ أمـرُنا
أبَـدَ الوفـاءِ لحيِّهـا صحراؤنا
إن البلاغَ عن الحياةِ هو المُنَى ••

(خماسيات نيسان : السعادة)

المقـدمة
فتح طريق الرؤية

— 1 —

كلُّ الأزاهرِ :
يَجتهدنَ بحبِّه

كتبَ الشذى فوق التفتحِ :

يا هُوْ .. !

كهفي .. وأرقامي : دلائلُ فِتيةٍ
تُصغي لإعجاز الحياة ...

فما هو .. ؟ !

بهذه الصورة : ختمتُ الطبعة الخامسة من « فن الحياة فن الكتابة » (١) ...
ويبدو الاجتهادُ لفهم « مقتضى الحال » : حقَّ الحياةِ وواجبَها ورسالتَها (٢) ..

---

١ ـ مطبعة جامعة دمشق : ١٩٨٦ ؛ ص ٤٩٦ ؛
وفي الطبعة السادسة من « صناعة الكتابة » ؛ دمشق : دار السؤال ؛ ص ٥٦٢
ولاحظ كيف يسبح كل شيء في آيات الوحي .. وتأمل لغة الأزاهر في لغات أخرى كاللغة الفرنسية :
Le Langage des Fleurs : Marie Louise Sondaz.

٢ ـ نشر الحب وثروة الأمم : بحث نشر بصورة مقالة .. أوضحت فيه تفاريع هذا المقتضى : في السياسة .. والاقتصاد .. والأدب .. والدين .. واللغة .. والتاريخ .. وبصورة عملية جمعت بين نماذج بلاغية : أبان فيها الرؤساء العالميون مذاهبهم في التفاهم .. وأضاءت الطريق الى « الصوت العربي في اللغات » بكلمة « جيزن » التي تعني « الحياة » بالروسية .. وبكلمة « ثروة » التي تضمر قاعدة التوزيع بين الاخوة البشر .. والتوقف مع مصادر البحث القديمة والحديثة : من أساليب « فتح طريق الرؤية » من الذرى والسهول .. (تشرين : ١٩٨٨/٣/٢٩) .. وانظر ما سبقها في الجريدة ذاتها : ١٩٨٨/٣/١٥ و ١٩٨٨/٣/٢٢

وأبناءُ الحياة : أوفياء للأم والأب •• وصور الوفاء : تؤدي المعنى بحقول النشاط الإنساني المتّسعة للتجدد ••• لكن ما هي الحقول التسعة ؟

— 2 —

في مقدمة « دلائل الاعجاز » : تفرقة بين من لا يَرون في البيان سوى الضبط وفق ما سمّاه « علم اللغة » وبين من يرون له « دقائقَ وأسراراً : طريقُ العلم بها الرويّةُ والفكر •• ولطائفَ : مستقاها العقلُ •• وخصائصَ معانٍ : ينفرد بها قوم •• كُشِفَ لهم عنها » •• ويرى الجرجاني : للكشف امتداداً يعلو ويرتقي •• حتى ينتهي الأمر إلى الإعجاز وإلى أن يخرج من طوق البشر[٣] •••

وهذه التفرقة بين ضوابط اللغة الحرفية ورؤى الكشف الذوقية : مستمرة •• ففي آخر مناقشة دكتوراه : كان المناقشون في الشّعبين ؛ فمنهم مَن مدح الرسالة من وجهة لغتها البيانية المؤثرة ؛ ومنهم من توقف عند اللغة التركيبية ومسائل بناء الجملة [٤] •••• وفي يوم المناقشة ذاته : شاركتُ بمناقشةِ رسالة أخرى [٥] ؛ قلت لصاحبها : « في نظرية البحث يميزون بين العِلّةِ والقيمة •• والمنهجية : تترجح بين المادة العلمية والصيَغ الشكلية لتحدثَ غايَتها التأثيرية •• وتفتحَ

---

٣ ـ دلائل الإعجاز : للجرجاني ؛ تحقيق محمد رشيد رضا : ص ٦ .. وتحقيق الأخوين داية : ص ١٤

٤ ـ قدمت الرسالة : ماجدة حمود .. بعنوان : حركة النقد عند الأدباء الفلسطينيين في الشتات .. ونوقشت عشية الخميس ٢٧ شعبان ١٤٠٨ الموافق ١٤ نيسان ١٩٨٨ .. ولجنة الحكم من الدكاترة : عبد الكريم الأشتر .. عمر الدقاق .. نعيم اليافي .. عبد النبي اصطيف .. وكان الدكتور حسام الخطيب مشرفاً في مرحلة البدء بالبحث .. ثم حوّله إليّ لحياد الحكم وتعهدي مثل هذا الموضوع ؛ كما يقول .. إشارة إلى عدد من الموضوعات الفلسطينية : اشرفت عليها باليسوعية .. منذ ١٩٧٠ الى ١٩٧٥ خصوصاً .. وما استمر بعد العودة من لبنان ..

٥ ـ قدم الرسالة : محمد فايز السنكري .. باشراف الدكتور عمر موسى باشا .. بعنوان : شعر الشام .. وكانت لجنة الحكم من الدكاترة : جودة الركابي .. أحمد دهمان .. أحلام الزعيم .. والعبد الفقير : أسعد علي .. وتمت المناقشة : صبيحة الخميس ٢٧ شعبان ١٤٠٨ الموافق ١٤ نيسان ١٩٨٨ ؛ اي صبيحة اليوم ذاته ..

طريق الرؤية الجديدة •• ولكن هيهات أن تُفتَح الفتوحاتُ لغير أهل الذوق التجاوزيين » ••

ومثل هذه التفرقة كان واضحاً في ندوة « تعليم اللغة العربية لغير المختصين » ؛ وأكدت فيها على « معاناة الحب » لكي لا يمقت المتعلمون المعلمين •• فكيف نحب المعاناة وكيف نعاني الحب [٦] ؟ !

— 3 —

هذا سؤال يعيدنا إلى السؤال الأول : ما هي حقول النشاط الإنساني المتّسعة للتجدّد ؟ !

أشرت إلى مقدمة « فن الحياة » ففيها جواب" يحيل إلى أنواع من الأجوبة كالتي عرضها الدكتور زكريا ابراهيم في كتابه « مشكلة الحياة » •• (ص ٦) ••

وفي مقدمة الجزء الأول « مقتضى الحال في بلاغة الإنشاء » : دلائل الى أجوبة مجدّدة ••

---

٦ ــ نسقت نقابة المعلمين مع جامعات القطر الأربع .. ثم اقامت ندوة تحت عنوان « تدريس اللغة العربية لغير المختصين في الجامعات » .. استمرت الندوة ثلاثة أيام « ٥ ــ ١٩٨٨/٣/٧ » : احتفالا باليوبيل الفضي لثورة الثامن من آذار المجيدة ، وعيد المعلم العربي .. وتحت شعار : « من لا يمارس ذاته القومية لا يمارس وجوده كاملا » ..

حرصت على الإصغاء للإفادة من تطور التجربة الشجاعة .. ولم أقاطع الإصغاء إلا بمداخلتين .. الأولى حول « إعداد مدرس اللغة العربية في الجامعات » للدكتور عمر الدقاق .. وكان مدير الجلسة الدكتور موفق السيد حسن .. والثانية حول « التكامل في تعليم اللغة العربية » للدكتور شاكر الفحام .. وكان مدير الجلسة الدكتور حسين أبو حامد ..

اوضحت في المداخلتين : ما اكده التراث والحداثة من ضرورة الاهتمام بالتفرقة بين « الحرفية والذوق » .. خصوصاً في مثل تعليم اللغة لطبيب أو مهندس أو صيدلي ... ثم أوضحت هذه الأهمية في ما سميته « جيش الكلمة الطيبة في الخطاب الفضي للرئيس العربي » .. (تشرين ١٩٨٨/٣/١٥) ..

كذلك يجد المتمهل الذكي أجوبة مجددة في هذا الجزء الثاني من كتابنا « علم المعاني ومقتضى الحال » •••

— 4 —

في هذا الجزء : تمهلت في « فتح طريق الرؤية » ؛ ليرى طلاب البلاغة : كيفية التفهم ، مقاماً مقاماً •• وهل يُدَّعى كتمُ الانفجارات التي يقتضيها فتح الطريق ؟ •• فكيف والطريق صخرية •• وصخورها من بنات الدهور •• ؟

تراثياً ؛ أسَّسَ الجرجاني وسابقوه ولاحقوه قواعد علم المعاني : على أمثلة قرآنية وشعرية ونحوية ؛ وما سوى هذه الأنواع الثلاثة تابعٌ لها إيجاباً مثل الحديث النبوي في تابعيته للقرآن الموحى ، ومثل النماذج الموفقة من النثر العربي الراقي كتلك التي طرب لها البلغاء والكتاب أمثال الجاحظ وغيره ••

في مقام الأمثلة القرآنية : فتحت طريق الرؤية ؛ فشوهدت مشاهد مجدّدة للفظ كما في « الكوثر » [٧] ؛ وللضمير المسند إليه في « الإنسان » [٨] ؛ وللمعنى الكلي كما في « الحرث والمرأة » [٩] ؛ ولمعنى المعنى الناجم عن الاتصال بين مستويات من الملائكة والبشر المختارين كما في « سلاماً •• سلام » [١٠] ••

وفي مقام الأمثلة الشعرية : فتحت طريق الرؤية ؛ فظهر لأبي تمام ما خفي على ناقدي بيت له في مسألة « الوصل [١١] » •• وظهر بنص من الشعر الحديث ما يشبه نص السكاكي في المسألة ذاتها [١٢] ••• ومن مستوى الأصالة الاتصالية

---

٧ ــ احوال الكوثر في الفصل والوصل ؛ ص ٥٤٥ ــ ٥٥٣
٨ ــ مجاراة الأساور من فضة وذوق المماثلة والتفاضل .. في العنوان المدخلي « جمال البلاغة الممارسة .. تجميل نصوصها »
٩ ــ الاعتراض من صور الإطناب : ٥٧٤ ــ ٥٨٢
١٠ ــ احوال المسند : 22 — 23
١١ ــ مع ابي تمام : ٥٣٢
١٢ ــ جامع الوصل : ٥٥٣

بالمعنى : رئيت رؤى جديدة من مباني العبارة الشعرية ، كما في « خماسية اللزوم والتعدي [١٣] » وكثير غيرها ..

وفي مقام النحو : فتحت طريق الرؤية ؛ فكشفت لمعاني النحو مشاهد تؤكد ظاهرة الوأد المعنوي لوظيفة النحو في بناء الإنسان عن طريق اللسان ؛ كما كشفت حركة البعث المعنوي لهذه الوظيفة الخطرة في حياة اللغة وفي حياة متكلميها ؛ وفي « تنور اللغة وخبز المشتقات[١٤] » : وقائع شديدة الوضوح والتأثير ..

أما في مقام الأمثلة النثرية : فقد فتحت طريق الرؤية على نص تام من خطب الإمام علي (ع) في « نهج البلاغة ذي الفقر » ، كما علمنا من قسم كتابنا الأول[١٥] ؛ ورأيته كافياً : لأنه أثمرَ لنا جنياً وفيراً في مكانه ؛ أشيرُ الى أنواع من ذلك الثمر ، وفق مقتضى بلاغة هذا القسم ..

أول تلك الثمار : مبادىء التجميل [١٦] ؛ فقد جاء النص بسبع فقر ، كما هو في إخراجنا الجديد لنهج البلاغة .. ولوحظت جمل النص مرقمة .. ودرست علائقها لإنتاج العمل الكلي ؛ فاقتربنا من منهج النقد البلاغي للعمل الأدبي ، وإن ظلت السِّماتُ بلاغية خالصة لأحكام علم المعاني وما تستدعيه من قواعد النحو ومعانيه [١٧] ..

ثاني تلك الثمار : أسس التحقيق ؛ فقد قورن النص المقدَّم بعددٍ من النسخ المخطوطة المشار إلى رموزها ؛ كما قورن بعدد من طبعات النهج وشروحه .. وتم الاعتماد على النص « المُفقَّر والمُجمَّل » في المتن ، وأشير إلى الخلافات بين

---

١٣ ـ معمولات الفعل : ٤٣٢ ـ ٤٤٠
١٤ ـ تنور اللغة : ٤٥٥ ـ ٤٧٨ . كذلك : وشاح بردى وبحيرة الفعل ٤٤٧ ـ ٤٥٤
١٥ ـ نص السقيا مثال للتجميل : ص ٢٩٩
١٦ ـ نفسه ٣٠٠ ـ ٣٠١
١٧ ـ نفسه ٧٩ ـ ٩٧

النسخ ، وإلى ما يحتمل منه إفــادة المعنى على نحو من قراءة النص وفــق اللفظ الآخــر [١٨] ...

ثالث تلك الثمار : قواعد الشرح السياقي ؛ فقــد نوقشت ألفاظ بذاتها من شروح الشارحين ؛ وأبانت المناقشة : أنهــا لم تصب المعنى اللفظي الذي يقتضيه السِّياق .. [وسبق المناقشة : بيان اختلافات الترقيم .. وتنوع المصادر [١٩]] ..

رابع تلك الثمار : لون الشرح العصري [٢٠] ؛ قابلتُ فيه بين الفقرة وشرحها مقابلة معنوية معتدلة ؛ وهذه المقابلة : أبين في سياق الإخراج الجديد ؛ لأن مسألة الإخراج : أساس في تبيان جمال النص المستعطى من جمله . والإيجاز بهذا الشرح : اقتضاه سياق الكتاب ؛ لأننا عرفنا النص مثالاً محلـّلاً لإيضاح أسلوب النــداء الأعلى بالميم التعظيمية بدلاً من أداة النداء « يا » ؛ وفي حــالة التوجه إلى اسم الجلالة الجامع « اللهم » [٢١] ..

وخامس تلك الثمار : استدعاه تحليل النص البلاغي ؛ وهذا المستدعى : كان مقابلة عصرية مع صاحب النص القديم أجراها صحافي عربي معاصر ؛ وأدار مــع الإمام علي (ع) حواراً ، سأله فيه ثلاثــة وثلاثين سؤالاً ، كان يرفعهــا بأسلوب النــداء [٢٢] .. وكان الحوار من الشمول والوضوح : مغنياً عن استيضاحات كثــيرةٍ ، تتعلق بسيرة الإمــام وشخصيته وثقافته وتفكــيره ومجمل فلسفته الإنسانية ...

— 5 —

كان حديث رياض نجيب الريس : سياسياً جامعاً اقتضته حــال السياسة ١٩٨٣ .. لكن عارفي الإمام علي : يدركون أنه ملتقى الكشف العرفاني [٢٣] ..

١٨-١٩ ـ نفسه ٣٠٢ ـ
٢٠ ـ نفسه : ٣١٠ ـ ٣١٤
٢١ ـ سبقت الإشــارة في الحاشية ١٧
٢٢ ـ نفسه : ٣١٥ ـ ٣٣٣
٢٣ ـ علـى سبيل المثال : يراجـع نسب الطريقة القادرية .. كذلك الشاذلية .. أو الرفاعية .. الخ

وهذا الكشف هو المعيار الذي توقف عنده منظرو البلاغة والأدب ، عرباً وغيرَ عرب •• فالجرجاني في : « دلائل الإعجاز » •• ورتشاردز في « مبادىء النقد » •• يصرحان تصريحاً متحد الغاية ••

الجرجاني يقول[٢٤] : « إن هاهنا ، دقائقَ وأسراراً•• ولطائفَ•• وخصائصَ معانٍ ينفرد بها قوم" : قد هُدوا إليها ، ودُلّوا عليها ، وكُشف لهم عنها ، ورفعت الحجب بينهم وبينها •• وأنها السَّببُ في أن عَرِضَتِ المزيةُ في الكلام ، ووجب أن يفضُلَ بعضُه بعضاً ، وأن يبعد الشأو في ذلك وتمتد الغاية ويعلو المرتقى ويعز المطلب •• »

ورتشاردز يقول[٢٥] : « مادة الأدب الأولى : توجد من الإحساس بالكشف المباشر ؛ لأنه من الصفات التي تميز أسمى أنواع الأدب••وتلك اللحظات الرؤياية : توصف بالحدس المباشر الصوفي" •• ويُنسب إلى العقل الباحث صراعُه معها : ليفهمَها ، ويتكيف معها ، ويكيفها •• وحينما تفهم نظريات الكشف هذه على حقيقتها : يتضح لنا أنها أقدر من جميع النظريات التقليدية الأخرى على تفسير قيمة الفنون •• فهذا الكلام الذي يدور حول الحقيقة : ظاهرة غير باطنة •• ولكي نتمكن من تفسيره : يتحتم علينا أن ندرس اللغة من زاوية غير مألوفة وبدقة ليست شائعة •• ولكي نصنع ذلك : لا بد لنا ، إذن ، أن نتخلص أولاً من بعض العادات الفكرية الراسخة في أذهاننا ، وأن نزيل تلك العقبات الكأداء التي تقف في طريقنا » ••

إن فتحَ طريق الرؤية : شجاعةُ « سماعٍ وتكليفٍ »[٢٦] ؛ فبلاغة الخبر

٢٤ ـ المقدمة : ص ٦ ..
٢٥ ـ نظريات الحقيقة والكشف .. في مبادىء النقد : ٣٢٥ ـ ٣٣١
٢٦ ـ إن لهذا المصطلح « السماع والتكليف » : قصة لا يستوعبها كتاب جامعي .. من فصولها : انبثاق الشعاع من الصوت .. وتدفق النور في الشارب .. وانعكاس الضياء الهادي على الناظر المعلم .. وفي البعد الرابع تجتذب الكلمات .. الأربعاء : ١٩٨٥/١٢/٢٦ = ١٤٠٥/٤/٤ هـ ..

والإنشاء وفق مقتضى حال المعاني : جذبت إلى معالجة أبواب الإنشاء وأبواب الخبر بصور اقتضتها الرؤية لواقع مقامات طريق البلاغة ولواقع أحوال البلغاء الأصلاء ؛ وهؤلاء الأصلاءُ : أمّةٌ واحدةٌ من سائر الأمم ؛ لأنهم أهل ذوق ؛ وأذواقهم : وَصَلَتْهم برؤية اللغة ورؤية المعنى الذي يلتف عليه اللفظ من جهة •• والذي ينطق به الكون من جهة ثانية •• والذي يباشره الإحساسُ والنفس الحيّةُ من جهة ثالثة •••

من نوافذ الاتصال هذه : استلم الأصلاء قواعد الفهم والتفهيم ؛ فقال قائلوهم الغيورون على الحقيقة المرئية أقوالهم المحتفية برؤية محاسن الكلام الدالة إلى حقائق المقام[٢٧] •• وهذه الصيغة من صيغٍ عالمية الشهرة ، واقعية الإنسانية •••

— 7 —

أوضحت في مقدمة الجزء الأول واهدائه وصور الإخراج[٢٨] : ما اقتضته الحالُ من « فتح طريق الرؤية » : في طبيعة اللغة •• وطبيعة النفس •• وطبيعة المجتمع •• وطبيعة الإخصاب الذي يحرر البور من الأرض الطبيعية والمهمل من المواهب الإنسانية ••• وإشارتي إلى المقدمة والإهداء والصور الإخراجية : لأنها تركيز الانتباه إلى بوابات الطريق ومفارقها ، حيث تكون المشاهد داعية لكيفية التوقف معها ؛ لتفهم فهماً واقعيّاً ؛ ولتغيَّر تغيراً إخصابياً مُعمَّراً •• وإلاّ فالواقع كلّه : يُحتفى به ؛ وما لم يُحتَفَ بالخطأ الواقعي : كيف يُصحَّح ويُغيَّر ؛ وما لم يحتف بالموهبة الرياضية : كيف يبلغ صاحبها القِمّة ؛ أو كيف يباري الحياة ؟ !

— 8 —

علم المعاني مسطرة : هذه واقعية القياس ؛ ومبدأ التعليم المعنوي ؛ لأن المسطرة لتقويم الخطوط والأمان من الانحراف ؛ وهذا العلم في كتبه التراثية

---

٢٧ ـ تودد الرضا منهج لإحياء الأمر : منهج يفصل المراحل السبع لهذه الرؤية ..
٢٨ ـ الإحالة الى الجزء الأول : لأنه تأسيس للثاني .. ويتكاملان

القديمة « عِلْم" يحترز به عن الخطأ » •• وذلك مستوى السعي لتأليف جملة عربية مستقيمة ؛ فيها : المسند إليه والمسند وما يستدعيانه من روابط ؛ مثل جملتنا « علم المعـاني : مسطرة" » ؛

فعِلمُ : مسند إليه ؛ مبتدأ ؛ مضاف •• المعاني : مضاف، إليه •• مسطرة : مسند ؛ خبر المبتدأ ؛ •• ومثل هذه الجملة : سائر الجمل المبدوءة بالمسند إليـه ؛ وتدعى بالجمـلة الاسمية ••

وجمالُها : يُتوقّع من ثبـاتِ المعنى وحقانيته فيهـا ؛ فالجملة : بسيطة ، قريبة" ، يفهمها الأطفال ؛ لأنهم يعرفون دور المسطرة في تقويم الخطوط ؛ وهـذه الوظيفة : دائمة ، ثابتـة ، وعلى مستويات مختلفة ؛ فالمسطرة : لا تكون لتعويج الخطوط ، بل لتقويمها ؛ وعلم المعاني : محكوم له بهذه الصفة المسطرية •• لكنها صفة" تتموقع في الخطوط المستقيمة بالاستناد إلى المسطرة ؛ ثم تأخذنا الى سطور الكتابة المستقيمة بالاستناد إلى التدريب الناشىء من قاعدة المسطرة •• ومن سطور الكتابة : يرفعنا التفكير بالجملة إلى معنى الاستقامة الإنسانية بمعانيها المتعـددة الصريحة أو الكنائية ؛ كقول شيخ لتلامذته ، بعـد وصفٍ واقعيٍّ لسلوك من وصفهم بما يعنيه هـذا الشطر من قصيدته الشعبية شـبه العاميـة :

[« والخـطُّ أعوجُ يا شـباب [٢٩] » ••]

من هذا المستوى الشعبي العامي •• إلى مستوى الإعجاز البياني في الكتاب الموحى : تظل المسطرة ثابتة المعنى •• ولجلال هذا الثبات : يُقْسَمُ بالقلم وما يكتب بـه من الحروف مقترناً بصفة التسطير القويمة في ثانية [٣٠] سور التنزيل العزيز للدفاع عن خُلُقِ خاتم النبيين (ص) ••• ويُوصَف الكتاب المنزَلْ كله

٢٩ ـ الشيخ يوسف بشمان : من الدراويش الفقـراء .. وتروى له كرامات .. وقصيدته المخطوطة : غـاية في الطرافة لمراعاتها مقتضى حـال مجتمعه .. وشجاعتها في اللوم للتأديب ..
٣٠ ـ المقصود سورة « القلم » ؛ وهي الثامنة والستون وفق الجمع ..

بهدف المسطرة التقويمي المزيل للإعوجاج ، كما في السورة التاسعة والخمسين[٣١] ..

في جهود المجتهدين : تتألَّقُ المسطرةُ ؛ لأنها القاعدة التي تميِّزُ الاستقامة من الاعوجاج : فتشجع على تركه ؛ ولأنها تمكن من تحقيقِ الاستقامة التسطيرية والصراطية : فتمنح فرص التغيير والتطوير في بنـاء المباني ، على مستوى الكلام وعلى مستوى المقام ؛ لأن الناسَ أصدقاءُ لما يحسنون فهمه ومتبعون لمحاسنه : كما أنهم أعداء لما يجهلون ومخالفون لقيَمه .. وفي تحديدات المشاهير لعـلم المعاني : ما يؤكد رغبتَهم بمعرفة قواعد الكلام ومستويات المقام ؛ لتكون المطابقة بين الكلام والمقام : دليلاً بلاغياً ، أو مسطرة توزن بوظيفتها بلاغاتُ المتكلمين ؛ لأن « البلاغة هي بلوغُ المتكلّم في تأديةِ المعنى حدّاً له اختصاصٍ بتوفية خواصٍ التراكيب حقها [٣٢] » ..

إن حقَّ خواصِ التراكيب : هو معرفة قواعدِ بنائها وغايةِ معناها ..

وهذه المعرفـة بأحوالِ اللفظ وما يلفّه من المقاصد : هي المسطرة المسندة إلى علم المعاني المسند إليه ، في عبارتنا « علم المعاني مسطرة » ..

هـذه العبارة : ليست تعريفاً بلاغياً لعـلم المعاني ، وإن أثارتِ التعريف وقربته ؛ بل هي الشطر الأول من رباعية وضعت مع عنوان الكتاب العام في الجزء الأول ، من « علم المعاني ومقتضى الحال » ؛ وهي :

عـلم المعـاني مِسْطَرَهْ	وذروةٌ لِلبـرَرَهْ
مَن شـاءَ مِن حضرته ..	فلْيمتثِلْ ما أمـرَهْ

---

٣١ ـ المقصود سورة « الزمر » ؛ وهي (٣٩) وفـق الجمع .. ولاحظ « تفسيرنا المرتب » ؛ فهو : منهج لليسر التربوي .. وقد وضعت جدولا تامـاً للمقارنة بين أرقام النزول والجمع .. والقصد / آية ٢٨ / قرآناً عربياً غير ذي عوج..

٣٢ ـ الايضاح في علوم البلاغة ، للقزويني ص : ٨٥

وأذكّر بهــا : للربط بين بدايتي الجزئين ؛ فمقتضى حال المعاني في بلاغــة الإنشاء •• ومقتضى حــال المعاني في بلاغة الخبر : شعبتا الجذْع الأمّ لمقتضى الحلال •• وللملاحظة المبدئية المشيرة إلى نوعي الجملة ؛ فالبيتُ الأول مشكّل" وفق بناء الجملة الاسمية ، التي صدرها : المسند إليه « علمُ المعاني : مسطرة" ؛ •• هو : ذروة" للبررةِ » ••• والبيتُ الثاني : مركّب" وفق بنــاء الجملة الفعلية بصورتي فعل الشرط وجوابه « شاء •• فليمتثل » •• وبصورة الجملة الموصولية « أمرهُ » •• وبمجمل من العلائق بين الجمل الفعلية الثلاث وبين المسند إليه الذي يمثل صدر الجملة الشرطية الاسمية ، باعتبار المبتدأ الذي خبره في مجمل تراكيب الجمل التي تلته ؛ وكأننا نقول : شــائي الحَضرةِ : متمثل" أمر المعنى ؛ وبعبارة أقرب « الراغب ببلاغة المعنى أو بلوغه : مطابق لمقتضى حاله » •••

تذكرتنا هذه : تبصرة" ، أيضاً ؛ لأنهــا تـُري الواقع القريب لتركيب الجملة وفق مسطرة علم المعاني ، المترجمة بأبوابه في الكتاب القديم [٣٣] ؛ ولأنهــا تري الممكنَ من الارتقاء بالواقع حتى يبلغ المتكلم فيكون بين بلغاءِ المستويات العليا الذين وُصفوا بالبررة ؛ وهم المتوسعون في الإحسان ؛ وصفتهم جذابة إلى المعنى السّياقي في الكتاب العزيز ؛ فالبررة الكرام : هم الكـُتـّاب السّفرة[٣٤] ، الذين ينسخون الصحف المذكـّرة عن أم الكتاب ؛ لتحمل الطهر والإكرام إلى مَن تـُلقى إليهم ؛ فتكون الاستقامة بمستوياتها المـُبْـلِغَة إلى أحسن تقويمٍ يليق بالإنسان ••

---

٣٣ ـ أبواب المعاني ثمانية ، مدار بحثنا عليها ، وهي : أحوال الإسناد الخبري .. والمسند إليــه .. والمسند .. ومتعلقات الفعل .. والقصر .. والإنشاء .. والفصل والوصل .. والايجاز والإطناب والمساواة ..
وهي جميعاً تلخيص للقسم الثالث مــن أقسام « مفتاح العلوم » للسكاكي .. وتلك ثمانية أيضاً ، هي : الصرف .. النحــو .. المعــاني .. البيــان .. البديع .. الاستدلال .. العروض .. القافية ..

٣٤ ـ السورة الثمانون : عبس : ١٦/ كلا إنها تذكرة .. فمن شاء ذكره .. في صحف مكرمة .. مرفوعة مطهّرة .. بأيدي سفرة .. كرامٍ بررة ...

تأمل الأرقام العشرة في المحتويات [٣٥] •• وقِفْ مع عناصر أيٍّ منها •• وسيريك تأملك الذكي الهادىء مفارق الطريق •••

وقد يجتذبك أحد المفارق : فتدخل بين أشجاره كما دخل المتنبي « شِعبَ بَوّان » •• وقد تذكر « منزلة الربيع من الزمان » •• وقد تقول بعض أبياته ، مثل قــوله :

ملاعِبُ جنّةٍ لو ســار فيهــا سليمانٌ لســار بترجمانِ [٣٦]

وقد تطمح إلى القدرة المتصرفة بالأشياء والأحياء كما كان يفعل سليمان[٣٧] عليه السلام •• لكن ذلك يبــدأ من الطريق الذي فتح لك في حواسك الظاهرة والباطنة [٣٨] ••

هل ترى ما كان سليمان يراه : عيناً وقلباً ورأياً :

« فلمّا رآه مستقراً عنــده
قال : هــذا من فضل ربّي ••
ليبلوني : أأشكر أم أكفر [٣٩] •• ؟ !

أم أنّ رؤيــة « الحِجْرِيّين [٤٠] » لا يزال لها مؤيدون •• فقــد قيل في صفاتهــم :

---

٣٥ ــ ص (أ ــ د)
٣٦ ــ لاحظ الديوان ؛ قافية النون : ج ٢٥٢/٤
٣٧ ــ لاحظ سيرة النبي سليمان ومعجزاته في قصص الأنبياء
٣٨ ــ مسرح الجمال والحب والفن .. وفرح الصائمين والصائمات : كتابان للتدريب العملي على فتح طريق الرؤية في الحواس .. فتأمل فيهما ، إن شئت ..
٣٩ ــ سورة النمل ٤٠/٢٧
٤٠ ــ نسبة الى سورة الحجر ؛ ١٥ = ٧٥

« ولو فتحنا عليهم باباً مِنَ السّماء
فظلوا فيه يعرجون
لقالوا : إنما سُكِّرَتْ أبصارنا
بن نحن قـوم مسحورون[٤١] » ..

إنهما : رؤية .. ورؤية .. وشتان بين الرؤيتين ..

— 10 —

وهذه الطريق قد فتحت : إلى رؤية الواقع بصدق نية .. لأن العطية عـلى قدر النية [٤٢] .. وإلى رؤية قواعد التغيير بإخلاص عزيمة .. لأن : الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم [٤٣] ... وإلى رؤية الثبات التطوري في تجـديد نفي المعوقات .. لأن خـاتم النبيين (ص) : عـلـّم ثبـات الموقف تمسكاً بثبات الرؤية .. فقال لعمّه وللناس قالة التاريخ النهائية[٤٤] ..

ويُصرّح أصحاب نظريات الكشف والحقيقـة بما يُشعر بوعيهم الرؤياي الواثق ؛ فيقولون :

« تلك اللحظات الرؤياية : تقنع أصحابها بمثل العصمة ؛ لأنهم يتصلون عبرها بكليٍّ جوهريٍ ثابتِ الإبداع [٤٥] » ..

لذلك يكون فتح طريق الرؤية : هـدية هادية الى الإحسان لمن شـاء أن يتخذ الى ذلك سبيلاً [٤٦] ...

---

٤١ ــ الحجر ١٥/١٢ ــ ١٥
٤٢ ــ لاحظ : تاج الحياة الوصية ، ص ١٢١ ف ٥٦
٤٣ ــ لاحظ : سورة الرعـد ١١/١٣
٤٤ ــ لاحظ : السيرة النبوية المفصّلة ..
٤٥ ــ مبادىء النقـد : ص ٣٣٠
٤٦ ــ رتبة الإحسان عليا المراتب في الرؤيـة .. فانظر تفاصيل في « كتاب العرفان الرابع » من « فن المنتجب العاني وعرفانه » .. ص ٣٩٣ وأنظر في مصـادره الأولى : صحيـح مسلم ١/ ١٧ وفي صحيح البخـاري بحاشـية الفتـح ١/١٠٥ ــ ١١٠/ ..

وقد هممت أن أذكر تجارب شرق وغرب : مع دعاة ومبشرين وشيوخ وأبناء وبنات •• لكنني التزمتُ بما اقتضته الحال من معرفة الصمتِ والإشارة [٤٧] •• والله شـاكر عليم ••

— 11 —

بعـد كل شوط من أشواط السعي بين « الصفا والمروة » يطيب للحاجّ أن يتلوَ باتجاه الكعبة آية « الشاكر العليم » ؛ [إن الصفا والمروة من شعائـِرِ الله ؛ فمَن حج البيتَ ؛ أو اعتمر :فلا جُناحَ عليه أن يَطّوّفَ بهما ؛ ومَن تطوّعَ خيراً : فإن الله شاكـرٌ عليم [٤٨] » ••]

ألم يكن سعيُ أم اسماعيل بين الصفا والمروة : فتحاً لطريق « زمزم » •• كما كانت هجرتها في فلسطين ومن فلسطين : رؤية سُمّي لهـا فيها أبو الفصاحة وجـدّ العرب عند بئر الحيّ الرائي •• كما يؤرخ لرؤيتها سـفر التكوين من « الكتاب المقدس » •• ؟ [يَقيناً هاهنا رأيتُ قفا رآني •• أيها الربّ الـذي رآني •• وقال لها ملاك الربّ : ها أنت حامـلٌ وستلدين ابناً وتسمينه اسماعيل •• لأن الربّ قد سمع صوتَ شقائك •• لا تخافي : لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو •• قومي احملي الغلام وشدي يدك به : لأني سأجعله أمة عظيمة ••] [٤٩]

وسُمّيت البئرُ التي تمت الرؤية عنده : « بئرَ الحيّ الرآئي » ؛ وهي بين قادِشَ وبارَدَ •• والتفاصيلُ في سفر التكوين : لَذّةٌ لطلاب عـلم المعاني ؛ لأنهـا بلوغ « الحضرات وراء الكلمات [٥٠] » على نحوٍ تاريخيّ بأسلوب خبريّ

---

٤٧ ـ عند المعرفة الكاشفة : يلـزم العارف بالصمت .. وحديث « عرفت فالزم » مشهور .. وانظر « معرفة الله والمكزون السنجاري » : مجلد ١/ للدراسـة ص ١٥٩ .. ومجلد ٢/ للنصوص / ص ٢٠٣ / بيتان ٤١ ـ ٤٢

٤٨ ـ سورة البقرة : ١٥٨/٢

٤٩ ـ سفر التكوين : ٩/١٦ ـ ١٤/ و ١٧/٢١ ـ ٢٠ وقـد أضات نصوصاً توراتية وفق طبيعة الكتاب المقدس ذاتها في « ما وراء التوراة » .. وحاولت تقـريب الفكرة للسياسة بمنطق زماني متداول .. لاحظ : ما وراء التوراة وموسيقى أعصاب المنسيح (تشرين١٩/٤/١٩٨٨) وكذلك فصلها الثاني (ت ٢٥/٤/١٩٨٨).

٥٠ ـ هـذا تعريف تعارفنا عليه لعلم المعاني

واقعيٌّ ••• ولأنَّها تقـرر رؤىً ليست مخيَّلةً وإن كانت أعمـق وأعلى من التخييل[٥١] •• أليس بئر زمزم في مكة من الوقائع •• ؟ •• أليس بئر الحيِّ بـين قادِشٍ وبارِدَ من الوقـائع •• ؟ ••

— 12 —

فتحُ الطريق إلى الرؤية : كناية عن طفـلةٍ دُعيتْ « كارولينا » •• وقـد كانت حياتُها فصولاً من الغرائب •• أغـربها فصل البعث بعـد الموتِ[٥٢] •• وقد رأيتها بين يدي أمِّها تحاول وضعَها في مغارةٍ صخرية •• لكنهـا التصقت بيدي الأمِّ كأنها ممغنطة إليهما بجاذبية خفية •• وأخيراً أعادتها الأمُّ إلى حضنها •• وسَرَّتا في نزهة ربيعية تجددية •• كانت الطفـلة « كهلال طاغور [٥٣] » : تترك أمَّها أحياناً •• وتقفـز على الذرى بمحاذاة الأمِّ •• أحياناً بصورةِ غيمـةٍ •• وأحياناً بصورة لبوءة •• وعندما كانت أمها تعاني متاعب الصعود : سرعان ما تمرُّ تحت قدميها وتحملها كفرسٍ من الريح أو من الروح ••• ومن أعـذب تحوُّلاتها ما كانته في مدين شعيب ، خطيب الأنبياء [٥٤] •• لقد حرضته ليرفعَ منظاراً رئيتْ منه رفارف القمر •• وسُمِعَ منشدون يقولون :

وبالشـعيبيِّ أدعـى بـين شُـعبتها
وهـذه في هواها أشرفُ الرُّتب[٥٥] ••

---

٥١ ـ نظرية التخييل معلومة في عـالم المجاز
٥٢ ـ كان ذلك في فجر الجمعة السادس من رمضان ١٤٠٨
٥٣ ـ إشارة الى مجموعة طاغور : الهلال .. وفي ترجمة : القمر الفتي .. وانظـر منها : زهرة الشامبا .. ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨ من روائع طاغور
٥٤ ـ خطيب الأنبياء لقب شعيب .. كان يلقبه به خاتم النبيين (ص) .. لاحظ البيان والتبيين جـ ١/ ص ٢٠١
٥٥ ـ هذا البيت من « ربة الحجب » للمكزون السنجاري .. وقد حللت القصيدة واستخرجت منها نظرية الأدب الكشفي المباشر .. وصدر ذلك في « مزيج » مجـلد (١/٥٠ ـ ٢) .. عن الجامعة اليسوعية في ذكرى الأبوين العلامتين : ميشال الار .. وبولس نويا .. [Mélanges : 1984]

هــذه الهمسة الخاتمية من اللحظات الرؤياوية •• يصارعُها العقــل ليفهمها ويكيفها ويتكيف معها فيجدَ مكاناً ووظيفة لجميع تجاربه ومناشطه[٥٦] •• ولكل « كارولينا » إذا أحبّ : تقوم من الموت كوردة الصقيع التي صارت صبية الورود عند الربيع •• ولكن بفعل الحب كانت قيامتُها وجمالُ قامتها [٥٧] ••

معذرة لرفاق الرؤيــة وأحبة الطريق في : لبنان •• وايران •• وباريس •• ولنــدن •• وحرستا دمشق ومزتها •• وفي عامودة وواشنطن •• وفي استكهولم ولينينغراد••وتحية لأوقات المطابعِ ورفاقها في مشهد وليموج وفي بيروت وطهران•• وفي دمشق بالذات أتلو : « إن الله شاكر عليم [٥٨] » ••

٧ رمضان ١٤٠٨ = ١٩٨٨/٤/٢٣ (أ • أ • ع) ••

---

٥٦ ــ مبادىء النقد : لرتشاردز .. نظريات الحقيقة والكشف ..

٥٧ ــ إشارة إلى القيامة الوردية .. مقدمة فن الحيــاة / ص ٥ / .. ومختارات أب لأبنــاء .. قصيدة : وردة في الصقيع / ص ١٤٤ /

٥٨ ــ حديث الشكر للعلم : رائع الرؤى .. ولكنــه مرجأ الى حــين .. وأنا مــن التلهف والترقب كما يقول المتنبي :

الحب ما منــع الكــلام الألسنا	وألذ شــكوى عاشــق ما أعلنــا
نفت التوهم عنــه حــدة ذهنــه	فقضى عــلى غيب الأمــور تيقنــا
أرج الطــريق فما مررت بموضـع	إلا أقــام به الشذا مستوطنا ..
إني أراك مــن المكــارم عســكراً	في عســكرٍ ومن المعــالي معــدنا
فاغفر فدى لك واحبني من بعدها	لتخصني بعطيــةٍ منهــا : أنا ..

— ١ —

خبر جامعي

في

مفردات عـلم المعاني

في الفاتح من رجب (١٤٠١) ، الموافق الرابع من أيار (١٩٨١) : قـدّم مجلسُ التعليم العالي « قرار لجنـة الخطط الدراسية والمناهج » ؛ وفيه : تحديد لمفردات مقرر علم المعاني بعشرة فروع ؛

أ – مدخل إلى عـلم المعاني
ب – أحوال الإسناد الخبري
جـ – أحوال المسند والمسند إليـه
د – أحوال متعلقات الفعل
هـ – الإنشاء
و – القصر
ز – الفصل والوصل
ح – الإيجاز والإطناب والمساواة
ط – تحليل النصوص على ضوء علـم المعاني ، وربطها بمفهوم السياق ، في مجال التطبيقات البلاغية ..
ي – دراسة كتاب بلاغي قـديم ..

هُزَّتْ جذوعُ هذه الفروع : لتساقطَ رُطَبَها الجنيَّ •• وكان جنيُّها هذا الذي قدمته تحتَ العناوينِ المرقمة في الفهرست ، الذي جعلته مدخلاً لهذا الجزء •• كما جعلته ختاماً للجزء الأول ••

إن التأمل بعناوين الجزئين المجملة : يفتح للمتأمل طريق الرؤية ؛ ليرى بصياغة العنوان وتفريعاته : جواذب لما وراء الكلمات ؛ ومن أذكياء الملاحظين من انتبه للفظ « وراء » بين « الكلمات والحضرات » ، باعتبارنا « علمَ المعاني » « حضراتٍ وراء الكلمات » •• فقيل : كأنك تهمس « بالرائي » الذي ينفذ من الحروف إلى المعاني ، أو الذي يعود من سفره إلى حضرة المعنى بلفائف لفظية تنشيء وتخبر كلاماً جديداً مطابقاً لرؤيته •• وهذا من المثاني المبدعة : « كلمة وراء » •• أو « حضرة وراء » ••

هذا من ثمر الهز الخفيف الأول لجذوع زُرعتْ بعناوين الجزئين : مجملةً ومفصّلة ؛ فليجرب من يحب هزَّ « نخلة نفسه » لتمنحه رُطَب الوعي الجني ••

* * *

— 2 —

خبر اجتماعي
في
قيمة الكتب
من
ملكوت الكلمات والحجارة

قال أبو شَدوان : إن مكتبةَ العشرين ألف كتاب خير" من « مشروعِ دمَّرَ السكنيّ » كلّه لطلاب المعاني ؛ وإذا أصبحتْ رماداً في « عين الجديدة » من قرى لبنان : فإن الشاعر السويديّ واساك بقوله :

« ألا فَلْتُهْرِقْ جوهرَ صاعقتك على أكداسِ الكتب ؛

وَلْتُحرقنا على المحرقة ؛

وَلْتُمتنا حرقاً ....

سَنُولَدُ من رمادٍ ..

ألا إنّ في مِكنة الناس أن يحترقوا

أمّا فكرُ الإنسانِ فلَنْ يُحْرَقَ ....

فاطردْنا من الشرقِ والغربِ

فسنشيّدُ من الريحِ مدينتنا الفاضلة .. »

أُلقي هذا الخبرُ على مَطلٍّ من « قاسيون » ؛ وكان خلاصةً ، أو خاتمةَ حديثٍ دار بين لفيفٍ من الأصدقاء منهم المسؤول عن ادارة المدينة السّياحية الجديدة : أبو محمد ؛

كنا في الكتلة الثامنة من الجزيرة الخامسة عشرة ،نتفقد « النّرّاس » الذي كان انتظارُه : من أسباب فقدان « مكتبة عين الجديدة » ؛ فقد كان موعد استلامه قبل ثماني سنوات ؛

كان ذلك عصر الخميس ، الخامس عشر من رجب ١٤٠٨ ؛ الموافق للثالث من آذار ١٩٨٨ ••

ودّعتُ أصدقائي مُنشرحاً لما للكتبِ من صادق التقدير في نفوسهم ؛ وخطر لي أن أنقلَ هذا الخبرَ : لطلاب « علم المعاني » ، في تقديم كتابهم « مقتضى حال المعاني في بلاغة الخبر » ••• لعلّي بذلك : أفتح لهم « طريق رؤيةٍ جديدة » ؛ يتأملون منها : ما يُحزن وما يُفرح وما يتجاوز الحزن والفرح ••

إن دراسةَ الخبر : ستكشفُ لهم أن البلغاءَ يهتمون بكلامهم ليكونَ مطابقاً لمقتضى الحال ؛ حزناً وفرحاً ؛ إقامةً أو هجرةً ؛ فقراً وفقداً أو غنىً وإيجاداً ••• جهلاً ومرضاً أو وعياً وصحةً ••••• وأنهم يعتقدون أن « ملكوت الكلمات » هو الأعلى •• وإن كانت الحجارة ترتقي أحياناً لتصبح رموز مقاومة لمن يسببون حرائق الكتب ونزوح أصحابها منها ••

إن قراءة الخبر : ينبغي أن تنتقل إلى الحضرة •• ليكون الكشف عما يعانيه المظلومون من الظالمين •• وليكون التأثر والتأثير : حتى يصبح لقواعد البلاغة معنى الواقعية الصادق •• وحتى لا تكون ضياع وقت خرافي مع « افتراضات زيد وعمرو » •• [لاحظ : مقدمة تربية ستمائة مليون حكيم في شعر من الصين ••]
[وكذلك لاحظ : الجزء الأول من هذا الكتاب /ص ١٦/ ••]

جمال البلاغــة الممارسة

تجميل نصوصها

١ – مجاراةُ الأساور من فضة

٢ – أحوال المسند إليه

٣ – وأحوال المسند

٤ – مواضع المسند إليه وتوابعه في سياق « الحلم الدهري » ؛ مع الأبرار

٥ – ذوق المماثلة والتفاضل

« بَلِ اللهَ فاعبُدْ وكُنْ مِنَ الشاكرين » (سورة الزمر : ٦٦)
ولقد جاءتْ رسلُنا ابراهيمَ بالبُشرى ؛
قالوا : سلاماً .. قال : سلام .. (هود : ٦٩)
وحُلُّوا أساورَ من فِضّة .. (الإنسان : ٢١)

(سبيلي : نشيد)

روحُ الإنسانِ كروح الدهر : طويلهْ

وسبيلي في العالَمِ : كالأحلامِ جميلهْ

ووراءَ العالمِ : جنّاتٌ ؛ ومُربُّون كـرامٌ ؛ وطفولهْ

فحياةُ الأطفالِ ، بكلِّ الأحـوال : حـدائق موصولهْ

(من كتاب الأطفال والجمال ؛ لاحظ : الدهر ٢٩)

١٤٠٦/١٠/٦ = ١٩٨٦/٦/١٢

— 1 —

مجاراة الأساور من فضة

المسند إليـه : أصلُ الكلام كلـه ؛ فهو الفاعِلُ وما ينوب عنه في الجملة الفعلية ؛ وهو المبتدأ وما ينوب عنه في الجملة الاسمية •• وما سواه في الجملتين : تبَعٌ له ؛ فالفعل : هو المسند ؛ ومثله : الخبر •• وغـيرُ المسنداتِ : قيودٌ أو روابط [1] ••

هذه نظريـة علم المعاني في مباني الجمل ؛ وهي في العربية وغيرها واحدة ؛ إذ لا بد من أساس محوري يدور حوله الكلام ، وهذا المحور هو المسند إليـه ، الذي يحكم له بما يعنيه المسند والروابط التي تشتمل عليها الجملة ؛

ولبيان هذه النظرية البسيطة والجوهرية : نعمد إلى أمثلتها العليا ؛ لنعلَمَ أنها ممارسة حتى في الكلام عن الجنة ؛ ونبدأ من سورة الإنسان المسماة بالدهر أيضاً :

« عَالِيَهُمْ : ثِيابُ سندسٍ خُضْرٌ وإستبرقٌ ؛
وحُلُّوا : أساور مِن فِضَّةٍ ؛
وسقاهم ربُّهم شراباً طهوراً » ؛ ••

هذه الجمل الثلاث : تشكل الآية الأولى بعد العشرين من آيات السورة ؛ وهي ثلاثةُ نماذجِ الجملة العربية ؛

---

١ ـ لاحظ : ص ٤٠١ ـ ٤٠٢ من هـذا الكتاب .

الأولى : جملة اسمية ؛ والثانية : فعليـة مبنية للمجهول ؛ والثالثة فعليـة مبنية للمعلوم ••

تحليل الجملة الأولى « ثيابُ » : مسند إليه ، مؤخَّر عن مسنده ؛ لأنـه مبتدأ ؛ وخبره : مُتَعَلَّقُ الظرف « عاليهم » ، بمعنى « فوقهم » ؛ أو ملبوسة" ؛ ثيابُ سندسٍ خضر واستبرق ملبوسُهم ؛ أو ملبوسة" فوقهم ••

والكلمات الجميلة الباقية : قيود ؛ ومعنى السندس : الحرير ؛ والاستبرق : ما غلظ من الديباج ، فهو البطائن للثياب السندسية ••

هذا نموذج الجملة الاسمية ؛ وفي النحو نقول : المؤلفة من المبتدأ والخبر ؛ وما ينوب عنهما ••

وتحليل الجملة الثانية : وحُلُّوا أساور من فضة ••

الواو : مسند إليه ؛ لأنهـا نائب فاعل ؛

حُلّ : مسند ؛ لأنه الفعل الذي يطوف بفاعله ••

أساور من فضة : قيود الجملة الموضحة لنوع التحلية ••

وهذا نموذج الجملة المبنية للمجهول ••

والنموذج المبني للمعلوم في الجملة الثالثة : وسقاهم ربُّهم شراباً طهوراً ••

ربُّ : مسند إليه ؛ لأنه فاعل الفعل ••

سقى : مسند ؛ لأنه الفعل المطيع لفاعله ••

شراباً طهوراً ••• والضميران المضاف إليهما : قيود ••

هذا التحليل البلاغي لمكونات الجملة : يعرفنا حدود كل الجملة ؛ مسنداً إليه ؛ ومسنداً ؛ وقيـداً أو رابطاً أو فضلة : تزيد المعنى وضوحاً •• ومعرفة الحدود :

توضحها مبادىء التجميل ؛ وتضبطها ؛ وتعلم قِيَمها المعنوية المتولدة من صور العلائق ؛ وقد رأينا مثالاً لذلك في تحليل خطبة « سقيا عامة » [١] ••

تمكن العودة إلى مبادىء التجميل الممارسة في خطبة « السقيا » ، على نحو نموذجيٍّ •• وتمكن المجاراة مع أسلوب التحليل التجميلي هذا ، عبر نصوص أخرى ••

أُظهر ما أعني بالمجاراة عَبر جملةٍ واحدة : ثم أحيل إلى فقرة أو آية •• ثم إلى نصٍّ أو سورة ••

الجملة الوسطى من جمل الآية هنا : هي المنطلَق ؛ فكيف نجاريها في معرفة مكونات جمل تشبهها ؟

وحلوا أساور من فضة ••

إن كلمة « أساور » : هي الكلمة المحورية المميزة في الجملة ؛ فكيف وردت في جمل من آيات أخرى في سور القرآن الكريم ؟

وردت هذه الكلمة : ثلاث مرات أخرى ؛ في سورة الكهف •• وفي سورة الحج •• وفي سورة فاطر ••

في الآية الأولى بعد الثلاثين من سورة الكهف : متابعة الحديث عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الآية الثلاثين ؛ وهذه المتابعة تقول :

« أولئك : لهم جناتُ عدنٍ ؛
تجري من تحتهمُ الأنهارُ ؛
يُحَلَّوْنَ فيها مِن أساورَ مِن ذَهَبٍ ؛
ويَلْبَسونَ ثياباً خُضراً من سندسٍ واستبرقٍ ••
متكئين فيها على الأرائك ؛
نعم الثوابُ ؛ وحسنت مرتفقاً •• »

---

١ ـ ج ١ من هذا الكتاب ؛ ص : ٨١ ـ ١٠٢ .

الفرق بين جملة الأساور هنا وجملتها في سورة الإنسان : بتغيير صيغة الفعل ، الذي هو المسند ؛ فهو هنا : فعل مضارع •• وهناك : فعل ماض •• وكلاهما : مبنيٌ للمجهول ••• وفرق آخر : بمادة الأساور ؛ فهي من فضة بجملة الإنسان •• ومن ذهبٍ بجملة الكهف ••• وبقي المسند إليه ؛ هو الضمير : واو الجماعة « حلوا •• يحلون » •••

في الآية الثالثة بعد العشرين من سورة الحج : نرى الأساور ثالثة ، بسياقٍ جديد :

« إن الله : يُدخِلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ،

جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ••

يُحلَّونَ فيها من أساور من ذهبٍ ولؤلؤاً ••

ولباسُهم فيها حرير •• »

جملة الأساور هنا : مثلها في سورة الكهف ؛ زيد على قيودها « ولؤلؤاً » ••

في الجملة الثالثة بعد الثلاثين من سورة فاطر : إعادة لجملة الحج تماماً في سياقٍ جديد يتابع الآية السابقة :

« جناتُ عدنٍ يَدخلونها ؛
يُحلَّون فيها من أساور من ذهبٍ ولؤلؤاً ؛
ولباسُهم فيها حرير » ••

هذه المجاراة بين آيات الكهف والحج وفاطر ، وبين آية الإنسان أو الدهر : تفتح ممكنات التوسع في المجاراة بين الجمل المحلَّلة هنا وبين جمل سورة الدهر كلها ؛ وقد أخرجت إخراجاً ذا خصوص في سياق التنزيل المترجم : نضعه مصوراً لإجراء التجربة مع إشارات تفسيرية •• ونذكر لإنجاح المجاراة : بكيفية تحليل خطبة السقيا في « رسالة النداء » ، بتمامِها [1] •••

---

١ ــ انظر الجزء الأول ، ص : ٨١ ــ ٩٨

— 2 —

احوال المسند اليــه

شعر الباحثون بأولية المسند إليه وتأسيس الكلام بــه : فصالوا وجالوا في أبحاثهم حول خصائصه المتجلية من مواقعه في بنـاء الجملة ؛

١ – فإذا حذفَ : فسَّروا أسباب حذفه ، وعللوا بلاغة ذلك ••• وإذا ذكر : قاموا بالعمل ذاته ، ومثال الحذف والذكر : الآية الأولى من سورة الإنسان :

« هل أتى على الإنسان « حينٌ » من الدهر ؛

لم يكنْ ••• شيئاً مذكوراً » ••

حينٌ : مسند إليه مذكور في الجملة الأولى ؛

الإنسان : مسند إليه محذوف في الجملة الثانية ، لأنه المبتدأ الذي صار اسم « يكن الإنسان شيئاً » ، وحذفــه : اختصاراً ، لأنه ذُكِرَ « مجرورَ على » في الجملة السابقة •••

٢ – وإذا جاء المسند إليه معرّفاً : تبينوا نوع تعريفه ، وألحقوا بذلك النوع ما تفيده معــاني النحو ؛

أ – فقد يكون المسند إليه ضميراً : هُمُ حَلّوا من الشرف أعلاه ؛
ب – وقد يكون اسماً علماً : أحمدُ يدري كلَّ سعيٍ لأجله ؛
جـ – وقد يكون اسماً موصولاً : قال الذي عنده علمٌ من الكتاب ؛
د – وقد يكون اسم إشارة : أولئكَ آبائي فجئني بمثلهم ••

هـ – وقد يُعرَّف بالإضافة : بنو مطرٍ أسودٌ يوم اللقـاء ..

و – وقد يعرف المسند إليه باللام : إشارة الى معهود ؛ أو إرادة لنفس الحقيقـة ؛

١ – « وليس الذكر كالأنثى » .. فإشـارة « ال » إلى معهود في القصة القرآنية ؛ أي وليس الذكر الذي طلبته أم مريم : كالأنثى التي وهبت لهـا ؛ فقد وهبت أم المسيح .. وهذه اللام : تلقب بلام العهد الخارجي ؛ ومن مظاهرها : الصريحي ؛ والكنائي ؛ والعلمي ؛

فالصريحي ، مثل الآية المتقدمة ؛ لأن الإشارة إلى معهودٍ معلوم بين المتكلم والمخاطب ؛ ومثله : جاءني ضيف من قبيـلة مجهولة ، فألهمت إكرامَه ؛ فحفظ الضيفُ الجميلَ وكان ما كان مـن رد الجميل ؛ فالضيف : معرف بما يُسمَّى « لام العهد الصريحي » ؛ لتقدم ذكره صراحة ..

ولام العهـد الكنائي ؛ مثل : « ربِّ إني نذرت لك ما في بطني محرراً » ؛ والشاهد بالاسم الموصول « ما » ؛ فقـد يكون ذكراً ؛ وقد يكون أنثى ؛ لكن وصفه « محرراً » : كنى عن الذكر ؛ لأن المفهوم من التحـرير : أن يعتق المولود ويوقف على خدمة بيت المقدس ؛ ومثل هـذا لم يكن إلا للذكور ؛ لذلك اعتبر اسم « ما » : كنايـة عن الذكر باعتبار تخصيص الخدمة بالذكور لا بالإناث .. وهذا الاسم : ذكر صراحة قبل ما تلاه في المثال الأول « وليس الذكر كالأنثى » فالذكر : معرف بأل العهدية ؛ وباعتبار « ما » وُصِفَ العهدُ التعريفي بالكنائي...

ولام العهـد العلمي مطلقاً ؛ أو الحضوري تقييداً ؛ كالقول لغائب معهود ، دون ذكر سابق : أحسن المعلم واجبه ؛ أو القول لحاضر ألقى محاضرة ؛ فقيـل : أحسن المحاضر بحثَه ...

٢ – الدينار خير من الدرهم ؛ والوقـاية خير من العلاج ..

ومن عبارة الإيضاح بهذا المعرف لإرادة نفس الحقيقة :

« والمعرف باللام قد يأتي لواحد : باعتبار عهديته في الذهن لمطابقة الحقيقة ؛ كقولك « أدخل السوق » ؛ وليس بينك وبين مخاطبك سوق معهود في الخارج ••• وقد يفيد الاستغراق ؛ وذلك إذا امتنع حمله على غير الأفراد ، وعلى بعضها دون بعض ؛ كقوله تعالى : إنَّ الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا » •• والاستغراق ضربان : حقيقي كقوله تعالى : « عالم الغيب والشهادة » ؛ أي كل غيب وشهادة •• وعُرفي : كقولنا : جمعَ الأمير الصاغة ؛ إذا جمع صاغة بلده أو أطراف مملكته فحسب ، لا صاغة الدنيا ••• ولا تَنافي بين الاستغراق وأفراد اسم الجنس ؛ لأن الحرف إنما يدخل عليه مجرداً من الدلالة عن الوحدة والتعدد ؛ ولأنه بمعنى كل الإفرادي ، لا بمعنى كل المجموعي ، أي معنى « قولنا » كل فرد من أفراد الرجال لا مجموع الرجال ؛ ولهذا امتنع وصفه بنعت الجمع ؛ وللمحافظة على التشاكل بين الصفة والموصوف أيضاً ••

« فالحاصل : أن المراد باسم الجنس المعرف باللام : إما نفسُ الحقيقة ، لا ما يصدق عليه من الأفراد ، هو تعريف الجنس والحقيقة ، ونحوه عَلَمُ الجنس ؛ كأسامة ••

« وإمَّا فرد معين ، وهو العهد الخارجيُّ ، ونحوه العلَم الخاصُّ : كزيد ••

« وإما فردٌ غيرُ معيَّن ؛ وهو العهد الذهني ، ونحوه النكرة : كرجل ••

« وإما كل الأفراد ؛ وهو الاستغراق ؛ ونحوه لفظ كل مضافاً إلى النكرة ، كقولنا : كل رجل •• » (إيضاح : ١٢٤)

« وقد شكك السكاكي على تعريف الحقيقة والاستغراق بما خرج الجوابُ عنه مما ذكرنا ، ثم اختار – بناءً على ما حكاه عن بعض أئمة أصول الفقه من كون اللام موضوعة لتعريف العهد لا غير – أن المراد بتعريف الحقيقة تنزيلُها منزلةَ المعهود بوجه من الوجوه الخَطَابية ؛ إما لكون الشيء حاضراً في الذهن ؛ لكونه

محتاجاً إليه عن طـريق التحقيق أو التهكم ، أو لأنه عظيم الخطر معقود به الهمم على أحد الطريقين ، وإما لأنه لا يغيب عن الحس على أحد الطريقين لو كان معهوداً .

وقال : الحقيقة من حيث هي هي لا واحدة ولا متعددة ؛ لتحققها مع الوحدة تارةً ومع التعدد أخرى ، وإن كانت لا تَنْفَكُّ في الوجود عـن أحدهما ، فهي صالحة للتوحُّد والتكثُّر ، فكون الحكم استغراقاً أو غيرَ استغراق ؛ إلى مُقْتَضى المقام ، فإذا كان خَطابياً مثل « المؤمن غِرٌ كريم والفاجر خَبٌّ لئيم [1] » حُمِلَ المُعَرَّفُ باللام — مفرداً كان أو جمعاً — على الاستغراق ، بعلة إيهام أن القصد إلى فرد دون آخر مع تحقق الحقيقة فيهما ترجيحٌ لأحد المتساوِيَيْنِ ، وإذا كان استدلالياً حُمِلَ على أقـل ما يَحْتَمِل ، وهو الواحدُ في المفرد ، والثلاثـةُ في الجمـع » .

أفسحت لعبارة الكتاب القـديم في تعريف اللاّم : لنبقى معاً من المقـدمة ؛ ولخصوصيات اللام المؤثرة في فروق دلائل المعنى .. وإن كان لكـل ما يتعلق بالمسند إليه : خصوصه ودلائله إلى المعنى ؛ ألم نقل : إنه المبتدأ والفاعل ؟ ! ..

٣ — وإذا نُكِّرَ المسند إليه : كان لتنكيره دلائل معنوية ؛ فتنكيره : إمّا للإفراد ؛ كقوله تعالى « وجاء رجلٌ من أقصى المدينة يسعى » ..(القصص : ٢٠).. أي جاء فرد من أشخاص الرجال ... وقد يكون تنكيره : للنوعية ؛ كقوله تعالى : « وعلى أبصارهم غِشَاوةٌ » .. (البقرة : ٧) .. أي نـوع من الأغطية غـير ما يتعارفه الناس ، وهو غطاء التعامي عن آيات الله .. (إيضاح : ١٢٦) ..

وفي الإيضاح أمثلة لتنكير غير المسند إليه ؛ لهذا الغرض المعنوي : إفرادياً ونوعياً ... كما في أمثلته : أدلة أغراض التنكير الأخرى التي تفهم من السياق ، مثل « التعظيم والتهويل ، أو التحقير ، أو للتكثير ، أو للتقليل » .. (١٢٦—١٢٩)..

---

١ — بمعنى قابلية المؤمن للتصديق .. وبمعنى خداع الفاجر .

٤ — وكما يحذف المسند إليه ويذكر ؛ وكما يُعرَّف وينكَّر : كذلك يوصف ؛ فيكون الوصف تفسيراً له : كقوله تعـالى « هو الله الخالق البارىء المصور » ؛ (الحشر : ٢٤) •• أو البسملة : بسم الله الرحمن الرحيم ؛ فالأسماء الحسنى : تصف المسند إليه وتفسِّره وتمدحه بهـذه الخصائص التي يحملها كل منهـا •• فعندما نقول : باسم الله •• قد يقول قائل : ومن هذا الذي تُسَمّون باسمه وإليه تعيدون نسبة الأعمال ؟ •• فيكون جوابه : هو الرحمنُ الرحيم •• فباسمه الغني بالرحمة الذاتية والغيرية : نسمي ؛ ليَهدينا صراط النعمة ؛ وليُهديَنا من بركات رحمته ونِعمِه التي لا تحصى •••• فوصف المسند إليه : متعدد الأغراض ؛ وتفهم من السياق ؛ فقد يكون الوصف بياناً له كقوله تعالى : « لا تتخذوا إلهين اثنين ؛ إنما هو إلهٌ واحد » (سورة النحل : ٥١) ••

« قال الزَّمَخْشَري : الاسمُ الحاملُ لمعنى الإفرادِ والتثنيةِ دالٌ على شيئين : على الجِنْسِيَّة ، والعدَدِ المخصوص ، فإذا أريدَ الدلالة على أن المعنيَّ به منهما ، والذي يُسَاقُ له الحديثُ ؛ هو العددُ ؛ شُفِعَ بما يؤكّده ، فدلَّ به على القصد إليـه ، والعناية بـه ، ألا ترى أنك لو قلت : « إنما هو إله » ولم تؤكّدْهُ بواحدٍ ، لم يحسنْ ؛ ويُخيلَ أنك تُثبِت الإلهيَّةَ لا الوحدانيَّة ؟ » .

(الإيضاح : ١٣١) ••

ومن أمثلة التقريب لغرض الوصف في بيـان المسند إليه ؛ قولهم : « قدمَ صديقُك خالد » •• فالمسند إليه : صديق ؛ ووصفه : خالد ؛ وهذا الوصف باسم مختص بالصديق : فسَّر المسند إليه وبيَّنه ••

ومثل هذا الغرض المعنوي : تعلل أغراض توكيد المسند إليه ؛ أو الإبدال منه ؛ أو العطف عليه ؛ أو توسط ضمير الفصل بينه وبين المسند ؛ فتكتسب تلك الأغراض غرضيتها من معـاني النحو المعلومة للتوكيد والبدل والعطف والفصل ومن السياق ؛ وانظر ملياً في أمثلة المعاني والنحو :

أ — التوكيد لدفع التوهم : عرفتُ أنا ؛ وعرفتَ أنتَ ؛ وعرف زيـدٌ ،

زيدٌ ••• أو التوكيد لدفع توهم عـدم الشمول : عرفني الرجلان كلاهما ؛ أو الرجال كلهم •• فكل ، هنا : للتأكيد المانع أن يكون اللفظ المقتضى له مستعملاً في غيره •• وقد تكون للتأسيس : إذا أفادت الشمول من أصله •••

ب – الإبدال من المسند إليه : اهـدنا الصراط المستقيم ، صراطَ الذين أنعمتَ عليهم ••• فالإبدال : لغرض الزيادة في التقرير والإيضاح •••

ج – العطف على المسند إليه : جـاء القومُ حتى خالد •• فكأنه قـال : جاء القوم وجاءَ خالد •• لكن « حتى » : أفادت التدريجَ لتفصيل المسند مع اختصار •••

د – الفصل المتوسط بين المسند إليه والمسند : « زيد هو المنطلقُ ؛ أو هو أفضلُ من عمرو ؛ أو هو خـيرٌ منه ؛ أو هو يذهب » •• أما الغرض من الفصل فهو تخصص المسند إليه به •••

ربما تبـدو هذه التفاصيل : مثيرة للقارىء حسب مقتضاه ؛ فإن كان ممن يتأملون بهدوء : اجتذبه سر البيان عن المعنى الذي يؤتي ثماراً جديدة كلَّ حين ؛ ويتجدد بشؤون مظاهر جديدة ••• وإن كان ممن هم مشغولون بقضايا السرعةِ اليوميةِ والتعميم : نفر من الدقة والتخصيص ؛ وبكل حال : إن المسند إليه يتموج مثل بحر ؛ فيرى صيادو المعاني خيراً كثيراً : إن عرف أو نكر ؛ إن ذكر أو حذف ؛ إن وصف أو أتبع ••• إن قدّم أو أخّر ••

ه – وضعت الملاحظة السابقة قبل الدخول إلى تقديم المسند إليه وتأخيره ؛ فقـد عرضه القزويني في كتاب « الإيضاح » بثلاث وثلاثين صفحة ؛ أظهـر فيها أغراض التقديم وأغراض التأخير •• كما أظهـر أمثلة من خروج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر : كوضع المضمر موضع المظهـر •• ووضع المظهر موضع المضمر •• ووضع الإشارة موضع المضمر •• والانتقـال بين المتكلم والمخاطب والغائب بما يسمى الالتفات عنـد علماء المعاني •• والأسلوب الحكيم ، أي تلقي

المخاطب بغير ما يترقب •• والتعبير بالماضي عن المستقبل •• والتعبير عن المستقبل باسمي الفاعل والمفعول •• والقلب ، أي عكس التشبيه للمبالغة ، مثل : كأن لون أرضه سماؤه ؛ يريد : كأن لون سمائه لغبرتها : لونُ أرضه ؛ فعكس التشبيه للمبالغة •• (الإيضاح ص : ١٣٥ - ١٦٨) ••

إن التأمل بما عرض في هذه الصفحات حول تقديم المسند إليه وتأخيره ، وبما يشبهها في كتب النحو : يُظهر المسند إليه أصل كل كلام ، وإليه مرجع كلٍّ كلام ؛ وما تنويعات التقديم والتأخير : إلا افتنان بحرية المسند إليه واجتذاب أهل الذوق والتوق ليكونوا أتباعَه بحرية الإبداع ، وفق مقتضى حال الأنفس والموضوعات ؛ •• ولا بأس من الإصغاء لعبارة الإيضاح الافتتاحية حول التقديم •• ثم حول بلاغة الالتفات :

(ا)

« وأما تقديمه فلكون ذكره أهَمّ ، إما لأنه الأصلُ ، ولا مقتضى للعدول عنه ، وإما ليتمكن الخبر في ذهن السامع ، لأن في المُبْتَدَأ تشويقاً إليه ، كقول أبي العلاء المعري :

والذي حارت البَرِيَّةُ فيه حَيَوانٌ مُسْتَحْدَثٌ من جماد

هذا أولى من جعله شاهداً لكون المسند إليه موصولاً كما فعل السكاكي » •• (ص ١٣٥) ••

(ب)

« واعلم أن الالتفات من محاسن الكلام ، ووَجْهُ حسنه - على ما ذكر الزمَخْشَرِي - هو أن الكلام إذا نُقِلَ من أسلوب إلى أسلوب ؛ كان ذلك أحسنَ تَطْرِيَةً لنشاط السامع ، وأكثر إيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد •

وقد تختص مواقعه بلطائف كما في سورة الفاتحة ؛ فإن العبد إذا افْتَتَحَ حَمْدَ مَوْلاه الحقيقِ بالحمد عن قلب حاضر ، ونفس ذاكرة لما هو فيه ، بقوله « الحَمْدُ لله » الدالّ على اختصاصه بالحمد ، وأنه حقيق به ؛ وجد من نفسه لا مَحَالَة مُحَرِّكاً للإقبال عليه ، فإذا انتقل نحو الافتتاح إلى قوله ، « رَبِّ العَالَمينَ » الدالّ على أنه مالِكٌ للعالمين ، لا يخرج منهم شيء عن مَلَكُوته ورُبُوبيَّتِه ، قوي ذلك المُحَرِّك ، ثم إذا انتقل إلى قوله : « الرَّحْمَنِ الرَّحيم » الدالّ على أنه مُنْعِم بأنواع النعم جَلائِلِها ودَقَائِقِها ، تضاعفت قوة ذلك المحرك . ثم إذا انتقل إلى خاتمة هذه الصفَاتِ العِظام ، وهي قوله : « مَالِكِ يومِ الدِّينِ » الدالّ على أنه مالكٌ للأمر كله يومَ الجزاء ، تناهتْ قوته ، وأَوْجَبَ الإقبالَ عليه . وخطا به بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة في المُهِمَّات » .. (ص : ١٦٠ – ١٦١) ..

قد يكون من بلاغة الالتفات : أن أذكّر بالملاحظة التي سبقت تناول « تقديم المسند إليه وتأخيره » .. وبالملاحظة التي سبقتها في مقدمة القسم الأول من هذا الكتاب (ص ٧ – ٨) ؛ لأن الملاحظتين : تحرضان نوعي القراء ؛ ليتمسك ذو المواهب الظاهرة بخير مواهبه الذي يثمر بالاهتمام والاحترام .. ولينتبه الفريق الآخر إلى قواعدنا التحريضية ليكون شيئاً مذكوراً بين ذوي المواهب ؛ فمن قواعدنا :

أ – من أراد استطاع ..

ب – من اقتدى بالبطل اهتدى ..

جـ – الطرف الحاد من العقل أولى بالاستخدام ..

د – فرِّغ قلبك من غيري أمْلأ قلبك من خيري ..

هـ – جرِّب رياضة الوقوف على أكتاف العمالقة ..

و – لئن يهديَنَّ الله بك إنساناً واحداً : خيرٌ لك مما تطلع عليه الشمس وتغرب .. فلتكن نفسك ..

ز – أحببْ لغيرك ما تحبّه لنفسكَ ..

ح – هل أنت أقل من نحـلة ؟ .. إفعلْ مثلَها ..

هذه القواعد : وُضِعَتْ هنا لنبحثَ عن مكوِّناتِ الجملة فيهـا ، وعن وضع المسند إليه : هل هو مذكور أم محذوف ؟ .. هل هو نكرة أم معرفة ؟ .. هل هو موصوف أم متبوع ؟ .. هل هو مقدَّم أم مؤخَّر ؟ .. هل هو خارج عن مقتضى الظاهر أم داخـل فيه ؟

يقول آدم سمِث ، في كتابه « ثروة الأمم [1] » : [ص ٨٦ – ٨٧]

« إن امرأً عاطلَ المواهب العقلية : لهو أدنى طبقة ، وأحط قدراً من الجبان ؛ وهو مخلوق شاذ الخلقة ، مشوه الطبيعة الإنسانية .. ومن البديهي أن الأفـراد في أمـة متعلمة راقية : أيسر قياداً ، وألطف معشراً من أفراد أمة جاهلة منحطة ؛ إذ يشعر كل فرد منهم بشخصيته فيحترم نفسه ؛ ويلقى الاحترام من رؤسائه كما يتلقى من الرؤساء احترامهم » ؟ !

أليس هذا الكلام من بلاغة الالتفات ؟ .. ما أحوال المسند إليه فيه ؟ ! وما هي أحوال المسند المصاحبة لأحوال المسند إليه ؟

---

١ – وضع هذا الكتاب في المرتبة الثالثة من كتب وصفت بأنها « غيرت وجـه العالم » ؛ وهي في مختارات « روبرت ، ب داونز » : ستة عشر كتاباً ؛ ترتيبها فيه : « الأمير .. العقل السليم .. ثروة الأمم .. قواعد ازدياد السكان .. العصيان المدني .. كوخ العم توم .. رأس المال .. تأثير القوة البحرية على التاريخ .. المركز الجغرافي للتاريخ .. كفـاحي .. حركة الأجرام السماوية .. الدورة الدمويـة .. القواعـد الرياضية .. أصل الأنواع .. تفسير الأحـلام .. النسبية .. نظـرياتها الخاصة والعـامة » ..

هـذه الكتب : مسندات لأصحابها ؛ فهـل تبحث عن المسند إليه الذي كتب كلاً منها ؟ .. إن ذلك من بلاغة الالتفات الثقافي .. فليجرب المجدون .. !

— 3 —

أحـوال المسند

إن البحثَ في أحوال المسند إليه : تستلزم البحث في أحوال المسند ؛ لأن المسند : حكم للمسند إليـه وتقدير" ؛ ولأن المسند إليه : مُقَدَّر محكوم" له بمضمون المسند ومعنـاه ..

لذلك يكون البحث في أحوال المسند : اهتمام" للمسند إليه ؛ لأنـه أصلُ كـل كلام ؛ وما سواه : تفتيحات وفتوحات منه وإليه ؛ ولذلك تأخـذ أحوالُه أسماءها المشتركة مع أحوال المسند ، أو الطابعة لهـا بطابعها : فيقولون : ذكر المسند وحذفه ، كما قالوا : ذكر المسند إليه وحذفه .. كذلك بقيـة الأحوال ؛ ولو أصغينا إلى التنبيه الذي ختم به القزويني أحوال المسند : لفهمنا منه اعترافاً مفيداً ؛ فبعد ستة وعشرين صفحة من الأمثلة والإيضاحات ، سبقتها ثلاث وثلاثون صفحة أخرى في أحوال المسند إليه ، قـال :

« تنبيه : كثير مما في هـذا الباب والذي قبله غير مختص بالمسند إليـه والمسند ، كالذكر والحذف ، وغيرهما مما تقدمت أمثلته ؛ والفَطِنْ : إذا أتقـن اعتبار ذلك فيهما لا يخفى عليه اعتباره في غيرهما » .. (ص ١٩٤) ..

قيمة هذا التنبيه في إحالته إلى الفطنة والإتقان ؛ لأن عـلم المعاني والبلاغة كلهـا : علم الفطنة وذوق الإتقان ؛ والتبادل ممكن بين « ذوق الفطنة وعـلم الإتقان » ، كما فصَّلنا في « رسالة الإعجاز » ..

ولأغراض تأسيسية : أحافظ على جوهري التعبير القديم عنـد الباحثين القـدامى ؛ ففي ذلك ما يشبه المحافظة على بذور الورد : بنيَّةِ التفتيح في أوان الزرع والتفتح ؛ فماذا يقول القزويني في « الإيضاح » عن أحوالَ المسند ؟

بدأ القزويني بحال حذف المسند فقال :

« أما تركُه فلِنحو ما سبق في باب المُسْنَدِ إليه ، من تَخْييل العدول إلى أقوى الدليلين ، ومِن اختبارِ تنبُّهِ السامع عند قيام القرينة ، أو مقدار تَنَبُّهِهِ . ومن الاختصار والاحتراز عن العبث بِناءً على الظاهر ، إما مَع ضِيقِ المقام كقوله [1] :

نَحْنُ بما عِندنا ، وأنت بما عندك راضٍ ، والرَّأيُ مُخْتَلِفُ .

أي نحن بما عندنا راضون ؛

وإمَّا بدون الضِّيقِ ، كقوله تعالى : « واللهُ وَرَسُولُهُ أحَقُّ أنْ يرضوهُ » [2] عَلى وَجْهٍ ، أي والله أحق أن يرضوه ، ورسوله كذلك ؛ ويجوز أن يكون جملةً واحدةً وتوحيدُ الضمير لأنه لا تَفاوُتَ بَيْنَ رِضَا اللهِ وَرِضَا رَسُوله ، فكانا في حُكْمِ مَرضيٍّ واحد .

واعلم أن الحذف لا بدَّ له من قرينة ، كوقوع الكلام جواباً عن سؤال : إما محقق ، كقوله تعالى : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّموات والأرْضَ ؟ لَيَقُولُنَّ الله » [3] وقوله « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماء مَاءً فَأحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ؟ لَيَقُولُنَّ الله » [4] وإما مُقَدَّرٍ نحو قوله تعالى في : قِراءَةِ مَنْ قَرَأَ « يُسَبَّحُ لَهُ فيها بالغُدُوِّ والآصالِ رِجَالٌ » [5] وقوله : « كَذَلِكَ يُوحي إليكَ وإلى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ العَزِيزُ الحَكِيم » [6] ببناء الفعل للمفعول ..

---

١ ــ البيت لشاعر جاهلي ، هو : قيس بن الخطيم .
٢ ــ سورة التوبة : ٦٢
٣ ــ سورة لقمان : ٢٥
٤ ــ سورة الزمر : ٢٨
٥ ــ سورة المائدة : ٧٣
٦ ــ سورة العنكبوت : ٦٣

ثم ثنى بحال ذكر المسند وأغراض ذلك ؛ ومع الحالين ، « الحذف والذكر » : أشار إلى ما مرَّ به في باب المسند إليه ؛ وهذه عبارته :

وأما ذكـره ؛ فإما لنحو ما مرَّ في باب المسند إليه ، من زيادةِ التقـرير ، والتعريضِ بغباوة السامع ، والاستلذاذِ والتعظيم ، والإهانةِ وبَسْطِ الكلام ، وإما ليتعين كونُه اسماً ؛ فيستفادَ منه الثبوت ، أو كونه فعـلاً ، فيستفادَ منه التجدُّد أو كونه ظرفاً ، فيورِثَ احتمالَ الثبوت والتجدد ، وإما لنحو ذلك .

قال السكاكي : وإما للتعجب من المسند إليه بذِكْرِه ، كما إذا قلت « زيد يقاوم الأسـد » مع دلالة قرائن الأحوال ، وفيه نظـر ؛ لحصول التعجب بدون الذكر إذا قامت القرينة .

وأما إفراده فلكونه غيرَ سَبَبِيٍّ ، مع عدم إفادة تَقَوِّي الحكم ، كقولك : زيدٌ مُنطلق ، وقام عمرو ، والمرادُ بالسببي نحوُ زيد أبوه منطلق .

وأما كونه فعلاً فللتقييد بأحد الأزمنة على أخْصَرِ ما يمكن مع إفادة التجدد.

وأما كونه اسماً فلإفادة عدم التقييد والتجدد ، ومن البيِّن فيهما قول الشاعر :

لا يألف الدِّرهمُ المضروبُ صرَّتَنا ... لكنْ يمرُّ عليها وهو مُنْطلِقُ[1]

أو كلَّما ورَدَتْ عُكاظَ قبيلةٌ ... بعثوا إليَّ عَرِيفَهُم يتَوسَّمُ ؟! [2]

إذ معنى الأول على انطلاق ثابت للدرهم مطلقاً من غير اعتبار تجدده وحدوثه ، ومعنى الثاني على توَسُّمٍ وتأمُّلٍ ونظرٍ يتجدَّد من العريف هناك .

---

١ ـ المضروب : المطبوع المعد للتعامل . الصرة : ما تصر فيه الدراهم وتجمع والبيت للنصر بن جؤية .

٢ ـ « عكاظ » : اكبر أسواق العرب في الجاهلية . والعريف : القيم بأمر القوم . ويتوسم : يتفرس ، ويتأمل والشاعر طريف بن تميم .

وأما تقييدُ الفعل بمفعول ونحوه ، فلتربيَة الفائدة ، كقولك : ضَربْتُ ضرباً شديداً ، وضَربْتُ زيـداً ، وضربْتُ يومَ الجمعة ، وضَربْتُ أمامَك ، وضربتُ تأديباً ، وضربت بالسوط ، وجلستُ والسَّارِيةَ ، وجاء زيـدٌ راكباً وطاب زيدٌ نفْساً ، وما ضَرَبَ إلا زيدٌ ، وما ضَرَبْتَ إلا زيداً •

والمقَيَّدُ في نحو « كان زيد قائماً » هو « قائماً » لا كانَ •

وأما ترك تقييده فلمانع من تربية الفائدة •

وأما تقييدهُ بالشرط فلاعتبارات لا تُعْرَف إلا بمعرفة ما بين أدواتـه من التفصيل • وقـد بيَّن ذلك في علم النحو • ولكنْ لا بُدَّ من النظـر ههنا في « إنْ » و « إذا » و « لو » •

أما « إنْ » و « إذا » فهما للشرط في الاستقبال ، لكنَّهما يفترقان في شيء ، وهو أن الأصل في « إنْ » أن لا يكونَ الشرطُ فيها مقطوعاً بوقوعه ، كما تقول لصاحبك : « إنْ تُكْرِمْني أكْرِمْكَ » وأنت لا تقطع بأنه يكرمُك • والأصل في « إذا » أن يكون الشرط فيها مقطوعاً بوقوعه ، كما تقول : « إذا زالت الشمسُ آتيكَ » •

وأما « لَوْ » فهي للشرط في الماضي مع القطع بانتفاء الشرط ، فيلزم انتفاء الجزاء ، كانتفاء الإكرام في قولك : « لو جئتني لأكرمتُك » ولذلك قيـل : هي لامتناع الشيء لامتناع غيره •

وفي معالجة أي حال من أحوال المسند : تظهر الحاجة لذكر أحوال المسند إليه ؛ لأن التلازم استدعى ذلك ؛ ولاحظ :

أ ـ « وأما تخصيصه بالإضافـة ، أو الوصف : فلتكون الفائدة أتـم ؛ كما مر » ؛ وأما ترك تخصيصه بهما : فظاهر مما سبق » ••

ب ـ « وأما تأخيره : فلأن ذكر المسند أهم ؛ كما سبق » •• وأما تقديمه :

فإما لتخصيصه بالمسند إليه ؛ كقوله تعالى : « لَكم دينكم ولِيَ دينِ » .. وإما للتنبيه من أول الأمر : على أنه خبر لا نعت ؛ نحو قول حسان في مدح الرسول (ص) بإحدى الروايات :

لـه هِمَمٌ لا منتهَى لكِبارها وهِمَّتُه الصغرى أجلُّ من الدهر

وإما لأغراض أخرى ، مثل : التفاؤل ؛ والتشويق لذكر المسند إليه ..

جـ – وفي حالي التعريف والتنكير : نسمع العبارة ذاتها « على ما مرَّ في المسند إليه » .. وهذا السِّياق :

وأما تنكيره فإما لإرادة عدم الحصر والعهد ، كقولك : زيدٌ كاتبٌ ، وعمرٌو شاعرٌ . وإما للتنبيه على ارتفاع شأنه أو انحطاطه على ما مر في المسند إليه ، كقوله تعالى : « هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » أي هُدًى لا يُكْتَنَهُ كُنْهُهُ .[البقرة : ٢]

وعبارته في التعريف : مطوَّلة ؛ فتعريف المسند لإفادة السامع حكماً يعلمه .. أو لازم حكم بين أمرين .. أو حكم التعريف بلام الجنس .. وأجمل ما في هذه الأحوال : عبارته المعلِّلة لسلام الملائكة على ابراهيم (ص) ورده عليهم ، في سياق التبيان عن كون المسند جملة ؛ يشير إلى ظرفيتها وشرطيتها ، فيقول : « وشرطيتها : لما مر .. وظرفيتها : لاختصار الفعلية ؛ إذ هي مقدَّرة بالفعل على الأصح » ...

وللاعتذار عن التطويل يقول السكاكي : « وحق هذا الاعتبار : تطويل الكلام في المسند ، وإلاَّ لم يحسن ذلك الحسن » .. (١٩٤ ...)

أفنقبل العـذر من أجـل الحسن ونسمع عبارة التعريف ؟ ! !

وأما تعريفه فلإفادَةِ السامع إما حكماً على أمر معلوم له بطريق من طرق التعريف بأمر آخر له كذلك ، وإما لازمَ حكم بيِّنٍ بين أمرين كذلك .

تفسير هذا أنه قد يكون للشيء صِفتان من صِفات التعريف ، ويكون السامع

عالماً باتصافه بإحداهما دون الأخرى ، فاذا أردت أن تخبره بأنه متصف بالأخرى ؛ تَعْمِد إلى اللفظ الدَّالِّ على الأول ، وتجعله مبتدأ ، وتعمد إلى اللفظ الدال على الثانية ، وتجعله خبراً ، فتفيد السامعَ ما كان يجهله من اتصافه للثانية ، كما إذا كان للسامع أخٌ يسمَّى زيداً ، وهو يعرف بعينه واسمه ، ولكن لا يعرف أنه أخوه ، وأردت أن تُعَرِّفَه أنه أخوه ، فتقول له : « زيد أخوك » سواء عرف أن له أخاً ولم يعرف أن زيداً أخوه ، أو لم يعرف أن له أخاً أصلاً .

وإن عرف أن له أخاً في الجملة ، وأردت أن تُعيِّنَه عنده ؛ قلت : « أخوك زيد » .

أما إذا لم يعرف أن له أخاً أصلاً ؛ فلا يقال ذلك ؛ لامتناع الحكم بالتعيين على مَنْ لا يعرفه المخاطِب أصلاً ؛ فظهر الفرق بين قولنا : « زيد أخوك » . وقولنا : « أخوك زيد » .

ثم التعريف بلام الجنس قد لا يفيد قَصْر المُعَرَّفِ على ما حُكِمَ عليه به ، كقول الخَنْسَاء [1] :

إذا قَبُحَ البُكاءُ عَلى قَتِيلٍ
رَأَيْتُ بُكاءَكَ الحَسَنَ الجَمِيلا

وقد يفيد قَصْرَه ؛ إما تحقيقاً ، كقولك : « زيد الأميرُ » إذا لم يكن أميرٌ سواه . وإما مبالغةً لكمال مَعناه في المحكوم عليه ، كقولك : « عمرٌو الشجاعُ » أي الكاملُ في الشجاعة ، فتُخرِج الكلامَ في صورةٍ تُوهِمُ أن الشجاعةَ لم توجَدْ إلاّ فيه ؛ لعدم الاعتداد بشجاعة غيرِه ؛ لقصورها عن رُتْبة الكمال .

ثم المقصورُ قد يكون نفسَ الجنس مطلقاً أي من غير اعتبار تقييدِه بشيءٍ كما مر ، وقد يكون الجنسَ باعتبار تقييده بظرفٍ أو غيرِه كقولك : هو الوَفيُّ

---

١ ـ الخنساء هي تماضر بنت عمرو بن الشريد الصحابية الشاعرة البكاءة على أخيها صخر .

حين لا تظن نفس بنفس خـيراً ؛ فإن المقصور هو الوفاء في هذا الوقت ، لا الوفاءُ مطلقـاً ، وكقول الأعْشَى :

هوَ الواهبُ المائَةَ المُصْطَفا ةَ : إمّا مَخاضاً ، وإمّا عِشارا [1]

فإنه قَصَرَ هبةَ المائةِ من الإبل في إحدى الحالتين ، لا هِبَتَها مطلقـاً ، ولا الهبـة مطلقـاً .

وهذه الوجوهُ الثلاثة – أعني العهدَ ، والجنسَ للقصر تحقيقاً ، والجنسَ للقصر مبالغةً – تمنع جوازَ العطفِ بالفاء ونحوها على ما حُكِم عليه بالمُعَرَّف . بخلاف المنكَّر ؛ فلا يقال : « زيدٌ المنطلقُ وعمرٌو » . ولا « زيد الأمير وعمرٌو » ولا « زيدٌ الشجاعُ وعمروٌ » .

هـ – « وأما كونُه جملةً فإما لإرادة تَقَوِّي الحكم بنفس التركيب كما سبق ، وإما لكونه سبباً ، وقد تقدم بيان ذلك .

وفعليتها لإفادة التَّجَدُّدِ ، واسميتها لإفادة الثبوت ؛ فإن من شأن الفعلية أن تدل على التجدد ، ومن شأنَ الاسمية أن تدل على الثبوت .

وعليهما قولُ ربِّ العِزَّةِ : « وإذا لَقُوا الّذِينَ آمَنُوا قَالوا : آمَنَّا ، وَإذا خَلَوْا إلى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا : إنَّا مَعَكُمْ [2] » .

وقوله تعالى : « قالُوا سَلاماً ، قالَ سَلاَمٌ [3] » إذ أصلُ الأول : نسلم عليك سلاماً ، وتقدير الثاني سلامٌ عليكم ، كأن ابراهيمَ عليه السلام قصدَ أن

---

١ – المخاض : الخوامل من النوق ، واحدتها خلفة – بفتح فكسر ففتح – من غير لفظ الجمع ، والعشار : المناسب من معانيها لما في البيت من تفصيل أنها الوالدات من الإبل ، واحدتها عشراء كنفساء زنة ومعنى ، الأول في الإبل ، والثاني في النساء ، والأعشى قائله ، هو أعشى قيس بن قيس ، الشاعر الجاهلي الوصاف للخمر .
٢ – البقرة : ١٣
٣ – هود : ٦٩

يُحيِّيَهم بأحسن ما حَيَّوْهُ به ؛ أخذاً بأدب الله تعالى في قوله تعالى : « وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا (١) » .

وقد ذُكِرَ له وجهٌ آخرُ فيه دِقة ، غيرَ أنه بأصول الفلاسفة أشبهُ ، وهو أن التسليمَ دعاءٌ للمُسَلَّم عليه بالسلامة من كل نقص ، ولهذا أطْلِق ، وكمالُ الملائكة لا يُتصوَّر فيه التجدد ؛ لأن حصوله بالفعل مقارِنٌ لوجودهم ، فناسب أن يُحَيَّوْا بما يدل على الثبوت دون التجدد وكمال الإنسان مُتَجدِّدٌ ؛ لأنه بالقوة ، وخروجُه إلى الفعل بالتدريج ، فناسَبَ أن يُحَيَّا بما يدل على التجدُّد دون الثبوت ، وفيه نظـــر » ..

ما ذكــره القزويني من مقاربة أصول الفلاسفة يلفِت القارىء المثقف ثقافة عصرية ؛ فيتنبَّه إلى مقتضى الحال الجامع بين وجهات الفكر سعياً إلى مطابقة اللفظ للمقتضى ؛ وهذه الالتفاتة نحو الفلسفة : تجتذب انتباه الفلسفة إلى البلاغة ، أيضاً ؛ لأن الفيلسوف الباحث عن ثبات الحق : لا يستغني عن العبارة الموصلة للحـــق ؛ فإذا عَرفَ الفيلسوف « كمال الملائكة الذي لا يُتصور فيه التجدُّد » : ألا يحتاج عبارة أبي الأنبياء التي حيتهم بجملةٍ اسمية تـــدلُّ على هذا الثبات ؟ .. وإذا لم يهتد إلى العبارة المطابقة لمقتضى كمال الملائكة : ألا يمسُّ الحقَّ بضيمٍ جـاء من عدم الانسجام مع الجمال البلاغي ومبادىء تجلّيه ؟

المسألة أوسع من تلميح القزويني : لأنهـــا حركت أوتاراً بلاغيـــة وفلسفية ودينيَّة ، عبر عبارة الوحي المصورة لوعي ابراهيم والملائكة معاً ؛ فالعبارة المنزلة : فُصِّلَتْ على طبيعة ابراهيم الإنسانية التي تقتضي التجدد « قالوا : سلاماً » .. وعلى طبيعة الملائكة التي تقتضي الثبات .. « قال : سلام » ....

ويبقى السؤال : أليس المعنى هو ذاته الواحدة ، ولو تجلّى بمظاهر التعبير المنوعة عند الفيلسوف والأديب والنبيِّ جميعاً ؛ شرط أن تطابق العبارة مقتضى الحـــال ؟ ! !

---

١ ـ النساء : ٨٦

— 4 —

مواضع المسند اليه وتوابعه
في
سياق الحلم الدهري

من السلام المتبادل بين الملائكة وابراهيم : نجيءُ إلى سورة « الإنسان » أو سورة « الدهر » ؛ لنرى المعاني في المباني ...

فهمُ المعاني في سورة مُوحاةٍ ، أو أيٍّ عملٍ أدبيٍّ ذي طبيعةٍ فنيَّةٍ : يقتضي من المتفهِّم معرفةَ الطبائع المعنوية ، التي للخبرِ والإنشاء وما يتعلَّقُ بهما من أساليب المعنى .. فكيف نقرأ سورة الإنسان .. أو سورة الأنبياء .. بهذا المقتضى ؟

مقتضى الحال : يُقدِّمُ معرفة عناصر العلم الذي به تتفهم .. فما هي تلك العناصر أو القواعد اللازمة للفهم ؟

ومقتضى الحال : يبصِّرُ ، أيضاً ، بقصد القواعد ؛ فهي : لتكون مقترنة بحيوية الكلام الإنسانيِّ ، مُرسَلاً أو مُتَلَقَّى ؛ والقصد في المرسَلِ من الكلام ، هنا ، ما كان ذا منشأٍ إنشائيٍّ ، شعراً كان أم نثراً .. أمَّا المتلقَّى : فالقصد به ، هنا ، ما كان ذا منشأٍ إلهيٍّ كالوحي .. فالموحى من الكلام : أُلقيَ إلى الأنبياء ؛ لمقاصِدَ إنسانية .. فهو إنساني المتَّجه ..

ولسورة « الإنسان » ، في القرآن الكريم ، صورةُ تأليفٍ : تحمِلُ معنى .. وهذا المعنى : يُطلُّ من أبنيةِ الآيات ، وفق قواعِدَ من علم المعاني ؛ فيها : الخبر وفيها الإنشاء ؛ فيها : القصر وفيها الوصل ...

مجمَلُ الفنِّ التأليفيِّ في السورة : يتقدَّمها بمقدمة وتفصيل وخاتمة ؛
المقدِّمةُ ، بعد البسملة ، ثلاث آيات ؛ فاتحة أولاها : إنشاء طلبي بصورة استفهام …

والتفصيل : شعبتان ؛ أولاهن : آية واحدة ؛ تخبر عمَّا أعدَّ للكافرين …
والثانية : ثماني عشرة آية ؛ تخبر عن مصيرِ الأبرار في الجنة ، ولماذا صاروا إليه ..

والخاتمة : تسع آيات ؛ توضح : خصوص الهدى النبوي .. وعموم الرسالة القرآنية .. والعلائق الإلهيَّة بالإنسان كلّه ؛ مشيئةً أولى ، ومصيراً نهائياً ..

سورة الإنسان : إحدى وثلاثون آيةً ؛ أجمع المفسِّرون على هذا العدد ؛ وسعوا إلى تفسيرها : بمعرفة قراءاتها ، وحجَّةِ كل قارىء بقراءته ؛ وبمعرفة المعاني اللغوية لمفرداتِها ؛ وبمعرفة العلائق النحوية بين مكونات جملِها ؛ وبمعرفة أسباب نزولها التاريخيَّة .. والتمسوا المعنى الواضح لقصد السورة من وراء كلِّ ذلك ..

من وجهة علم المعاني : تتبيَّنُ ما لم يتبينوه في التفاسير ؛ والأمر أوضحُ من التأكيد ؛ لأن قراءة الآية الأولى في سائر التفاسير بالمقارنة مع ما يجده القارىء هنا : تظهر ، حالاً ، أن قواعِدَ علم المعاني تعلِّمُ من السورة مذاقاتٍ جديدة ، فيها ما في التفاسير وليس في التفاسير ما فيها ؛

في تجميلِ الآية الأولى : تكشف لنا جملتان ؛ الأولى : مستفهمةٍ ..
والثانية : نافية ..

هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر .. ؟

لم يكن شيئاً مذكوراً .. !

في الجملة الأولى : سبع كلمات .. وركناها كلمتان منها : « أتى حينٌ » ؛

فهما الفعل والفاعل ؛ وفي مصطلح علم المعاني ، الفعل ، هو : المسند •• والفاعل ، هو : المسند إليه ••

وفي الجملة الثانية : أربع كلمات ظاهرة ؛ وكلمة متخفية ، هي ضمير الإنسان الذي ذكـر في الجملة الأولى ؛ وهذه الكلمة المحذوفة تشكل ركن المسند إليـه في الجملة ؛ سواء أحسبت جملةً فعلية أم جملة اسمية ••

فإذا قلنا : « كان الإنسان » •• بمعنى : وُجِدَ •• كان المسندُ فعلَ الكينونة التام •• وكان الإنسانُ مسنداً إليه •••

وإذا قلنا : الإنسان شيءٌ ، بمعنى : أنه وُجِدَ وفق مشيئة المنشىء البديع •• كان « الإنسان » : مسنداً إليه ؛ لأنـه المبتدأ •• وكان « الشيءُ » : مسنداً ؛ لأنـه الخبر ••

والمسند إليه ثم المسند : أبَوا هذا العلم ، الذي يسمونه « علم المعاني » ، كما هما : ركنا الجملة ، فعلية واسمية ؛ [لذلك قال علماء البلاغة ودارسوها :

« ثم المقصود من علم المعاني : منحصِرٌ في ثمانية أبواب ؛

أولها : أحوال الإسناد الخبري
وثانيها : أحوال المسند إليه
وثالثها : أحوال المسند
ورابعها : أحوال متعلقات الفعل
وخامسها : القصر
وسادسها : الإنشاء
وسابعها : الفصل والوصل
وثامنها : الإيجاز والإطناب والمساواة » ••

(إيضاح : ٨٥)

فالأبواب الثلاثة الأولى : تنفتح على المسند والمسند إليهما بالتسمية الصريحة.. والأبواب الخمسة الأخرى : لا تخرج جملة من جملها عن أصول التكون من مسند ومسند إليه ؛ بل هي أساليب افتنان في إظهار علائقهما ودلائلهما ...]

وآيةُ الإنسان الأولى ، بجملتيها : تجتذب إلى تذوق أبوابِ علم المعاني بصورة عملية ؛ وبهذا التذوق : ندرك أجزاء الجملة العربية ومسمَّياتها ؛ ولنلاحظ كيفية التأليف الجملي :

هل أتى على الإنسانِ

حينٌ من الدهر

لم يكن شيئاً مذكوراً ..

إننا أمام إحدى عشرة كلمة ؛ بل هي : اثنتا عشرة ؛ وكلها تشكل جملتين ، هما : أتى الإنسان .. لم يكن شيئاً مذكوراً .. فماذا نقول عن باقي الكلمات ؟

سبع كلمات : تشكل جملة فعلية تامة ..
وخمس كلمات : تشكل جملة اسمية ناقصة ..
وفي كلتيهما : المسند والمسند إليه ..

المسند إليه في الفعلية الأولى : اسمٌ هو « حينٌ » أي وقت من أوقات الدهر ؛ واسميته ظرفية زمانية .. ومثله : أتى الربيعُ ؛ فالربيع : مسند إليه ، وهو الفاعل ... والمسند في كلتيهما : الفعل أتى ...

أما المسند إليه في الجملة الثانية ، فهو : ضمير محذوفٌ ، تقديره « هو » ، يرجع إلى الاسم المذكور ، « الإنسان » .. ومثله بالمعنى : كانَ الربيعُ محبوباً ... فالربيع : مسند إليه ؛ لأنَّه اسمُ كان ؛ وكان : فعل ناقِصٌ ، يرفَعُ المبتدأ في الجملة الاسمية ، وينصبُ خبرها .. ولذلك قيل ، في النحو ، إن كان وأخواتها : تنسخ جملة المبتدأ والخبر .. ومثلها جملة إن وأخواتها : إنما بصورة معاكسة ؛

فالحروف المشبهة بالفعل : تحدث النسخ ، أي التغيير ، على نحو آخر ؛ فتنصب المبتدأ وترفع الخبر ؛ كالقول : إن الربيعَ محبوبٌ •• ليتَ الإنسانَ خالدٌ •• وحركات المبتـدأ والخبر تختلف عند قولنـا : كان الربيعُ محبوباً •• يصـيرُ الإنسانُ خالداً ••

أما المسند في هذه الجملة الثانية : فهو الفعل الناقص المضارع من « كان » ؛ باعتبارها جملة فعلية ، يصورها فعل التكوين ••• « لم يكن شيئاً مذكوراً » •• وهو باعتبار آخـر : خبر الفعل الناقص « شيئاً » ؛ فشيء : أصله خبر المبتدأ ، قبل دخول كان الناسخة عليه ؛ والأصل : « الإنسان شيءٌ » ؛ مبتدأ وخبر ••

وقد أحصيت مواضع المسند والمسند إليه بأحد عشر موضعاً ؛ منها : ستةٌ للمسند ؛ وخمسة للمسند إليـه ؛

فمواضع المسند :

١ - الفعل ، نحو : « أتى » من جملة « هـل أتى على الإنسان حـينٌ من الدهـر » ••

وسائر الأفعال في السورة : تظهر مسندية الفعل ، مثل : خلقنا الإنسان •• هديناه السبيل •• ويُطعمون الطعام على حبِّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً •• فالأفعال : خلق •• هدى •• يطعمون •• مسندات ••

٢ - خبر المبتدأ ، نحو : نحن خلقناهم ؛ (آية : ٢٩) •• ومثل : الله بديع السماواتِ والأرض •• بديع : مسند ؛ فهو خبر المبتدأ •• وجملة « خلقناهم » مؤولة إلى خبر مفرد ؛ « نحـن خالقوهم » ؛ خالقوهم : خبر المبتدأ ؛ وهـو : المسـند ••

٣ - ما أصله خبر المبتدأ ؛ ومنه : خبر كان وأخواتها ، المنصوب •• وخبر إن وأخواتها ، المرفوع ، والمفعول الثـاني للأفعال التي تنصب مفعولين أصلهما

مبتدأ وخبر •• والمفعول الثالث للأفعال التي تنصب ثلاثة مفاعيل ، ويمكن تحرّي الأمثلة على ذلك في سورة الإنسان ، أو غيرها ؛ ومنها :

أ – ما دام الوعيُ مسعداً ؛

ب – كأن التفكُّرَ مجدِّدٌ ؛

جـ – وجدتُ الصداقةَ صدقاً ؛

د – أعلمتكَ النجاحَ مستمراً ؛

٤ – المصدر النائب عن فعل الأمر ، مثل : وبالوالدين إحساناً •• أي : أحسن بالوالدين وإليهما ••

٥ – المبتدأ المكتفي بمرفوعه ، مثل : أمنتبهٌ أنتَ لكلامنا ؟ ••• الهمزة : للاستفهام •• منتبه : مبتدأ بصيغة اسم الفاعل •• أنت : ضمير منفصل ، مبني على الفتح في محل رفع فاعل لاسم الفاعل ، وقد أغناه عن الخبر •• لكلامنا : جار ومجرور ؛ ومضاف ومضاف إليه ••

٦ – اسم الفعل ، مثل : شتان ، بمعنى : افترق •• وهيتَ ، بمعنى : هَلُمَّ • وفي سورة يوسف :

وقالت : هَيْتَ لكَ ؛
قال : مَعاذَ الله •• (٢٤)

أي دعته إلى ما لا يصحّ لهما فاستعاذ بالله من دعوتها ، أي استجار بالله ؛ لينقذه من تلبية طلبها باسم الفعل « هيت » ، أي : أقبل •• هَلُمَّ •• هيّا ••

هذه مواضع المسند ، أو صوره التي يأتي بها في الكلام كلّه ؛ ويمكن تفقد سورة « الإنسا ن» وسورة « الأنبياء » للتعرف إلى هذه الصور المسندية وألوانها المختلفة •••

أما مواضع المسند إليه ، فهي :

١ — فاعل الفعل التام وشبهه ؛

ومثال الفاعل : « حينٌ » ، في الجملة الأولى « أتى على الإنسان حين » •• وغيره في جمل فعلية أخـرى كالتي ذكرنا لأفعالها •• مثل : خلقنا الإنسان •• فالفاعل ، هو الضمير « نا » ؛ وهو المسند إليه •• ومثل : ويُطعمون الطعام •• والفاعل ، هو الضمير الجماعي ، واو الجماعة •••

ومثال فاعل شبه الفعل التام : ما يكون فاعلاً لاسم الفاعل ، كالذي ذكرناه بقولنـا : أمنتبهٌ أنت لكلامنا ؟ •• أو ما يكون فاعلاً للصفة المشبهة ، مثـل : أنت الحسن وجهه ؛ فالحسن : صفة مشبهة باسم الفاعل « حاسن » •• وجهـه : فاعل الصفة المشبهة ؛ بمعنى أن الحسن قد أسند إليه ؛ ولذلك فهو : مسند إليه ، أي عليه ألقيَ الحسن واستندَ حتى ظهر لناصره ، فوصفه بما وصفه •••

٢ — نائب الفاعل ، مثل : يُقدَّرُ المنتبهُ ؛ « فالمنتبه » وهو نائب الفاعل : قـد أسند إليه التقدير ؛ فهو المسند إليـه ؛ ومثل ذلك ما نجـده في السورة : « ويُسْقَوْنَ فيها كأساً كان مزاجُها زنجبيلاً » ؛ فالواو : نائب الفاعل ؛ وهو المسند إليـه ؛ أسند إليه السقي ، وتلقاه ••

٣ — المبتدأ الذي له خبر ، نحو : الحيـاة عطاءٌ من الله الحيِّ الكريم ؛ عطاء : خبرٌ ؛ والحياة : مبتدأ ، أسند إليه العطاء ؛ فهو مسند إليه •

٤ — مرفوع المبتدأ المكتفي بـه ؛ مثل : ما منسيٌ ذكرك ؛ ذكرك : نائب فاعل مرفوع لاسم المفعول « منسي » ، الذي هو مبتدأ ، لكنه اكتفى بمرفوعه ، فاعتبر بمثابة الفحل ؛ ومرفوعه : المسند إليه ••

٥ — ما أصله مبتدأ ؛ ومنه : اسـم كان وأخواتها ؛ واسم ان وأخواتها ؛ والمفعول الأول للأفعال التي تنصب مفعولين ؛ والمفعول الثاني للأفعال التي تنصب ثلاثة مفاعيل ؛ ولاحظ الأمثلة في مواضع المسند ، بعنوان : ما أصله خبر المبتدأ ••

أ - ما دام الوعيُ مسعداً

ب - كأن التفكّر مجدّد"

جـ - وجدت الصداقةَ صدقاً

د - أعلمتك النجاحَ مستمراً ..

ولاحظ في جُمل السورة ، مثل :

كان مزاجُها كافوراً ..
كان مزاجُها زنجبيلا ..
وكان سعيُكم مشكوراً ..
كان اللهُ عليماً حكيماً ..
إنّ هذه تذكِرةٌ ..

وانتبه للمسند إليه في الجملة الأخيرة ؛ فهو : اسم إشارة ، لا تظهر عليه حركة الإعراب ؛ فهو في محل نصب إن .. كأنما يقال : إن رسالتنا تذكرة ..

والخلاصة لما تقدم : تتكون الجملةُ من مسند ومسند إليه ؛ وهما ركناها ، وما سواهما في الجملة يُعتبر : قيداً ، أو فضلة .. و لابأس من تحديد القيود ؛ فهي سبعة أنواع :

١ - أدوات الاستفهام والشرط ؛
٢ - أدوات النفي ؛
٣ - أدوات الجر ؛
٤ - المفاعيل الخمسة : المفعول به ؛ والمفعول المطلق ؛ والمفعول فيه ؛ والمفعول لأجله ؛ والمفعول معه ؛
٥ - الحال ؛
٦ - التمييز ؛
٧ - التوابعُ الأربعة ؛ وهي : النعت ، والعطف ، والتوكيد ، والبدل ..

هذه الزيادات لتقييد العلائق بين المسند والمسند إليه وإظهار ماتيسره صور الزيادة من فَضلةِ المعاني ، أو فضائلها المخصَّصة ؛

ففي الجملة الأولى من الآية : نلاحظ قِيَم هذه الكلمات الزائدة في إكساب المسند والمسند إليه فضائلَ المعنى •• ويكفي أن نلاحظ : المسند والمسند إليه وحدهما •• ثم في إطار الزيادة ؛ لندرك الفرق المعنوي ؛

أتى •• حينٌ ••

هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر ••

أتى حين : مسند ومسند إليه ؛ وهذه جملة تامة •• لكن الكلمات الخمس المزادة عليهما : منحت العلاقة تخصيصاً •• ومنحت الكلامَ اتجاهاً ••

فالحينُ : مسند إليه ؛ وهو : المخبر عنه ، أو المستفسَر عنه ؛ ويُسمَّى : المحكوم عليه ؛ والنسبة التي بين المسند إليه والمسند ، تسمى : الإسناد ••

أتى : مسند ؛ وهو المحكوم به ؛ أو المستفهم به ؛ والمسند : قد يكون له متعلقات ، إذا كان فعلاً ، أو ما في معناه ، مثل : المصدر ، واسم الفاعل ، واسم المفعول ، والصفة المشبهة ، واسم التفضيل ، والظرف ••

ونلاحظ البناء القرآني للجملة :
أتى على الإنسان ••

على : حرف جر •• الإنسان مجرور بالحرف •• والتعلق بالفعل : أتى •• وقيمة هذا التعلق بالقيد : جعل معنى الإتيان مخصوصاً بالإنسان لا بالحجر أو البحر •• وهذا فضلُ معنى أضافه القيد المتعلق بالمسند ••

ومثل هذا الفضل المعنوي : لحق المسند إليه من القيد المخصَّص ؛

حينٌ من الدهر ••

من الدهر : جار ومجرور ؛ والتعلق كذلك بالفعل ؛ وكأنما يقال :

أتى : على الإنسان •• من الدهر •• حين ••

وبين المسند إليه والمسند : هذه النسبة ، أو هذا الإسناد الخبري المؤدى ؛ ليوصل طبيعة العلاقة بين الزمن المحدود بالحين وبين الإنسان الذي أتى عليه ذلك الحين ••

والقيد الثالث ، هو : أداة الاستفهام ، « هل » ؛ وقد غيَّرت وجهة الخبر إلى الإنشاء ؛ وجعلت التعبيرَ أسلوب استفهام ؛ لكنه استفهام بهل ؛ وهل : يُسأل بها عن التصديق وحده ؛ أي عن حكم الجملة ؛ أو ما يدعى : النسبة بين المسند والمسند إليه ؛ واتجاه الاستفهام إلى الفعل ؛ « هل أتى » ؟

فالسؤال عن فعل الإتيان : هل حصل •• أم لم يحصل •• والجواب : نعم ، إذا حصل •• ولا ، إذا لم يحصل ••

وفي الجملة القرآنية : ذهب المفسرون إلى حصول هذا الفعل ؛ فقد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً •••

ومن المفسرين : من يحدِّد الحين بأربعين سنة ؛ والإنسان بآدم أبي البشر ؛ ويقول : « كان في ذلك الحين مصوراً من طين لا يذكر » •• أو يحدد الحين بمدة الحمل ؛ ويقصد بالإنسان : الجنس الإنساني كلّه •• ومن صيغ التفاسير قولهم :

« كان الإنسان تراباً وطيناً ، إلى أن نفخ فيه الروح ؛ عن الزجاج ••

« وعلى هذا : فهل ، هنا ، استفهام يراد به التقرير ؛ قال الجبائي : وهو تقرير على ألطفِ الوجوه ، وتقديره : أيها المنكر للصانع وقدرته •• أليس قد أتى عليك دهور لم تكنِ شيئاً مذكوراً ، ثم ذكرت ؟ •• وكل أحد يعلم من نفسه : أنه لم يكن موجوداً ثم وجِدَ ؛ فإذا تفكر في ذلك : علم أن له صانعاً صنعه ، ومحدِثاً أحدثه ؛ والمراد بالإنسان ، هنا ، آدم ؛ وهو أول من سمِّيَ به ؛ ••

وقيل : إن المراد به كل إنسان ؛ والألف واللام : للجنس ؛ •• وقيل : إنه أتى على آدم أربعون سنة ، لم يكن شـيئاً مذكوراً ، لا في السماء ولا في الأرض ، بـل كان جسداً ملقى من طين ، قبل أن ينفخ فيه الروح » ••

(مجمع البيان جـ ٥ : ٤٠٦)

إن اكتشاف المفسرين لإرادة التقرير بهـذا الاستفهام الافتتاحي للسورة : يعطي للباحثين بعلم المعاني توجيهاً إلى غنى هذا الأسلوب ؛ ويمكن أن يساعدهم في إعادة النظـر بما يتناقلونه من تعريف الاستفهام بمثل قولهم : « هو نوع من أنواع الإنشاء الطلبيّ ؛ وهو طلب العـلم بشيء لم يكن معلوماً من قبـل بأداة خاصة ، من أدواته المعلومة : الهمزة ، وهل •• ومن ، وما ، ومتى ، وأيان ، وأين ، وأنّى ، وكيف ، وكم ، وأي » ••

هو من أنواع الإنشاء الطلبي : هذا صحيح ••

لكن قد لا يكون طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل •• بل قد يكون استثارة انتباهٍ لإلقاء حقيقة معلومة لدى المستفهم المستثير ، كما هي الحـال في آيـة الإنسان ••

وهذه الملاحظة : لها قوة المبدأ الأصل •• وقوة المتجه الفرعي ••

فمن قوة الأصل المبدئي : أن جمل السورة كلّها خبرية ، بعد جملة الافتتاح ؛ وكلها تؤكد تقرير هذه الحقيقة الإنسانية ، إجمالاً حيناً ، وتفاصيل حيناً آخر •• وتكفي ملاحظة الآيات الثلاث التي سميناها : مقدمة السورة ••

فبعد الآية الأولى : تأتي الثانية ؛ فالثالثة ؛ ولننظر :

« إنا •• خلقنا الإنسان من نطفةٍ أمشاجٍ •• نبتليه•• فجعلناه سميعاً بصيراً••

« إنا •• هديناه السبيل •• إمّا شاكراً •• وإمّا كفوراً ••

فالجمل كلّها خبريّة ؛

إنّ : حرف مشبه بالفعل •• نا : ضمير متصل ، في محل نصب إن •• وهو : المسند إليـــه ••

خلقنا : خلق : فعل ماض ؛ وهو : المسند • نا : ضمير متصل ، فاعـــل الفعل ؛ وهو : المسند إليه ؛ وجملة : خلقنا •• في محل رفع خبر إنّ •• والتقدير : إنا خالقو الإنسان •• فتكون : هي المسند للجملة الأولى •

وما بقي من متممات الجملة ، فهو : قيد •• أو : فضلة •• وهـــذا الباقي المتمم : أربع كلمات ، هي : الإنسان من نطفة أمشاجٍ

الإنسان : مفعول به •• من القيود ••

من نطفة : جار ومجرور •• والتعلق بفعل : خلقنا •• والجار من القيود ••

أمشاجٍ : صفةٍ للنطفـــة ، بمعنى : الأخلاط ؛ والصفة من التوابع ، وهي من القيود ••

وكذلك تأتي الجمل الأخرى : خبرية تقرر حقيقةً أثار للتنبه إليها أسلوبُ الاستفهام الافتتاحي ••

هذا من جهة قوة الأصل المبدئي ، الذي أردنا ملاحظته والتنبه له مع متذوقي الأساليب البنيوية في الجملة القرآنية ؛

أما من جهـــة المتجه الفرعي : فقد أحببت التنبُّه إلى ما يدرس ، عادة ، في علم المعاني ؛ فهذه الدروس المعنوية : تبدو مستغيثة بمن يتمهّل بها عند المنابع ؛ لترتوي من حقائقها المبدئية اليقينية •• ثم لتروي بتلك اليقينيات البلاغية : طموح المعبِّرين التائقين إلى بلوغ الكلام المؤثِّر ••

في دروس عـــلم المعاني : تدرس فروع الإنشاء الطلبي وغير الطلبي •• كما تدرس أنماط الخبر الابتدائي والطلبي والإنكاري •• كما تدرس أساليب القصر والفصل والوصل والإيجاز والإطناب والمساواة ••

إن هــذه الدروسَ جميعها : مشتقة القواعد من منابع الكلام البلاغي ؛ أو ما نسميه : البلاغة الممارسة ؛ ونعني بهــا : نصوص الإبداع المنبثق عن السجية والفطــرة والوحي ••

لذلك تكون محاكمة القواعد على المنابع : مقومة لها ؛ ومجدِّدة لوعي المهتم بإنشاء علائق ذوقية وعلمية بعلم المعــاني ذاتها •• أو ما نسميه : حضرات وراء الكلمات ••

ضربت مثلاً لهــذه المحاكمة « برسالة النــداء » التي هي معالجة متكاملة لأسلوب « النداء » ، وهو أحد أساليب الإنشاء الطلبي الخمسة ؛

وخليت السبيل بين الدارس وبين نصوص القواعد من جهــة ، كما هي في كتب تراثية قديمة ، مثل : دلائل الإعجاز في علم المعاني ، للجرجاني •• والإيضاح ، للقزويني ••• ونصوص المنــابع من جهــة ثانية ، كما في : سورة الإنسان •• والأنبياء •• أو في : حديث العقل •• والزواج •• من السيرة النبوية •• أو كما في : خطبة التكوين •• والسقيا •• من نهــج البلاغــة •• أو ما يلي ذلك من مختارات شعرية ونثرية ••

نجرب الإصغاء إلى جهود الدارسين : لضبط قواعدِ بناء الجملة ، وكيفياتِ تساند المسند والمسند إليــه بالتعاون مع القيود الرابطة بينهما ؛ وصار واضحاً : أن ما زاد على المسند والمسندِ إليه ، غير المضاف إليه وصلة الموصول ، فهــو : قيــد ••

لكن ما هي أحوال ركني الجملة في البناء ؟

في الآية الأولى من سورة « الإنسان » : ملتقى مع « الزمان » ؛ وفي أخبار السورة ، كما تعرضها مباحث علوم القرآن وأسباب النزول : أنها تسمَّى سورة « الدهر » •• كما تسمى سورة « الإنسان » ••

هل أتى على الإنسان حـين" من الدهر ••

لم يكـن شيئاً مذكوراً •• ؟ !

تبدو الآيةُ : مثلَ فمِ النبعِ ؛ كل ما يليها : يتدفق منها ••

وهـذا الإبداء : يشمل الآيات الثلاثين التي تلي الأولى في سورة الإنسان أو الدهر •• كما يشمَل ما يسمونه أبواب علم المعاني الثمانية ••

ويبدو لي تركيز الانتباه في أصول تكوين هـذه الآية : محرراً من تشتت الفهم الموروث بالتعدد حيناً وبالانحراف عن قصدِ المعنى الذي تقتضيه الأحوال ••

حصر الباحثون أبواب هـذا العـلم بثمانية ، رتبوها حسب وعيهم لمسألة المعنى ؛ فقالوا ، هي :

أ – أحوال الإسناد الخبري
ب – أحوال المسند إليـه
جـ – أحوال المسند
د – أحوال متعلقات الفعل ••

أخذنا فكرة مجملة عن هذه الأبواب الأربعة في معالجة الجملة الأولى والثانية في آيـة الإنسان ؛

فالإسناد الخبري : هو عملية التناسب التي تنشأ من علاقة المسند إليه بالمسند ؛ وقد تكون هذه العملية نافية أو مثبتة للحكم الذي يلقى من أجله بصورة الجملة الفعلية أو الجملة الاسمية ؛ مثلاً :

أتى حين" : كلمتان ، لهما : مفهومان ؛ مفهوم الحـركة بفعل « أتى » •• ومفهوم الزمن بكلمة « حين » •• والإسناد ، هنا : حكم بثبات الإتيان للزمن •• فالحركة الإتيانية : محكوم" بها للحين ؛ أو مخبَر" بها ••

ومثل هـذا الإيضاح : يصح للجمل الأخـرى التي تحمِلُ حكماً مثبتاً ؛ والتماس ذلك : ميسور" في جمل الآيات ؛ مثل :

أ – وجزاهم بما صبروا جنة" وحريراً ..
ب – وحُلّوا أساور من فضة ..
ج – وسقاهم ربُّهم شراباً طهوراً ..

الإسناد الخبري : واضح" في الجملِ الأربع ؛ ولنتأمل الجملة الأخيرة ..

المسند إليه : ربُّهم ؛ وهو المحكوم له ، أو المخبر عنه بأنـه أجرى فعـلاً" إسنادياً ..

المسند : سقاهم : والفعل « سقى » ، هو المحكوم به ، أو المخبر به ، وهو ثابت" الانتساب أو الإسناد للمسند إليه أو المحكوم له بأنـه سقى أبرار الجنـة شراباً طهوراً ..

أحياناً تكون عملية الإسناد : لغرض نفي الحكم .. وقد رأينا في الآيـة الأولى : صورة من صور النفي : « لم يكن شيئاً مذكوراً » ..

والمسند إليه : ضمير مستتر تقديره « هو » ، يعود إلى الإنسان الذي ذكر في جملة الآية الأولى ..

والمسند : فعل « يكن » المنفي المجزوم بأداة الجزم « لم » من جهة سابقة .. واسم الفعل الناقص ، الذي أصله خبر المبتدأ ، وهو « شيئاً » ..

والدلالة البلاغية في تركيب هذه الجملة : لها انفساح في ذوق المعنى ، يجيء إيضاحه ؛ ونكتفي ، هنا ، بالإشارة إلى قيمة البناء الذي جعل المسند إليه : ضميراً خفيّاً .. وأحاط به الفعل والاسم إحاطة جلية ؛ فهما مسنداته التابعة له المستندة إليه ، ظهـر كما في الجملة الأولى « أتى .. حين" » .. أم اختفى كما في الجملة الثانية هذه « لم يكن شيئاً مذكوراً » ..

ومثلَ هذه الجملة : نجد جملاً في السورة ، تنفي حكم المسند عن المسند إليه في العلاقة الإسنادية القائمة بينهما ؛ مثل :

أ – لا نريد منكم جزاءً ولا شُكوراً ••

ب – لا يروْنَ فيها شمساً ولا زمهريراً ••

جـ – وما تشاؤون إلاَّ أن يشاءَ اللهُ ••

فلو حللنا علاقة المسند بالمسند إليه في أي من هذه الجمل : لوجدنا النسبة المفهومة منفية ؛

ففي الجملة الأولى : لا نريد منكم جزاءً ••

المسند إليه : مستتر غير ظاهر ؛ تقديره « نحن » ، دلت عليه صياغة المضارع « نريد » •• وهو من نخبر عنه •• أو نجري الحكم عليه وله ••

المسند : هو الفعل « نريد » ••

الإسناد : نفي نسبة الإرادة عن المسند إليه ، الذي هو « نحن » ؛ وهؤلاء هم الذين « يُطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً » •• ولا يريدون جزاءً ولا شُكوراً من عملهم •• بل قصدهم : وجهُ الله •• وسنتعرف إلى هؤلاء الكرماء الأبرار في مقتضى السياق الذي نسعى لمطابقته ••

القيد : ما بقي من كلمات الجملة : « لا نريد منكم جزاءً ولا شُكوراً » •• فالكلمات الأربع الأخيرة : هي القيود ؛ وفيهـا أكثر من أربع ؛ لأن « منكم » : يفصَّل في فهمها ؛ فيقال : مِن حرف جـر ، متعلق بالفعل : نريد •• كـ : ضمير متصل في محل جر بحرف الجر ؛ والميم : علامة جمع الذكور ••

فهي مفردة لفظية واحـدة ؛ لكنها ثلاث شعبٍ ؛ ولكل حكمها المعنوي ؛ وتدخل في الباب الرابع « أحوال متعلقات الفعل » ••

ويقال بالكلمات الأخرى : ما يفيد دلائل الفَضلةِ المعنوية في القيد الذي يحدّد نسبة العلاقة ، إثباتاً أو نفياً ، بين المسند إليه والمسند ..

جزاءً : مفعول به .. وهو من القيود ..

و : حرف عطف .. والعطف من التوابع المعتبرة في القيود .. لكنه الحرف الذي يحدد باباً من أبواب علم المعاني ، هو : الفصلِ والوصل ؛ فبالواو : تضبط بلاغة الوصل بين جملتين أو الفصل بينهما ..

لا : أداة نفي .. وهي مثل « لا » ، التي نفت فعل الإرادة « لا نريد منكم جزاءً » .. لذا يُرجَّح أن العطف على جملة ؛ ولكن مقتضى الإيجاز : دعا إلى حذف ما فهم من الجملة الأولى ؛ وكأنما يقال :

لا نريد منكم جَزاءً ..
لا نريد منكم شُكوراً ..

وهذا التعاطف الواصل بين جملتين من دقائق الباب السابع « باب الفصل والوصل » ..

أما الحذف الذي أجري بأسلوب الوصل : فهو من لطائف الباب الثامن « باب الإيجاز والإطناب والمساواة » ..

أشرنا إلى ترتيب أبواب هذا العلم ، كما هي في كتب البلاغة العربية المتداولة ؛ وذكرت الأبواب الأربعة الأولى ، لأذكر باحتشادها في جملتي الآية الأولى من سورة الإنسان .. لكن ذلك استدعى الأبواب الأربعة الأخرى ، وهي : « القصر .. الإنشاء .. الفصل والوصل .. الإيجاز والإطناب والمساواة » ..

إن ما سمي بأحوال الإسناد الخبري : فُهِمَ على أنه النسبةُ الحاصلة من تضامٍّ مفهومي المسند والمسند إليه ؛ وقد يكون التضامُّ التأليفيُّ : نفياً لحكم مفهوم المسند على مفهوم المسند إليه .. وقد يكون إثباتاً ..

لكن علاقة ما بين المسند والمسند إليه : ليست في الجملة الخبرية وحدها ، بـل هي في الجملة الإنشانية على حـدٍّ سواء •• إذ لا تقوم جملة بغير هـذين الركنين : المسند والمسند إليه ••

تبدو هذه العلاقة : مشغلة الباحثين في أسرار البلاغة ، على امتداد التاريخ البلاغيّ والإبلاغيّ •• وقراءة المحاولات التاريخية : تكشف جوانب من هـذا الاهتمام الشاغل بما بين المسند إليه والمسند من نسبة نفيٍ أو نسبة إثبـات •• وتكاد هذه النسبة : تشبه الرياضة المرنة ؛ فمرة : يتقدَّم المسند إليه على المسند •• ومرة يسبق المسندُ إلى التقـدم ••• مرة : يحذف المسند إليـه ويبقى المسند مذكوراً •• مرة : يحذف المسند ويبقى المسند إليه مذكوراً •• مرة : يُعرَّفان •• وأخرى ينكران بصور من تعريف الاسم وتنكيره ، وبصيغ من إعرابه وبنائه •••• وأحيـاناً ، يكون : « القصر ، والفصل ، والوصل ، والإيجـاز ، والإطناب ، والمساواة » من صور هذه الرياضة الأسلوبية ، توصلاً إلى معرفة « أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال » ، كما في تعريف الخطيب القزويني لعـلم المعـاني ••

تعريف علم المعاني بأحوال اللفظ المطابِقة : مقولة ، لاحظ بها شيخ القزويني ما عبَّر عنه بتعريف علم المعاني تعريفاً بين التعميم والتخصيص ، فقال : « هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة ، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما تقتضي الحـال ذكره » ••

[ص : ٨٤) ••

إن جريان تاريخ البحث بهذا العلم : أفاد معطيات الأبواب الثمانية من أحوال : الإسناد ، والمسند ، والمسند إليه ؛ والتعلق ••

ومن مقامات : القصر ، والفصل ، والوصل ، والإيجـاز ، والإطنـاب ، والمساواة ••

لكن ضبط « الأحوال والمقامات » في البلاغة المعنوية : يقتضي « فن التجميل » ؛ لمعرفة حدود الجملة وخصائصها في البناء ، وتناسب ما بين المسند والمسند إليه في الإسناد وفي التقييد بالقيود أو الفَضلة التي تتفضل بإغناء الجملة ..

وفن التجميل : مصطلح جديد ، اجتذبناه من الجمال الحيوي والفن القولي والعملي ؛ ليكون مُعبِّراً عن وجهة بدت لنا من وجهات المعنى المتعددة ؛ وكأنما ألفينا في هذا المصطلح وسيلة انتقالٍ قادرة على حملنا من « الكلمات إلى الحضرات » ؛ وهذه تسميتنا الجديدة للتعامل مع « علم المعاني » .. فقد اهتدينا من « فن التجميل » إلى « الحضرة وراء الكلمة » ..

إن « أحوال اللفظ » .. أو « خواص تراكيب الكلام » : يشملها ، عندنا ، « فن التجميل » .. وتبقى « حضرة الجمال وراء الجملة » .. فكيف يصلنا بها « علم المعاني » ، بما هو : أحوال لفظ .. وخواص تراكيب .. ؟

آيةٌ من سورة « الدهر » ، أو جملةٌ منها : حرّكت مفاتيح الأبواب الثمانية .. بل فتحتها على مطلاتٍ وجوه الإنسان الأول .. فأثارتْ بإنسانِ القراءةِ التأمّلَ بما يصير إليه هذا الوجود المعنوي للإنسان ..

هل
أتى على الإنسانِ
حينٌ من الدهر .. ؟ !
لم يكُنْ ...
شيئاً مذكوراً .. !

أحوالُ اللفظ .. وخواص التراكيب : تداور الكلماتِ في مواضعها ؛ كأن تقول :

هل المسند والمسند إليه : مذكوران أم محذوفان .. ؟ ولماذا كان ذكر أحدهما وحذف الآخر .. أو ما الغرض البلاغي من الحذف والذكر ؟ ...

وكذلك تسأل عـن أغراض : التعريف والتقديم •• والتقديم والتأخير •••
لماذا •• ؟ •• وما فائدتها ؟ ••

لكل باحث في علم المعاني : أسلوبه في الجواب ؛ مع أنهما جميعاً : لا يخرجون عـن التقسيمات الأولى للأبواب الثمانية •• ومن يُصغي بهـدوء إلى عبارة ، « الإيضاح » : يدرك شيوعـَها حيث اتجه في هذه البحوث ، فكأنها جدول الحروف؛ أو جدول ضرب هذا العلم : هل يستطيع تجاوزها الطامحون ؟ ! ••

لا بد لبلوغ الأحلام من معرفة قواعد الأحكام ، كما أوضحت في « رسالة النـداء » ؛ لذلك نصغي إلى تعليل مجمل لهذا التقسيم ، وله تفاصيل في أي كتاب يحمل هـذا العنوان « علم المعاني » ••

فصـَّل القزويني مجمله بنحوٍ من التفصيل بلغ خمساً وثلاثين ومئتي صفحة •• قبلها خمس عشرة صفحة : تتعلق بها ، وتمهـد لها ؛

جزى الله الخطيب القزويني خيراً ؛ فقـد جمع أشتات علم البلاغة في كتاب الإيضاح ؛ وهي : أشتات علم البيان •• وأشتات عـلم البديع •• وأشتات علم المعـاني ••

وكلامنا ، هنا ، يتعلق بما جمعه من أشتاتِ علم المعـاني ••

والمحافظة على كلمة « أشتات » : مقصودة ؛ لأنهـا لا تزال قوية الرائحة ، حتى في إيضاح الخطيب القزويني الذي سمـَّاه : « جامعاً لهـا » ؛ أو وصفـه بالجامع لهـا ••

إن لجامعية الأشتاتِ : أكثر من صورة ؛ وما في الإيضاح : واحدة منها •• وما في المفتاح : صورة أخرى •• وما في دلائل الإعجاز : صورة أيضاً •• وكذلك ما في « البلاغة الواضحة » ، لعلي الجارم ومصطفى أمين : صورة من جمع أشتاتِ علوم البلاغـة على نحو مدرسيٍّ ••

التأمل الهدوئي في كتب البلاغة ، قديمها وحديثها : يحقق رغبة صاحب الإيضاح ؛ فلا بد أن ينتفع المتأمل من أولي الفهم ، إذا ظفر « بجامع الأشتات من هذا العلم » .. ؛ لأن عناصر البلاغة : موجودة فيه ؛ وأعني بالبلاغة : أصول الأحكام ، أو القواعد التي ينظم الكلام وفقها : من بناءِ الجملة : لأن البلاغة في التحقق : تصبح اجتيازاً للأحكام ودخولاً ، أو وصولاً إلى الأحلام ؛ وللأحلام ، هنا ، إيقاع الوقائع العقلية المؤكدة بصورة من صور الإعجاز البلاغي ، الذي يتحقق بالتراخي الزماني ، كما في حلم « يوسف » ، بسورته المعلومة .. أو الذي يتحقق بالحال ، كما في حلم « سليمان » ، الذي حققه مَن عنده علم من الكتاب ، قبل أن يرتدَّ إليه طرفه ، وعبارة الوقائع في سورة : النمل .. أو الذي يتحقق وفق مقتضى الحال الواقعي ، كما في حلم « زكريا » ، الذي استجيب له مِن ربّه الذي ناداه .. والصورة في فاتحة سورة « مريم » ..

قد يكون ما في سورة الإنسان : أبدعَ الصور التي يتحقق بها الحلم الدهري للإنسان ، وهو : العيش في جنة النعيم ، حيث الهناءة التي لا ينغّصها حرٌ ولا بردٌ ، ولا منغّصٌ من منغصات العيش في دنيا الناس هذه ..

والسؤال الأهم : كيف تتقن جمع قواعد الأحكام جمعاً يبلغنا بلاغة الكلام وفق مقتضى واقع الأحلام ؟

ذلك لا نجده في جمع أشتاتِ الخبر والإنشاء .. بل نحن واجدوه في « البلاغة الممارسة » ..

كتب البلاغة : تجمع أشتات الأقوال في أحكام الإسناد والتعلق والقصر والعطف والزيادة في اللفظ أو المساواة .. وكذلك تجمع أشتاتاً من الأمثلة : لتأكيد القواعد وتأييدها ..

في التربية البلاغية : نميل إلى ممارساتٍ ظهرت لنا منافعها المجالية في التعليم على التعارفِ مع نصوص البلاغة الممارسة ؛ وقد تأنيت في ممارسات التعرف

منذ ١٩٦٤ إلى ١٩٨٧ ؛ وبدت لي النتائج العملية التي قدمها « فن التجميل » لي •• ولطلاب يرغبون معرفة الأسرار البلاغية •• ولم نصل إلى « الحضرة وراء الكلمة » : مباشرةً •• بل عبر سياقٍ تطوريٍّ ، بدت لنا فيه انقلاباتٌ في الفهم ؛ فوعينا : إعجازَ الدلائل •• وألفةَ التأليف •• تجاوزاً لما كان : دلائل الإعجاز •• وسياق النظم ••

ونجرب ، هنا ، رسمَ هذا المعراج من أبواب علم المعاني الثمانية ، عبر صورة واحدة ، تمثل تفصيل المعنى الأساسي في سورة الإنسان الدهري •• أو سورة الدهر الإنساني ••

وهذه الصورة : رسمت بثماني عشرة آية ؛ من الآية السادسة حتى الآية الثالثة والعشرين ••

إننا نرى بهذه الصورة الموحّدة : أحوالَ : الإسناد ، والمسند ، والمسند إليه •• ومتعلقات الفعل •• والقصر المؤكد للجملة الخبرية •• والإنشاء المشتمل على ما في الخبر من إسناد ومسند إليه ومسند ؛ ومن تعلق وتأكيد •• والمحقق أغراض الإسناد بأساليبه الإنشائية الظاهرة من تسمياتها •• فالتعجب : أسلوب إنشاء غير طلبي ؛ وهو : غرض الملتقى بين المسند والمسند إليه بصيغة التعجب أو أسلوبه •• وكذا يقال في النداء ؛ فهو أسلوب إنشاءٍ طلبي ؛ وغرض التناسب بين ركنيه ، المسند والمسند إليه : يحققه معنى التسمية ؛ •• وكذا يقال في أساليب الإنشاء الأخرى ••

ما أقوله في الإنشاء : مجملٌ ضروري ؛ للتخلص مما يوهم به مجمل الإيضاح •• وغيره •• وكأنما جعلوا الإسناد وعلائق ما بين المسند والمسند إليه : مسائل خبرية وحسب •• ثمَّ كأنهم أوهموا بأن الجملة الإنشائية : ليس لها خارج يطابقها •• وهذا منزلَق بعيد القرار في تقدير بلاغة الإنشاء التي لا تكون بغير مطابقةٍ لمقتضى الحال ••

إنا نرى بهذه الصورة الموحّدة : أحوال المفرد والجملة •• وأحوالاً من

التعاطف بين الجمل ، أو التواصل بدون وسائل العطف •• وأحوالاً من التعاون المتناغم بين الألفاظ والمعاني بصور يغمر فيها اللفظ المعنى كما في حالات من الإطناب •• أو بصور يُغيِّب فيها اللفظُ المعنى كما في أحوال من الحذف •• أو بصور يتماشى فيها اللفظ مع المعنى تماشي كِفَّتي الميزان مع ما يوزن بهما ، ولو كان ما في إحداهما : الوزن الثابت كالمقدار من الحديد •• وفي أخراهما الوزن المتبدل المتجدد كمقادير من الثمار والخضار وما يوزن عادة بالميزان ••

أيمكن أن يكون كل علم المعاني في صورة واحدة ؟

نجرِّبُ •• والله المستعان على ما يشتتون •• ونستأنس بأطياب الحضرات تهب علينا من وراء الكلمات ، ونلاحظ جمل الآيات وفق « فن التجميل » ؛ لأن ملاحظة ذلك : تساعِدُ في التعرف إلى « إعجاز الدلائل » ، عبر ما يسمونه : أحوال اللفظ العربي •• وخصائص تراكيب الكلام ••• فكيف نقرأ الآيات : قراءة تجميل تصل بتجويد المعنى وجوده ؟

— 5 —

ذوق المماثلة والتفاضل

نمثّل لقراءتنا بجملةٍ من آيةٍ ، بدأنا معها « مجاراة الأساور من فضة » •• وهذه التسمية : مفصَّلة من آية « الإنسان » الأولى بعد العشرين ، ومن درجات التماثل بينها وبين الآيات القرآنية التي بنيت على كلمة « أساور » ••

يفكِّرُ المطّلعُ على فصل البداية : أنَّ أرض المعنى باحت بمواسمها ؛ لأنه يرى انطباقَ الأحكام وتحقّقَ القواعد ، وفق علم المعاني ؛ والواقعُ المعنويُّ : يفاجىء باستمرارٍ مَن يُصغي إلى إيقاعاته العميقة المديدة •• فهل يَدَّعي جيران البحر الأبيض المتوسط أنّه باح لهم بمواسم أسراره جميعاً ، أم أنهم عقلاء ينتظرون مفاجآت كرمه التي تماثل موجَه بالتجدُّد والتودد •• ؟ •••

في فصل البداية : جارينا التماثل البنائيَّ بين الآيات الأربع في أوبع سورها ؛ « الكهف : ١٨ ؛ والحج : ٢٢ ؛ وفاطر : ٣٥ ؛ والإنسان : ٧٦ » ..

في هذا الفصل الخامس من البحث : نفكّر بالتفاضُلِ البنائي ؛ لنرى بلاغة المعنى وجماله المتألّقَ من تركيب المبنى في جملته المبنية للمجهول .. وننظر إلى الجمل الأربع معـاً :

أ – وحُلّوا أساورَ من فِضّةٍ .. (٩٨/٧٦)

ب – يُحَلَّوْن فيها من أساور من ذهب .. (٦٩/١٨)

جـ – يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً .. (١٠٣/٢٢)

د – يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً .. (٤٣/٣٥)

أشرت إلى أرقام السور التي منها الجمل الأربع ؛ ولكل سورة رقمان : أولهما وفق الترتيب المجموع .. وثانيهما وفق ترتيب النزول .. وهـذه الإشارة تفيد المهتمَّ بأسباب النزول ؛ وتعين على مجاراة المعنى المتمظهر في الآيات ..

وفي الفصل الأول من هذا البحث « جمال البلاغة الممارسة وتجميل نصوصها » : وضعت آيات الجمل الأربع تامـة ؛ لأننا كنا على تخوم « رسالة الإعجـاز » ؛ ومقتضى الحال : يعني مسايرة طبائع الأشياء ؛ فالتجويد القرآني : يساير إيقـاع الآية .. والتجميل المعنوي : يراعي بنـاء الجملة ...

جمالُ البلاغـة : يُذاق من البناءِ الذي يمتاز بالمماثلة العامة من جهـة ، وبالتميز الخاصِّ من جهـة ثانية ..

التماثل العام في الجمل الأربع : يظهر بالمسند إليه وبالمسند ؛ فالواو الضميرية : مسند إليه في جميعها .. وفعل التحلية : مسند مشتركٌ أيضاً .. لكـن صيغة الفعل : أومأت ألى اختلاف زماني ؛ فالفعـل : ماض في الجملة الأولى ، جملة « الإنسان الدهري » ، أو جملة « الدهر الإنساني » .. والفعل في الجمل الثلاث

الباقية : مضارع •• والفرق الزماني معلوم في معاني النحو ؛ لكنه شبه مجهول في علم المعاني : حيث تتحد الجملة الفعلية ، بكل أنواعها ، بمعنى الدلائل التجديدية••

التجدد الفعلي : تمنحه صيغة الفعل ، ماضياً ومضارعاً وأمراً ؛ لكن الماضي : أساس الصيغ ؛ ومنه المضارع والأمر ؛ وبذلك تكون صيغةُ « حُلّوا » : أعمق في الزمان وأوسع وأخصّ ، من صيغة « يُحلون » ، التي تبشر « في الحال والاستقبال » ، بينما اكتسبت صيغة « حلوا » مُضِيّاً في حكم المكتسب المقضيّ به الذي يتجدّد في كل آنٍ ؛ فيؤتي مواسم جديدة لصاحبه •• ومن صاحِبُ هذا المسندِ الماضي في تجدُّدِه ، المتجدّد في ماضيه ؟ ••

المسند إليه : هو صاحِب المسند •• وقد ظهر التفاضل بين المسند بصيغة « حُلّوا » وبين المسند بصيغة « يُحَلَّوْن » •• والبنية واضحة الاختلاف فيهما •• لكن المسند إليه : واحد في الصيغتين ؛ فالواو الضميرية : متشابهة تماماً ، وفق الظاهر •• فهل تتفاضل الواوان بالمعنى ؟

المسند : حكمٌ للمسند إليه ؛ وقد حكمت صيغة « حُلّوا » بمزايا متميزة عن حكم صيغة « يُحلون » •• فلا بُدّ من تميُّزٍ ما للواو مع « حلوا » عن الواو مع « يحلون » •• أعني : أن المسند إليه ، نائب الفاعل في جملة « حلوا » ممتاز على المسند إليه ، نائب الفاعل في جملة « يُحلون » •• فإلى من ترجع « الواو » في الصيغتين ؟

في صيغة الماضي : ترجع الواو إلى « الأبرار » ؛ الذين هم محور سورة « الإنسان أو الدهر » ؛ فمن الآية الخامسة إلى الثانية والعشرين : هم المسند إليه ؛ وإليهم تبسط جنّة صُوِّرَتْ حياتهم فيها على نحو من التفصيل لا نظير له في تصاوير الجنة الأخرى ، مع ما لتلك التصاوير من رائعات تأثير •• جنة الأبرار : لب سورة الإنسان ؛ ما قبل اللب : مقدمة بأربع آيات ؛ وما بعده : خاتمة بتسع آيات •••

إن جمال البلاغة في الصورة : يكتسب من جمال الحياة الممارس في جنة

الأبرار ؛ ولمحبِّ الجمال ومتذوق الجلال : أن يتملَّى بتموّج الآياتِ ؛ وقل : بتموج المعنى في ألوان الآيات وألحانها ؛ إنها تؤسِّسُ بخبَرٍ يُفيدُ « إن الأبرارَ يشربونَ من كأسٍ كان مزاجُها كافوراً » ... ثم تتوَّجْ بخبرٍ يفيد « وسقاهم ربُّهم شراباً طهوراً » ... فالأبرار يشربون .. لكن الساقي ربُّهم ؛ والشراب كما وُصِف ... وبلاغة الالتفات : تأخذ أبعادَها ومواقعها في الآية الختامية ؛ فبعد أن عرَّف بالأبرار وحياتهم في جنتهم بسبع عشرة آيةً أخبَرَ فيها عنهم : التفت إليهم مخاطِباً ومقرراً « إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيُكم مشكوراً »... إن الشاكرَ هو الساقي .. وفي ذلك فليتنافسِ المتنافسون ...

في صيغة المضارع : ترجع الواو إلى « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » في سورة الكهف (آية : ٣٠) ، وفي سورة الحج (آية : ٢٢) ؛ وإلى « السابقين بالخيرات » في سورة (فاطر : ٣٢) ..

وأصحاب الواو « أولئك لهم جناتُ عدنٍ تجري من تحتهمُ الأنهار .. » ؛ « جناتٌ تجري من تحتها الأنهار .. » ؛ « جناتُ عدنٍ يدخلونها » ..

كذلك يكتسب جمال التصويرِ البلاغي من جمال الحياة التي يمارسها المؤمنون في الجنات ؛ وذلك من مقتضى الحال ؛ فحياة هؤلاء المؤمنين : موعودة ؛ يدخلون جنات عدنٍ ؛ تجري من تحتهم الأنهار ؛ تجري من تحتها الأنهار ...

وقائع الحياة في هذه الجنات : غير وقائعها في جنة الأبرار ؛ لذلك حُلِّيَ الأبرار أساورَ وسقاهم ربُّهم وشكر سعيهم .. بينما الذين آمنوا وعملوا الصالحات يُحلون فيها من أساور ولؤلؤ ، ولباسهم فيها حرير ...

بلاغة الصيغة : في نقلها أدَق الخصوص وألطف اللطائف مع احتفاظها بأشمل العموم وأبرز الظواهر ..

وجمالُ البلاغة في هذا التكسيم المطابق بين الصيغة الإسنادية وحال المسند إليه ؛ لأنه أصل الأصول جميعاً .. وأصل الأصول : مثلُ معنى المعاني ؛ يحتاج

رقي انتباه ؛ ورقي صبر ؛ ورقي خشوع في حضرة الإبداع ؛ ورقي تطلع لحياة مع الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أو الذين سبقوا بالخيرات ، أو الأبرار وهم الذين « سقاهم ربُّهم شراباً طهوراً » ؛ وقال عنهم : « ولقّاهم نضرةً وسروراً •• وجزاهم بما صبروا : جنةً وحريراً » •• وقال لهم : « إنَّ هذا كان لكم جزاءً ؛ وكان سعيكم مَشكوراً » •••

هؤلاء الأبرار : هم المسند إليه في آيةِ « حُلّوا أساور » ؛ هم واو الضمير الجماعي ؛ وهم مميزون ممن آمنوا وعملوا الصالحات وسبقوا بالخيرات : كما صار واضحاً من آياتِ « الأساور » ••

هذا تفاضل أول للمسند إليه : دلت عليه صيغة المسند ••

والتفاضل الثاني : يستقرأ من آياتِ الأبرار ، على نحو آخر ؛ فقد ذكر « الأبرار » بهذا اللفظ في سور أخرى من القرآن ، هي : آل عمران ؛ الانفطار ؛ المطففين ؛

أ – وتوَفّنا مع الأبرار (آل عمران ٣/٨٩ : ١٩٣)

ب – وما عند اللهِ خيرٌ للأبرار (آل عمران : ١٩٨)

جـ – إنَّ الأبرار لفي نعيم (الانفطار ٨٢/٨٢ : ١٣)

د – إنَّ كتاب الأبرار لفي عِلّيّين ؛ (المطففين ٨٣/٨٦ : ١٨)

هـ – إنَّ الأبرار لفي نعيم ؛ (المطففين : ٢٢)

هذه هي الآيات الخمس المبنية للأبرار ؛ وقد سعينا لاكتشاف التفاضل المعنوي ، أو المقامي ، استدلالاً بالبناء اللفظي أو المقالي ؛ وما نسينا بنية الجملة التي انطلقنا منها في الآية الخامسة من سورة الإنسان ؛ وهي :

« إنَّ الأبرار : يشربونَ من كأسٍ ؛

كان مزاجُها كافوراً ••

عيناً يشربُ بها عبادُ الله
يفجِّرونها تفجيراً ... »

الموازنة بين جُمل الأبرار : يستدعي التأمل بصورتهم الدالة على جمال حياتهم ؛ وهذا ممكن بالعودة إلى السورة على نحو هدوئي شامل وخاص بحال العائد .. أما هنا فنقدم ملاحظة إشارية ، ذات جهات ؛

الجهة الأولى : يُظهر ترتيب النزول أن صورة الأبرار في سورة الانفطار هي الأولى .. وفي سورة المطففين هي الثانية .. وفي سورة آل عمران هي الثالثة .. وفي سورة الإنسان هي الرابعة .. أي هي في سورة الإنسان : آخر ما نزل عن الأبرار وختمه الإخباري أو الإعلامي أو التطوري ...

الجهة الثانية : تظهر صورة الأبرار « في سورة الانفطار » مقابلة بصورة الفجّار ، فالأبرار في نعيم ؛ والفجّار في جحيم ؛ « إنّ الأبرار لفي نعيم .. وإنّ الفجّار لفي جحيم » .. ونعيم الأبرار : مجمل ...

الجهة الثالثة : تظهرها سورة المطففين بالتفصيل النسبي ؛ يظهر علائقهم بالمقربين ، ويستغرق إحدى عشرة آيةً ، هي :

« كَلاّ إن كتاب الأبرار لَفي عِلّيين ؛ وما أدراك ما عِلّيّون ؟ كتابٌ مرقوم ؛ يشهدُه المقرَّبون ؛ ؛ إن الأبرار لفي نعيم ؛ على الأرائك ينظرون ، تَعرِف في وجوههم نضرة النعيم ؛ يُسقون من رحيقٍ مختوم ؛ ختامُه مسك وفي ذلك فليتنافَسِ المُتنافسون ؛ ومِزاجُه من تَسنيم ؛ عيناً يَشرَبْ بها المقرَّبون » ...

الجهة الرابعة : تظهر صورة الأبرار في سورة آل عمران ؛ وهي أولى صورهم في القرآن المدني ، بينما كانت الصورة السابقة ملتقطة في آخر السور المكية .. والسورة المدنية : تصور مصيرَهم مطمحاً لأولي الألباب ؛ « الذين يذكرون الله ، قياماً وقعوداً وعلى جُنوبهم ، ويتفكرون في خلق السماواتِ والأرضِ .. ربّنا

ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانكَ فقِنا عذاب النار ؛ ربَّنا إنَّك من تُدخل النار فقد أخزيتَه وما للظالمين من أنصار •• ربنا إننا سمعنا مناديًا ينادي للإيمان : أنْ آمِنوا بربِّكم ؛ فأمنَّا •• ربَّنا فاغفِرْ لنا ذنوبنا ؛ وكفِّرْ عنا سيئاتنا ؛ وتوفَّنا مع الأبرار » •• (١٩٠ – ١٩٣) ••

ويتابع أولوا الألباب دعاء ربهم فيستجيب لهم : (١٩٤ – ١٩٨)

« ربَّنا وآتِنا ما وعدتنا على رسلك ؛ ولا تُخزنا يوم القيامة ؛ إنك لا تخلف الميعاد •••

« فاستجاب لهم ربُّهم : أنِّي لا أضيعُ عمل عاملٍ منكم ، من ذكر أو أنثى ؛ بعضكم من بعضٍ ؛ فالذين هاجروا ، وأُخرجوا مِن ديارهم ، وأوذوا في سبيلي ، وقاتَلوا ، وقُتلوا : لأُكَفِّرَنَّ عنهم سيئاتهم ؛ ولأدخلنَّهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ؛ ثواباً من عند الله ؛ والله عنده حسن الثواب ؛؛ لا يَغُرَّنَّكَ تقلُّبُ الذين كفروا في البلاد : مَتاعٌ قليلٌ ؛ ثم مأواهم جهنَّمُ ؛ وبئس المِهاد ؛•؛ لَكِنِ الذين اتقَوا ربَّهم : لَهُمْ جناتٌ تجري من تحتها الأنهار ؛ خالدين فيها ؛ نُزُلاً من عند الله ؛ وما عندَ الله خيرٌ للأبرار » ••

هذه الجهة : توجيه لمعرفة أولي الألباب وما ينبغي لهم في كل زمان ومكان ؛ ليكونوا مع الأبرار المكرمين •••

الجهة الخامسة : بعد خامسْ أعلى وأوسع ؛ تظهر منه صورة الأبرار في سورة الإنسان ، أو الدهر ؛ وفي التفاسير من قال إنها تسمَّى سورة الأبرار •• وربما تكون التسميات الثلاث متكاملة ؛ لأن الإنسان عموم : لا يخصِّص السورة بغير ما نجده في سورة أخرى كأولى السور التي أخبرت عن « خلق الإنسان من علَق » ولأن الدهر عموم زماني : لا يخصِّصُ السورة بمزيد من أحاديث الزمان في سورة أخرى •• وليس الأمر كذلك فيما يتعلق بالأبرار ؛ ففي ثلاث سور أخرى : ذكر الأبرار ، وصوروا بالصور التي وقفنا مع جهاتها : فلم نجد ما نجده في خصوصٍ لأبرار هذه السورة ؛ لأن المسند إليه فيها هو الأبرار ؛ ولأنهم تأسيس له

في مدى آيات القلب من السورة : بينما أبرار سورة « آل عمران » من قيود الجملة ؛ وليس المسند إليه ، وكذلك أبرار سورة المطففين : فهم وكتابهم يتضايفان.. وبقيت جملة واحدة : استخدمت في الانفطار وفي المطففين « إن الأبرار لفي نعيم ».. فالأبرار : مسند إليه ؛ مسنده : خبر محذوف تقديره « عائشون ، أو مقيمون » ..

وتترك المجال مفتوح الأبواب لتذوق الغنى الذي أحيط به المسند إليه في سورة « الأبرار » .. لذلك أدع السورة كاملة ، وفق إخراجنا لها في سياق « التنزيل المترجم » الذي أشرنا إليه مع « تفسيرنا التربوي المرتب » ...

كما نترك المجال لتأمل أسباب النزول ؛ لأن المفسرين : يولونها عناية خاصة ؛ لأنها تمثل « مقتضى الحال » الذي استدعى النزول .. وبالنسبة لسورة « هل أتى » : فإن الطبرسي في « مجمع البيان » وصف قصة النزول بأنها طويلة ، وذكرها مع ترتيب نزول سور القرآن جميعها ؛ فهي الثامنة والتسعون ، كما ذكرنا ؛ ومقتضى حال نزولها كما نقل عن « ابن عباس ، ومجاهد ، وأبي صالح » ، وكما أجمله بعبارته :

« قالوا : مرض الحسن والحسين (ع) فعادهما جدهما ، - رسول الله (ص) - ووجوه العرب ؛ وقالوا : يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك نذراً ؛ فنذر صوم ثلاثة أيام ، إن شفاهما الله - سبحانه - ؛ ونذرت فاطمة (ع) كذلك ؛ وكذلك فضة - جاريتهما - فبرءآ [1] ..

ويتابع الطبرسي تفاصيل الكيفية التي وفا بها الناذرون نذرهم ؛ فقد صاموا الأيام الثلاثة ، ولما كان وقت الإفطار في اليوم الأول « أتاهم مسكين يدعو لهم وسألهم فأعطوه ولم يذوقوا إلا الماء [2] » ... وفي اليوم الثاني عند وقت الإفطار : جاء « يتيم يستطعم فأعطوه ولم يذوقوا إلا الماء [3] » .. وفي اليوم الثالث مرّ ببابهم أسير يستطعم فأعطوه ولم يذوقوا إلا الماء » ..

---

١ ـ مجمع البيان في تفسير القرآن ؛ جـ ٥ : ص ٤٠٤.
٢ـ٣ : المصدر ذاته ؛ والصفحة ذاتها ..

والتفاصيل المروية عن كيفية اقتراض ما كان يعد للإفطار : مثيرة ؛ فلتراجع في مفصّلها للعبرة التاريخيّة والخلقية والاجتماعية .. لأننا هنـا مقتصرون على ما يظهر « مقتضى الحال » البلاغي . - يقول صاحب التفسير :

« فلما كان اليوم الرابع ، وقد قضوا نذرهم : أتى علي (ع) ومعـه الحسن والحسين(ع) إلى النبي(ص) ، وبهما - بالحسنين - ضعف ؛ فبكى رسول الله(ص) ؛ ونزل جبرائيل (ع) بسورة « هل أتى » ..

من أسباب النزول : تفهم مسألة « النذر » في الآية السابعة .. ويُفهم حصر الإطعام « بالمسكين واليتيم والأسير » .. في الآية الثامنة .. وتفهم العبرة من مجمل الآيات المصوَّرة لقصة الناذرين وبرِّهم بالنذر ضمن الظروف التي أحاطت بالوفاء ؛ وهي قوله : « إن الأبرار يشربون » ... إلى قوله : « وكان سعيُكم مشكوراً » .. كما في « مجمع البيان » .. وقـد مهَّد صاحبه لذلك بالإشارة إلى « أن الخاص والعام : روى أسباب نزول هذه الآيات » .. يعني من الآية الخامسة إلى نهـاية الآية الثانية والعشرين ..

لعل هـذه الإضاءة التاريخية : تُعاوِنُ في « ذوق المماثلة والتفاضل » ، الذي مثلنا له بقراءة جملة الأساور « وحُلّوا أساور من فضة » .. كما أرجو أن يكون إخراج السورة بهذه الصورة الإخراجية : معاوناً آخـر ؛ فتقابُلُ الآياتِ بأربع لغاتٍ ، أولاها لغة النزول : يظهر تماثلاً وتفاضلاً في الأصوات بين اللغات ؛ فلتنظر كلمة « إنسان » .. أو « دهـر » .. أو « أساور » .. أو « أبرار » .. أو « خضر » .. أو « جنة » .. أو « فضة » .. أو « ربهم » ... الخ ..

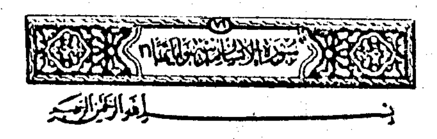
إن إمعان النظر في آيات « الأبرار » : يفتح للمُمْعِنِ أبواباً من « جمال البلاغة الممارسة » في هذه السورة ؛ وفي صواحبها جميعاً .. وكذلك في نصوص التراثِ العربي والإنساني (١) .. فهل نختار صحبة الأبرار ؟ !

---

١ - إن النص النبوي الذي ختمت به « رسالة الإعجاز » : من النصوص المقـدمة لاستكشاف هـذا الجمال ؛ ص (٦٦٣ - ٦٧٠) .. كما كان مـع نصوص « رسالة النـداء » : ص (٢٧ - ١٢٩) .. ولاحظ كذلك « تاج الإنشاء عـلى مبادىء التجميل وجمال التراث » : ص (٢٨٧ - ٣١٤) ..

Sura LXXVI.

Dahr, or Time.
or *Insān*, or Man.



In the name of God, Most Gracious, Most Merciful.

1. Has there not been
Over Man a long period
Of Time, when he was
Nothing—(not even) mentioned?

① هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا

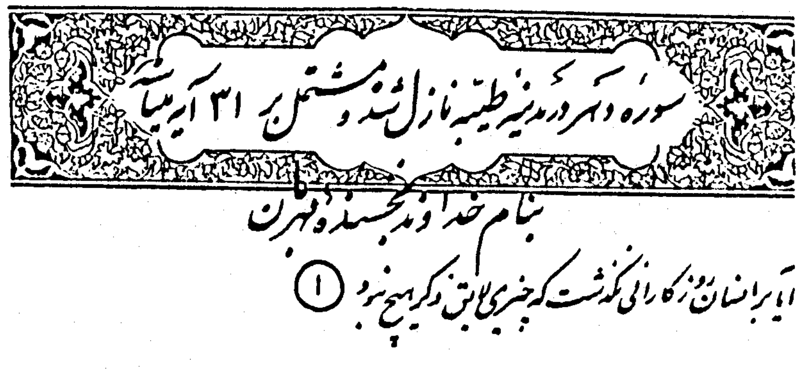
(٧٦) سُورَةُ الإِنسَانِ مَكِّيَّة
وآياتها ٣١ نزلت بعد الرحمن

SOURATE LXXVI

L'HOMME

Au nom de Dieu :
celui qui fait miséricorde,
le Miséricordieux.

[1] Ne s'est-il pas écoulé pour l'homme
un laps de temps durant lequel
il n'était pas quelque chose dont on fasse mention?


سوره دهر در مدینه طیبه نازل شد و مشتمل بر ۳۱ آیه میباشد
بنام خداوند بخشنده و مهربان
آیا بر انسان روزگاری نگذشت که چیزی لایق ذکر هیچ نبود ①

2. Verily We created
Man from a drop
Of mingled sperm,
In order to try him :
So We gave him (the gifts).
Of Hearing and Sight.

﴿٢﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا

3. We showed him the Way :
Whether he be grateful
Or ungrateful (rests
On his will).

﴿٣﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا

4. For the Rejecters
We have prepared
Chains, Yokes, and
A Blazing Fire.

﴿٤﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا

[2] Nous avons créé l'homme, pour l'éprouver,
d'une goutte de sperme et de mélanges .
Nous lui avons donné l'ouïe et la vue.

[3] Nous l'avons dirigé sur le chemin droit,
qu'il soit reconnaissant, ou qu'il soit ingrat.

[4] Nous avons préparé pour les incrédules
des chaînes, des carcans[1] et un Brasier.

ما او را از آب نطفه مختلط آفریدیم
دارای قوای چشم و گوش گردانیدیم (۲) ما حقیقت راه (حق و باطل) را با نشان دادیم حال خواه هدایت
پذیرد و شکر این نعمت گوید خواه آن نعمت را کفران کند (۳) ما برای کافر که فرمان حق و زنجیرها و آتش
سوزان مهیا ساخته‌ایم (۴)

5. As to the Righteous,
They shall drink
Of a Cup (of Wine)
Mixed with *Kafur*,—

٥ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا

6. A Fountain where
The Devotees of God
Do drink, making it
Flow in unstinted abundance.

٦ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا

7. They perform (their) vows,
And they fear a Day
Whose evil flies far and wide.

٧ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا

8. And they feed, for the love
Of God, the indigent,
The orphan, and the captive,—

٨ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا

⁵ Les hommes purs boiront à une coupe
dont le mélange sera de camphre.

⁶ Les serviteurs de Dieu boiront à des sources
que nous ferons jaillir en abondance.

⁷ Ils tenaient fidèlement leurs promesses,
ils redoutaient un Jour dont le mal sera universel.

⁸ Ils nourrissaient le pauvre, l'orphelin et le captif,
pour l'amour de Dieu.

نیکوکاران عالم (که مقصود در این آیه حضرت علی و فاطمه و حسنین و شیعیان خاص ایشان جمعاً
می‌باشند) در بهشت از شرابی نوشند که طبعش (در لطف و رنگ و بو) کافور است ⑤ از سرچشمه گوارائی بندگان خاص خدا
نوشند که باختیارشان هرکجا خواهند جاری میشود ⑥
آن بندگان بنذر و عهد خود وفا میکنند و از قهر خدا در روزی که شر و سختیش همه اهل محشر را فراگیر است میترسند ⑦
و هم بدوستی (خدا) بفقیر و اسیر و یتیم طعام میدهند ⑧

9. (Saying), " We feed you
For the sake of God alone :
No reward do we desire
From you, nor thanks.

﴿٩﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا

10. " We only fear a Day
Of distressful Wrath
From the side of our Lord.

﴿١٠﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا

11. But God will deliver
Them from the evil
Of that Day, and will
Shed over them a Light
Of Beauty and
A (blissful) Joy.

﴿١١﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا

12. And because they were
Patient and constant, He will
Reward them with a Garden
And (garments of) silk.

﴿١٢﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا

[9] « Nous vous nourrissions pour plaire à Dieu seul ;
nous n'attendons de vous ni récompense, ni gratitude.

[10] Oui, nous redoutons, de la part de notre Seigneur,
un Jour menaçant et catastrophique ».

[11] Mais Dieu les a protégés du malheur de ce Jour.
Il leur fera rencontrer la fraîcheur et la joie.

[12] Il les récompensera pour leur patience
en leur donnant un Jardin
et des vêtements de soie.

و (گویند) ما فقط برای رضای خدا بشما طعام میدهیم
و از شما هیچ پاداش و سپاسگزاری نمی طلبیم (۹) ما از قهر پروردگار خود بروزیکه از رنج و سختی آن رخسار خلق درهم و غمگین است
میترسیم (۱۰) خدا هم از شر و فتنه آن روز آنان را محفوظ داشت و آنها را روی خندان و دل شادان عطا فرمود
(۱۱) و پاداش آن صبر کامل (در ایثار) شان باغ بهشت و لباس حریر بهشتی لطف فرمود (۱۲)

13. Reclining in the (Garden)
On raised thrones,
They will see there neither
The sun's (excessive heat)
Nor (the moon's) excessive cold.

﴿١٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا

14. And the shades of the (Garden)
Will come low over them,
And the bunches (of fruit),
There, will hang low
In humility.

﴿١٤﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا

15. And amongst them will be
Passed round vessels of silver
And goblets of crystal,—

﴿١٥﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا

16. Crystal-clear, made of silver:
They will determine
The measure thereof
(According to their wishes).

﴿١٦﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا

13 Là, accoudés sur des lits d'apparat,
ils n'auront à subir
ni soleil ardent, ni froid glacial.

14 Ses ombrages seront à proximité
et ses fruits inclinés très bas, pour être cueillis.

15 On fera circuler parmi eux
des vaisseaux d'argent et des coupes de cristal,

16 de cristal d'argent
et remplies jusqu'au bord.

کرد آن

بهشت بر تختها تکیه زنند و در آنجا نه آفتابی (سوزان) ببینند و نه سرمای زمهریر (۱۳) و سایه درختان
بهشتی بر سر آنها و میوه‌هایش در دسترس و به اختیار آنهاست (۱۴) و (ساقیان زیبای حور و غلمان) جامهای سیمین و کوزه‌های
بلورین بر آنها دور زنند (۱۵) که آن بلورین کوزه‌ها (در رنگ) نقره خام و به اندازه تمنا (اهل بهشت) مقدر کرده‌اند (۱۶)

17. And they will be given
To drink there of a Cup
(Of Wine) mixed
With Zanjabil,—

﴿١٧﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا

18. A fountain there,
Called Salsabil.

﴿١٨﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا

19. And round about them
Will (serve) youths
Of perpetual (freshness):
If thou seest them,
Thou wouldst think them
Scattered Pearls.

﴿١٩﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ
حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا

20. And when thou lookest,
It is there thou wilt see
A Bliss and
A Realm Magnificent.

﴿٢٠﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ
نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا

[17] Ils boiront une coupe
dont le mélange sera de gingembre,

[18] puisé à une source nommée là-bas : « Salsabil ».

[19] Des éphèbes immortels circuleront autour d'eux.
Tu les compareras, quand tu les verras,
à des perles détachées.

[20] Quand tu regarderas là-bas,
tu verras un délice et un faste royal .

و در آنجا شرابی که طبعش (چون) زنجبیل گرم و عطرآگین است به آنها بنوشانند (۱۷) که در آنجا چشمه ایست
که سلسبیلش نامند (۱۸) و در آن بهشتیان پسرانی زیبا که تا ابد نوجوانند و خوش سیما به خدمت می گردند که
آنها چون بنگری گمان بری که لؤلؤ منثورند (۱۹) و چون آنجا نگاه بنگری بهشتی عالی پر نعمت و کشوری
بی نهایت بزرگ خواهی یافت (۲۰)

21. Upon them will be
Green Garments of fine silk
And heavy brocade,
And they will be adorned
With Bracelets of silver;
And their Lord will
Give to them to drink
Of a Wine
Pure and Holy.

22. " Verily this is a Reward
For you, and your Endeavour
Is accepted and recognised."

23. It is We Who
Have sent down the Qur-an
To thee by stages.

(٢١) عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا

(٢٢) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا

(٢٣) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا

[21] Ils porteront
des vêtements verts, de satin et de brocart .
Ils seront parés de bracelets d'argent.
Leur Seigneur les abreuvera d'une boisson très pure.

[22] « Cela vous est accordé comme une récompense.
Votre zèle a été reconnu ! »

[23] Oui, nous avons fait descendre sur toi le Coran .

بر بالای بهشتیان لطیف دیبای سبز و حریر سطبر است و بر دستهاشان
دستبند نقره خام و خدایشان شرابی پاک و گوارا بنوشانند (۲۱) این بهشت بهترین نعمت و عظمت حقیقت
پاداش اعمال شماست و سعیتان (در راه طاعت حق) مشکور و مقبول است (۲۲) ای رسول محققاً ما این قرآن
عظیم الشأن را بر تو فرستادیم (۲۳)

24. Therefore be patient
With constancy to the Command
Of thy Lord, and hearken not
To the sinner or the ingrate
Among them.

﴿٢٤﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا

25. And celebrate the name

Of thy Lord morning
And evening,

﴿٢٥﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا

26. And part of the night,
Prostrate thyseif to Him;
And glorify Him
A long night through.

﴿٢٦﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا

[24] Accepte donc le décret de ton Seigneu
N'obéis ni au pécheur,
ni à l'ingrat qui se trouve parmi eux.

[25] Invoque le Nom de ton Seigneur
à l'aube et au crépuscule.

[26] Prosterne-toi, la nuit, devant lui.
Célèbre longuement ses louanges, durant la nuit.

پس اکنون بر طاعت حکم پروردگار صبور و شکیبا باش و هیچ از مردم گنهکار و کفر کیش
اطاعت مکن (۲۴) و یاد کن
نام خدا را صبح و شام (۲۵) و شب را برخی (در نماز) بسجده خدا بپرداز و شام دراز را به تسبیح
و ستایش او صبح گردان (۲۶)

27. As to these, they love
The fleeting life,
And put away behind them
A Day (that will be) hard.

﴿٢٧﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا

28. It is We Who created
Them, and We have made
Their joints strong;
But, when We will,
We can substitute
The like of them
By a complete change.

﴿٢٨﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا

29. This is an admonition:
Whosoever will, let him
Take a (straight) Path
To his Lord.

﴿٢٩﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا

[27] Ils aiment la vie éphémère
et ils négligent un Jour grave.

[28] Nous les avons créés;
nous avons fixé solidement leurs jointures;
mais lorsque nous le voudrons,
nous les remplacerons
par des êtres semblables à eux.

[29] Ceci est vraiment un Rappel.
Que celui qui le veut
prenne donc un chemin vers son Seigneur;

این مردم کافر غافل همه دنیای نقد عاجل را دوست میدارند و آن روز (قیامت)
سخت سنگین را بکلی از یاد میبرند (۲۷) ما ایشان را آفریدیم و محکم بنیان ساختیم و هرگاه بخواهیم همه را فانی ساخته و
بجایشان قومی دیگر خلق میکنیم (۲۸) این آیات پند و تذکر است تا هرکه بخواهد راهی بسوی خدای خویش گیرد (۲۹)

30. But ye will not,
Except as God wills ;

For God is full of
Knowledge and Wisdom.

31. He will admit
To His Mercy Whom He will;
But the wrong-doers,
For them has He prepared
A grievous Penalty.

٣٠ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا

٣١ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ
أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا

[30] mais vous ne le voudrez
que si Dieu le veut.

Oui, Dieu sait tout et il est sage.
[31] Il fait entrer qui il veut dans sa miséricorde
et il a préparé pour les injustes
un châtiment douloureux.

و آنها (یعنی اولیاء حق) چیزی جز آنچه خدا بخواهد نمیخواهند البته خدا باحوال خلق دانا و بصلاح بندگان
آگاه است (۳۰) خدا هر که را خواهد در رحمت خود داخل کند و برای ستمکاران ظالم عذابی دردناک مهیا ساخته است (۳۱)

مقتضى حال المعاني

في

بلاغة الخبر

أ – جناح الخبر : ماهيته وخفقه

ب – أحوال جملة الخبر ؛

جـ – أحوال الجمل المشتركة بين الخبر والإنشاء

د – الإعجاز ورسالة الإيجاز والمجاز

هـ – جمال البلاغة الممارسة وتجميل نصوصها

بِلَطِيفٍ ، مِن الدموعِ ، يُذاعُ
قَطْرَةٌ مِن نَدَى الحبيبِ اتّساعُ

تُولَدُ الشمسُ والمَجرّاتُ تشدو :
مَوْلِدُ الوحيِ بالنبيِّ ارتفاعُ

١٩٨٧/١١/١

١٤٠٨/٣/١٠

مكونات الجملة وعلائقها

نذكّر بما بدأبا به « جناح الإنشاء » ؛ فقد قلنا : « مَثَلُ « علم المعاني » مثل طائر ؛ جناحاه الإنشاء والخبر » •• ولقد عرفنا « خفق جناح الإنشاء وماهيته » في « بلاغـة الإنشاء » •• وبقي أن نتعرف « خفق جنـاح الخبر وماهيته » •• فما هو الخبر •• ؟

سنرى تفاصيلَ جوابنا في معالجـة : أحوال الجملة الخبريـة ؛ إسناداً ؛ وتعلّقاً ؛ وقصراً ••• كما سنرى أحـوال الجملة المشتركة ، مثل جمل : الوصل والفصل ، والإطناب والمساواة والإيجاز •• وسنتوقف مع رسالة الإيجاز ؛ لنبلغ مستويات المجاز والإعجـاز •• ونختم الكتاب بما دعوناه : « جمال البلاغـة الممارسة وتجميل نصوصها » ••

كنا مع الإنشاء الطلبي : نراسـل المستقبل من المطالب •• وكنا مع الإنشاء غير الطلبي : نحاور الحاضر من المشاغل •• وهنا مع الخبر : نعـود إلى الأسس والنتائج المستقرة في ماضٍ جاهز للانبعاث دائماً ••

قد يكون الفصل بين الخبر والإنشاء : لغايات تربوية ؛ يتعلم منها المتعلمون قواعد المعاني ، التي تبصرهم بمكونات الجملة ؛ ليفهموا : المسند إليه والمسند ، وما يرافقهما مـن متممات •• ويتعلمون بذلك أساليب البنـاء بتعليق الكلمات بعضها ببعض ••

وهذا التعرف لواقع البناء : تحرّاه السّابقون في كلام البلغاء ؛ ومن ذلك الكلام ، الذي نسميه « البلاغة الممارسة » : استنبطوا أصول القواعد •• ونمثل لذلك ببيتين من « عمر بن الفارض » ، هما :

يا صاحبي •• هذا العقيقُ •• فقفْ به
متوالِهاً •• إن كنتَ : لستَ بوالِهِ

وانظـُـرْه عنــي •• إنّ طـرفي عاقـَه

إرســال دمعي فيه عــن إرســاله ••

في كل من البيتين : يتجاور الإنشاء والخبر ؛ ففي البيتين : ثماني جمــل ؛ منها ثلاث إنشائية ، بأسلوب النداء « يا صاحبي » •• وأسلوب الأمر « فقف به •• وانظره عني » ••• وفيها خمسُ جمل خبرية ، هي الجمل الباقية •• ونأخذ الأخيرة منها ؛ لنرى مكونات الجملة ، ونوع الإسناد والتعلق فيها •• وهذه الجملة :

« إن طرفي : عاقه إرسال دمعي فيه عن إرساله » ••

هذه جملة مركبة من جملتين ، باعتبار الثانية منهما خبراً •• والتفصيل :

إن : حرف مشبه بالفعل ؛ تنصب المبتدأ وترفع الخبر ••

طرفي : طرف : اسم إن ، منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم ، منع من ظهورها اشتغال المحــل بالحركة المناسبة لياء المتكلم ؛ التي هي : مضاف إليه •• لأن « طرف » : مضاف •• فأين خبر إن ؟ ••

إن الجملة الثانية : في محــل رفــع خبر إن •• والتقدير : « إن طــرفي معوّقٌ » •• فيكون « الطرف » : مسنداً إليه ؛ لأنه المبتدأ ، أصلاً •• ويكون « معوّق » : مسنداً ؛ لأنه خبر المبتدأ ، قبل أن تدخل الناسخةُ على الجملة ••

لكن المسندَ الذي هو « معوّق » في الجملة الكبيرة « إن طرفي معوّق » : محوّلٌ عــن جملة فعلية صغيرة ، هي التي عرفناها « عاقــه إرسالُ دمعي فيــه عن إرســاله » ••

وتحليل الجملة : يظهــر كيفية الإسناد الخبري ••• ومكونات الجملة •• وكيفية التعليق فيها •• وهــذه الكيفيات التي نسائل عنها الجملة الصغيرة : هي أبواب الخبر التي فتحها الباحثون في علم المعاني ولن يغلقوها ؛ لأنها الكلام ••

فإذا قلنا ببساطة : هذه جملة فعلية خبرية ؛ المسند فيها ، هو الفعل « عاق »..
والمسند إليه ، هو « إرسالُ » .. وما بقي من مكوناتها ، هو : المتممات ، أو
الروابط ، أو القيود ، أو الفضلة .. أما يصحّ السؤال : وما نوع الإسناد بين
الفعل والفاعل ، أي المسند والمسند إليه ؟ .. أهو حقيقي أم مجازيّ .. ؟ ..
ثم ما غرضه .. أهو لإفادة المخاطب : فائدة الخبر .. أم لازم فائدة الخبر ، بمعنى
إعلام المخاطب أن المتكلم يعلم حكم الخبر .. ؟ ثم ما طريقته .. أم مجرّد من
التوكيد .. أم مؤكد بمؤكد واحد أم أكثر من مؤكد ؟ ! ..

إن الإجابة المفصلة على هذه الأسئلة : قدمها المهتمون بعلم المعاني ، بصور
اقتضتها أحوالهم ومستوياتهم .. ومنها صورة المعالجة التي قدمها القزويني في كتاب
الإيضاح ؛ وهي صورة مدرسية واضحة ؛ استغرقت حوالي عشرين صفحة من
كتابه ؛ (٩١ - ١٠٨) .. وسمّاها : « القول في أحوال الإسناد الخبري » ؛
وذلك هو الباب الأول من أبواب « علم المعاني » ..

لكن جملة « ابن الفارض » البسيطة : تضمّنت ، كما رأينا مسنداً إليه ،
هو « إرسالُ » .. وقد جاء متأخراً عن مفعوله .. « عاقه إرسالُ » .. فلماذا
جاءَ متأخراً ، وحقّه التقدم .. ؟ .. أما يمكن أن يجيء بصور أخرى .. ؟

والجواب على هذا : في الباب الثاني من أبواب علم المعاني ، الذي سمّاه
القزويني في « الإيضاح » : أحوال المسند إليه .. وقد عالجه بستين صفحة ..
(١٠٩ - ١٦٨) ..

والجملة تقوم بركنيها ، مسنداً إليه ومسنداً .. والمسند ، في جملة ابن الفارض
البسيطة ، هو « عاق » .. وقد جاء متصلاً بضمير عائد إلى مسند إليه سابق
للفعل « إن طرفي عاقه » .. فالهاء : عائدة إلى الطرف .. و « عاق » : فعل واقع
بين الضمير المتصل به .. والاسم السابق له ، المتصل بدوره بضمير المتكلم
« طرفي » .. والسؤال : لماذا كانت هذه الوقائع البنائية ؟ .. ما هي أحكام
« المسند » في قواعد الإسناد ؟

والجواب على هذا : في الباب الثالث من أبواب علم المعاني ، وهو « القول في أحــوال المسند » •• وقــد عولج في « الإيضاح » بست وعشرين صفحة •• (١٦٩ - ١٩٤) ••

ونظل مع جملتنا البسيطة : لنرى إذا كانت تجتذب أبوابَ الخبر كلَّها •• ففيها متممات لمعاني المسند إليه والمسند ؛ ومن هذه المتممات : أربعــة ضمائر ، واسمان ، وحرفا جر •• وحرف مشبه بالفعــل ؛ يعني تعادل عدد الركنين خمس مرات تقريباً •• ولا بد أن يكون لهذا الحجم البنيوي من المتممات : دوراً في تأدية المعنى •• فلنتأمل مجدداً بكيفية بناء الجملة •• ولننظر في أماكن هــذه المتممات منها ؛ •• « عاقه إرسالُ دمعي فيه عن إرساله » ••

إن الضمير الأول : يتصل بالمسند ، مفعولاً له « عاقه » •• لكنه يذهب بنا إلى ما قبل مسنده ؛ ليقول لنا « إنه يعود إلى طرف الشاعر ، أي عينيه » •• وبهذا الذهاب : يجتذب الجملة الاسمية إلى الفعلية ؛ فيزداد اتساع البناء ليكون جملةً مركبة ، هي : « إن طرفي عاقه إرسالُ دمعي فيه عن إرساله » •••

إن ضمير الهاء الثاني : متصل بحرف الجرّ « إرسال دمعي فيه » •• وهو يرجع إلى اسمٍ بعيد ، يتجاوز حدود البيت الذي ندرس جملته إلى بيت سابقٍ يتحدث عن مكان معلوم هو « العقيق » ؛ « هذا العقيق فقف به •• وانظره عني •• إن طــرفي عاقه إرسالُ دمعي فيه •• »

وضمير الهاء الثالث ، من الجملة البسيطة ، متصل باســمٍ مضاف ، وهو مضاف إليه « إرساله » •• وهو يعود إلى « الطــرف » الذي عوق عن الإرسال للنظر في أنحاء « العقيق » بسبب الدموع المرسلة التي ملأت الطرفَ فلم يعــد بإمكانه النظر •• ولذلك طلب الشاعر من صاحبه أو مصاحبه : أن ينوب عنــه بالنظر وإشباعه بالتأمل من مكان الذكريات المقدس « العقيق » ••

أما حرف الجر « عن » ؛ فقد جرّ المصدر « إرسال » •• إلى الفعل « عاق »

وعلقه به ؛ فتكون الصورة كما يقتضيها المعنى : « إن طرفي عاقه عن إرساله •• إرسالُ دمعي فيه » •• وكذلك الحرف « في » : يجرُّ الضمير بعده ؛ ليعلقه بالمصدر « إرسال » ••

والسؤال : لماذا أقيمت هذه التعليقات على هذه الصورة ؟ أليس من الممكن أن تكون على صور أخرى ؟

والجواب في الباب الرابع من أبواب علم المعاني ، سمي في الإيضاح : « أحوال متعلّقات الفعل » •• وعولج بحوالي عشرين صفحة•• (١٩٥–٢١٢)••• لكن الجرجاني في « دلائل الإعجاز » : رأى « النظم » كله في « التعليق » ، كما أوضح في مقدمة كتابه •• وفي الفعل السابق لخاتمته ، الذي سُمِّيَ : « بيان علل التفاضل في نظم الكلام ، وهو مقصد هذا العلم » •• (ص ٤٠٣ – ٤١٤) ••

إن الجملة البسيطة « عاقه إرسالُ » : لم تعد بسيطة ، بسبب متمماتها ؛ فقد مدت تلك المتممات : شبكة صلاتٍ مع جمل أخرى ؛ وأقامت ، بذلك ، علائق بين معناها ومعاني تلك الجمل ؛ فجعلتنا أمام « وحدة بلاغية » •• أو « رسالة توصل قضية » •• وصارت ببساطتها الجذابة ملتقى الجمل السبع الأخرى ، التي سبقتها في النص الذي انطلقنا منه •• ولا بأس من التأمل بالنصِّ كله ، وبصورة مجمَّلة ، أي مفروزة الجمل ••

١ – يا صاحبي ••
٢ – هذا العقيقُ ••
٣ – فقِفْ به متوالِهاً
٤ – إنْ كنتَ ••
٥ – لستَ بواله ••••
٦ – وانظرْه عني ••
٧ – إن طرفي •••
٨ – عاقه إرسال دمعي فيه عن إرساله •••

الجملة الخبرية الأولى ، من هذه الجمل ، هي الجملة الثانية ؛ « هذا العقيق » ؛ هذا : بمثابة المسند إليه المعرف بالإشارة ؛ العقيق : المسندُ ؛ لأنه الخبرُ الإعرابيُّ من وجه •• والعقيق : اسمُ مكانٍ ، له في خاطر الشاعر : ذكريات" وذكريات ؛ لذلك : فاضت عيناه بالدموع ، ولم يعد قادراً على رؤية شيء من مناظر ذلك المكان المثير ؛ فطلب من « صاحبه » : النيابة عنه في التملي بالنظر إلى ذلك المكان ، الذي طلب منه الوقوف به إظهار « الوله » وتكلفه ، إن لم يكن شديد الولع والشوق إلى الوقوف والنظر بهذا العقيق ••

والسؤال : لماذا أحاط « العقيق » بهذا التمييز والخصيص •• ؟ وهل لاسم الإشارة « هذا » معنى « القصر » الذي يتطلبه « الإسناد •• والتعليق » في جملة الخبر ••؟

والجواب : في الباب الخامس من أبواب علم المعاني ، وهو ختام أبواب جملة الخبر المفردة البسيطة •• وقد عولج في « الإيضاح » : بأربعة عشر صفحة ، (٣١٢ – ٢٢٦) •• وعولج في « دلائل الإعجاز » بثلاث وعشرين صفحة ، (٢٥٢ – ٢٧٣) •• ومعالجاته في الكتب الحديثة معلومة" ؛ أذكر منها معالجة واضحة التطور ، لبكري شيخ أمين ، في كتابه « علم المعاني » ، وقد جاءت مركزة بعشر صفحات ؛ (١٧٥ – ١٨٤) ••

أذكر هذه المعالجات الثلاث : لأغري بالموازنة بينها ؛ فهي ثلاثة أساليب مختلفة في معالجة المفهوم الواحد •• ونرجىء مزايا الموازنة إلى ما بعد إتمام المصور الكليِّ لأبواب هذا العلم من بلاغة المعاني في جناح الخبر •••

أشرت من البداية : إلى تجاور الإنشاء والخبر في جمل البيتين •• وعنيت أن التناغم بين الخبر والإنشاء : لا يخلو منه كلام ؛ وهذا ما صورته بالمجاز الاستعاري ؛ فقد استعرت للمعاني جناحي صقر يحلق بهما ؛ أحدهما جناح الخبر •• والآخر جناح الإنشاء •• وألزمت بواقعية الكلام التي هي : الخبر والإنشاء ••

وجمل نصنا المؤلف من بيتي ابن الفارض : أظهرت هذا التعاون بين جناحي الخبر والإنشاء لمطابقة مقتضى الحال •• فلنتأمل بعلائق الجمل ؛ بعضها ببعض ، كما تأملنا بالعلائق بين مكونات الجملة المفردة •• فماذا نجد ؟

نلاحظ التعاطف بين الجملة الثالثة والسادسة •• كما نلاحظ الإيجاز بالقصر في الجملة الثانية •• فلماذا كان العطف ؟ ولماذا كان الإيجاز بالقصر •• ؟

إن جواب السؤال الأول وما يتعلق به : في الباب السابع من أبواب علم المعاني ؛ وهو « القول في الفصل والوصل » ؛ وعولج في « الإيضاح » بأربع وثلاثين صفحة ، (٢٤٦ – ٢٧٩) •• كما عولج في « دلائل الإعجاز » بحوالي عشرين صفحة ، (١٧٠ – ١٩٢) ••

وجواب السؤال الثاني وما يتعلق به : في الباب الثامن والأخير من أبواب علم المعاني ؛ وهو « القول في لإيجاز والإطناب والمساواة » ؛ وقد عولج بحوالي أربعين صفحة ؛ (٢٨٠ – ٣٢١) ••

وبهذا الباب ختم علم المعاني في كتاب « الإيضاح » •• لكن « دلائل الإعجاز » ، كما يشيرُ اسمه ، يقول شيئاً زائداً على هذه الأساليب ، وهو « **مجدّد إعجاز القرآن** » •• والجرجاني : يناضل لإثبات هذا المستوى البياني المغاير لكل ما سواه ، اشتمالاً لأسس ذلك « السوى » من بيان العرب ، وتجاوزاً لها بما لا قِبَلَ لهم به من أساليب البيان •• ويطلب قراءة كتابه ؛ ليجدَ ملتمس الإعجاز طريقه ••

لذلك أحببت التوقف مع « مدخله المركّز إلى دلائل الإعجاز في علم المعاني » •• ورأيت موازنة ذلك « بمدخل الألسنية » ، الذي وضعه مترجمه •• فهما تتحدثان عن « تعليق الكلام » ، أو العلائق الناشئة بين معاني المفردات ••• ورأيت أن تكون تعريفات « الإيضاح » المدخلية إلى علم المعاني : موازنة مع فصل « تفاضل الكلام وعلله » من « دلائل الإعجاز » ؛ لأن « الجرجاني » ، فيه : يجعل الخبر هو الأصل والأول ••

إن التأمل بهذه النصوص الأربعة •• وبما توصلنا إليه من التأني معها : يعلل لنا « أسراراً » من اهتمام « أهل اللغات » بكيفية إقامة العلائق بين أجزاء الكلام •• ويوضح لنا « قِيماً » من عملنا الموازِن بين المعالجات بميزان « علم المعاني ومقتضى الحال » ذاته ؛ ••

أرجو أن تتذكر ما جرى في « أسلوب النداء » من القسم الأول ؛ لنحتفظ باتزانِ آرائنا : ونحـن نرى « القزويني » ، ثانيةً ، في موقفِ « المحاسَبِ » بمسألةِ « المطابقة بين براهينه وتتائجه » ... وكذلك نرى « الجرجاني » ، محاسَباً على كلامٍ كثير لا جدوى له في مكانه ، والمثال من الفصل الذي يعتبره « الأعظم والأهـم » ؛ (ص ٤٠٣) .. لكننا ، مع ذلك ، نراه شيخاً لمؤسس « الألسنية » الحديثة ، كما نقل إلينا صديقنا الدكتور يوسف غازي ، في تقديم ترجمته ..

أربعـة نصوص لإمعـان النظـر

والإشارات : لنكون في ألَـقِ الانتباه ؛

١ ــ **خـذ النص الأول** ؛ وهو نص « القزويني ، في : الإيضاح » ؛ وقـد أخرج بثلاثة فروع ؛ (إيضاح : ٨٤ ــ ٩٠) ..

أولها : لتقنين أبواب المعـاني بثمانية ؛ خمسة منها للخبر وحـده ؛ وواحد للإنشاء ، وحده ؛ واثنان يشترك فيهما جناحا الكلام : الخبر والإنشاء .. وهو ، كما نرى ، سليمٌ من وجهة مدرسية ..

وثانيها : لإيضاح الحجة في صدق الخبر وكذبه ؛ وقد عرض القزويني آراء : الجمهور .. والنَظَّام من المعتزلة .. ثم الجاحظ .. وتوقف مع نوع من الخبر « ليس بصادق ولا بكاذب » .. وجاء باحتجاج أصحاب الآراء وناقش بعضها .. ولا بأس من التأمل بقوله ، في ختام الفقرة ، ما قبل الأخيرة : « فثبت أن من الخبر ما ليس بصادق ولا بكاذب » .. هذه نتيجة الاحتجاج بقوله تعالى : « أَفْتَرَى على الله كذباً أم به جِنّةٌ ؟ » .. فهل بين المثال والنتيجة : مطابقة ؟ !

تترك لدقـة الملاحظة : مهمة الجواب والاكتشاف .. ونعطي وضوحاً في « رسالة الإعجاز بالإيجاز » ..

وثالثهما : لإبانة المواقف التي يصح للمبتدىء ومَن في حكمه ، أن يقلّدَ صاحبَ الذوقِ والمعرفةِ بالبلاغة ؛ ثم للتمييز بين أنواع من يسمعون البلاغة من أصحابها ؛ ثمَّ للحضِّ على الاستنباط والتجديد .. والآراء الثلاثة ، على التوالي : للسكاكي .. والجرجاني .. والجاحظ .. فانظر عبارة « الكتاب القديم » ..

عبارة الكتاب القديم

مقدمة القزويني في الإيضاح

١ - علم المعاني والخبر

وهو علم يُعْرَفُ بـه أحوالُ اللفظِ العربي التي بها يُطابق مُقْتَضَى الحال . وقيل « يعرف » دون « يعلم » رعايةً لما اعتبره بعض الفُضلاء من تخصيص العلم بالكليات والمعرِفة بالجزئيات ، كما قال صاحب القانون [١] في تعريف الطب : « الطبُّ علم يُعْرَفُ به أحوالُ بَدَنِ الإنسان » وكما قال الشيخ أبو عمر [٢] رحمه الله « التصريفُ علمٌ بأصولٍ يُعْرَف بها أحوال أبنيةِ الكَلِمِ » .

وقال السكاكي « علمُ المعاني : هو تَتَبُّعُ خَوَاصِّ تراكيب الكلام في الإفادة ، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ؛ ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما تقتضي الحالُ ذكره » .

وفيه نظر ؛ إذ التتبع ليس بعلم ، ولا صادق عليه ؛ فلا يصح تعريف شيء من المعلوم به . ثم قال « وأعني بالتراكيب تراكيب البلغاء » . ولا شك أن معرفةَ البليغِ من حيث هو بليغٌ متوقفةٌ على معرفة البلاغة . وقد عرفها في كتابه بقوله « البلاغةُ هي بلوغُ المتكلم في تأدية المعنى حَدّاً له اختصاص بِتَوْفِيَةِ

---

(١) صاحب القانون : الرئيس ابن سينا ، وكتابه « القانون » في علم الطب وهو أول كتاب طبع باللغة العربية ؛ طبع أولا في إيطاليا ، ثم طبع في بولاق مصر .

(٢) أبو عمر : هو ابن الحاجب صاحب « الكافية » في النحو ، و « الشافية » في الصرف .

خَوَاصّ التراكيب حَقَّها . وإيراد أنواع التشبيه . والمجاز . والكناية على وجهها » . فإن أراد بالتراكيب في حد البلاغة تراكيب البلغاء – وهوَ الظاهر – فقد جاء الدورُ ، وإن أراد غيرَها فلم يبينه ، على أن قوله « وغيره » مبهم لم يبين مراده به .

ثم المقصودُ من علم المعاني منحصر في ثمانية أبواب :

أولها : أحوال الإسناد الخبري .

وثانيها : أحوال المُسْنَدِ إليه .

وثالثها : أحوال المُسْنَد .

ورابعها : أحوال متعلقات الفعل .

وخامسها : القَصْر .

وسادسها : الإنشاء .

وسابعها : الفَصْلُ والوَصْلُ .

وثامنها : الإيجاز والإطناب والمساواة .

وَوَجْهُ الحَصْرِ : أن الكَلامَ إما خبر أو إنشاء ؛ لأنه إما أن يكون لِنِسْبَتِهِ خارجٌ تطابقه أو لا تطابقه ، أو لا يكون لها خارج . الأول الخبر ، والثاني الإنشاء . ثم الخبر لا بُدَّ له من إسناد ومُسْنَدٍ إليه ومسند . وأحوال هذه الثلاثة هي الأبواب الثلاثة الأولى ، ثم المسند قد يكون له متعلّقات إذا كان فِعْلاً ، أو متصلاً به ، أو في معناه ، كاسم الفاعل ونحوه ، وهذا هو الباب الرابع . ثم الإسناد والتعلقُ كلٌّ واحدٍ منهما يكون إما بقصر ، أو بغير قصر ، وهذا هو الباب الخامس . والإنشاء هو الباب السادس . ثم الجملة إذا قُرِنَتْ بأخرى فتكون الثانية إمّا معطوفةً على الأولى ، أو غير معطوفة ، وهذا هو الباب السابع . ولفظ الكلام البليغ إما زائدٌ على أصْلِ المُرَادِ لفائدةٍ ، أو غير زائدٍ عليه ، وهذا هو الباب الثامن .

ب ـ تنبيه اول

في صدق الخبر وكذبه

اختلف الناسُ في انحصار الخبر في الصادق والكاذب :

فذهب الجمهور إلى أنه منحصر فيهما ، ثم اختلفوا فقال الأكثر منهم : صِدْقُهُ مطابقةُ حكمِهِ للواقع ، وكذبُهُ عدمُ مطابقةِ حكمه له . هذا هو المشهور وعليه التعويل .

وقال بعض الناس [١] : صدقُهُ مطابقةُ حكمِهِ لاعتقادِ المخبِرِ صواباً كان أو خطأ ، وكذبُهُ عدمُ مطابقة حكمه له .

واحْتَجَّ بوجهين :

أحدهما : أن مَنِ اعتقَدَ أمراً فأخبر به ثم ظهر خَبَرُه بخلاف الواقع يقال : ما كذب ، ولكنه أخطأ ، كما روي عن عائشة – رضي الله عنها – قالت فيمن شأنه كذلك « ما كَذَبَ ولكنه وَهِم » .

ورُدَّ بأن المنفيَّ تَعَمُّدُ الكذبِ ، لا الكذب ، بدليل تكذيب الكافر – كاليهودي – إذا قال : الإسلام باطل ، وتصديقه إذا قال : الإسلام حق ، فقولها « ما كذب » مُتأوَّل بما كَذَبَ عَمْداً .

الثاني : قولُه تعالى : « وَاللهُ يَشْهَدُ إنَّ المُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ[٢] » كَذَّبهم في قولهم « إنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ [٣] » وإن كان مطابقاً للواقع ، لأنهم لم يعتقدوه .

---

(١) هو ابو اسحاق ، ابراهيم بن سيار ، المعروف : بالنظام ؛ شيخ من شيوخ المعتزلة ، توفي بين (٢٢١ – ٢٣١ هـ) ..

(٢–٣) سورة المنافقين ، الآية : ١

وأجيب عنه بوجوه :

أحدها : أن المعنى نشهد شهادةً واطأَتْ فيها قلوبُنَا ألسِنَتَنَا . كما يترجم عنه « إنّ » ، واللامُ ، وكونُ الجملةِ اسميةً في قولهم « إنك لَرَسُولُ الله »[4] فالتكذيبُ في قولهم « نشهد » وادعائِهِمْ فيه المواطأةَ ، لا في قولهم « إنكَ لَرَسُولُ اللهِ »[5] .

وثانيها : أن التكذيبَ في تسميتهم إخبارَهُمْ شهادةً ؛ لأن الإخبار إذا خَلاَ عن المُوَاطأة لم يكن شهادةً في الحقيقة .

وثالثها : أن المعنى لَكَاذِبُون في قولهم « إنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ »[6] عند أنْفُسِهِمْ ؛ لاعتقادهم أنه خبر على خلاف ما عليه حالُ المُخْبَرِ عنه .

وأنكر الجاحظُ انحصارَ الخبرِ في القسمين ، وزعم أنه ثلاثة أقسام : صادق ، وكاذب ، وغيرُ صادقٍ ولا كاذبٍ ؛ لأن الحكم إما مطابق للواقع مع اعتقاد المخبرِ له أو عدمه . وإما غير مطابق مع الاعتقاد أو عدمه ؛ فالأول – أي المطابق مع الاعتقاد – هو الصادق ، والثالث أي غير المطابق مع عدم الاعتقاد – هو الكاذب ، والثاني ، والرابع – أي المطابق مع عدم الاعتقاد ، وغير المطابق مع عدم الاعتقاد – كل منهما ليس بصادق ولا كاذب .

فالصدق عنده : مطابقةُ الحكم للواقع مع اعتقاده . والكذب : عدم مطابقته مع اعتقاده . وغيرُهما ضربان : مطابقته مع عدم اعتقاده ، وعدم مطابقته مع عدم اعتقــاده .

واحتج بقوله تعــالى : « أفْتَرَى عَلى اللهِ كَذِباً أمْ بِهِ جِنَّةٌ ؟ »[7] فإنهم حَصَرُوا دَعْوَى النبيِّ – صلى الله عليه وسلم – الرِّسَالَةَ في الافتراءِ

(٤–٦) : المنافقون(١)
(٧) سورة ســبأ : ٨ ؛

والإخبارِ حالَ الجنون ، بمعنى امتناع الخلو ، وليس إخباره حال الجنون كذباً ؛ لِجَعْلِهِمْ الافتراء في مقابلته ، ولا صدقاً ؛ لأنهم لم يعتقدوا صدقه ، فثبتَ أن من الخَبَرِ ما ليس بصادق ولا كاذب .

وأجيب عنه بأن الافتراء هو الكذبُ عن عَمْدٍ ؛ فهو نَوْعٌ من الكذب ؛ فلا يمتنع أن يكون الإخبار حالَ الجنون كذباً أيضاً ؛ لجواز أن يكون نوعاً آخر من الكذب ، وهو الكذب لا عن عمد ؛ فيكون التقسيم للخبر الكاذب ، لا للخبر مطلقاً ، والمعنى أفْتَرَى أم لم يَفْتَرِ ؟ وَعَبَّرَ عن الثاني بقوله : « أمْ بِهِ جِنَّةٌ ؟ » لأن المجنون لا افتراء له .

ج ـ تنبيه آخر

في الذوق والتقليد

وهو مما يجب أن يكون على ذُكر الطالب لهذا العلم ـ قال السكاكي : ليس من الواجب في صناعة ـ وإن كان المَرْجِعُ في أصولها وتفاريعها إلى مجرد العقل ـ أن يكون الدخيلُ فيها كالناشيء عليها في استفادة الذوق منها . فكيف إذا كانت الصناعةُ مستندةً إلى تحكّمات وضْعيةٍ واعتبارات إلفِيَّةٍ ؟ فلا على الدخيل في صناعةِ « علم المعاني » أن يقلّد صاحبَه في بعض فتاواه إن فاته الذَّوْقُ هناك ، إلى أن يتكامل على مَهَلٍ موجباتُ ذلك الذوق .

وكثيراً ما يشير الشيخُ عبدُ القاهر في « دلائل الإعجاز » إلى هذا . كما ذكر في موضع [1] ما تلخيصُه هذا :

اعلم أنه لا يُصادف القولُ في هذا الباب مَوْقِعاً من السامع ، ولا يجدُ لديه قَبولاً ، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة ، و (حتى يكون) مِمَّنْ

(١) انظر : دلائل الإعجاز ، ص ٢٢٥ وقد تصرف القزويني قليلا في نقل العبارة « الجرجانية » .. (دار المعرفة ـ بيروت) ..

تحدّثه نفسه ، بأنّ لما نومىء إليه من الحسْنِ أصلاً ؛ فيختلف الحال عليه عند تأمل الكلام ؛ فيجد الأرْيَحيّةَ تارَةً وَيَعْرَى منها أخرى ، وإذا عجّبْتَه تعجب ، وإذا نبّهته لموضع المزية انتبه • فأما مَنْ كانت الحالانِ عنده على سواء ، وكان لا يتفقد من أمر النّظْمِ إلا الصحة المطلقة ، وإلا إعراباً ظاهراً ، فليكن عندك بمنزلة مَنْ عَدِمَ الطّبع الذي يدركُ به وزنَ الشعرِ ، ويميز به مُزَاحَفَةَ من سالمه ، في أنك لا تتصدّى لتعريفه ؛ لعلمك أنه قد عَدِمَ الأداة التي بها يعرف •

واعلم أن هؤلاء وإن كانوا هم الآفةَ العُظْمَى في هذا الباب ، فإنّ من الآفةِ أيضاً مَنْ زعم أنه لا سبيل إلى معرفة العِلةِ في شيء مما تعرف المزية فيه ، ولا يعلم إلا أن له موقعاً من النفس ، وحظاً من القَبُول ، فهذا بِتَوانِيه في حكم القائل الأول •

واعلم أنه ليس إذا لم يمكن معرفةُ الكل وَجَبَ تركُ النظر في الكل • ولأنْ تعرفَ العلة في بعض الصّوَر ، فتجعلَه شاهداً في غيره ، أحْرَى من أن تَسُدّ باب المعرفة على نفسك ، وتُعَوّدَهَا الكَسَلَ والهُوَيْنَا •

قال الجاحظ : وكلام" كثير جرى على ألسنة الناس ، وله مضرة شديدة وثمرة مُرّة" ، فمن أضَرّ ذلك قولُهم « لم يَدَعِ الأول للآخر شيئاً » فلو أن علماء كل عصر – مذ جَرَتْ هذه الكلمة في أسماعهم – تركوا الاستنباط لما لم يَنْتهِ إليهم عمن قبلهم : لرأيتَ العلم مختلاً •

٢ – خذ النص الثاني ، وهو نص الجرجاني ، في « دلائل الإعجاز » ؛
وقد أخرج بفروعٍ ، أيضاً : (دلائل : ٤٠٣ – ٤١٨) ••

أ – مقصد علم المعاني : بيان علل التفاضل في نظم الكلام ••
ب – كون الإعجاز يعرف بأحكام النحو ••
جـ – الاسناد وتحقيق معنى الخبر ••
د – الخبر والمخبَر به ••

هـ - حقيقة معنى الخبر ، نفياً وإثباتاً ••

و - مدلول الخبر الحكم بمعناه لا وجوده ••

ز - حقيقة الخبر من الصادق والكاذب ••

ح - متعلقات الفعل تغير معنى جزئي الجملة ••

ط - معنى الخبر غير معنى جزئيه : المخبَر به والمخبَر عنه ••

ي - علاقة الخبر بسبب وضع المفردات وحكمته ••

ما أرمي إليه من ضرورة التأمل بفروع هذا الفصل : هو التنبه إلى ما يمكن الاستغناء عنه من المكررات ، ومن التهجمات ، ومن الادعاءات ؛ فالمكررات : أذى للموضوع •• والتهجمات : إساءة للغائب والمخاطب •• والادعاءات : لا تضمن السلامة لمتكلمها •• وهذه الثلاثة : تشت بأحوال اللفظ عن التطابق مع مقتضى الحال •• فهل تتنبه بشجاعة أم نحتاج الإيضاح ؟ ••

تأمل بما سميناه الفرع الأول (أ) ، أو الفرع الثاني (ب) ، أو الفرع الثالث (جـ) •• وتنبه للتكرار مثلاً ؛

في الفرع الأول (أ) ، أراد أن يقول :

« إن بيانَ عِلَلِ التفاضُلِ بين نظم ونظم : هو غايةُ هذا العلمِ ؛ والنظمُ : توخٍّ لمعاني « النحو ، وأحكامه ، ووجوهه ، وفروقه فيما بين معاني الكلم » ؛ وحُسْنُ تصوُّرِ ذلك : يجذبُ إليه ؛ ويفتح الرجاء إلى استئناف ما يليه مع ذي نية حسنة تقي من الملل ، ورغبة صادقة تدفع السأم ، وأريحية تخفف تعب الفكر وكدِّ النظر » ••

هذه العبارة : شبهُ ترجمة لعشرين سطراً ، دعوناها الفرع (أ) •• وتمكن المقارنة بين التعبيرين ، أو الإبانتين : لنتبينَ أمرَ المعنى المرامِ في كثير من الكلام ، أو في قليل منه ••

وشيئاً فشيئاً : تتعودُ هذه الترجمة التي تختزل رماد الكلام ، وتؤلق جمرة المعنى •• فلا تحتاج إلى أكثر من سطرٍ واحدٍ : مقابل أسطرٍ عشرة ، أو أكثر ••

نجرب على الفرع الثاني (ب) ، فنفهم أنــه يريد القول :

« وطالب دليل الإعجاز من نظم القــرآن : يطلبه في معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه ، التي هي النظم ؛ وإلاّ فهو : غارٌ نفسَه •• معانِدٌ •• مبتعد عن الإنسانية •• » ••

وفي فــرع (ج) ، يريــد أن يقول « بالإسناد وتحقيق معنى الخبرية » : « معــاني الكلام ، كلهــا : تُتصوَّر فيما بين شيئين ؛ والأصلُ ، والأول : هو الخبر ؛ •• والخبرُ : معنى بين شيئين ؛ أحدهما مُثبَتٌ ، والآخَرُ مثبَتٌ له ؛ أو : أحدهما منفيٌ ، والآخر منفيٌ عنه ؛ وهذان الشيئان : هما ركنا الجمــلة ، ويُعرفان بالمسند إليه والمسند ؛ والعلاقــة بينهما هي الإسناد •• مثــال ذلك : « خرج زيدٌ •• ما خرج عمرٌو » •• أو : « زيد منطلق •• عمرو غير منطلق » ••

ومعنى الأمثلة : أثبتَ الخروج والانطلاق لزيد •• ونفاهما عن عمرو ••• فالخروج والانطلاق : مثبتان ؛ وزيــد : مثبت له •• وهما منفيان عــن عمرو ؛ وعمرو : منفي عنه ••

ألا يمكن أن نوجز هذه الفروع الثلاثة من الفصل الأخير في « الدلائل » ، بأبسط وأوضح من هذا •• ؟ •• إن هــذا ممكن •• وإنما نقصد التأني لتعلم قراءة التراث وتهذيبه ••

وهــذه عبارة الجرجاني ، كما أخرجها في « دلائل الإعجاز » •• في بيــان « علل التفاضل بــين كلام وكلام » •• فلنتأمل •• ولنقارن مع عبــارة الحداثة الموجــزة لقديمــه •••

(ا) مقصد علم المعاني

واعلم أنه قد آن لنا أن نعود إلى ما هو الأمر الأعظم والغرض الأهم ، والذي كأنه هو الطَّلِبة وكل ما عداه ذرائع إليه ، وهو المرام وما سواه أسباب للتسلق عليه ، وهو بيان « العِلَل » التي لها وجب أن يكون لنظم مزية على نظم ، وأن يعم أمر « التفاضل » فيه ويتناهى إلى الغايات البعيدة ، ونحن نسأل الله تعالى العون على ذلك والتوفيق له والهداية إليه .

ما أظن بك أيها القارىء لكتابنا إن كنت وفيته حقه من النظر ، وتدبرته حق التدبر ، إلا أنك قد علمت علماً أبى أن يكون للشك فيه نصيب ، وللتوقف نحوك مذهب ، أن [ليس « النظم » شيئاً إلا توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم] ، وأنك قد تبينت أنه إذا رُفع معاني النحو وأحكامُه مما بين الكلم حتى لا تراد فيها في جملة ولا تفصيل ، خرجتِ الكلمُ المنطوقُ ببعضها في أثر بعض في البيت من الشعر والفصل من النثر عن أن يكون لكونها في مواضعها التي وضعت فيها موجب ومقتضى ، وعن أن يتصور أن يقال في كلمة منها : إنها مرتبطة بصاحبة لها ، ومتعلقة بها وكائنة بسبب منها ؛ وإنَّ حسْنَ تصوُّرِك لذلك قد ثبَّتَ فيه قدَمك ، وملأ من نفسك ، وباعدك من أن تحن إلى الذي كنت عليه ، وأن يجرك الإلفُ والاعتيادُ إليه ؛ وإنك جعلت ما قلناه نقشاً في صدرك ، وأثبته في سويداء قلبك ، وصادقت بينه وبين نفسك ،

فإن كان الأمر كما ظنناه رجونا أن يصادف الذي نريد أن نستأنفه بعون الله تعالى منك نية حسنة تقيك الملل ، ورغبة صادقة تدفع عنك السأم ، وأريحية يخف معها عليك تعب الفكر وكد النظر ، والله تعالى ولي توفيقك وتوفيقنا بمنه وفضله ، ونبدأ فنقول :

(ب) الإعجاز يعرف بأحكام النحو

[فإذا ثبت الآن أن لا شك ولا مرية في أن ليس النظم شيئاً غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين معاني الكلم ، ثبت من ذلك أن طالب دليل « الإعجاز »

من نظم القـرآن إذا هو لم يطلبه في معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه] ، ولم يعلم أنها معدنه ومعانه ، وموضعه ومكانه ، وأنه لا مستنبط له سواها ، وأن لا وجه لطلبه فيما عداها ، [غارٌ نفسه بالكاذب من الطمع] ، ومسلِّم لهـا إلى الخِدَع ، وأنه إن أبى أن يكون فيها كان قد أبى أن يكون القـرآن مُعْجِزاً بنظمه ، [ولزمه أن يثبت شيئاً آخر يكون معجزاً به وأن يلحقَ بأصحاب الصَّرفة فيدفع الإعجاز من أصله] ، وهذا تقرير لا يدفعه إلا معاندٌ يعدُّ الرجوع عن باطل قد اعتقده عجـزاً ، والثباتَ عليه من بعد لزوم الحجة جَلَداً ، ومن وضع نفسه في هذه المنزلة كان قد باعدها من الإنسانية ، ونسأل الله تعالى العصمة والتوفيق .

(جـ) الإسناد وتحقيق معنى الخبر

وهذه أصول يُحتاج إلى معرفتها قبل الذي عمدنا له . إعلم أن معاني الكلام كلها معان لا تَتَصوَّر إلا فيما بين شيئين ، « والأصل والأول هو الخبر » ، وإذا أحكمت العلم بهذا المعنى فيه عرفته في الجميع ؛ ومن الثابت في العقول والقائم في النفوس أنه لا يكون خبرٌ حتى يكون مُخْبَرٌ به ومخبر عنه ؛ لأنه ينقسم إلى إثبات ونفي ؛ والإثبات يقتضي مثبتاً ومثبتاً له ، والنفي يقتضي منفياً ومنفياً عنـه ؛ فلو حاولت أن يَتَصَوَّرَ إثباتُ معنى أو نفيُه من دون أن يكون هناك مثبت له ومنفي عنه : حاولت ما لا يصح في عقل ، ولا يقع في وهم ؛ ومن أجل ذلك امتنع أن يكون لك قصد إلى فعل من غـير أن تريد إسنادَه إلى شيء مُظهَر أو مقدَّر مُضمَر ، وكان لفظك به إذا أنت لم ترد ذلك وصوتٌ تصوِّته سواء .

وإن أردت أن تستحكم معرفةُ ذلك في نفسك فانظـر إليك إذا قيل لك : ما فعل زيد ؟ فقلت : خرج ؛ هل يتصور أن يقع في خلدك من « خرج » معنى من دون أن تنوي فيه ضمير زيـد ؟ وهل تكون إن أنت زعمت أنك لم تنو ذلك : إلا مُخرِجاً نفسَك إلى الهذيان ؟ وكذلك فانظـر إذا قيل لك : كيف زيـد ؟ فقلت : صالح ؛ هـل يكون لقولك « صالح » أثر في نفسك من دون أن تريـد « هو صالح » أم هل يعقل السامع منه شيئاً إن هو لم يعتقد ذلك ؟ فإنه مما لا يبقى معه لعاقل شك : أن الخبر معنى لا يتصور إلا بـين شيئين يكون أحدهما مثبتاً

والآخر مثبتاً له ، أو يكون أحدهما منفياً والآخر منفياً عنه ، وأنه لا يُتصور مثبَت من غير مثبَت له ومنفيٌ من دون منفي عنه . ولما كان الأمر كذلك : أوجب ذلك أن لا يعقل إلا من مجموع « جملة فعل واسم » كقولنا : خرج زيد ؛ أو « اسم واسم » كقولنا : زيد منطلق ؛ فليس في الدنيا خبر يعرف من غير هـذا السبيل ، وبغير هذا الدليل ؛ وهو شـيء يعرفه العقلاء في كل جيل وأمة ، وحكم يجري عليه الأمـر في كل لسان ولغـة .

لا بـد ان التأمل بعبارة الجرجاني في الفروع الثلاثة المتقـدمة : أظهـر كيفية أسلوبية في التعبير عـن « علل التفاضل بين كلام وكلام ؛ أو بين نظم كلام ونظم كلام » ..

والأمر ذاته : في الفروع الأربعة التالية : (د ، هـ ، و ، ز) .. فيها عالج :

الخبر والمخبَرَ به والمخبِر ؛ أي أوضح : دور المتكلم ، الذي هو المخبِر .. وذكر بما كان قدمـه عما يُخبر به هذا المتكلم من حكم أو إخبار يفهـم من جملة الخبر ، فعليها واسميّها ، مثبتها ومنفيها .. وفصل في المثبت والمنفي ، فرأى أن « حقيقة الخبر : ليست إلاّ الحكم بوجود المعنى أو عدمه » ... وأطنب في الدفاع عن هذه الحقيقة ؛ لأن « مدلول الخبر : ليس إلا هذا الحكم بمعناه لا بوجوده ».. لذلك : ناقش « حقيقة الخبر من الصادق والكاذب » ..

لا بأس من التوقف المتمهل مع عبارته في هذا الفرع ، خصوصاً ، أعني الفرع السابع (ز) ، الذي عبر فيه عما « يدور في كلام العقلاءِ في وصف الكاذب » ... وعما يراه من تفسير لذلك ؛ فيقول : « وإذا اعتبرنا أصلنـا ، كان تفسيره : أن الكاذب يحكم بالوجود فيما ليس بموجود ، وبالعدم فيما ليس بمعدوم ؛ وهـو : أسدُّ كلامٍ ، وأحسنه ؛ والدليل على أن اللفظ من قول الكاذب ، يدل على نفس ما يدل عليه من قول الصادق : أنهم جعلوا خاص وصف الخبر أنه يحتمل الصدق والكذب ؛ فلولا أن حقيقته فيهما حقيقة واحدة : لما كان لحدهم هذا معنى » .. (ص /٤١٠)

لا بأس من مقارنة هـذه النتيجة التي استقر عليها بشأن الصادق والكاذب في حقيقة الخبر •• مع ما استقر عليـه القزويني من عـرض الآراء ومناقشتها ، وخصوصاً في النوع الثالث من الخبر ، الذي ليس بصادق ولا كاذب •• وقـد وضعتها بعبارة القزويني ، في « الإيضاح » •• وأترك كذلك وقتاً للتأمل والمقارنة ، حتى نتوصل إلى كشف « أسرار الانتباه » في « رسالة الإعجاز والإيجاز » ••

فلنصغ بانتباه إلى تفاصيل عبارة الجرجاني في هذه الفروع الأربعة ••

(د) الخبَر والمخبَر به والمخبِر

وإذ قد عرفت أنه لا يتصور الخبر إلا فيما بين شيئين مخبر به ومخبر عنه ، فينبغي أن يعلم أنه يحتاج من بعد هذين إلى ثالث ؛ وذلك أنه كما لا يتصور أن يكون ههنا خبر حتى يكون مخبر به ومخبر عنه : كذلك لا يتصور أن يكون خبر حتى يكون له مخبِر يصدر عنه ويحصل من جهته ، ويكون له نسبة إليه ، وتعود التَّبِعة فيه عليه ، فيكون هو الموصوف بالصدق إن كان صدقاً وبالكذب إن كان كذباً • أفلا ترى أن من المعلوم أنه لا يكون إثبات ونفي حتى يكون مثبت وناف يكون مصدرهما من جهته ، ويكون هو المُزَجِّيَ لهما • والمبرِمَ والناقض فيهما ، ويكون بهما موافقاً ومخالفاً ، ومصيباً ، ومخطئاً ، ومحسناً ومسيئاً •

وجملة الأمـر ، أن الخبر وجميع الكلام : معان ينشئها الإنسان في نفسه ، ويصرفها في فكره ، ويناجي بها قلبه ، ويراجع فيها عقله ، وتوصف بأنها مقاصد وأغراض ، وأعظمها شأناً الخبر فهو الذي يتصور بالصور الكثيرة ، وتقع فيـه الصناعات العجيبة ، وفيه يكون في الأمر الأعم المزايا التي بهـا يقع التفاضل في الفصاحة ، كما شرحنا فيما تقدم ونشرحه فيما نقول من بعد إن شاء الله تعالى •

(هـ) حقيقة معنى الخبر نفياً وإثباتاً

واعلم أنك إذا فتشت أصحاب اللفظ عما في نفوسهم وجدتهم قد توهموا في الخبر أنه صفة للفظ ، وأن المعنى في كونه إثباتاً أنه لفظ يدل على وجود المعنى من الشيء أو فيه ، وفي كونه نفياً أنه لفظ يدل على عدمه وانتفائه عن الشيء . وهو شيء قد لزمهم وسرى في عروقهم وامتزج بطباعهم . حتى صار الظن بأكثرهم أن القول لا ينجع فيهم . والدليلُ على بطلان ما اعتقدوه أنه محال أن يكون اللفظ قد نصب دليلاً على شيء ثم لا يحصل منه العلم بذلك الشيء ، إذ لا معنى لكون الشيء دليلاً إلا إفادته إياك العلم بما هو دليل عليه . واذا كان هذا كذلك علم منه أن ليس الأمر على ما قالوه من أن المعنى في وصفنا اللفظ بأنه خبر أنه قد وضع لأن يدل على وجود المعنى أو عدمه ، لأنه لو كان كذلك لكان ينبغي أن لا يقع من سامع شك في خبر يسمعه ، وأن لا تسمع الرجل يثبت وينفي إلا علمت وجودَ ما أثبت وانتفاء ما نفى ، وذلك مما لا يشك في بطلانه ، وإذا لم يكن ذلك مما يشك في بطلانه وجب أن يعلم أن مدلول اللفظ ليس هو وجود المعنى أو عدمَه ولكن الحكم بوجود المعنى أو عدمه ، وأن ذلك أي الحكم بوجود المعنى أو عدمَه حقيقة الخبر ، إلا أنه إذا كان بوجود المعنى من الشيء أو فيه يسمى إثباتاً ، وإذا كان بعدم المعنى وانتفائه عن الشيء يسمى نفياً ، ومن الدليل على فساد ما زعموه أنه لو كان معنى الإثبات الدلالة على وجود المعنى وإعلامه السامع أيضاً ، لكان ينبغي إذا قال واحد : « زيد عالم » ؛ وقال آخر : « زيد ليس بعالم » ؛ أن يكون قد دل هذا على وجود العلم وهذا على عدمه ، وإذا قال الموحد : « العالم محدث » ؛ وقال الملحد : هو قديم ؛ أن يكون قد دل الموحد على حدوثه والملحد على قدمه ، وذلك ما لا يقوله عاقل .

(تقرير لذلك بعبارة أخرى) لا يتصور أن تفتقر المعاني المدلول عليها بالجمل المؤلفة إلى دليل يدل عليها زائد على اللفظ ، كيف وقد أجمع العقلاء على أن العلم بمقاصد الناس في محاوراتهم علم ضرورة ، ومن ذهب مذهباً يقتضي أن لا يكون الخبر معنى في نفس المتكلم ولكن يكون وصفاً للفظ من أجل دلالته على وجود

المعنى من الشيء أو فيه أو انتفاء وجوده عنه ، كان قد نقض منه الأصل الذي قدمناه من حيث يكون قد جعل المعنى المدلول عليه باللفظ لا يعرف إلا بدليل سوى اللفظ ، ذاك لأنّا لا نعرف وجود المعنى المثبت وانتفاء المنفي باللفظ ، ولكنا نعلمه بدليل يقوم لنا زائد على اللفظ وما من عاقل إلا وهو يعلم ببديهة النظر أن المعلوم بغير اللفظ لا يكون مدلول اللفظ .

(و) مدلول الخبر الحكم بمعناه لا وجوده

(طريقة أخرى) الدلالة على الشيء هي لا محالة إعلامك السامع إياه ، وليس بدليل ما أنت لا تعلم به مدلولاً عليه ، وإذا كان كذلك وكان مما يعلم ببدائه المعقول أن الناس إنما يكلم بعضهم بعضاً ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده ، فينبغي أن ينظر إلى مقصود المخبر من خبره وما هو ؟ أهو أن يُعلم السامعَ وجود المخبر به من المخبر عنه ؟ أم أن يعلمه إثبات المعنى المخبر به للمخبر عنه ؟ فإن قيل : إن المقصود إعلامه السامع وجود المعنى من المخبر عنه فإذا قال : ضرب زيد ؛ كان مقصوده أن يعلم السامع وجود الضرب من زيد وليس الإثبات إلا إعلامه السامع وجود المعنى : قيل له فالكافر إذا أثبت مع الله — تعالى عما يقول الظالمون — إلهاً آخر يكون قاصداً أن يعلم — نعوذ بالله تعالى — أن مع الله إلهاً آخر ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وكفى بهذا فضيحة .

وجملة الأمر أنه ينبغي أن يقال لهم أتشكّون في أنه لا بد من أن يكون لخبر المخبر معنى يعلمه السامع علماً لا يكون معه شك ويكون ذلك معنى اللفظ وحقيقته ؟ فاذا قالوا : لا نشك : قيل لهم فما ذلك المعنى ؟ فإن قالوا : هو وجود المعنى المخبر به من المخبر عنه أو فيه إذا كان الخبر إثباتاً وانتفاؤه عنه إذا كان نفياً : لم يمكنهم أن يقولوا ذلك إلا من بعد أن يكابروا فيدّعوا أنهم إذا سمعوا الرجل يقول : خرج زيد : علموا علماً لا شك معه وجود الخروج من زيد . وكيف يدعون ذلك وهو يقتضي أن يكون الخبر على وفق المخبر عنه أبداً ؟ ولا يجوز فيه أن يقع على خلاف المخبر عنه ، وأن يكون العقلاء قد غلطوا حين جعلوا من خاص

وصفه أنـه يحتمل الصدق والكذب ، وأن يكون الذي قالوه في أخبـار الآحاد وأخبـار التواتر من أن العـلم يقع بالتواتر دون الآحـاد سهواً منهم ، ويقتضي الغنى عن المعجزة لأنه إنما احتيج إليها ليحصل العلم بكون الخبر على وفق المخبر عنـه ، فإذا كان لا يكون إلا على وفق المخبر عنه لم تقع الحاجـة إلى دليل يدل على كونه كذلك فاعرفـه •

واعلم أنه إنما لزمهم ما قلناه من أن يكون الخبر على وفق المخبر عنه أبـداً من حيث إنه إذا كان معنى الخبر عندهم اذا كان إثباتاً أنـه لفظ موضوع ليدل على وجود المعنى المخبر به من المخبر عنه أو فيه وجب أن يكون كذلك أبداً ، وأن لا يصح أن يقال : ضرب زيد : إلا إذا كان الضرب قد وجـد من زيد • وكذلك يجب في النفي أن لا يصح أن يقال : ما ضرب زيد : إلا إذا كان الضرب لم يوجد منه ، لأن تجويز أن يقال : ضرب زيد : من غير أن يكون قد كان منه ضرب وأن يقال : ما ضرب زيد • وقد كان منه ضرب يوجب على أصلهم إخلاء اللفظ مـن معناه الذي وضع ليدل عليه ، وذلك ما لا يُشَكُّ في فساده ، ولا يلزمنا على أصلنا لأن معنى اللفظ عندنا هو الحكم بوجود المخبر به من المخبر عنه أو فيه إذا كان الخبر إثباتاً والحكم بعدمه إذا كان نفياً ، واللفظ عندنا لا ينفك من ذلك ولا يخلو منه • وذلك لأن قولنا : ضرب وما ضرب • يدل من قول الكاذب على نفس مايدل عليه من قول الصادق ، لأنا إن لم نقل ذلك لم يخل من أن يزعم أن الكاذب يخلي اللفظ من المعنى ، أو يزعم أنه يجعل اللفظ معنى غير ما وضع له ، وكلاهما باطل •

(ز) حقيقة الخبر من الصادق والكاذب

ومعلوم أنه لا يزال يدور في كلام العقلاء في وصف الكاذب أنه يثبت ما ليس بثابت وينفي ما ليس بمنتف ، والقول بما قالوه يؤدي إلى أن يكون العقلاء قـد قالوا المحال من حيث يجب على أصلهم أن يكونوا قد قالوا إن الكاذب يدل على وجود ما ليس بموجود وعلى عـدم ما ليس بمعدوم ، وكفى بهذا تهافتاً وخطلاً ، ودخولاً في اللغو من القول • وإذا اعتبرنا أصلنا كان تفسيره : أن الكاذب يحكم

بالوجود فيما ليس بموجود وبالعدم فيما ليس بمعدوم . وهو أسدُّ كلام وأحسنه . والدليل على أن اللفظ من قول الكاذب يدل على نفس ما يدل عليه من قول الصادق أنهم جعلوا خاص وصف الخبر أنه يحتمل الصدق والكذب ، فلولا أن حقيقته واحدة لما كان لحدّهم هذا معنى ؛ ولا يجوز أن يقال : إن الكاذب يأتي بالعبارة على خلاف المعبر عنه ؛ لأن ذلك إنما يقال فيمن أراد شيئاً ثم أتى بلفظ لا يصلح للذي أراد ، ولا يمكننا أن نزعم في الكاذب أنه أراد أمراً ثم أتى بعبارة لا تصلح لما أراد .

أصغينا الى الجرجاني في الفروع السبعة السابقة من نصه الطويل « بيان علل التفاضل بين نظم ونظم » .. وتتابع الإصغاء إلى الفروع الثلاثة الباقية منه .. فماذا نلاحظ ؟

الجرجاني في هذه الفروع الثلاثة : يبدو ناقداً أدبيّاً .. ثمّ فقيهاً لغويّاً .. وفي الصفتين : يستفيد من العالم بعلم المعنى البلاغي .. ويبدو : موحداً بين الثلاثة ؛

فهو في الفرع (ح) : يناقش « متعلقات الفعل » .. ويرى : أن التعليق يُغيِّر معنى جزئي الجملة ؛ يعني « كلما زدتَ شيئاً وجدتَ المعنى قد صار شيئاً غير الذي كان » .. ويضرب أمثلة يؤيد بها رأيه ؛ وأمثلته آياتٌ من القرآن .. أو : أبيات من شعر أمثال « امرىء القيس .. والفرزدق .. والقطامي .. وغيرهم » .. أو : جمل عادية بسيطة ... وهو بذلك : ناقدٌ أدبيٌّ : يستفيد من علمه بقواعد البلاغة ، وأحكام النحو ، وعلائق الكلام ، بعضه ببعض ...

وفي الفرع (ط) : يؤكد النتيجة السابقة ؛ ويرى « أن يكونَ الخبرُ في نفسه معنى : هو غير المخبَر به والمخبَر عنه » .. لأن ما يخبِر به الفرزدق مثلاً : عن « حمل أمِّ المهجوِّ به » لا تصحُّ نسبته إلى الفرزدق « وهكذا السبيل ، أبداً : لا يتصور أن يكون للمعنى المخبَر به نسبةٌ إلى الشاعر وأن يبلغ من أمره أن يصير خاصّاً به » ... ثم يخلص إلى تركيز ما تقدم من تفاصيل رأيه

في الفروع التسعة المظهرة لعلل التفاضل بين نظم ونظـم •• فيرى : أن الأجناس البلاغية من « كنايـة ، واستعارة ، وتمثيل : توجب الحسن والمزية » •• ويرى « أن المعاني : تُتصور من أجلها بالصور المختلفة ؛ وأن العلم بإيجابها ذلك : ثابت في العقول ، ومركوز في غـرائز النفوس » •• ويرى : « أن المزيـة والحسن : يكونان في إثباتِ ما يراد أن يوصف به المذكور والإخبارِ به عنه ؛ •• لأن حصولَ المزية والحسن : فيما ليس بمحال •• وأنه محال : أن تكون المزايا التي تحدُث بها – أي بالصور المختلفة من أجناس البلاغة – حادثة في المعنى المخبر به المثبت أو المنفي » •• يريد أنها حادثة في العلائق المظهرة لهـا ؛ وبذلك يكون « الإثبات معنى » ، وهل تضبط الصورة البلاغية هذا المعنى أو تحدث فيه ؟

في الفرع (ي) : يَظهر الفقيهُ المتفلسِفُ للسببية اللغويـة ؛ فمفرداتُ اللغـة : وُضِعَتْ لسببٍ وغاية ؛ فهذه الألفاظ : هي أوضاع اللغة ؛ وضعت : لا لتعرف بها المعاني المفردة •• إنما لتعقل من مجموع جملة فعلية « خرج زيد » •• أو جمـلة اسمية « زيـد خارج » •• فالمعقول من الجملة هو نسبة الخروج ، أو إسناده ، إلى زيد ؛ وهذا المفهوم المعقول « لا يرجع إلى معاني اللغات ، ولكن إلى كون ألفاظ اللغات : سمات لذلك المعنى ، وكونها مرادة بها » ••

وهذا الفقيه : يرى عودة المعـاني المتفردة ، التي يصفها العقلاء بالفرادة ، إلى « الخبر ، الذي هو إثبـاتُ المعنى للشيء ونفيُه عنه » •• ويرى ، بالتطبيق « أن مِن حكمِ كلٍّ ما عدا جزئيٍّ الجملة – الفعل والفاعل ، والمبتدأ والخبر – أن يكونَ تحقيقاً للمعنى المثبت والمنفي » •• و « لا يتصور : تخصيص شـيء ، لم يدخل في نفي ولا إثبـات ولا ما كان في سبيلهما من الأمـر بـه والنهي عنه والاستخبار عنه » ••

إن الجرجاني : يختم بجوهر ما يعتقده من مسؤولية المتكلم ؛ وقراءة الفقرة الأخيرة بتمهل : تكشف هـذا الاعتقاد ؛ وربما يعبق منهـا نَفَسُ « القاضي عبد الجبار » ، فيلسوف الاعتزال ، الذي وجَّه إلى « دلائل الإعجاز » بما تركه

من آراء حول « فصاحة القرآن المعجزة » ، وحول « خواص التركيب والأداء » ..
فلينظر في هذه الفقرة منفردة : لاستجلاء مسؤولية المتكلم عن « الحكم بالمعنى ..
الواقع منه بالخبر .. » ..

وهذه هي عبارة الجرجاني في الفروع الثلاثة التي عالج بها : « متعلقات الفعل .. ومعنى الخبر .. وسبب وضع مفردات اللغة » ...

(ح) متعلقات الفعل تغير معنى جزئي الجملة

ومما ينبغي أن يحصل في هذا الباب أنهم قد أصلوا في المفعول وكل ما زاد على جزئي الجملة أن يكون زيادة في الفائدة ، وقد يتخيل إلى من ينظر إلى ظاهر هذا من كلامهم أنهم أرادوا بذلك أنك تضم بما تزيده على جزئي الجملة فائدة أخرى ، وينبني عليه أن ينقطع عن الجملة حتى يتصور أن يكون فائدة على حدة ، وهو ما لا يعقل ، إذ لا يتصور في زيد من قولك : ضربت زيداً . أن يكون شيئاً برأسه حتى تكون بتعديتك « ضربت » إليه قد ضممت فائدة إلى أخرى . وإذا كان ذلك كذلك وجب أن يعلم أن الحقيقة في هذا أن الكلام يخرج بذكر المفعول إلى معنى غير الذي كان ، وأن وزان الفعل قد عدي إلى مفعول معه وقد أطلق فلم يقصد به إلى مفعول دون مفعول وزانُ الاسم المخصص بالصفة مع الاسم المتروك على شياعه ، كقولك : جاءني رجل ظريف . مع قولك : جاءني رجل . في أنك لست في ذلك كمن يضم معنى إلى معنى وفائدة إلى فائدة ، ولكن كمن يريد هاهنا شيئاً وهناك شيئاً آخر . فإذا قلت : ضربت زيداً . كان المعنى غيره إذا قلت : ضربت ، ولم تردْ زيداً .وهكذا يكون الأمر أبداً كلما زدت شيئاً وجدت المعنى قد صار غير الذي كان ، ومن أجل ذلك صلح المجازاة بالفعل الواحد إذا أُتي به مطلقاً في الشرط ومعدًّى إلى شيء في الجزاء كقوله تعالى : « إنْ أحسنتم أحسنتم لأنفسكم » (إسراء : ٧) وقوله عز وجل : « وإذا بطشتم بطشتم جبارين » (شعراء : ١٣٠) مع العلم بأن الشرط ينبغي أن يكون غير الجزاء من حيث كان الشرط سبباً والجزاء مسبباً ، وأنه محال أن يكون الشيء سبباً لنفسه ،

فلولا أن المعنى في « أحسنتم » الثانية غير المعنى في الأولى وأنها في حكم فعل ثان لما ساغ ذلك ، كما لا يسوغ أن تقول : إن قمت قمت وإن خرجت خرجت ؛ ومثله من الكلام قوله : « المـرء بأصغريه إن قال قال ببيان ، وإن صال صال بجنان » ويجري ذلك في الفعلين قد عديا جميعاً إلا أن الثاني منهما قد تعدى إلى شيء زائد على ما تعدى إليه الأول ومثال قولك : « إن أتاك زيد أتاك لحاجة ؛ وهو أصل كبير ؛ والأدلة على ذلك كثيرة ، ومن أولاها بأن يحفظ أنك ترى البيت قد استحسنه الناس وقضوا لقائله بالفضل فيه وبأنـه الذي غاص على معنـاه بفكره ، وأنـه أبو عـذره ، ثم لا ترى ذلك الحسن وتلك الغرابة كانا إلا لما بناه عـلى الجملة دون نفس الجملة . ومثال ذلك في قول الفرزدق :

وما حملتْ أمٌّ امرىءٍ في ضلوعها   أعـقَّ من الجـاني عليها هجائيا

فلولا أن معنى الجملة يصير بالبناء عليها شيئاً غير الذي كان ويتغير في ذاتـه لكان محالاً أن يكون البيتُ بحيث تراه من الحسن والمزية ، وأن يكون معنـاه خاصاً بالفرزدق ، وأن يُقضى له بالسبق إليه ، إذ ليس في الجملة التي بني عليهـا ما يوجب شيئاً من ذلك ، فاعرفه .

والنكتة التي يجب أن تراعى في هذا : أنه لا تتبين لك صورة المعنى الذي هو معنى الفرزدق إلا عند آخر حرف من البيت ، حتى إن قطعت عنه قوله هجائيا بل الياء التي هي ضمير الفرزدق لم يكن الذي تعقله منه مما أراد الفرزدق بسبيل ، لأن غرضه تهويل أمر هجائه والتحذير منه وأن من عرّض أمه له كان قد عرضها لأعظم ما يكون من الشر . وكذلك حكم نظائره من الشعر . فإذا نظرت إلى قول القطـامي :

فهنَّ يَنْبِذْن من قولٍ يُصبن به   مواقعَ الماء من ذي الغُلة الصادي

وجدتك لا تحصل على معنى يصح أن يقال إنه غرضُ الشاعر ومعناه إلا عند قوله « ذي الغلة ». ويزيدك استبصاراً فيما قلناه أن ننظـر فيما كان من الشعر جُملاً قد عُطِفَ بعضُها على بعض بالواو كقوله :

النَّشرُ مسكٌ والوجوهُ دنــا نيرٌ ، وأطرافُ الأكفِّ : عَنَمْ

وذلك أنك ترى الذي تعقله من قوله : النشر مسك • لا يصير بانضمام قوله : والوجوه دنانير • إليه شيئاً غير الذي كان بل تراه باقياً على حــاله • كذلك ترى ما تعقل من قوله : والوجوه ، دنانير ، لا يلحقه تغيير بانضمام قوله : وأطـراف الأكف عنم : إليه •

وإذ قد عرفت ما قررناه من أن من شأن الجملة أن يصير معناها بالبناء عليهــا شيئاً غير الذي كان وأنه يتغير في ذاته فاعلم أن ما كان من الشعر مثل بيت بشار :

كأنَّ مُثارَ النقع فوق رؤوسنا وأسيافَنا : ليلٌ تَهاوى كواكبُهْ

وقول امريء القيس :

كأنَّ قلوبَ الطـير رطباً ويابسا لدى وَكرها العُنَّابُ والحَشَفُ البالي

وقول زيــاد :

وإنا وما تُلقي لنــا إن هجوتَنا لكالبحر مهما يُلْقَ في البحر يَغرَقِ

كان له مزية على قول الفرزدق فيما ذكرنا لأنك تجد في صدر بيت الفرزدق جملة تؤدى معنى وإن لم يكن معنى يصح أن يقال : إنه معنى فلان : ولا تجـد في صدر هذه الأبيات ما يصح أن يعد جملة تؤدي معنى فضلاً عن أن تؤدي معنى يقال إنه معنى فلان • ذاك لأن قوله : كأن مثار النقع – إلى – وأسيافنا : جزء واحد ، و : ليل تهاوى كواكبه : بجملته الجزء الذي ما لم تأت به لم تكن قـد أتيت بكلام • وهكذا سبيل البيتين الأخيرين • فقوله : كأن قلوب الطـير رطباً ويابساً لدى وكرها : جزء • وقوله : العناب والحشف البالي : الجــزء الثاني • وقوله : « وإنا وما تلقي لنا إن هجوتنا » جزءٌ ، وقوله : لكالبحر : الجزء الثاني • وقوله : مهما تلق في البحر يغرق : وإن كان جملة مستأنفة ليس لها في الظاهــر

تعلق بقوله : لكالبحر : فإنها لما كانت مبينة لحال هذا التشبيه صارت كأنها متعلقة بهذا التشبيه وجرى مجرى أن تقول : لكالبحر في أنه لا يلقى فيه شيء إلا غرق •

(ط) معنى الخبر غير معنى جزئيه المخبر به والمخبر عنه

وإذا ثبت أن الجملة إذا بني عليها حصل منها ومن الذي بني عليها في الكثير معنى يجب فيه أن ينسب إلى واحد مخصوص ، فإن ذلك يقتضي لا محالة أن يكون الخبر في نفسه معنى هو غير المخبَر به والمخبَر عنه • ذلك لعلمنا باستحالة أن يكون للمعنى المخبر به نسبة" إلى المخبِر ، وأن يكون المستنبَط والمستخرَج والمستعانَ على تصويره بالفكر ، فليس يشك عاقل أنه محال أن يكون للحمل في قوله ، « وما حملت أم امرىء في ضلوعها » : نسبة إلى الفرزدق وأن يكون الفكر منه كان في نفسه ، وأن يكون معناه الذي قيل أنه استنبطه واستخرجه وغاص عليه وهكذا السبيل أبداً لا يتصور أن يكون للمعنى المخبَر به نسبة إلى الشاعر وأن يبلغ من أمره أن يصير خاصاً به ، فاعرفه •

ومن الدليل القاطع فيه ما بينّاه في الكناية والاستعارة والتمثيل وشرحناه من أن من شأن هذه الأجناس : أن توجب الحسن والمزية ؛ وأن المعاني تتصور من أجلها بالصور المختلفة ؛ وأن العليم بإيجابها ذلك ثابت في العقول ، ومركوز في غرائز النفوس ؛ وبينّا كذلك أنه محال أن تكون المزايا التي تحدث بها : حادثة في المعنى المخبر به المثبت أو المنفي ، لعلمنا باستحالة أن تكون المزية التي تجدها لقولنا « هو طويل النجاد » ، على قولنا « طويل القامة » في الطول ؛ والتي تجدها لقولنا « هو كثير رماد القدر » على قولنا « هو كثير القرى والضيافة » في كثرة القرى ؛ وإذا كان ذلك محالاً ثبت أن المزية والحسن يكونان في إثبات ما يراد أن يوصف به المذكور والإخبارِ به عنه • وإذا ثبت ذلك ثبت أن الإثبات معنى لأن حصول المزية والحسن فيما ليس بمعنى محال •

بسم الله الرحمن الرحيم

وبـه ثقتي وعليـه اعتمادي

(ي) سبب وضع مفردات اللغـة وحكمته

إعـلم أن هاهنا أصلاً أنت ترى الناس فيه في صورة من يعرف من جانب وينكر من آخر ، وهو أن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتُعرفَ معانيها في أنفسها ولكن لأن يُضَمَّ بعضُها إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائـد ، وهذا علم شريف ، وأصل عظيم • والدليل على ذلك أنا إن زعمنا أنَّ الألفاظ التي هي أوضاع اللغـة إنما وضعت ليُعرف بهـا معانيها في أنفسها ، لأدَّى ذلك إلى ما لا يشك عاقل في استحالته ، وهو أن يكونوا قد وضعوا للأجناس الأسماء التي وضعوها لها لتعرفها بهـا حتى كأنهم لو لم يكونوا قالوا : رجل وفرس ودار : لما كان يكون لنا علم بمعانيها ، وحتى لو لم يكونوا قالوا : فعل ويفعل : لمَا كنا نعرف الخبر في نفسه ومن أصله ، ولو لم يكونوا قد قالوا : افعل : لما كنا نعرف الأمر من أصله ولا نجده في نفوسنا ، وحتى لو لم يكونوا قـد وضعوا الحروف لكنا نجهـل معانيها فلا نعقل نفيـاً ولا نهيـاً ولا استفهاماً ولا استثناء • وكيف والمواضعة لا تكون ولا تتصور إلا على معلوم ، ولأن المواضعة كالإشـارة فكما أنك إذا قلت : خذ ذاك : لم تكن هذه الإشارة لتعرِّفَ السامع المشار إليه في نفسه ولكن ليعلم أن المقصود من بين سائر الأشياء التي تراها وتبصرها ، كذلك حكم اللفظ مع ما وضع له • ومَن هذا الذي يشك أنا لم نعرف الرجل والفرس والضرب والقتل إلا من أساميها ؟ لو كان ذلك مساغ في العقل لكان ينبغي إذا قيل : زيد : أن تعرفَ المسمى بهذا الاسم من غير أن تكون قد شاهدته أو ذكر لك بصفة •

وإذا قلنا في العلم واللغات ، من مبتدأ الأمر ، إنه كان إلهـاماً ؛ فإن الإلهام في ذلكَ إنما يكون بين شيئين يكون أحدهما مثبتاً والآخر مثبتاً له أو يكون أحدهما

منفياً والآخـر منفياً عنه ، وأنه لا يتصور مثبت من غير مثبت له ومنفي من غـير منفي عنه . فلما كان الأمر كذلك أوجب ذلك أن لا يعقل إلا من « مجموع جملة : فعل واسم » ، كقولنا « خرج زيد » ؛ أو « اسم واسم » كقولنا « زيد خارج » ؛ فما عقلناه منه ، وهو نسبة الخروج إلى زيد ، لا يرجع إلى معاني اللغات ، ولكن إلى كون « ألفاظ اللغات سمات لذلك المعنى » وكونها مرادة بها . أفلا ترى إلى قوله تعالى : « وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ على المَلائِكَةِ فَقَالَ أنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » . أفترى أنـه قيل لهم : أنبئوني بأسماء هؤلاء : وهم لا يعرفون المشار إليهم بهؤلاء ؟

(*) ثم إنا إذا نظـرنا في المعاني التي يصفها العقلاء بأنها معان مستنبطة ، ولطائف مستخرجة ، ويجعلون لهـا اختصاصاً بقائل دون قائل ، كمثل قولهم في معان من الشعر : إنه معنى لم يسبق إليه فلان ، وإنه الذي فطن له واستخرجه ، وإنه الذي غاص عليه بفكره ، وإنه أبو عذره : لم تجد تلك المعاني في الأمر الأعم شيئاً غـير الخبر الذي هو إثبات المعنى للشيء ونفيه عنـه . يدلك على ذلك أنا لا ننظر إلى شيء من المعـاني الغريبة التي تختص بقائل دون قائل إلا وجدت [1] الأصل فيه والأساس الإثبات والنفي ؛ وإن أردت في ذلك مثالاً فانظـر إلى بيت الفـرزدق :

وما حملت أم امرىء في ضلوعها أعـقَّ من الجـاني عليها هجائيا

(*) قد حذفنا من الأصل المطبوع ٣٣ سطراً موضعها قبل هـذا السياق قد سبقت بعينها مع زيادة إيضاح قريباً وأولها قـوله « اعلم أن معاني الكلام كلهـا » في السطر الرابع من ص ٤٠٥ وآخرها قوله « يقع التفاضل في الفصاحة » في آخر ص ٤٠٦ وقد مهد لما حذف من هنا ، وإذ قد عرفت هذه الجملة فاعلم أن معاني الكلام كلها الخ وقد وضع الأستاذ خطاً على هذا المكرر في نسخة الدرس .. وقع الحذف باخراجنا في فرع « الاسناد وتحقيق معنى الخبر » .. ثم الذي يليه « الخبر والمخبر به » ..

(١) المناسب لقوله إنا لا ننظر أن يقول هنا وجدنا بدل وجدت ، ويحتمل أن يكـون هذا مما حرفه النساخ وقد سبق ذلك مثل هذه الطائفة من الكلام والتمثيل لها ببيت الفرزدق قريبا (راجع ص ٤١٢) .

فإنك إذا نظــرت لم تشك في أن الأصل والأساس هو قــوله : وما حملت أم امرىء : وأن ما جاوز ذلك من الكلمات إلى آخر البيت مستند إليه ، ومبني عليه ، وأنك إن رفعته لم تجد لشيء منها بياناً ، ولا رأيت لذكرها معنى ، بل ترى ذكرك لها إن ذكرتها هذياناً ، والسبب الذي من أجله كان كذلك أن من حكم كل ما عدا جزئي الجملة - الفعل والفاعل والمبتدأ والخبر - أن يكون تحقيقاً للمعنى المثبت والمنفي ، فقوله : في ضلوعها : يفيد أولاً أنه لم يرد نفي الحمل على الإطلاق ولكن « الحمل في الضلوع » وقوله : أعق : يفيد أنه لم يرد هذا الحمل الذي هو حمل في الضلوع أيضاً على الإطلاق ولكن حملاً في الضلوع محموله أعــق من الجاني عليها هجاءه . وإذا كان ذلك كله تخصيصاً للحمل : لم يتصور أن يعقل من دون أن يعقل نفي الحمل لأنه لا يتصور تخصيص شــيء لم يدخل في نفي ولا إثبات ولا ما كان في سبيلهما من الأمر به والنهي عنه والاستعبار عنه .

وإذ قد ثبت أن الخبر وسائر معاني الكلام معان ينشئها الإنسان في نفسه ، ويصرفها في فكره ، ويناجي بها قلبه ، ويرجع فيها إليه : فاعلم أن الفائدة في العلم بها واقعة من المنشىء لها ، صادرة عن القاصد إليها ؛ وإذا قلت في الفعل : إنــه موضوع للخبر لم يكن المعنى فيه أنه موضوع لأن يعلم به الخبر في نفسه وجنسه ومن أصله وما هو ؛ ولكن المعنى : أنه « موضوع حتى إذا ضممته إلى اسم ، عـقِلَ منه ومن الاسم أن الحكم بالمعنى الذي اشتق ذلك الفعل منه على مسمى ذلك الاسم واقع منك أيها المتكلِّم » .

٣ ـ بعد الإمعان بما انتهى إليه الجرجاني في « بيان علل التفاضل » ، وهو المبحث السابق لخاتمة الكتاب ، التي سماها : « العمدة في إدراك البلاغــة » .. ورآها في « الذوق والإحساس الروحاني » .. بعد هذا نعود إلى مركـّز ابتدأ به كتابه ، بمثابة **« المدخل إلى دلائل الإعجــاز » ؛ لأن هــذا المدخل : خلاصة نظريته اللغوية ومذهبه البلاغي** ؛ وذلك : يفهــم من كلمة واحدة ، هي : « النظم » .. ومن كلمة أخرى : يحدُث بها النظم وهي « التعليق » ؛ وعبارته :

« معلوم ، أن ليس النظم : سوى تعليق الكلم بعضها ببعض » ... وللتعلق

فيما بينها طرق معلومة ؛ وهو لا يعدو ثلاثة أقسام : تعلق اسم باسم ؛ وتعلق اسم بفعل ؛ وتعلق حرف بهما » •••

ثـم يفصل بتشعبات هـذه الطـرق ؛ وينتهي إلى أنهـا « معـاني النحو وأحكامه » •• ويجادل الخصم المشابه بين ذلك وبين نظم القرآن المعجز ؛ ويطلب التأمل بفصول كتابه « دلائل الإعجاز » •• ثم يفرغ خلاصة ذلك في قصيدة من ثلاثـة وعشرين بيتاً •• منهـا :

ما من سبيل إلى إثبـات معجـزة

في النظم إلاّ بما أصبحت أبديه •••

٤ ــ أدع للقارىء حريـة التأمل بعبارة « الجرجاني » في هـذا المدخل ؛ فإنها جوهر كتابه ، وأحسن ما فيه تركيزاً وتقنية ••• كما أرجو التأمل الموازن **بين هـذا النص القديم وبين النص الحديث الذي جعله « يوسف غازي » تمهيـداً لكتـاب « فردينان سوسير » ، المعروف ب « محاضرات في الألسنية العـامة »** •• وأنبه إلى مثل العجب من الاتفاق بين عبارة « سوسير السويسري » •• وبين عبارة « عبد القاهر الجرجاني » •• فكأن لغوي أوروبا : يترجم للغوي العربية ••

يقول سوسير ، بعبـارة مترجمة :

« إن اللغة منظومة : لا قيمة لمكوناتها ، أي لعلاقاتها اللغوية ، إلا بالعلاقات القائمة فيما بينها ، وبالتالي ، لايمكن للألسني اعتبار مفردات لغة مّا كيانات مستقلة، بل إن لزاماً عليه وصف العلاقات التي تربط هذه المفردات » ••

أليس هذا جوهر ما سمعناه من الجرجاني في الفرع العاشر (ي) ، بعنوان « سبب وضع مفردات اللغة وحكمته » •• وقد افتتحه ، بقوله :

« إعلم أن هاهنا أصلاً : أنت ترى الناس فيه ، في صورة من يعرف من جانب

وينكر من آخر ؛ وهو : أن الألفاظ المفردة ، التي هي أوضاع اللغة ، لم تُوضَعْ لتعرفَ معانيها في أنفسِها ؛ ولكنْ : لأن يُضَمَّ بعضُها إلى بعض ؛ فيعرف فيما بينها فوائد ؛ وهذا علم شريف ، وأصل عظيم •• والدليل على ذلك ، أنَّا إن زعمنا أن الألفاظ التي هي أوضاع اللغة ، إنما وضعت ليعرف بها معانيها في أنفسها : لأدى ذلك إلى ما لا يشك عاقل في استحالته » •••

قيمة اللغة بالعلاقات القائمة فيما بين مكوناتها : ألا يساوي ذلك فوائد ضم الألفاظ بعضها إلى بعض ؟ ••

والألسني يساوي العاقل ؛ فالأول : لا يمكنه اعتبار مفردات لغة مَّا كيانات مستقلة ؛ والثاني : يستحيل عنده اعتبار الألفاظ وضعت لمعرفة معانيها المفردة **بأنفسها** •••

ويتضح الأمر باتساع : كلما تأملنا بنص الجرجاني المدخلي •• وبالنص الألسني الحديث الذي مُهِّد به لدخول « محاضرات في الألسنية العامة » ••

لذلك نتأمل بهذين النصين ، القديم والحديث ؛ لنتأكد من مسألة نصر عليها ، دائماً ، وهي : الجوهري في القديم هو الجوهري في الحديث •• والواصلون إلى الجوهري : يتناغمون ، ويوضح بعضهم بعضاً ، فهم إنسانية واحدة •• وبعد قراءة النصين : نصل إلى تكملة مسألتنا بعبارة نتيجية مفصَّلة ••

بسم الله الرحمن الرحيم

توكلت على الله وحده

المدخل في دلائل الإعجاز : للجرجاني

قال الشيخ الإمام مجد الإسلام ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني رحمه الله تعالى :

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين ، وصلواته على محمد سيد المرسلين وعلى آله أجمعين .

هذا كلام وجيز يطلع به الناظر على أصول النحو جملة ، وكل ما به يكون النظم دفعة ، وينظر منه في مرآة تريه الأشياء المتباعدة الأمكنة قد التقت له ، حتى رآها في مكان واحد ؛ ويرى بها مُشئماً قد ضُمَّ إلى مُعْرِقٍ [1] ، ومغرِّباً قد أخذ بيد مشرق ؛ وقد دخلت بأخرَةٍ [2] في كلام من أصغى إليه وتدبَّره تدبر ذي دين وفتوة ، دعاه إلى النظر في الكتاب الذي وضعناه ، وبعثه على طلب ما دوناه ، والله تعالى الموفق للصواب ، والملهم لما يؤدي إلى الرشاد ، بمنه وفضله .
قال رضي الله تعالى عنه :

معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض ؛ والكلم ثلاث : اسم ، وفعل ، وحرف ؛ وللتعلق فيما بينها طرق معلومة ، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام : تعلق اسم باسم وتعلق اسم بفعل وتعلق حرف بهما .

---

(١) المشئم قاصد الشام والمعرق قاصد العراق . وضم احدهما إلى الآخر ممتنع لتباين القصد ، يقولون : « جمع بين المتفرق ، وقرن المشئم بالمعرق » .
(٢) أخرة : كنظرة وزناً ومعنى . وهو التأخر وآخرة بالمد : مؤنث الآخرة .

فالاسم يتعلق باسم بأن يكون خبراً عنه أو حالاً منه ، أو تابعاً له : صفة ، أو تأكيداً ، أو عطف بيان ، أو بدلاً أو عطفاً بحرف ؛ أو بأن يكون الأول مضافاً إلى الثاني ؛ أو بأن يكون الأول يعمل في الثاني عمل الفعل ، ويكون الثاني في حكم الفعل له أو المفعول ، وذلك في اسم الفاعل كقولنا : زيد ضارب " أبوه عمراً ، وكقوله تعالى : « أخْرِجْنَا من هذه القريةِ الظالِمِ أهلُها » وقوله تعالى : « وهم يَلْعَبُون لاهيةً قلوبُهم [1] » واسم المفعول كقولنا : زيد مضروب غلمانه وكقوله تعالى : « ذلك يوم" مَجْمُوع" له الناسُ » والصفة المشبهة كقولنا : زيد حسن وجهه ، وكريم أصله ، وشديد" ساعده . والمصدر كقولنا : عجبت من ضرب زيد عمراً وكقوله تعالى : « أو إطعام" في يومٍ ذي مَسْغَبَةٍ يتيماً » أو بأن يكون تمييزاً قد جَلاَه منتصباً عن تمام الاسم . ومعنى تمام الاسم أن يكون فيه ما يمنع من الإضافة . وذلك بأن يكون فيه نون تثنية كقولنا : قفيزان بُرّاً . أو نون جمع كقولنا : عشرون درهماً ، أو تنوين كقولنا : راقود" خَلاً [2] وما في السماء قدر راحة سحاباً ، أو تقدير تنوين كقولنا : خمسة عشر رجلاً . أو يكون قد أضيف إلى شيء فلا يمكن إضافته مرة أخرى ، كقولنا : لي ملؤُه عسلاً . وكقوله تعالى : « ملءُ الأرضِ ذَهباً » .

وأما تعلق الاسم بالفعل : فبأن يكون فاعلاً له أو مفعولاً فيه فيكون مصدراً قد انتصب به ، كقولك : ضربت ضرباً . ويقال له المفعول المطلق . أو مفعولاً به كقولك : ضربت زيداً . أو ظرفاً مفعولاً فيه : زماناً أو مكاناً ، كقولك : خرجت يوم الجمعة ووقفت أمامك ، أو مفعولاً معه كقولنا : جاء البرد والطيالسةَ ،

---

(١) يشترط لعمل اسمي الفاعل والمفعول عمل الفعل : الاعتماد على المبتدأ والخبر أو الموصوف أو ذي الحال . ولعله نوع من الأمثلة للاشارة الى ذلك . ومثلها الاستفهام والنفي نحو : أقائم الزيدان . ويقال مثل هذا في كل تنويع وتعدد الأمثلة مطلوب لذاته .

(٢) الراقود : وعاء من نوع الدن كبير (أو طويل الأسفل ، كهيئة الأردية يطلى باطنه بالقار وهو معرب) .

ولو تركت الناقةَ وفصيلَها لرَضعها ، أو مفعولاً له كقولنا : جئتك إكراماً لك وفعلتذلك إرادة الخير بك.وكقوله تعالى : « ومن يفعل ذلك ابتغاءَ مرْضاةِ الله » أو بأن يكون منزلاً من الفعل منزلة المفعول وذلك في خبر كان وأخواتها والحال والتمييز المنتصب عن تمام الكلام مثل : طاب زيد نفساً وحسن وجهاً وكرم أصلاً .

ومثله الاسم المنتصب على الاستثناء كقولك : جاءني القوم إلا زيداً . لأنه من قبيل ما ينتصب عن تمام الكلام .

وأما تعلق الحرف بهما فعلى ثلاثة أضرب ، أحدها : أن يتوسط بين الفعل والاسم ، فيكون ذلك في حروف الجر التي من شأنها أن تُعَدّيَ الأفعال إلى ما لا تتعدى إليه بأنفسها من الأسماء ، مثل أنك تقول « مررت » فلا يصل إلى نحو زيد وعمرو فإذا قلت : مررت بزيد أو على زيد : وجدته قد وصل بالباء أو على . وكذلك سبيل الواو الكائنة بمعنى « مع » في قولنا : لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها : بمنزلة حرف الجر في التوسط بين الفعل والاسم وإيصاله إليه ، إلا أن الفرق أنها لا تعمل بنفسها شيئاً ، لكنها تعين الفعل على عمله النصب . وكذلك حكم « إلا » في الاستثناء ، فإنها عندهم بمنزلة هذه الواو الكائنة بمعنى مع في التوسط ، وعمل النصب المستثنى للفعل ولكن بوساطتها وعون منها .

والضرب الثاني من تعلق الحرف بما يتعلق به العطف : وهو أن يدخل الثاني في عمل العامل الأول ، كقولنا : جاءني زيد وعمرو ورأيت زيداً وعمراً ومررت بزيد وعمرو .

والضرب الثالث : تعلق بمجموع الجملة ، كتعلق حرف النفي والاستفهام والشرط والجزاء بما يدخل عليه . وذلك أن من شأن هذه المعاني : أن تتناول ما تتناوله بالتقييد وبعد أن يستند إلى شيء . معنى ذلك : أنك إذا قلت : ما خرج زيد وما زيد خارج . لم يكن النفي الواقع بها متناولاً الخروج على الإطلاق بل الخروج واقعاً من زيد ومسنداً إليه . ولا يغرنَّك قولنا في نحو « لا رجل في الدار » أنها لنفي الجنس ، فإن المعنى في ذلك أنها لنفي الكينونة في الدار عن الجنس ،

ولو كان يتصور تعلق النفي بالاسم المفرد لكان الذي قالوه في كلمة التوحيد من أن التقدير فيها « لا إله لنا ، أو في الوجود إلا الله » فضلاً من القول وتقديراً لما لا يحتاج إليه ، وكذلك الحكم أبداً . وإذا قلت : هل خرج زيد ؟ لم تكن قد استفهمت عن الخروج مطلقاً ، ولكن عنه واقعاً من زيد . وإذا قلت : إن يأتني زيد أُكْرِمْهُ : لم تكن جعلت الإتيان شرطاً بل الإتيان من زيد ، وكذا لم تجعل الإكرام على الإطلاق جزاء للإتيان ، بل الإكرام واقعاً منك . كيف وذلك يؤدي إلى أشنع ما يكون من المحال ؟ وهو أن يكون ههنا إتيان من غير آت وإكرام من غير مكرم . ثم يكون هذا شرطاً وذلك جزاء .

ومختصر كل الأمر : أنه لا يكون كلام من جزء واحد ، وأنه لا بد من مسند ومسند إليه وكذلك السبيل في كل حرف رأيته يدخل على جملة كإنّ وأخواتها ، ألا ترى أنك إذا قلت « كأنّ » يقتضي مشبهاً ومشبهاً به كقولك : كأنّ زيداً الأسد . وكذلك إذا قلت لو ولولا وجدتهما يقتضيان جملتين تكون الثانية جواباً للأولى .

وجملة الأمر : أنه لا يكون كلام من حرف وفعل أصلاً ، ولا من حرف واسم إلا في النداء نحو : يا عبد الله . وذلك أيضاًإذا حقق الأمر كان كلاماً بتقدير الفعل المضمر الذي هو : أعني وأريد وأدعو ، و « يا » دليل عليه [١] وعلى قيام معناه في النفس .

فهذه هي الطُرُقُ والوجوه في تعلق الكلم بعضها ببعض . وهي كما تراها معاني النحو وأحكامه .

وكذلك السبيل في كل شيء كان له مدخل في صحة تعلق الكلم بعضها ببعض لا ترى شيئاً من ذلك يعدو أن يكون حكماً من أحكام النحو ومعنى من معانيه . ثم إنا نرى هذه كلها موجودة في كلام العرب ونرى العلم بهما مشتركاً بينهم .

وإذا كان ذلك كذلك فما جوابنا لخصم يقول لنا : إذا كانت هذه الأمور

---

(١) « يا » مقصود لفظها ؛ وهي : مبتدأ ؛ خبرها : « دليل عليه » .

وهذه الوجوه من التعلــق التي هي محصول النظم موجودة على حقائقها وعلى الصحة وكما ينبغي في منثور كلام العــرب ومنظومه ، ورأيناهم قد استعملوها وتصرفوا فيها وكملوا بمعرفتها ، وكانت حقائق لا تتبدل ولا يختلف بهــا الحال ، إذ لا يكون للاسم بكونه خبراً لمبتدأ أو صفة لموصوف أو حــالاً لذي الحال أو أو فاعلاً أو مفعولاً لفعل في كلام حقيقة هي خلاف حقيقته في كلام آخــر ، فما هذا الذي تجدد بالقرآن من عظيم المزية ، وباهر الفضل ، والعجيب من الوصف ، حتى أعجز الخلق قاطبــة ، وحتى قهــر من البلغاء والفصحاء القوَى والقدَر ، وقيد الخواطر والفكر ، حتى خرست الشقاشق [١] ، وعــدم نطق الناطق ، وحتى لم يجر لسان ، ولم يبن بيان ، ولم يساعد إمكان ، ولا ينقدح لأحد منهم زَند ، ولم يمض له حــد ، وحتى أسال الوادي عليهم عجــزاً ، وأخذ منافذ القول عليهم أخــذاً ، أيلزمنا أن نجيب هذا الخصم عن سؤاله ، ونرده عن ضلاله ، وأن نَطب لدائه ، ونزيل الفساد عن رائه ؟ [٢] فــإن كان ذلك يلزمنا فينبغي لكل ذي دين وعقل أن ينظر في الكتاب الذي وضعناه [٣] ، ويستقصي التأمل لما أودعناه ، فإن عــلم أنه الطريق إلى البيان ، والكشف عن الحجة والبرهان ، تبع الحــق وأخذ بــه ، وإلا رأى أن له طريقاً غيره أومأ لنا إليه ، ودلنا عليــه ، وهيهات ذلك ؛ وهذه أبيات في مثل ذلك :

إني أقولُ مقــالاً ، لستُ أخفيه ... ولستُ أرهب خصماً إن بــدا فيه

ما من سبيلٍ إلى إثبــاتِ معجزةٍ ... في النظم إلا بما أصبحتُ أبديه[٤]

فمــا لنظــمِ كلامٍ أنتَ ناظمــه ... معنى سوى حكمِ إعراب تُزجّيه[٥]

---

(١) الشقاشق جمع شقشقة بكسر الشين ، وهي لهاة البعير ، أو شيء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج . ويقال للفصيح : هدرت شقاشقه . يريدون الانطلاق في القول وقوة البيان . ويقال في مقابل ذلك : خرست الشقاشق .

(٢) الراء هنا بمعنى الرأي كما قــال ابن نباتة السعدي :

يا أيهــا الملك الذي أخلاقــه ... من خلقــه ورواؤه من رائه

(٣) يريد كتاب « دلائل الإعجاز » وهو صريح في كونه هو الواضع لعلم المعاني .

(٤) يريد نظم القرآن وأسلوبه وفي هذا البيت تصريح أيضاً بأنه هو الواضع للفن .

(٥) تزجيه بالتشديد : تدفعه برفق وتسوقه .

اسمٌ يُرَى، وهو أصلٌ للكلام فما ... يتـمُّ من دونـه قصـدٌ لمنشيه
وآخـرٌ هو يُعطيك الزيـادةَ في ... ما أنت تُثبتـه ، أو أنتَ تَنفيـه
تفسيرُ ذلك : أن الأصلَ مبتـدأ ... تَلقي له خبـراً من بعـدُ تثنيه
وفاعلٌ : مسندٌ ، فعل تَقدَّمه ، ... إليه يُكْسِبهُ وصفـاً ويعطيه [١]
هـذان أصلان ، لا تأتيك فائـدة ... من منطـق لم يكونا من مبانيـه
وما يزيدك من بعـد التمـام فمـا ... سلطت فعـلا عليـه في تعـدّيه
هـذي قوانين ، يُلقي مَن تتبعها ... ما يشبه البحـر فيضاً من نواحيه
فلست تـأتي إلى بـاب لتعلمـه ... إلا انصرفت بعجـز عن تقَصِّيه [٢]
هـذا كذاك وإن كان الذي ترى ... يرون أن المـدى دان لباغيـه [٣]
ثم الذي هو قصدي : أن يقال لهم ... بمـا يجيب الفتى خصماً يمـاريه
يقول : من أين أن لا نَظْمَ يُشبهه ؟ ... وليس من منطـق في ذاك يحكيه
وقـد علمنا بأن النظم ليس سوى ... حكم من النحو نمضي في توَخِّيه [٤]
لو نقَّب الأرض باغ غـيرَ ذاك له ... معنى وصَعَّد يعـلو في ترقيه [٥]
ما عـاد إلا بخُسْرٍ في تطلبـه ... ولا أرى غـير غَيٍّ في تبَغِّيه [٦]
ونحن ما إن بثثنا الفكر ننظـر في ... أحكامـه ونُروِّي في معـانيـه

---

(١) يكسبه من الثلاثي ومنه الحديث « تكسب المعدوم » .
(٢) التقصي : التتبع .
(٣) باغيه : طالبـه .
(٤) توخي الشيء : تحريه وتعمد طلبته .
(٥) صعّد ـ بالتشديد : رقى كالثلاثي . وهو مقابل التنقيب في الأرض الذي فيه معنى التسفل . ويقال : صوب النظر وصعده إذا نظر في أسفل الشيء وأعلاه . وعدى نقب بنفسه حاذفاً الخافض ولعله كان يراه قياساً « فنقّبوا في البلاد » .
(٦) تبغـاه ، كابتغاه : طلبـه .

كانت حقائق يُلفَى العلم مشتركاً ... بها ، وكلاًّ تراه نافذاً فيه

فليس معرفةٌ من دون معرفةٍ ... في كل ما أنت من باب تُسمّيه

ترى تصرفهم في الكل مطرداً ... يُجرونه باقتدار في مجاريه

فما الذي زاد في هذا الذي عرفوا ... حتى غدا العجز يهمي سيلُ واديه

قولوا وإلا فأصغوا للبيان ترَوْا ... كالصبح مُنبلجاً في عين رائيه

الحمد لله وحده ، وصلواته على رسوله محمد وآله .

تم كتاب المدخل

تمهيد الدكتور يوسف غازي لكتاب سوسير « محاضرات في الألسنية العامة »

شهدت الثلاثينات من عصرنا هـذا نشأة ونموّ الألسنية البنيوية في آفاق متعددة كالتصويتية والقواعد وعـلم الدلالة • وإذا قـدّر لنا أن نتساءل عـن الشخصية التي تلقّفت هذا التيار فاننا واجدون ولا شك اسم « فردينان سوسير » ، غير أنه من الوهم والضياع أن نبحث في كتابه « محاضرات في الألسنية العامة » عن كلمة « بنية » أو حتى عن « علم دلالة » (اللهمّ إلا في حاشية من الحواشي التي يلمح فيها سوسير الى تاريخ تغيّر المعاني) • أما كلمة تصويتية (فونولوجيا) تلك التي طالما خفق بها كتابه فهو يستعملها في معنى مغاير كلياً للمعنى الذي تتفق عليـه الألسنية البنيوية اليوم ، وإذ نقول إن سوسير هو مؤسس الألسنية الحديثة البكر فذلك لا يعني أن محاضراته تشكل ظلالاً ضوئية في أفق طافح بالسواد ، إذ أن الجديد في فكر سوسير لا ينهض على بعض عناصر نظرية مثل التقابل بين اللغـة والكلام أو مفهوم اعتباطية العلامة وهمـا مفهومان نجد أصداء لهما عند أسلافه من أمثال بودان دو كورتوناي Baudoin de Courtenay بـل الجديد في فكره **إنما يكمن في عملية التركيب التي صنعها وفي نظرته إلى اللغة نظرة شمولية ومنهجية •** وإذا ما أولينا سوسير اليوم هذا التميّز في ريادته علم الألسنية الحديثة ، فما ذلك إلا لأنّه أصاب في كتابه « محاضرات في الألسنية العامة » واضعاً يده على جُماع إشكالية المسألة اللغوية ، وهي نقيبة تميّز بها القرن العشرون إذ صـدَف الألسنيون من قبل عن دراسة اللغة من جانبها العام •

هذا ، ولا بد للباحث الجاد من أن يتفحّص عن كثب مقولات كتاب سوسير ليضع يده على الأسس التي بُنيت عليها فيما بعد التصويتية والقواعد وعلم الدلالة البنيوية • وإذا ما أخذنا برأي هيلمسلف القائل : « إن الألسنية البنيوية إنما هي مجموعة أبحاث تنهض على فرضية مفادها : انه لمن المشروع علمياً وصف اللغة بأنها

قبل كل شيء ماهية مستقلة مكوّنة من ارتباطات داخلية ، وبمعنى آخر على أنها بنية » . نقول إذا ما أخذنا بكل ذلك تتبيّن جلياً أن نقطة انطلاق التيار البنيوي إنما تقع في كتاب سوسير . ففي كتابه يطالعنا بمجموعة من المقولات النظرية والمنهجية هدفها تحديد غرض الألسنية ومكانتها بين مختلف العلوم الأساسية والتي تساعد على تحليل دقيق للغرض المسبق تحديده .

ورُبّ مدّع يقول : إن بعض تصورات سوسير موجودة عند أسلافه من مثل همبولت Humboldt وبودان كورتوناي أن ذلك صحيح الى حدٍ ما ولكن فضل سوسير يرجع إلى وضعه المشكلات المطروحة على بساط البحث ضمن إطار عام ومتماسك فضلاً عن رفده الألسنية بأول مجموعة متميّزة وخاصة من **المصطلحات التقنية** ، وهذا التجديد الذي أحدثه صاحبنا إنما يقوم على رفضه تصورات سابقية تلك التي تقوم على اتخاذ معايير خارجة على الألسنية ذاتها وذلك كمسوغات نظرية وكمبادىء تفسيرية ، وبهذا الرفض الذي أعلنه سوسير شيّد ما يُعرف بالألسنية الداخلية ، إذ صرّح : بادىء ذي بدء يجب أن يكون الانطلاق من اللغة ذاتها واتخاذها معياراً للظواهر اللغوية الأخرى كافة . وقد عرّف هذه الألسنية بأنها لا تقبل أي توضع أياً كان شكله ، فاللغة منظومة لا تعرف ولا تعترف إلا بترتيبها الخاص ، وعلى كل ففي كل مرة يطرح السؤال عن طبيعة هذه الظاهرة لا بدّ للإجابة عنه من التقيّد بالقاعدة « الدستورية » التالية : « داخلي هو كل ما يغير المنظومة مهما تكن درجة هذا التغير » .

وإذا حاولنا إبراز أهمية سوسير قلنا انه أول من أكد « أن اللغة منظومة لا قيمة لمكوناتها أي لعلاقاتها إلا بالعلاقات القائمة فيما بينها ، وبالتالي ، لا يمكن للألسني اعتبار مفردات لغةٍ ما كيانات مستقلّة بل إنّ لزاماً عليه وصف العلاقات التي تربط هذه المفردات . »

لا شك أن لطرح سوسير هذا أهمية يقرّها المنطق والحقيقة معاً ، فهو لم يقلب رأساً على عقب طرائق الألسنيين وحسب ، بل أثّر كل التأثير في طرائق العلوم

الإنسانية كافة • فهو يقول بضرورة تحديد اللغة عبر منهج سليم يسمح بالتعرّف إلى العناصر المكوّنة لهـا ثم الرجوع من بعدُ الى دراسة الظواهر الخارجية : التاريخية ، والجغرافية والاجتماعية وغيرها ، تلك التي تُناط بالكلام من كل جوانبه انطلاقاً من المبادىء العامة المحددة مسبقاً •

يتبع المؤلف في محاضراته هذه الطريقة المزدوجة فيقدم في القسم الأول وصفاً وتشريحاً لأبرز تمفصلات تفكيره اللغوي ، بينما يعقد القسم الثاني لطـرح تفسير جديد للمشكلات الألسنية الخارجية •

إن التمييز بين اللغة والكلام هو المفصل الأول الذي يعالجه سوسير فهو يعتبر آلية التواصل الألسني ذات طبيعة نفسية واجتماعية قبل كل شيء ، فاللغـة عنده « كنز يدخره الأفراد الذين ينتمون الى مجموعة واحدة عبر ممارسة الكلام وهي منظومة نحوية موجودة بالقوة في كل دماغ وتحديداً في أدمغـة مجموعة أفـراد إذ أنها لا توجد تامة عند الفرد وإنما عند الأفراد » • وهذه المنظومة التي تُدعى لغـة لا تتجلى « إلا بفعل تحقيق فردي لهـا ونعني الكلام ، فينبغي إذاً تحديد مجموعة القواعد المجرّدة التي تتحكّم بهذه المنظومة المشتركة بين الأفراد والمتوجدة في تحقيق كلامي » ولا شك أن التمييز بين اللغة والكلام إنما ينطبع بطابع علم النفس الترابطي وعلم الاجتماع الذي نشأ في نهاية القرن التاسع عشر • ثم ينتقل سوسير إلى تعريف العلامة للألسنية بأنهـا ماهية نفسية صرف ، تجمع بين صورة سمعية هي الدال : أي تمثّل ذهني لتتابع صوتي ، ومفهوم هو المدلول : أي تمثّل ذهني لفكرة أو لشيء ما • وهذان الجانبان المتّحدان في ضمير الفرد الناطق يردّانِ على العلاقة الألسنية صفتيها الأساسيتين وهما الاعتباطية والخطية •

وحريٌ بنا أيضاً أن نذكـر التمييز بين التزامن والتزمّن والذي ينتهي إلى مفهوم القيمة الألسنية ومن ثم الى استخلاص مجموعة من النتائج المنهجية •

ومن بعد سوسير طفق التيّار البنيوي يطوّر هذه التقابلات التي اتّسمت في كتابه بالحدسية وجعل منها مجموعة مفاهيم صالحة وقادرة على بناء صرح علمي متماسك الأركان •

يلقي طرح سوسير هذا الأضواء الكاشفة عن الجانب الصوتي للغة وصحيح أن كاتب المحاضرات قد خصّص فصلاً من كتابه للتصويتية غير أنه كان يعني بها دراسة فيزيولوية الأصوات أي الأصواتية (فونيتيك) كما نسمّها اليوم ، وهو يعني بهذه الأخيرة الأصواتية تلك التي نعني بها اليوم شيئاً آخر مغايراً لما كان يعنيه هو نفسه ، وعلى كل ، فقد وضع سوسير لعلم التصويتية حجر الزاوية ، على الرغم من استعماله هذا المصطلح بمعنى آخر مباين لاستعماله إياه فهو يؤكد في محاضراته : « ان ما يهمّ الألسني ليس هو المادة الصوتية لفعل الكلام وإنما التقابلات التصويتية المختلفة ، والتي تؤدي إلى فوارق معنوية : في منظومة اللغة • »

إن تأثير سوسير في القواعد البنيوية قليل الشأن وليس بذي بال ، إذ تـمّ تطوير طرائق هذه القواعد في الولايات المتحدة بشكل أساسي على يدي بلومفيلد وهاريس ، ومع ذلك يمكننا اعتبار رفض تقسيم القواعد إلى صرف ونحو وتصنيف الوحدات النحوية إنما يقومان على مبـدأ الاعتراف بالعلاقات التركيبية الأخرى التبديلية التي نادى بها سوسير •

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان علم الدلالة قد ازدهر فيما بعد وخاصة في مفهومي الحقل الدلالي والآخر الترابطي اللذين قال بهما اللغويان ترير Trier وبـالي Bally في الثلاثينات من هذا القـرن غير أنه بوسعنا التعرّف الى أثـر سوسير في كل ذلك ، فهو الذي أشار إلى مفهومي عـدم قدرتنا على استخلاص قيمة علاقة لغوية ما على مستوى الدالّ والمدلول إلاّ عبر العلاقة القائمة بين هذه العلامة والعلامات الأخرى تلك التي تكتنزها منظومة اللغة ، ومن ثم جاء ستيفن أ لمـان Stephen Ulmann في الخمسينات ليطوّر عـلم الدلالة الذي ينهض بوضوح وجلاء على التقابلات الثنائية التي أخرجها سوسير الى حيّز الوجود وهي : اللغة – الكلام ، التزمن – التزامن ، الدال – المدلول ، المعنى والقيمة ، وبفضل هذه التقابلات فقد قـدّر لعـلم الدلالة التخلص من النظرة الضيقة والحادّة التي كان موسوماً بها والقائمة على معالجة جزئية وتاريخية تدرس تطور معاني كلمات معزولة ومنفردة لا رابط بينها •

لقد لعبت إذاً المفاهيم التي تصوَّرها سوسير دوراً رائداً وحاسماً في دراسة مكونات اللغة الثلاثة ونعني بهما : التصويتية والصرف وعلم الدلالة ، بيد أن أهمية سوسير في هذه المفاهيم قد تخطَّت حدود اللغة كمنظومة ، وانتقلت إلى مجالات ألسنية أخرى ، فها هو جاكوبسون Jakobson وهو هو الذي سعى جاهداً لإخراج الدراسة من إطار ألسنية اللغة يعتمد التقابل بين محوريَ الترابط والتبديل محاولة منه لتفسير جانبين اثنين من النشاط اللساني ونريد بهما : دراسة الحبسة الكلامية والوظيفة الشعرية (البويطيقية) ، فالاضطرابات اللغوية في الحبسة إنما تنشأ عن عدم قدرة المصاب بها على استخدام محور التبديل استخداماً سليماً فضلاً عن تميّز الاصابة بانحرافات مستمرة بين محوري التعاقب والتبديل ، أما الوظيفة الشعرية فإن جاكوبسون يؤكد ضرورة اعتبار الشعرية (بويطيقيا) جزءاً حميماً ولصيقاً غير متجزّىء عن الألسنية معتمداً في ذلك التمييز السوسيري بين المحورين المذكورين سابقاً : التبديل والتركيب ، إن مثل سوسير في تصوراته الألسنية مثل صاحب نظرية العلوم الإنسانية ، ولا بدّ أن تمنى في جزئياتها أو في شموليتها وكليتها للأخذ والرد ، ذلك أن التقابلات التي أرساها كالتقابل بين اللغة والكلام والتزمّن والتزامن لم تكن لتحظى كافة بإجماع واسع من جمهرة اللغويين بل أثارت من حولها جدلاً طويلاً ، وليس من دأبنا هنا مناقشة هذا الذي أُثير تاركين القارىء يعكف على دراسة « محاضرات » سوسير لننتقل به من بعد إلى نواحٍ ألسنية أخرى تتبيَّن بها ومن خلالها مناقب سوسير اللغوية وما قدَّمه من أيدٍ بيض في هذا المضمار . وقبل أن نطوي الغارب لا بدّ من التنويه ولو عاجلاً بالآثار التي أفضت إليها هذه المحاضرات في علوم أخرى غير ألسنية وعلى رأسها علم الأقوام وفي هذا الصدد يقرّ ليفي ستراوس Lévi - Strauss في كتابه « الانتروبولوجيا البنيوية » بأهمية اكتشافه التصويتية التي « سيُقدَّر لها دورٌ كبير في العلوم الإنسانية لا يقلّ خطراً عن الدور الذي لعبته الفيزياء النووية تجاه العلوم الدقيقة » ففي الثلاثينات من هذا القرن كان عالم الأقوام ينتظر أن يقدِّم له الألسنيون من علماء اللهجات وعلماء الألسنية المقارنة أفكاراً ومعلومات حول مفردات كفيلة بتوضيح جملة من المفاهيم ، ومثالنا على ذلك المعلومات حول الأصول التأثيلية

لمفردات من شأنها بيان الروابط القائمة بين مصطلحات القربى كما كان الألسنيون ينتظرون بدورهم أن يمدّهم علماء الأقوام بمعلومات حول عادات وتقاليد طائفة لغوية ما بغية تفسير بعض العناصر اللغوية ، هذا ، ومع ظهور الفكر السوسيري **حدث انقلاب واسع في طريقة البحث أدّى إلى ظهور الانتروبولوجيا البنيوية** القائلة بضرورة الانتقال من دراسة منظومة ما تزمنياً إلى دراستها تزامنياً ، وهو يرفض دراسة ومعالجة المفردات من حيث كونها ماهيات منعزلة ، ويمنح العلاقات القائمة بين الكلمات الأولوية في الدراسة وفضلاً عن كل ما تقدّم فقد أماط سوسير اللثام عن علم آخر ألا وهو الأعراضية وقد عرف سوسير هذا العلم بقوله : « يمكننا إذاً تصوّر علم يدرس حياة العلامات في صدر الحياة الاجتماعية وهو يشكّل جانباً من علم النفس الاجتماعي وبالتالي من علم النفس العام ، إننا ندعوه الأعراضية ، تلك التي تدلّنا على كنه وماهية العلامات والقوانين التي تنظمها » لقد كان لهذه الكلمات التي أطلقها سوسير صدى بعيد ، إذ عكف علماء من مثل بويسنس E. Buyssens وبرييتو L. J. Prieto على هذا المشروع الفكري جاهدين في بناء هذا العلم انطلاقاً من دراسة العلامات المستخدمة أساساً للتواصل .

ومن بعدهم أخذ رولان بارت R. Barthes يطلق هذا العلم فاتحاً باب الوقائع الدلالية كافة على مصراعيه وتجدر الملاحظة هنا أن بارت لم يكن ليروم تأسيس علم علامات عام تنطوي الألسنية تحت لوائه حسب مشروع سوسير بل إنه انطلق من الألسنية محاولاً تطبيق مفاهيمها الأساسية على مجالات جديدة كالزي مثلاً .

وقصارى القول ، لقد تجاوز فكر سوسير أبعاد وحدود الألسنية الى العلوم الإنسانية الأخرى ، ليكون بذلك **الانطلاقة البكر في التفكير الإنساني** ، إذ أصبحت دراسة اللغة علماً قائماً في حدّ ذاته متمتعاً بنظريات وطرائق بحث خاصة متميزة كما استطاعت الألسنية فضلاً عن كل هذا وذاك إزالة الحواجز التي تفصلها عن علوم أخرى غير لسانية ، فالتقت الأصواتية بالفيزياء عبر خيوط من الصلة دقيقة وتواشج علم الدلالة والرياضيات كما تآخى علم القواعد والمنطق ، والتغيرات اللغوية

وعلم الاجتماع ، والاصابات اللغوية مع الباتولوجيا والعصبية ؛ وتعلّم اللغة وعلم النفس والتربية ، والتغيرات اللغوية الاجتماعية وعلم الأقوام ، وعبر هذا الاحتكاك وبفعله ، تولّدت اختصاصات ألسنية فرعية مثل : الألسنية الرياضية ، والألسنية الاجتماعية والعصبية والنفسية والأقوامية ، وغدت الألسنية في ظن الإنسان هـذا العلم الطليعي الرائد والمثالي للعلوم الإنسانية معاً •

هـذا قليل من كثير نقدّمه للقارىء العربي ليكون عوناً له على إغناء آماد ذاكرته اللغوية والمعرفية ، خاصة وإن كتاب سوسير يُعدّ **الفتح الألسنيّ الأول** في هذا العصر ، نضيف الى هذا أن المصطلحات التي عصف بها الكتاب مستقاة من معجم ألسني عكفتُ على إعداده منذ زمن ليس بالقليل وسوف أدفع بـه بعونه تعالى قريباً إلى المطبعة آملاً أن يجـد فيه الطالب والباحث الجهاز الاصطلاحي اللازم للحـاق بموكب البحث الألسني بكل ما فيه من إشكالية تجمع بين التجهم والإشـراق •

كيف نقـرأ النص البلاغي ؟

قراءةُ النصِّ البلاغي : تفتح الأبوابَ إلى التأمل بالأدبِ واللغةِ والفكر ؛ وقد تجلّى لنا هذا التفتح : عندما قرأنا نصّاً بلاغيّاً قديماً من « الإيضاح في علوم البلاغة » ، وآخر من « دلائل الإعجاز » ••

نعيد النظر بما دعوناه « مكونات الجملة » ، فماذا نجـد ؟

نجد أننا ذكّرنا بأبواب « الإنشاء » •• وبالتجاور الدائم بين أساليب الإنشاء والخبر ••• ثم اكتشفنا في نصٍّ شعريٍّ مؤلّفٍ من بيتين : أركان « علم المعاني » جميعاً ؛ فمن جمل النص : تعرفنا إلى ثمانية أبواب علم المعاني ، التي هي : أحوال الإسناد الخبري ؛ وأحوال المسند إليـه ؛ وأحوال المسند ؛ وأحـوال متعلقات الفعـل •• والقصر ؛ •• والإنشاء •• والفصل والوصل •• والإيجاز والإطناب والمساواة •• ثم هـدانا التأمل بالنص الشعريّ إلى ما يُلمح من وراءِ جُمله ؛ فالجمال الجاذب وراء الجمل : يُذاق ذوقاً ضمن مكونات الجملَ ، ويصعب تثبيته

أو نجمة الياسمين ، أو كف البنفسج ، أو أجفان القرنفلة •• إن هـذا الشذى : روح كليـة تأتي بالنشوة من وراء مكونات الجملة ومنها ومما لا نعلم ؛ وهـذه الروح ، غالبـاً ، هي التي ألهمت الباحثين : الدوران وراء إعجاز الكلام ، الذي تجلَّى على اللغة العربية بهذا « القرآن العزيز الموحى » ••

هـذا هو الباب التاسع من أبواب « علم المعاني ومقتضى الحـال » ؛ وهو باب" : لم يتعرض له القزويني في « الإيضاح » ؛ بل حصر أبواب عـلم المعاني في الثمانية التي ذكرناها •• مع أن الجرجاني في « دلائل الإعجاز » : لم يكفّ عن التذكير بالبحث عن هذا الباب السحري ، أو السِّريّ ، للبلاغة •• وإلحاحُه الشغوف باكتشاف الإعجاز وراء دلائله : فتح أبوابَ اللغةِ والفلسفةِ معـاً •• كما فتح أبوابَ الأدب والنقد •• ومن انفتاح هذه الأبوابَ : ظهرت العلائق بين القـديم والحديث ••

في محاضراتنا « التربية النقـدية والبلاغـة الممارسة » : نحبّ الحضور المشترك ، أو الموحّد بيننا وبين طالب هذا العلم •• لذلك ندرّج البحث بصورة صاعدة إلى قمم المعنى ، أو غائصةٍ إلى لُججه ؛ وفق « مقتضى الحال » ••

ومن هذا التدرّج : اختيارُنا النصوصَ التي تقدمت ، والتمهيدُ لهـا ، والتوقف في أثنائها كما ظهـر الأمر جلياً مع النص الثاني لأنه طويل ويبين « علل التفاضل بين كلام وكلام » •• وهذا الذي نتكلمه الآن ، بعدما رأينا النصوصَ ، وبعدما سمعنا لهجـات أصحابها •• لعـلّ كلاًّ منا : وصل إلى استنتاج خاص بمقتضى حال فهمه واتجاهه •• ومن تلك الاتجاهات : يمكن النظـر إلى تنوّع الأساليب البلاغية واللغوية ؛ فأولها : مدرسي بلاغي ؛ وثانيها : نقدي إجمالي ؛ وثالثها : لغوي بنيوي ؛ ورابعها : ألسني عام •• والثلاثـة الأولى : نصوص قديمة •• والرابع : نص حديث ••

النص البلاغيّ المدرسيّ : أوضح فيه صاحب « الإيضاح » ثلاثـة أمور أساسية ؛ معنى الخبر وأبواب البحث في المعـاني •• وصدق الخبر وكـذبه ••

وذوق الباحث عـن البلاغة أو تقليده ••• وعبارة القزويني : واضحة في هـذه الأمور ؛ ولذلك لا نجد كتاب بلاغة : إلا ويردد مما جـاء به القزويني فيها •• فلننظر بنصـه ••

نص القزويني : مدرسيٌ ؛ بمعنى أنـه يجمع آراء أهل العـلم السابقين ، ويقدمها مرتبة ومناقشة لطلابها ؛ ففي مسألة « صدق الخبر وكذبه » ، مثـلاً : يبدأ برأي الجمهور ؛ فالخبر ، عندهم « يُصدَّق إذا طـابق حكمُه الواقع •• ويكذَّب إذا لم يطابق حكمه الواقع •• لكن الخبر عند أهل الخصوص ، ومنهم : إبراهيم ابن سيار ، والجاحظ : يرون صدق الخبر بمطابقة حكمه لاعتقاد المخبر ، كما عند الأول •• ويرون صدقه : مطابقة حكمه للواقع مع اعتقاده ، كما عنـد الثاني •• وتفاصيل المعالجة في النص ذاتـه ••• ولنا إلى هذه المسألة عـودة في « رسالة الإعجـاز » ••

القزويني في نصه : يجمع الآراء بالمسألة الواحدة ؛ وهو ، بالأصل : يلخص كتاب السكاكي « مفتاح العـلوم » ويوضحه ؛ وهما : السكاكي والقزويني ، يأخذان من الجرجاني •• كما أخـذ بدوره من الجاحظ وغيره •• ويمكن سماع الأصوات الأربعة ، كما لو كنا بندوة ، في قسم « الذوق والتقليد » من هـذا النص ••

هذا ما نعنيه بمدرسية النص البلاغي ؛ وهذه المدرسية من أسرار ثبـاته في الجامعات والمدارس ، عبر العصور ، وإلى اليوم ؛ فهو يقدم عقولاً مجتمعة حول منابع البلاغة الجوهرية والحيوية والخالدة ؛ •• ومن الذي يستطيع إلغاء « الذوق والتقليد » من بحوث البلاغـة •• أو « الصدق والكذب » مـن تذوق الكلام واعتباره •• أو « الخبر والإنشاء » ؛ أليس الكلام كله : خبراً لنسبة ما يطابقها أو لا يطابقها في الخارج •• أو إنشاء ليس لنسبته خارج لوزن مطابقته معها •• ؟

مدرسية النص البلاغي : تستدعي التأمل والحفظ في البداية •• ثم النظـر والمحاورة •• ثم النقـد والممارسة في الغاية •• ومع الممارسة : يقول « مقتضى الحال » للمارس ماذا ينبغي أن يفعل ، تقليداً أو اجتهاداً ؛ إبقاءً أو إلغـاء ؛ مزجاً

أو تصفية •• فالبلاغة : مراتب منها الأدنى ومنها الأعلى •• ومنها المتوسط •• وبين الأعلى والأدنى : بعدد البلغاء من المستويات •••

أما النص النقدي الإجمالي : فنصٌّ الجرجانيّ الذي ختم به مباحث « دلائل الإعجاز » •• ولم يزد بعده إلا خاتمة الكتاب •• ويمكن التأمل بعناوين أقسامه العشرة •• وبما تقدمه وتخلله من ملاحظاتنا •• وقد استوقفت المتتبع ثلاث مرات : مع أقسامه الثلاثة الأولى ، التي هي : « مقصد علم المعاني : بيان علل التفاضل في نظم الكلام ••• ثم : كون الإعجاز يعرف بأحكام النحو ••• ثم الإسناد وتحقيق معنى الخبر •• » •••

هذه الوقفة الأولى مع الأقسام أو الفروع الثلاثة : كانت للتأني بتعلم قراءة التراث وتهذيبه ؛ لأن هذا التأني : يختزل رماد الكلام ، ويؤلّق جمرة المعنى •• وقد جعلت الواقعية حالاً يغني عن المقال ؛ لأن التربية على أخلاق الجَدّ الفارس : تقصد إلى الفروسية ، ولا تقصد إلى الفرس ذاتها التي كان الجد يركب عليها ؛ فقد تنوب الطائرة عن الفرس ، وتكون أليقَ بروح الفروسية الداعية للمطابقة مع مقتضى حالها ••• ووجه آخر من واقعية الحال المغني عن المقال : هو استحضار « البلاغية » في أسلوب معالجة البلاغة ؛ لنكون في المطابقة بين جمال اللفظ وجلال المعنى •• وقد ظهر لنا في هذه الفروع الثلاثة : أن جلال المعنى لم يرزق جمال اللفظ والتأليف في أسلوب الجرجاني ؛ وتمكن المقارنة بين عبارته المسهبة (١) وبين ما آلت إليه في إيجازها (٢) ••

إن ما قمت به من إيجاز الكلام الكثير بجمل قليلة : لا يغضّ ، ولا يريد أن يغضّ من قِيَم الجهد الذي بذله الجرجاني لإيضاح علم المعاني ؛ لكنه ينبه إلى إمكان البناء الحديث الأمتن ؛ فخيمة الجد القديم : كانت بيته المناسب لمقتضى حاله •• فهل يقتضي الحال للأحفاد مثل تلك الخيمة أم يقتضي بناءً أكثر ثباتاً وأمنع تخييماً •• ؟

---

(١) لاحظ ، ص : ٣٥٥ – ٣٥٧
(٢) لاحظ ، ص : ٣٥٣ – ٣٥٤

وللتأكيد على تقدير القيم المعنوية : يمكن التأمل بما استوقفنا له في المرة الثانية مع الأقسام الأربعة التي تلت الثلاثة الأولى ؛ فهي أقسام الخبر : تظهر مكونات جملته ، وحقيقة معناه ، ومدلول حكمه ؛ فجملة الخبر : مسند ومسند إليه ؛ والعلاقة بينهما هي : الإسناد •• وما بقي فهو متممات •• والفرعان الأخيران : يثيران التأمل بما يراه من مسألة الصادق والكاذب في حقيقة الخبر ودلالة معناه ••

بهاتين الوقفتين مع الفروع السبعة من « علل تفاضل الكلام » : يدخلنا الجرجاني إلى التنبه لمسألة الباب التاسع ، وهو « الإعجاز » ، أو « مجدِّد إعجاز القرآن » ، الذي لم نره في نصٍّ القزويني ••• ويرينا ما رآه القزويني بأسلوب آخر في قضايا الخبر : نفياً وإثباتاً •• صدقاً وكذباً •• ولا بأس ، بل لا بد من التأني مع عبارته : لمن يقصد فهم النص البلاغي القديم في هذه المسألة التراثية الإنسانية « الخبر » ؛ لأن الخبر ، كما سمعنا في « بلاغة الإنشاء » : يمثل يقين الماضي وعلم المستقر من الوقائع التي كانت •••

أما الوقفة الثالثة : فقد نبهت إلى مزايا الجرجاني ، نقدية أدبية ؛ وفقهية لغوية ؛ وفلسفية بلاغية •• والتأمل بما قلناه [1] : يفتح نوافذ إلى نصه ، تعطي المستنتج جنياً جديداً ••

في فروع هذه الوقفة : تظهر قضية العلاقة بين أجزاء الجملة •• كما تظهر بين اللفظ وغاية وضعه وما يمكن أن تمتد إليه تلك الغاية من تجاوز يدخل في المجاز ؛ •• وربما يبعث التأمل بهذه الفروع : ما كشف لنا من حداثة المعطى الجرجاني •• بل من حضور الجوهري المستمر والموحد بين القديم والجديد •••

لفحص هذه النتيجة المغرية : كانت العودة إلى أول كتاب « دلائل الإعجاز » ، بعد الوصول إلى آخره •• إن الكتاب « دلائل » •• أي هو كتاب « البِنية » •• ويؤكد هذا الرأي مدخل الكتاب ؛ فهو فيه : بنيوي خالصٌ ؛ وهو في عرضه

---

(١) لاحظ : ٣٦٢ ــ ٣٦٤

البُنى الكَلِمية : إحصائي دقيق ؛ يتتبع أشكالَ الجملة العربية ويحـدد أنواع علائق أجـزائها ؛

اخترت هذا المدخل « نصّاً ثالثاً » من الجرجاني ؛ وهو : يمثل الجرجاني البنيوي ، نظريـة وممارسة ؛ لأنه أجمل قواعد التعليق نثراً ؛ ثم أجملها شـعراً بثلاثة وعشرين بيتاً من البحر البسيط •• وهو في شعره : يركز مذهبه في النظـر وكشفه المشترك الجوهري بين عارفي اللغة وبلاغتها ؛ تأمل في قوله مثلاً :

ونحنُ ما إن بثثنا الفكرَ •• ننظـرُ في
أحـكامـه •• ونُروِّي فـي معـانيه
كانت حقـائقُ يُلفَى العـلمُ مُشتركاً
بهـا ••• وكلاًّ تَراه نافـذاً فيه •••

إن المدهش بنصٍّ الجرجاني المدخلي ، هذا : هو حداثته ؛ ولأظل في مستوى « واقعية الحال الذي يغني عن المقال » : جئت معه بنصٍّ بنيوي حديث ، لواحد من الناشطين المجدين الشباب في هذا العصر •• وقد أردت المجاورة بين النصين : الإغراء بالتأمل الموازن بين محتويات النصين الباحثين في « التعليق والعلاقة » •• وهذا الإغراء : لا يعفي الشيوخ ، ولا يعفي الشباب •• فالشيخ الجرجاني مـن التـراث •• والشاب يوسف غـازي وفرديناند سوسير من الحـداثة العـربية والعالمية [1] •••

نص يوسف غازي الممهـد « لمحاضرات سوسير في الألسنية العامة » : من النصوص المثيرة ؛ لحسن اطلاع صاحبه شبه الإحصائي على التطور الألسني •• ولأنه يقدم للتراث اللغوي : شهادة عملية واقعية ، دون مقارنة ، ودون قصد ••

---

(١) لاحظ التلفيت الى التشابه ، ص (٣٧٠ ـ ٣٧١) .. وانظر مقدمتي لكتـاب يوسف غازي « المدخل الى الألسنية » ففيها ما يبوح بها عنوانها « لمعرفة سـر الألسن » .. وانظر الوجـه الآخر للنظرية من الوجهـة الدلالية « مقـدمتي » لمراهنـات الدلالات اللغويـة .. كتبته « آن اينـو » حـول مذهب كريماس الدلالي .. وترجمه : خليـل احمد .. واوديت بتي ... وتأمـل إشارات المقدمتين « للتراث والحداثة » على صعيد « الصوت العربي واللغات » ..

أعني أنه : عرض مؤسس الألسنية السويسري ولم يشر إلى سابقه الجرجاني •• وليست مهمته •• المهمة متروكة للباحثين في المقارنات ••

وقد قام بجانب من هذا الدكتور « جعفر دك الباب » في رسالته الموفقة « نظرية الإمام الجرجاني اللغوية وموقعها في علم اللغة العام الحديث » •••

يمكن التوقف مع هذا الجهد المعمق الذكي للإحاطة بالنظرية اللغوية •• كما يمكن التأمل بأبحاث أخرى ، كليّة أو جزئية ، كتبت حول بلاغيات الجرجاني ولغوياته ؛ والجرجاني : يوحد بين المعاني والنحو ؛ لأن معاني النحو : أسس الإعجاز ، في نظريته ••

نتوقف مع جهود هؤلاء الباحثين الجرجانيين في الوقت المناسب ؛ أما هنا : فالأمر الأهمّ أن نسمع صوت الجرجاني بذاته ؛ وأن نتأنى بفهم عبارته على تنوع أساليبها ؛ فهو في النص الأول ، « بيان علل التفاضل » : يمثل المحاضر ، الذي يكرر لجمهور تلامذته أو مستمعيه •• وهو في النص الثاني « مدخل إلى دلائل الإعجاز » : يمثل الباحث المتقصي الذي يضع القواعد بتقنية وإتقان •• وهو في القصيدة الملحقة بالمدخل : يمثل الشاعر العالم •• أو شعر العلماء ••

بعد قراءة هذه النصوص : نفهم جيداً ، لماذا قال الجرجاني « تم كتاب المدخل » ؛ فكأنه يعتبر المدخل كتاباً تامّاً قائماً بذاته ••• ونحن نظنّ أنّ ما تقدم ، من نصوص •• ومن كيفيات قراءة للنصوص البلاغية القديمة والحديثة •• ومن إيجاز عملي لأبواب علم المعاني عبر نص أدبي وجيز : يساوي الكتاب التوجيهي لكيفية السلوك مع نصوص البلاغة القديمة والحديثة •• فلنحاول ، مجدداً ، قراءة النص المدرسي لعلم المعاني ؛ وعلى أضواء النصوص الأخرى •• فماذا نجد في نصوص « الإيضاح في علوم البلاغة » المدرسية ؟•• ماذا عن أحوال : الإسناد •• والمسند إليه •• والمسند •• ؟ ماذا عن التعلق •• ؟ •• ماذا عن القصر •• ؟ وماذا عن أحوال الجملة المتعاطفة ؟ •• وماذا عن أحوال الأساليب المتساوية أو المطنبة أو الموجزة •• ؟ •• وفوق كل ذلك : ماذا عن أحوال الإعجاز ؟!! •••• وماذا عن تجميل التراث وجماله ؟

أحـــوال الجمـــلة الخبريـــة

١ – أحوال الإسناد الخبري
٢ – أحوال المسند إليـــه
٣ – أحوال المسند
٤ – أحوال متعلقات الفعـــل
٥ – أحوال القصر

« إنّي آنستُ ناراً
سآتيكم منها بخَبَرٍ .. » (النمل : ٧)

« يومئذٍ تُحدِّثُ أخبـــارَها ..
بأنَّ ربكَ أوحى لهـــا .. » (الزلزلة : ٤)

أحـــوالُ جملتِنا : عِناقُ تحوّلٍ
يشدو بروضٍ ؛ إنما الشدوُ الفضا

ويذوبُ طيبٌ في الهـــواء ليجتني
سعةَ الفضاءِ .. فأيّنا الباقي مَضَى ؟

يا عالم الأسماء ..!.. أسألُك الهدى
يا آدمَ الفردوس ..! حالُك مُقْتضى

١٩٨٧/١١/١٥

١٤٠٨/٣/٢٤

الخبر ، لغـة : ما يُنقَلُ ويُتَحدَّث به ؛ وجمعه : أخبـار وأخابير ••
والأخباري : من يدون الأخبار ويسردها ؛ فهو أشبه بمكاتب الصحف ، اليوم ••
والمادة اللغوية « خَبَرَ » : تشير إلى الاختبار والخِبرة ، بمعنى العـلم بحقيقة الشـيء ••

وهذا المعنى اللغوي : على حدود المعنى البلاغي ؛ فالخبر البلاغي : يُقايَس بنسبته الخارجية المطابقة له في حالة كونه صادقاً •• وغير المطابقة له في حالة كونه غير صادق •• وهذا الخبر البلاغي « لا بد له من إسناد ، ومسند إليه ، ومسند ؛ والمسند قـد يكون له متعلقات : إذا كان فعلاً ، أو متصلاً بفعل ، أو في معنى فعل كاسم الفاعل ونحوه من المشتقات •• وهذان ؛ الإسناد ، والتعلق : كل واحد منهما يكون بقصر أو بغير قصر » •• (إيضاح : ٨٥) ••

هذه أبواب الجملة الخبرية الخمسة ؛ ولكل باب منهـا أحواله ؛ ونلاحظ مستوياتها التطبيقية في بيت واحد :

أحوالُ جملتنا : عِناقُ تحوُّلٍ
يشدو بروضٍ ••
إنما الشدوُ الفضا •••

فالجملة الأولى : مستوى الإسناد ؛ أحوال : مبتدأ مرفوع ؛ وهو المسند إليـه •• عناق : خبره ؛ وهو المسند •• والعلاقة بينهما : هي الإسناد ؛ فالعناق التجددي المتحول : تابع لوضعٍ « أحوالُ » مستند عليه ، يتلون بألوانه ، ويصطبغ بما يسنده إليه من تلوينات أحوال ؛ كأنه ظلّه وامتداده ••

والجملة الثانية : مستوى التعليق ؛ يشدو : فعـل مضارع مرفوع ؛ وهو المسند •• وفاعله : مستتر جوازاً ، تقديره : هو ؛ يعود إلى « العناق المتحول » ؛ وهو : المسند إليه المقدر •• بروض : جار ومجرور ؛ الباء : حرف جر ، متعلق بالفعل « يشدو » الذي هو المسند •• روض : مجرور بالباء ، مرتبط بسببها مع

« الشادي » ومع « الشدو » •• أي مع ركني الجملة الخبرية : المسند إليه والمسند ••

والجملة الثالثة : مستوى القصر ؛ الشدو : مسند إليه ، مبتدأ •• الفضاء : المسند ، خبر المبتدأ •• والعلاقة بينهما : هي الإسناد ؛ وقد قصر فيها معنى الاتساع الفضائيّ الحر على الشدو ؛ أي : الشدو هو المقصور ؛ والفضا : هو المقصور عليه ؛ وطريقة القصر : تمت مع الأداة إنما ؛ وللقصر طرق أخرى ، سنراها في « أحوال القصر » ••• وسنرى تجربة طريفة من الموازنة بين نص بلاغي قديم في « أحوال القصر » •• ونص آخر حديثٍ ••

لكن الخبر من مستوى الإعجاز : يحقق للبلاغة أحوالاً غير اللغوية وغير البلاغية المدرسية ؛ ففيه علم اليقين ؛ وخبرة الحكيم الخبير •• ويمكن التأمل بكلمة « خبر » التي وردت في الآية السابعة من سورة النمل ؛ فإن التتبع لسياقها : يصور ما نعنيه من يقينية الخبر المدْخلة في عالم الحقائق الثابتة والكلية •• تأمل الصورة بقوله تعالى : (٧ – ٩) ••

« إذ قال موسى لأهله : إني آنستُ ناراً ؛ سآتيكم منها بخَبرٍ ؛
أو آتيكم بشهابٍ قبَسٍ لعلكم تَصطلون •• فلما جاءها ، نُودِيَ :
أن بُورِكَ مَن في النار ومَن حولَها ؛ وسبحان اللهِ ربِّ العالمين ••
يا موسى ، إنه : أنا اللهُ العزيز الحكيم » ••

هذه ماهية الخبر في مستوى الإعجاز ؛ لأنه مستوى الاتصال مع الحضرة العزيزة الحكيمة ، على نحو ذي اختصاصٍ : لن يَبلغَه إلا أصحابه البلغاء الخبراء ••

ومن هذا المستوى الإعجازي : الآية الرابعة المشار إليها من سورة الزلزلة ؛ فكلمة « أخبار » في سياقٍ خبري معجز ؛ لأن الأرض « تحدِّثُ أخبارَها بأنّ ربّكَ أوحى لها » ••

فإخبار الأرض ، أو القيامة ، بما أوحى لها رب الأنبياء والناس وربها ورب كل شيء : مسألة تجاوزية ؛ أي تعلو على مستويات الخبر اللغوية والبلاغية ... وحيث شاء الخبراء المعنيون بعلم المعاني : يجدون هذا المستوى في آيات الوحي ؛ فمن سورة النمل ذاتها ؛ في الآية الثامنة والثمانين :

« وترى الجبالَ ؛ تحسبها : جامدةً ؛ وهي تمــرُّ مرَّ السَّحابِ ؛
صُنْعَ اللهِ الذي أتقنَ كلَّ شيء ؛ إنه خبيرٌ بما تفعلون » ..

ففي جُمَلِ الآية الخبرية : مستوى من اليقين الكلي ؛ يؤكد حقيقة يخبر بها على وجهٍ قطعي ؛ تأمل جملة « أتقنَ كلَّ شيء » .. وقارنْ مع أي شــيء تعرفه في الوجود : يُرِكَ الإعجازَ الحتميَّ ؛ فكِّرْ بالذبابة أو النحلة ؛ وفتش عن الإتقــان ؛ وعمن يستطيع أن يجاري هــذا المتقن الخبــير بصنع إحداهما ؛ أو بما هو أقــل من كلتيهما ؛ ...

هذا من صدق الخبر اليقين ؛ وقد أردتُ إضاءة المدخل بدرجات من وعي المستويات المعنوية لجملة الخبر ؛ لنكون على بينةٍ من « أحــوال جملتنا » وهي « تحدِّثُ أخبارها » ؛ لنتعرف أحوالَ تكوينها وبلاغة المقتضى الذي يقيم السند بين مسند إليه ومسند .. ويفسح للتعلق بالمسند .. ويمكن من القصر والإطلاق في أحوال الإسناد والتعلق .. فكيف نجعــل أحوال الإسناد الخبري : دلائــلَ لمزيــدٍ من وعينا ؟

أحوال الاسناد الخبري

أ – شمول الحداثة بالثقــة
ب – عبارة النصِّ القديم •••

بألبابِ أهــلِ الذوقِ : جودُ المهيمنِ
صــلاةُ شــكورٍ تســتقيمُ لمحســنِ

بِرِفعــة ذي إِأُسٍّ تنــزّلَ داعيــاً
بأحــرفهِ الحســنى لنصــرة مؤمــنِ

تُسائِلُ عــن روحِ المســيح الأضاليـا
وجُمــلةُ أزهــارٍ تُلــبِّي المنــاديا
كأنّي إســنادُ الــرؤى للتيقّــنِ
أخو الغيبِ : تخييلي ؛ وقد صار باديا •••

[مُثمنات الرِّضا]

١٩٨٧/١١/١٧

١٤٠٨/٣/٢٦

« بالثقــة بالله تعالى :
ثمنٌ لكلِّ غــالٍ
وسلّمٌ إلى كلِّ عــالٍ » ••

[بلاغةُ الجــواد

في

مناهج الأئمــة ••]

(ع)

١٤٠٨/٣/٢٧

شمول الحداثة بالثقة

ثقتي بحبِّكَ سُلَّمُ
أرقى النجومَ وأكرَمُ

ثمنُ اليقينِ بلاغتي
برضاكَ ما لا يُنظَمُ ..

لو شاء الباحثون في بلاغة العرب : أن يُعرِّفوا كتاب « دلائل الإعجاز » بكلمة واحدة ، ماذا تكون ؟

تظنهم يجمعون : أنها كلمة « النظم » ؛ لأن النظم ، عنده ، يعني : الأسلوب المؤلف بين المفردات ؛ ولأن الإعجاز ، عنده : ترتيبٌ للمعاني ..

إن هذه المصطلحات : النظم .. الأسلوب .. الترتيب .. تأخذ بهاءها في الممارسة ؛ ففي الرباعية المؤلفة من أربعة أشطار ، من مجزوء الكامل : نرى أسلوباً ألتّفتْ فيه المفردات بصورةٍ تقول معنى ، وتوحي بشعور ، وتشير إلى تخييل ؛ وهذا الأسلوب : يحقق أحوالاً من الإسناد الخبري متدرجة المستويات ؛ تفهم من تأمل الجمل الخمس :

١ – ثقتي بحبك سلّمُ : هذه الجملة الخبرية ، من المبتدأ والخبر ، تظهر العلاقة بين المسند إليه « ثقة » ، وبين المسند « سلم » .. فالثقةُ سلمٌ .. [وفي عبارة الإمام محمد بن علي الرضا، المعروف بالجواد (ع) : « الثقة بالرب تعالى سلم إلى كل عال .. وثمن لكل غال »] .. فكرة التساند : تعني استناد هذا السلم إلى الثقة ؛ فلولاها : لا يوجد ؛ ولذلك : اجتهد الباحثون في معرفة

المسند إليه ، وفي معرفة التعلق المسندي به ؛ حتى تتبعوا هذه العلاقة موازنة بين العربية ولغات أخرى ؛ فاعتبروا أفعال الكينونة في تلك اللغات دالةً على الإسناد .. واعتبروا صوت الضم : مشيراً إلى الإسناد .. وقالوا : إن الضمة ، دائماً ، علم الإسناد ؛ تلحق المسند إليه ؛ أو صفة المسند إليه التابعة له [١] » ..

ربما كان المقصود بالضمة : حالة الرفع ؛ لأن الإسناد يكون أحياناً إلى حروف تدل على الارتفاع ، مثل : الألف والواو والياء ونون النسوة .. في أحوال من الفعل المضارع والأمر [٢] ..

التساند بين المبتدأ والخبر واضح في جملتنا الأولى : ثقتي سلمٌ ؛ لأن هذا السلم مستند إلى متانة اليقين بحبك .. فماذا عن الجملة الثانية ؟

٢ — أرقى النجومَ : جملة فعلية ؛ أرقى : مستند ؛ وفاعله : مستتر وجوباً تقديره « أنا » ؛ فالضمير الخفي : هو المسند إليه .. والنجومَ : تكملة مفعولية.. والعلاقة بين الفعل وفاعله : هي الإسناد الخبري ؛ وهي الفاعلية الموجدة ..

ربما يظهر التأمل بالجملتين السابقتين : نوعاً من التدرج بالمعنى [٣] ؛ فالثقة سلم : مستوى أول ؛ وارتقاء النجوم : مستوى ثانٍ أوضحُ ارتقاء ؛ أو يظهر الارتقاء .. ويكشف نتيجة من نتائج هذه الثقة .. وهي نتيجة من الإكرام عالية وواضحة .. لكن الجملة الثالثة .. ماذا تقول :

---

(١) المخزومي : في النحو ، ٣٣
(٢) الأفغاني : الموجز ، ٣٠ — ٣٥
(٣) إن التأمل بالرباعية : يمنح ثلاثة مستويات ؛ أولها : الإيجاز ، في الجملة الأولى ؛ وثانيها : المجاز ، في الجملة الثانية ؛ وثالثها : فضاء الإعجاز ؛ وهو يقين بين مجهولين في الجمل الثلاث المتتالية ؛ « وأكرم : ثمن اليقين بلاغتي برضاك ما لا يعلم » .. ويمكن العودة إلى « الأنوار القدسية » ؛ لرؤية أصل المعنى في كلمات الإمام الجواد ، محمد بن علي الرضا ، أبو الإمام الهادي الذي عرفناه في ورقة الإهداء .. وانظر في « رسالة الإعجاز » ...

٣ - وأكرم : وهذه الجملة فعلية ؛ لكنها جملة بنيت للمجهول ؛ أي جعل فعلها مجهول الفاعل ؛ وجعل مفعولَها الفَضلي : نائباً عن الفاعل المجهول •• وهذا البناء : دل على مستوى واسع من الإكرام ، أو راقٍ يغري بتتبعه للتعرف إلى مظاهره ••

٤ - ٥ - ثمن اليقين بلاغتي برضاك ما لا ينظم : هنا جملتان ؛ لكنهما لا تفصلان ؛ الأولى : اسمية ، « ثمن اليقين بلاغتي » •• الثانية « يُنظَم » ؛ وهي فعلية ، بني فعلها للمجهول ••

الجملتان : تطوير لمعنى الجملة الثالثة « وأكرم » ؛ فمعناهما : صور من ذلك الإكرام ؛ وهي صور متصلة : دلَّ على ذلك اتصال البناء ، أو ترتيب الكلمات في نظم البيت ؛ تأمل البيت ثانية ، واستنتج ما تدل عليه الجملتان المتحدتان بواحدة ؛ !

ثمن : مبتدأ ؛ مسند إليه ••

بلاغتي : خبر ؛ مسند ••• لكن اللفظ : مصدر عمِلَ عَمَلَ فعله « بلغ » ؛ فنصب مفعولاً به هو ، « ما » الاسم الموصول الذي استغرق بمعناه الجملة التي تليه ، صلة له « ما لا ينظم » ••

إن دفقات المعنى في الجمل الخمس : **تفتح باباً بين المعلوم والمجهول ، حياة وبلاغة** ؛ وهذا الفتح : يستدعي انتباهاً عالياً لانكشاف ما لم يكن مكشوفاً من مسألة الإسناد الخبري في علم المعاني ••

في تاريخ البلاغة وعصور تطورها : قالوا بالإسناد ، حقيقة عقلية ؛ أو على سبيل المجاز العقلي •• وقالوا : بإلقاء الخبر لفائدته ، أو للازم فائدته •• وقالوا بأنواعه : ابتدائية ، وطلبية ، وإنكارية •• وقالوا من طرف آخر : بضرب من الكلام يوصل إلى غرضه بدلالة اللفظ وحده ، وذلك الغرض هو المعنى الحقيقي للكلام •• وقالوا : بضربٍ آخر من الكلام ، بعبارة الجرجاني « أنت لا تصل منه

إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، ولكن يدرك اللفظ على معناه ، الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ، ثمَّ تجد لذلك المعنى : دلالة ثانية ، تصل بها إلى الغرض ؛ ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل ... وإذ قد عرفت هذه الجملة ، فها هنا : عبارةٌ مختصرةٌ ؛ وهي أن تقول : المعنى ومعنى المعنى ؛ تعني بالمعنى : المفهوم من ظاهر اللفظ ، والذي تصل إليه بغير واسطة .. وبمعنى المعنى : أن تعقِل اللفظ معنىً ، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر ؛ كالذي فسرت لك » [1] ..

ومما فسَّره قوله : « ترى أنك إذا قلت : هو كثير الرماد ... لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ ، ولكن يدل اللفظ على معناه ، الذي يوجبه ظاهره ، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانياً ، هو غرضُك ؛ كمعرفتك من كثير رماد القدر : أنه مِضياف [2] » ..

الكشف الجديد : أن ما في علم المعاني يُغني عن استدعاء ما في علم البيان ؛ فاستدعاء الكناية لتأكيد معنى المعنى : يغني عنه ما نجده في لازم فائدة الخبر ، الذي هو كناية عن علم المخبر المتكلم بالذي يخفيه المخاطَب المخبَر ... والمسألة تحتاج كثيراً من التنبيهات التي نجدها في فصول كتب البلاغة ...

نعود إلى رباعيتنا البسيطة : لنرى ، بهدوءٍ وإيجاز ، جوهر التفاصيل الباحثة في « أحوال الإسناد الخبري » ؛

ثقتي بحبك سلَّمٌ : ركنا الجملة ظاهران بوضوح ؛ فهما : المسند إليه « ثقة » .. والمسند : سلَّمٌ ..

فالثقة : مبتدأ ، محكومٌ عليه ؛ **ولكن هذا المسند إليه ، الذي جاء في جملتنا « مبتدا » ؛ قد يجيء في غيرها : فاعلا ؛** أو نائباً للفاعل ؛ أو مرفوعاً

---

(١) دلائل ؛ دار قتيبة ؛ ص ١٨٤
(٢) نفسه : ١٨٤

للمبتدأ المشتق ، مثل « أفاهم أنت » : أنت : فاعل لاسم الفاعل « فاهم » ، الذي هو المبتدأ المشتق •• وقد يجيءُ : ما كان أصله مبتدأ ، أي : اسم كان •• واسم إن ••

والسلّم : خبرٌ ؛ محكوم به ؛ وهو المسند ؛ **لكن هذا المسند ، الذي جاء « خبراً » في قولنا « ثقتي بحبك سلم » ، قد يجيء : فعلا تاماً ،** كما في الرباعية ذاتها « أرقى النجوم » •• أو اسم فعل مثل : « شتّان ما بيني وبين مطامحي بكُمُ •• » ••• وقد يجيء مبتدأ مكتفياً بمرفوعه ، كالمثال السابق « أفاهم أنت » ؟ •• وقد يجيء ما كان أصله خبر المبتدأ ، كما في جمل « كان وإن » •• وقد يجيء مصدراً نائباً عن فعل الأمر ؛ « فصبراً يا بني أيوب إنّا ••• ورثنا الحبّ ؛ والحبُّ اصطبار » ••

هذان هما ركنا الجملة ؛ وما سواهما فهو : قيد ، أو فضلة ؛ ولا تعتبر صلة الموصول والمضاف إليه : من القيد •••

والجملة الخبرية تكون اسمية « الثقة سلم » ؛ وتكون فعلية « أرقى النجوم» •• **ولاسميتها : دلالة معنوية ؛** تكون الثبوت أصالة •• وتكون الاستمرار في الثبوت تفتحاً •• فالثقة سلم : بمعنى أنها ثابتة الدلالة على دعم الواثقين •• وثباتها هذا : قد يكون مستمراً ودائماً ؛ بمعنى : كلما وجدت الثقة يكون عون السلم ، أو مثل السلم جاهزاً للواثق ممن يثق به ، أو يمنحه ثقته •••• **وكذلك لفعليتها : دلالة حدوثية ؛** فارتقاء النجوم : معنى حدث بعد مدٍّ الثقة سلّمِها •• ومع ذلك : فقد يتجدد هذا المعنى باستمرار ، وفق مقتضى الحال والقرائن •• وهذا الاستمرار التجددي : يظهر في الجمل الفعلية المجهولة في الرباعية « أكرم ••• لا يُنظَم » •• فمعنى الإكرام : مستمر التجدد ؛ تؤيده الجملة الاسمية التي تلت جملته « ثمن اليقين بلاغتي برضاك : هذا الإكرام المطلق الذي يتجاوز كل نظم » ••• وبذلك يتعاون النفي والإثبات : لتأدية حكم الخبر بمعنى ظاهر من الألفاظ •• وبمعنى يستدعيه السياق ؛ فكأنه معنى المعنى المستحضر من وحي التركيب الفنيٍّ ••• وهذا يفهم من غرضية الخبر •••

فالخبر : يلقى لغرضٍ من أغراض المعنى ، يطابق حال المتكلم وحال المخاطب ..

فالمتكلم : يلقي خبره على المخاطب لإفادته حكم الجملة الخبرية ، كالقول : « الثقة سلم » ؛ فالغرض هنا : فائدة الخبر ، التي تعلِّمُ دور الثقة وقيمتها الرافعة ...

لكن المتكلم : قد يتجه بهذا الخبر إلى مخاطَبٍ يعرف هذا الحكم ، ويكون ظاناً أن المتكلم لا يعرفه ؛ فتفيد جملة الخبر عندئذ : ما لا يلزم عنه لازم الفائدة ؛ إعلام المخاطب أن المتكلم : يعلم علمه بالحكم الذي يحمله الخبر .. ففي مثالنا : « ثقتي بحبك » .. نفهم أنها مناجاة .. وأن المناجى بها : يعلم كلّ الأحكام التي تحملها الجمل أكثر من المتكلم .. لكن المتكلم : يعترف بعلمه تلك الدلالات .. وهذا لازم الفائدة ..

ويُفصِّل الباحثون : بفائدة الخبر ولازمها ، دون الإشارة إلى مستويي المعنى الحقيقي والمجازي .. كقولهم : « فائدة الخبر لتعريف المخاطب ما لم يكن يعرفه .. ولازم فائدة الخبر : لتعريف المخاطب أن المتكلم يعلم مضمون الخبر ؛ مثل : زيد عندك .. لمن كان يظن أن المتكلم لا يعرف بوجود زيد عنده » ..

ولا يفوت متتبعي الخبر وأحوال الإسناد في جمله : أن جملة الخبر تفيد أغراضاً كثيرة ، يشيعها السياق وفق مقتضى الحال ؛ وبذلك تتنوع تنوع السياقات والمقتضيات ؛ ومنها :

أ – الحث على السعي والجد ، مثل : تؤخذ الدنيا غلابا ...
ب – الفخر ، مثل : لغير العلى مني القِلى والتجنُّبُ
جـ – المدح ، مثل : كأنك بحر والملوك جداول
د – التحسر على شيء محبوب : فماتت سروراً بي فمت بها غما ...
هـ – الاسترحام والاستعطاف : دعوتك عند انقطاع الرجاء ...

و - إظهـار الضعف : إن الثمانين وبلغتهـا
قد أحوجت سمعي الى ترجمان ..

ز - الاعتزاز والاعتراف : كما في البيت الثاني من الرباعية ؛

ثمـنُ اليقـين بلاغتي   برضـاك ما لا يُنظـم ..

وهكذا : نرى أن الباب مفتوح الى اكتشاف أغراض للخبر ، يصورها النظم تصويراً حقيقيّاً أو تصويراً مجازياً .. ويقربها وفق مقتضى حال المخاطب تـارة ؛ أو حال المتكلم تارة أخرى ؛ أو حال الموضوع أحياناً أخرى ...

وقـد جعلوا الأخبـار وفـق المخاطـب عـلى ثلاثـة اضرب ؛ الأول منها : الابتدائي ؛ والثاني : الطلبي ؛ والثالث : الإنكاري ..

أ - فإذا كان المخاطب خالي الذهن من الحكم ، كما يقولون : ألقي إليـه الخبر ، مجرداً من أدوات التأكيد ؛ الثقة : سلم ..

ب - وإذا كان شاكّاً ، متردداً في قبوله ، راغبـاً الوصول إلى اليقين في معرفته : أكّد له الخبر بأحـد مؤكداته ؛ وذلك : الطلبي ؛ لأن المخاطب يطلب اليقين .. إن الثقـة سلم ..

جـ - أما إذا كان منكراً لحكم الخبر : وجب التأكيد له بأكثر من مؤكد ؛ ووفق درجة إنكاره .. والله إن الثقة لسلّم ..

ويذكرون من مؤكـدات الخبر :

١ - القَسم ؛ وحروفه : الباء ، والواو ، والتاء .. وفي بلاغـة القسم : ما عرفناه في « أسلوب القسم » من أساليب الإنشاء غير الطلبي[1] ..

---

(١) عـلم المعاني ومقتضى الحال ، جـ ١ ، ص ١٧٩

٢ – نونُ التوكيد الثقيلةُ •• ونونُ التوكيد الخفيفة •• ومثال الأولى والثانيةُ في آيـة من سورة يوسف « ولَـئِنْ لَـمْ يَفعَلْ ما آمُرُه : لَيُسْجَنَنَّ ؛ ولَـيَكونَنْ من الصاغرين » : (٣٢) ••

٣ – الحروف الزائدة لتأكيد المعنى ؛ مثل :

أ – إنْ : مَا – إنْ – قبلتُ ضيماً ••
ب – أَنْ : فلمَّا – أن – جاء البشيرُ •• (يوسف ٩٦) ••
جـ – ما : فإما تجدنَّهم : فأخبرهم ؛ فانْ – ما – تجدنَّهم •••
: وإذا – ما – دعيتُ : حِرتُ كأني أسمع ••••
د – لا : فـ – لا – أقسمُ بمواقع النجوم •• (الواقعة : ٧٥) ••
هـ – مِن : ما جاءنا – مِن – أحد ؛ هل ترى – من – فُطور ؟ ••
لا تهمل – من – غذاء عقلك •• ما ترى في خلق الرحمن – مِن – تفاوت •• وما تسقط – مِن – ورقـة إلاَّ يعلمها •••
والاسم بعدها : يعرب كأنها غير موجودة •••
و – الباء : ولستُ – بِ – ماشٍ ما حييتُ لمنكَرٍ •••
وما الله – بـ – غافلٍ عما تعملون •• (البقرة : ٧٤)
لستَ عليهم – بـ – مسيطر » •• (الغاشية : ٢٢) ••

٤ – حروف التنبيه :

أ – ألا ؛ ألاَ إنَّ أولياءَ اللهِ : لا خوفٌ عليهم ؛ (يونس : ٦٢) ••
ب – أما ؛ أما والذي يُخشى : لقد ذقتُ لطفَه ••
فـزاد له حبِّي كما زادَني خوفـا

٥ – إنَّ : وإنَّ لغـاتي عَلَّمَ اللهُ حرفهَا
فناجيتُه ألفـاً وفي كلِّهـا يُلفى

٦ – لام الابتـــداء :

أ – تدخل على المبتدأ ، مثل : لَربُّكَ أسخى من تنوُّع حاجتي ..
ب – وتدخل على الخبر ، مثل : وإنَّ مُعيني سامعٌ لسؤالي ..
جـ – وعلى المضارع الواقع خبراً : وإنك قدوسي لتُصلحَ بالي ..
د – وعلى شـبه الجملة : وإنك رحماني توجُّه مهجتي ..

٧ – ضمير الفصل : إلَهي « هو » اللهُ ؛ لا ربَّ غيرُه ..
٨ – قد التحقيقية : لقد أفلحتْ نفسي وقد عمَّ خيرُه ..
٩ – أمَّا الشرطية : وإني أرَى الإخلاصَ أمَّا جِنانُه

فأوسعُ من بالِ الخيالِ .. تُنيره ..

١٠ – السين : سيرحمُنا الرحمنُ حتمـاً ؛ جِنانُه
سِعاتُ ســماواتٍ وطـابَ جَنانُه

سيحرقُ أمراضَ الأبالسِ نــورهُ
يُؤكّدُ أحلامي ، ودوماً ، زمانُه ...

بهـذه المؤكدات : ينوعون صور الخبر ، وينقلونه من صورته الابتدائية المجردة من التوكيد ؛ فنراه بصوره المؤكدة بمؤكدٍ واحد إذا كان طلبياً ؛ وبأكثر من مؤكـد إذا كان إنكارياً ... لكن أغراض الخبر : تبقى قابلة لأخـذ الزي المعنوي الذي تشيعه قرائن السياق من مقتضى الحال .. وكما تجاوزت الفائـدة ولازمها إلى عدد من الأغراض التي ذكرنا سبعةً منها : **فمن الممكن أيضاً أن يتجاوز الخبر مقتضى الظواهر التي دعت إلى تأكيده أو عدم تأكيده ؛** كأن يُعتبر المخاطَب : شاكّاً ، متردداً .. ولو كان خـالي الذهن ... أو يعتبر غير المنكر كالمنكر ... أو يعتبر المنكر كغـير المنكر ..

ومثال خالي الذهن الذي خوطب مخاطبة الشاك المتردد ؛ قوله تعالى في سورة يوسف : « وماأبرِّىءُ نفسي ؛ إن النفس لأمَّارة بالسوء » .. فالمخاطب بأمـر

النفس بالسوء : حيادي ، لكن ما سبق جملة النفس الأمارة من تخصيص : اقتضى اعتبار خالي الذهن متردداً في قبول الحكم ؛ فخوطب بالتأكيد : ليقتنع بأن النفس أمّارة بدليل الاعتراف الشخصي ممن نقل عنه قوله « وما أبرىء نفسي » ...

ومثال غير المنكر المخاطب كما لو كان منكراً ، قوله تعالى : « ثمَّ إنكم بعد ذلك لميّتون » ؛ فالناس لا ينكرون حقيقة الموت ؛ لكن خطابهم كالمنكرين : تذكيراً لهم بضرورة الاعتبار بالموت والزهد بالسيئات ..

ومثالُ المنكِرِ المخاطب كما لو كان غيرَ منكرٍ ، قوله تعالى : « إلـهكم إله واحدٌ » ... فهذا خطاب توحيدي غير مؤكد .. ولو كان المخاطبون به من المنكرين ؛ لأن كل شيء يؤكد هذه الحقيقة المعلنة بالخبر ... لذلك ألقي الخبر حـرّاً من المؤكدات ، وبثقـة مطلقة ؛ فمن شـاء فليؤمن ؛ ومن شـاء فلينكر : فإن الله أحـد ...

هذه جملة الخبر وأحوال إسنادها : عرفناها من رباعية « الثقة » ، ابتداءً ؛ فعرفنا أن العلاقة بين ركنيها تدعى : الإسناد ... وعرفنا أن الإسناد : إنما يتم لغرضٍ ؛ قد يكون : فائدة الخبر ؛ وقد يكون لازم الفائدة ؛ وقد يكون ما يُوحي به مقتضى الحال من غاياتٍ أخر .. كما عرفنا أنواعه الظاهرة وممكنات الخروج على مقتضى ظواهرها ... وغير ذلك عرفنا مؤكدات الخبر .. ومظاهـر المسند والمسند إليه .. كما أشرنا إلى **المسألة الأهمّ من غايـة الخبر الظاهرة والكنائية ؛** أشرنا إلى أن **الإسناد : يكون حقيقة عقلية ؛ ويكون مجـازاً عقلياً ..**

مثال الإسناد الحقيقي : أكتب بالقـلم ... وحقيقية الإسناد : تأتيه مـن إسناد الفعل ، أو ما في معناه – كالمصدر واسم الفاعل – إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر .. كما يقـول القزويني ... أما مجازية الإسناد : فترجع إلى إسناد الفعـل أو معناه إلى ملابس له « كالمكان ، والزمـان ، والسبب ، والفاعلية ، والمفعولية » ...

ومثال الإسناد المجازي ، قول أبي فراس :

سيذكرني قومي إذا جـد جدهم

وفي الليـلة الظلماء يفتقد البور ..

والشاهد بقوله « جد جدهم » ؛

جد : مسند .. جِدُّ : مسند إليه ؛ وهو مصدر الفعـل ، وليس فاعله ؛ فالعلاقة مصدرية ؛ والأصل : « جَدَّ القومُ جـداً » ؛ فالقوم : هم الفاعـل الحقيقي .. والمصدر « جِدُّ » : فاعل مجازي ؛ والقرينة عقلية ؛ لأن المجـاز ، هنا ، ليس في اللفظ ؛ وإنما في عملية الإسناد ؛ والإسنادُ يدرك بالعقل ؛ فقـد فهم من الضمير المتصل بالمصدر : أن القوم الذين يؤمل منهم التذكر ، هم الفاعل الأصلي الذي ناب عنه مصدر الفعـل المضاف إلى ضمير عائد إليه ؛ أي فاعـل الفعل جَدّ « قومي » [1] ...

لا بأس من التأمل بعبارة النص البلاغي القديم ؛ فقد وضعت نصوص الإسناد الخبري وفصل الحقيقة العقلية والمجـاز العقلي : بعبارة القزويني في الإيضاح ؛ لمزيـد من الدربة على الاقتراب من البلاغة القديمة ؛ بأمـل المقدرة على تحديثها بالممارسة الكتابية بعد تذوق مبادئها ...

وقد يكون مفيداً : أن نطبق ثانية ما طبقناه في القسم الأول من هذا الجـزء الثاني من « علم المعاني .. » ؛ أعني : أن ندخل مداخل النص البلاغي القـديم والحديث ؛ فنقـرأ نصّاً بعبارة القزويني المدرسية .. ونصّاً بعبـارة الجرجاني النقدية .. ونصّاً بعبارة حديثة من باحث معاصر .... ثم نستخلص نتائجنا .. ونرى رأينـا ...

فلنجرب « أحوال الإسناد الخبري » بعبارة « الإيضاح » :

---

(١) لاحظ : صناعة الكتابة ٢٢٤ وما بعـدها .. وعلائق المجـاز اللغوي أيضـاً للتفريق والموازنة ؛ ص ٢٣٣ وما بعدها بعنوان « أنواع العلاقات » ..

عبارة الكتاب القديم

القول في أحوال الاسناد الخبري

١ – من المعلوم لكل عاقل أن قَصْدَ المخبر بخبره إفادَةُ المخاطَبِ إما نَفْسَ الحكم كقولك « زَيدٌ قائم » لمن لا يعلمْ أنه قائم ، ويسمى هذا فائدَةَ الخبر ، وإما كونَ المخبرِ عالماً بالحكم ، كقولك لمن زيد عنده ، ولا يَعلم أنك تعلم ذلك : « زَيْدٌ عِنْدَكَ » ، ويسمى هذا لازِمَ فائدة الخبر •

٢ – قال السكاكي : والأولى بدون هـذه تَمْتنع ، وهذه بدون الأولى لا تمتنع ، كما هو حكم اللازم المجهولِ المساواة ، أي يمتنع أن لا يحصلَ العلمُ الثاني من الخبر نفسه عند حصول الأول منه ، لامتناع حصول الثاني قبل حصول الأول ، مع أن سماع الخبر من المخبرِ كافٍ في حصول الثاني منه ، ولا يمتنع أن لا يحصل الأول من الخبر نفسه عند سماع الثاني منه ؛ لجواز حصول الأول قبل الثاني ، وامتناع حصول الحاصل •

٣ – وقد يُنَزَّلُ العالم بفائدة الخبر ولازم فائدته منزلَةَ الجاهل لعـدم جَرْيِهِ على موجَبِ العلم ؛ فيُلْقى إليه الخبر كما يلقى إلى الجاهل بأحدهما •

قال السكاكي : وإن شئْتَ فعليك بكلام رب العزة : « وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ في الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » (١) كيف تجد صَدْرَه يصف أهل الكتاب بالعلم على سبيل التوكيد القسَمِيِّ ، وآخرَه ينفيه عنهم ؛ حيث لـم يعملوا بعلمهم ؟! وَنَظِيرُهُ في النفي والإثبات : « وَمَا رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ » (٢)

---

(١) سورة البقرة : ١٠٢
(٢) سورة الأنفال : ١٧

وقوله تعالى : « وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ ، وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ؛ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ؛ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ ؛ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ » [1] .

هذا لفظه ، وفيه إيهام أن الآيــة الأولى من أمثلة تنزيل العالم بفائدة الخبر ولازم فائدته منزلةَ الجاهل بهما ، وليست منها ، بل هي من أمثلة تنزيل العــالم بالشيء منزلة الجاهل به ؛ لعدم جَرْيه على موجَب العلم ، والفرقُ بينهما ظاهر .

٤ — وإذا كان غرضُ المخبر إفادةَ المخاطب أحد الأمرين فينبغي أن يُقْتَصَر من التركيب على قَدْر الحاجــة .

أ — فإن كان المخاطَبُ خالي الذهن من الحكم بأحد طرفي الخبر على الآخر ، والتردد فيه ؛ استغنى عن مؤكدات الحكم ، كقولك : « جاء زيد ، وعمرو ذاهب » فيتمكن في ذهنه لمصادفته إياه خالياً .

ب — وإن كان متصوِّر الطرَفَيْن ، متردداً في إسناد أحدهما إلى الآخر ، طالباً له ؛ حَسُنَ تقويته بمؤكد ، كقولك : « لَزَيْد عَارِف » أو « إن زَيْداً عارف » .

جـ — وإن كان حاكماً بخلافــه وجب توكيدُه بحسب الإنكار ؛ فتقول : « إني صادق » لمــن ينكر صدقك ، ولا يبالغ في إنكاره . و « إني لَصَادق » لمن يبالغ في إنكاره .

وعليه قوله تعــالى : « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ، إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ، فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ، فَقَالُوا : إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ، قالوا : ما أَنْتُمْ

---

(١) سورة التوبة : ١٢

إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا ، وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ ، إِنْ أَنْتُمْ إلاَّ تَكْذِبُونَ ، قَالُوا : رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ » [1] حيث قال في المرة الأولى « إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُون » وفي الثانية : « إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ » .

ويؤيد ما ذكرناه جواب أبي العباس[2] لِلكِنْدِيِّ [3] عن قوله : إني أجد في كلام العرب حَشْواً ، يقولون : « عبد الله قائم » و « إن عبد الله قائم » و « إن عبد الله لَقَائم » والمعنى واحد ، بأن قال : بل المعاني مختلفة ؛ ف « عبد الله قائم » إخبار عن قيامه ، و « إن عبد الله قائم » جواب عن سؤال سائل ، و « إن عبد الله لَقَائم » جواب عن إنكار منكر .

ويُسَمَّى النوعُ الأول من الخبر ابتدائياً، والثاني طلبيّاً ، والثالثُ إنكاريّاً ، وإخراجُ الكلام على هذه الوجوه إخراجاً على مقتضى الظاهر .

٥ — وكثيراً ما يخرج على خلافه . فيُنَزَّل غيرُ السائل مَنزلة السائل ؛ إذا قدم إليه ما يُلَوِّح له بحكم الخبر ، فَيَسْتَشْرِف له استشرافَ المتردِّد الطالب ، كقوله تعالى : « ولا تُخَاطِبْنِي في الَّذِينَ ظَلَمُوا ؛ إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ [4] » وقوله : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ؛ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ [5] » وقولِ بعضِ العرب :

فَغَنِّها ، وهْيَ لك الفداءُ   إنَّ غِنَاءَ الإبلِ الحُدَاءُ

---

(١) الآيات ١٣ — ١٦ من سورة يس .
(٢) محمد بن يزيد ، المبرد ، النحوي ، صاحب كتابي « الكامل » و « المقتضب » توفي في سنة ٢٨٥ هـ .
(٣) هو أبو يوسف ، يعقوب بن إسحاق بن الصباح ، الكندي ، فيلسوف العرب ، المتوفي في سنة ٢٥٣ هـ .
(٤) بعض الآية ٢٦ من سورة هود .
(٥) بعض الآية ٥٣ من سورة يوسف .

وسلوك هـذه الطريقة شعبة من البلاغة فيها دقة وغموض • وروِيَ عن الأصْمَعِيِّ [1] أنه قال : كان أبو عمرو بنُ العَلاء [2] وخَلَف الأحمر [3] يأتيان بَشَّاراً [4] ، فيسلمان عليه بغاية الإعظام ، ثم يقولان : يا أبا مُعاذٍ ، ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ، ويكتبان عنه مُتَواضِعِينَ له ، حتى يأتي وقت الزوال ، ثم ينصرفان ، فأتَياه يوماً ، فقالا : ما هذه القصيدة التي أحدثتها في ابن قتيبة ؟ قال : هي التي بلغتكما • قالا : بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب ، قال : نعم ، إن ابن قتيبة ؟ ممن يتباصرون بالغريب ، فأحببت أن أورِد عليه ما لا يعرف • قالا : فانشدناها يا أبا معاذ ، فأنشدهما :

بكّرا صاحِبَيَّ قبلَ الهَجِير إنَّ ذاكَ النجاحَ في التبكير [1]

حتى فرغ منها ، فقال له خَلَفٌ : لو قلت يا أبا معاذ مكان إن ذاك النجاح : بكّرا فالنجاح ؛ كان أحسن ، فقال بشار : إنما بنيتُها أعرابيَّةً وحشية ، فقلتُ : إن ذاك النجاحَ ، كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلتُ : بكـرا فالنجاحُ ؛ كان هذا كلام المولّدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ، ولا يدخل في معنى القصيدة ، قال : فقام خَلَف ، فقبَّل بين عينيه ؛ فهل كان ما جرى بين خلف وبشار بمحضر من أبي عمرو بن العلاء — وهم من فُحولَةِ هذا الفـن — إلا لِلُطْف المعنى في ذلك وخفائه ؟ •

ب — وكذلك يتنزَّل غيرُ المنكر منزلة المنكِر ؛ إذا ظهـر عليه شـيء من أمارات الإنكار ، كقول حجل بن نضلة ، الشاعر الجاهلي :

جاءَ شَقيقٌ عارضاً رُمْحَهُ إنَّ بني عمِّكَ فيهم رِماح

---

(١) هو أبو سعيد ، عبد الملك بن قريب ، الأصمعي ، الراوية ، اللغوي ، المتوفى سنة ٢١٦ هـ •
(٢) أبو عمرو ، زبان بن العلاء ، إمام أهل البصرة في القراءات واللغة والنحو ، توفي في سنة ١٥٤ هـ ، أو في سنة ١٥٩ هـ على الخلاف .
(٣) هو أبو محرز ، خلف بن حيان ، الراوية ، المتوفى في سنة ١٨٠ هـ •
(٤) أبو معاذ بشار بن برد ، الشاعر ، الغزل ، المتوفى في سنة ١٦٩ هـ •

فإن مجيئه هكذا ، مُدِلاً بشجاعته ، قد وضع رُمْحَه عارضاً ؛ دليلٌ على إعجاب شديد منه ، واعتقاد أنه لا يقوم إليه من بني عمه أحدٌ ، كأنهم كلّهم عُزْلٌ ليس مع أحدٍ منهم رمح .

ج – وكذلك يتنزّل المنكرُ منزلة غيرِ المنكر ، إذا كان معه ما إنْ تأمّله ارتدع عن الإنكار ، كما يقال لمنكر الإسلام : « الإسلام حق » وعليه قوله تعالى في حق القرآن : « لا رَيْبَ فيه » (سورة البقرة : ٢)

٦ – ومما يتفرع عن هذين الاعتبارين قوله تعالى : « ثمَّ إنَّكُمْ بَعْدَ ذلكَ لَمَيِّتُونَ ، ثمَّ إنَّكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ تُبْعَثُونَ » [1] أكد إثبات الموت تأكيدين – وإن كان مما لا ينكر – لتنزيل المخاطَبِينَ منزلة من يبالغ في إنكار الموت ؛ لتمادِيهِمْ في الغفلة ، والإعراض عن العمل لما بعده ، ولهذا قيل : « مَيِّتُونَ » دون « تموتون » كما سيأتي الفرق بينهما ، وأكّد إثباتَ البعثِ تأكيداً واحداً – وإن كانَ ممّا يُنْكَرُ – لأنـه لمّا كانتْ أدلتُه ظاهرةً كان جـديراً بأن لا يُنْكَر ، بل إمّا أنْ يُعْتَرَف به ، أو يُتَرَدَّدَ فيه ؛ فنُزِّل المخاطبون منزلةَ المترددين ؛ تنبيهاً لهم على ظهور أدلته ، وحثّاً على النظر فيها . ولهذا جاء « تُبْعَثُون » على الأصل .

٧ – هذا كله اعتبارات الإثبات ، وقِسْ عليه اعتبارات النفي ، كقولك :

« ليس زيد ، أو ما زيد ؛ منطلقاً ، أو بمنطلق » و « والله ليس زيد ، أو ما زيد ، منطلقاً ، أو بمنطلق » و « ما ينطلق ، أو ما إنْ ينطلق ؛ زيد » و « ما كان زيد ينطلق » و « ما كان زيد لينطلق » و « لا ينطلقُ زيد » و « لن ينطلقَ زيد » و « والله ما ينطلق ، أو ما إن ينطلق ؛ زيد » .

---

(١) سورة المؤمنون : ١٥ – ١٦

فصــــل

الحقيقة العقلية والمجـاز العقلي

٨ – الإسناد منه حقيقة عقلية ، ومنه مجاز عقلي :

أما الحقيقة فهي إسناد الفعل ، أو معناه ، إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر والمراد بمعنى الفعل نحو المصدر ، واسم الفاعل •

وقولنا « في الظاهــر » ليشمل ما لا يطابق اعتقاده مما يطابق الواقع ، وما لا يطابقه ، فهي أربعة أضرب :

أحدها : ما يطابق الواقع اعتقاده ، كقــول المؤمن : « أنبت الله البقل ، وشفى الله المريض » •

والثاني : ما يطابق الواقعَ دونَ اعتقاده ، كقول المعتزليّ لمن لا يعرف حاله وهو يخفيها منه : « خالق الأفعال كلها هو الله تعالى » •

والثالث : ما يطابق اعتقاده دون الواقع ، كقول الجاهل : « شفى الطبيبُ المريضَ » معتقداً شفاء المريض من الطبيب ، ومنه قوله تعالى حكايةً عـن بعض الكفـرة : « وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ » [1] ولا يجوز أن يكون مجـازاً والإنكارُ عليهم من جهة ظاهر اللفظ ، لما فيه من ايهام الخطأ ، بدليل قوله تعالى عقيبه « وَمَا لَهُمْ بذلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ » [2] وَالمُتَجَوِّز المخطىء في العبارة لا يوصف بالظن ، وإنَّما الظَّانُّ من يعتقد أن الأمر على ما قـاله •

---

(١) من سورة الجاثية : ٢٤
(٢) من سورة الجاثية : ٢٤

والرابع : ما لا يطابق شيئاً منهما ، كالأقوال الكاذبة التي يكون القائل عالماً بحالها دون المخاطب .

وأما المجاز ؛ فهو إسناد الفعل ، أو معناه ، الى ملابس له ، غير ما هو له ، بتأوّل .

٩ – وللفعل ملابسات شتى ، يلابس الفاعلَ ، والمفعولَ بـه ، والمصدرَ ، والزمانَ ، والمكانَ ، والسبب .

فإسناده إلى الفاعل – إذا كان مبنياً له – حقيقة كما مرّ ، وكذا إلى المفعول إذا كان مبنياً له ، وقولنا : « ما هو له » يشملهما ، وإسناده إلى غيرهما – لمضاهاته لما هو له في ملابسة الفعل – مجاز ، كقولهم في المفعول به : « عِيشَةٌ راضِيَةٌ » و « ماءٌ دافِقٌ » وفي عكسه « سَيْلٌ مُفْعَمٌ » وفي المصدر « شِعْرٌ شاعر » وفي الزمان « نهـاره صائم » و « ليلُه قـائم » وفي المكان « طـريقٌ سائر » و « نهرٌ جارٍ » وفي السبب « بنى الأميرُ المدينةَ » وقال : إذا ردَّ عافي القِدرِ مَن يَستَعيرُها [١] .

١٠ – وقولنا : « بتأوّل » يخـرج نحوَ قول الجاهل : « شـفى الطبيب المريض » ؛ فإن إسناده الشفاءَ إلى الطبيب ليس بتأوّل .

ولهذا لم يُحْمَلْ نحوُ قولِ الشاعرِ الحماسِيِّ :

أشـابَ الصغـيرَ وأفنى الكبيـ ـرَ كَرُّ الغَداةِ ، ومَرُّ العَشِي [٢]

---

(١) صدره : « فلا تسأليني ، واسألي عن خليقتي »
وواضح أنه في الفخر ، والخليقة : الخلق والطبيعة ، وعافي القدر : ما يبقيه فيها المستعير من المرق، والبيت من القصيدة لعوف بن الأحوص، في المفضليات.

(٢) البيت من أبيات اختارها أبو تمام في « ديوان الحماسة » ونسبها للصلتان العبدي ، وهو قثم بن خبيّة بن عبد القيس ، شاعر معاصر لجرير والفرزدق ، وكان يحكم بينهما ، ولكن الجاحظ ينسبها في كتاب « الحيوان » للصلتان السعدي ، وهو غير الأول .

على المجاز ، ما لم يعلم أو يظنّ أن قائلَه لم يُرِدْ ظاهرَه .

كما استدلّ على أن إسناد « مَيَّزَ » إلى « جذب الليالي » في قول أبي النَّجْمِ [1] :

قد أصبحتْ أمُّ الخِيارِ تدَّعِي عليَّ ذنباً كله لم أصنع

مِن أن رأت رأسي كرأس الأصلع مَيَّزَ عنه قُنْزُعاً عن قُنْزُعِ

جَذبُ الليالي : أبطئي ، أو أسرعي

مجازٌ بقوله عقيبَهُ :

أفناه قِيلُ اللهِ للشمس : اطلُعي حتى إذا واراكِ أُفْقٌ فارجعي

١١ – وسُمِّيَ الإسنادُ في هذين القسمين من الكلام عقلياً ؛ لاستناده إلى العقل ، دونَ الوضع ؛ لأن إسنادَ الكلمة شيءٌ يحصل بقصد المتكلم ، دونَ واضع اللغة ، فلا يصير « ضَرَبَ » خبراً عن « زيد » بواضع اللغة ، بل بمن قصد إثبات الضرب فعلاً له ، وإنما الذي يعود إلى واضع اللغة أن « ضرب » لإثبات الضرب لا لإثبات الخروج ، وأنه لإثباته في زمان ماض ، وليس لإثباته في زمان مستقبل ، فأما تعيينُ مَن ثبت له ؛ فإنما يتعلق بمن أراد ذلك من المخبرين .

ولو كان لغوياً لكان حكمنا بأنه مجاز في مثل قولنا : « خطٌّ أحسنُ مما وَشَّى الرَّبيعُ » من جهة أن الفعل لا يصح إلا من الحي القادر – حكماً بأن اللغة هي التي أوجبت أن يختص الفعلُ بالحي القادر ، دون الجماد ، وذلك مما لا يُشك في بُطلانه .

١٢ – وقال السكاكي « الحقيقة العقلية هي الكلام المُفَاد به ما عند المتكلم من الحكم فيه » .

---

(١) القنزع – بزنة هدهد – الشعر حوالي الراس .

قال : وإنما قلت : « ما عند المتكلم » دون أن أقول « ما عند العقل » ليتناول كلامَ الجاهلِ إذا قال « شفى الطبيب المريض » رائياً شفاء المريضِ مِنَ الطبيب ، حيث عُدَّ منه حقيقةً ، مع أنه غير مفيد لما في العقل من الحكم فيه .

وفيه نظر ؛ لأنه غير مُطَّرِدٍ ؛ لصدقه على ما لم يكن المسند فيه فعلا ، ولا متصلاً به ، كقولنا « الإنسان حيوان » مع أنه لا يُسَمَّى حقيقةً ولا مجازاً ، ولا مُنْعَكِسٍ ؛ لخروج ما يطابق الواقع دون اعتقاد المتكلم ، وما لا يطابق شيئاً منهما منه ، مع كونهما حقيقتين عقليتين كما سبق .

وقال : « المجاز العقلي هو الكلام المُفادُ به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه لضرب من التأوّل ، إفادة للخلاف ، لا بواسطة وضع ، كقولك : أنبت الربيع البقل ، وشفى الطبيب المريض ، وكسا الخليفة الكعبة » .

قال : وإنما قلتُ : خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه ، دون أن أقول : خلاف ما عند العقل ؛ لئلاّ يمتنعَ طردُه بما إذا قال الدَّهْرِيُّ — عن اعتقاد جهل — أو جاهلٌ غيره : أنبت الربيع البقل ، رائياً إنباته من الربيع ، فإنَّه لا يُسمى كلامه ذلك مجازاً ، وإن كان بخلاف العقل في نفس الأمر ، واحتجَّ ببيتِ الحماسة وقولِ أبي النجم على ما تقدم .

ثم قال : ولئلا يمتنعَ عَكْسُه بمثل « كسا الخليفةُ الكعبةَ » و « هَزَمَ الأميرُ الجندَ » فليس في العقل امتناع أن يَكْسُوَ الخليفةُ نفسُه الكعبةَ ، ولا أن يهزم الأمير وحدَه الجندَ ، ولا يقدح ذلك في كونهما من المجاز العقلي .

وإنما قلتُ لضرب من التأوّل ؛ ليُحتَرَزَ به عن الكذب ؛ فإنه لا يسمى مجازاً ، مع كونه كلاماً مفيداً خلافَ ما عند المتكلم .

وإنما قلتُ : إفادة للخلاف لا بواسطة وضع ؛ ليُحتَرَزَ به عن المجاز اللغويِّ في صورة ، وهي إذا ادُّعِيَ أنَّ « أنبت » موضوعٌ لاستعماله في القادر المختار ، أو وُضِعَ لذلك .

وفيه نظر ؛ لأنّا لا نسلم بطلانَ طرده بما ذكر ؛ لخروجه بقوله : « لضرب من التأول » ولا بطلان عكسه بما ذكـــر ؛ إذ المراد بخلاف ما عند العقل خلافُ ما في نفس الأمــر •

وفي كلام الشيخ عبد القاهر إشارة إلى ذلك ؛ حيث عرّفَ الحقيقة العقلية بقوله : كل جملة وضعتَها على أن الحكمَ المفادَ بهـــا على ما هو عليه في العقل واقع موقعَه ، فإن قوله « واقع موقعه » معناه في نفس الأمر وهو بيان لما قبله •

وكذا في كلام الزَّمَخْشَرِيّ حيث عرف المجاز العقلي بقوله : أن يُسْنَدَ الفعلُ إلى شيء يتلبَّسُ بالذي هو في الحقيقة له ، فإن قوله « في الحقيقة » معناه في نفس الأمــر ، ونحو « كسا الخليفةُ الكعبةَ » - إذا كان الإسناد فيه مجازاً - كذلك •

ثم القول بأن الفعل موضوعٌ لاستعماله في القادر ؛ ضعيف ، وهو معترف بضعفه ، وقـــد رده في كتابه بوجوه ، منها أن وضع الفعـــل لاستعماله في القادر قيد لم ينقل عن واحد من رواة اللغة ، وترك القيد دليل في العرف على الإطلاق ، فقوله : « إفـــادةً للخلاف لا بوساطة وضع » لا حاجة إليه ، وإن ذُكِرَ فينبغي أن لا يُذكَرَ إلا بعد ذكـــر الحد على المذهب المختار ، علـــى أن تمثيلَهُ بقول الجاهل : « أنبت الربيع البقل » ينافي هـــذا الاحتراز •

تنبيـــه :

١٣ - قد تبين بما ذكرنا أن المُسَمَّى بالحقيقة العقلية ، والمجاز العقلي - على ما ذكـــره السكاكي - هو الكلامُ لا الإسناد ، وهذا يوافق ظاهـــر كلام الشيخ عبد القاهر في مواضع من دلائل الإعجاز •

وعلى ما ذكرناه هو الإسناد ، لا الكلام ، وهذا ظاهر ما نقله الشيخ أبو عمرو ابنُ الحاجب [1] - رحمـــه الله - عن الشيخ عبد القاهر ، وهو قول الزمخشري

---

(١) هو جمال الدين عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس ، المعروف بابن الحاجب صاحب كتابي « الكافية » في النحو ، و « الشافية » في التصريف ، توفي سنة ٦٤٦ هـ .

في الكشاف ، وقول غيره ، وإنَّما اخترناه لأن نسبة المسمَّى حقيقةً أو مجازاً إلى العقل على هذا لنفسه بلا وساطة شيء ، وعلى الأول لاشتماله على ما ينتسب إلى العقل ، أعني الإسناد .

١٤ – ثمَّ المجازُ العقليُّ باعتبار طرفيه – أعني المسند والمسند إليه – أربعة أقسام لا غير : لأنهما إما حقيقتان ، كقولنا « أنبت الربيع البقل » وعليه قولُه :
فنام لَيْلي وَتَجَلَّى هَمِّي (١)

وقوله : وَشَيَّبَ أيامُ الفِرَاقِ مَفَارِقِي (٢)

وقوله : وَنِمْتُ وَما لَيْلُ المَطِيِّ بنَائِمِ (٣)

وإما مجازان ، كقولنا : « أحيا الأرضَ شبابُ الزمانِ » .

وإما مختلفان ، كقولنا : « أنبت البقلَ شبابُ الزمانِ » وكقولنا « أحيا الأرضَ الربيع » وعليه قولُ الرجل لصاحبه « أحيَتْنِي رُؤْيَتُكَ » أي : آنستني وسَرَّتْنِي ، فقد جعل الحاصل بالرؤية من الأُنْسِ والمسرَّة حياةً ، ثم جَعَلَ الرؤيةَ فاعلَةً له ، ومثله قول أبي الطَّيِّب :

وتُحْيي له المالَ الصَّوَارِمُ والْقَنَا
وَيَقْتُلُ ما تُحْيِي التبسُّمُ والْجَدَا (٤)

جعل الزيادة والوفور حياة للمال ، وتفريقه في العطاء قتلاً له ، ثم أثبتَ الإحياء فعلاً للصوارم ، والقتلَ فعلاً للتبسُّم ، مع أن الفعلَ لا يصح منهما ،

---

(١) تجلى : انكشف وظهر .
(٢) المفارق : جمع مفرق ، وهو موضع افتراق الشعر ، وقائله جرير الشاعر الأموي ، وعجزه : « وأنشزن نفسي فوق حيث تكون » .
(٣) المطي : الركائب ، واحده مطية : وينسب لجرير أيضاً ، وصدره : « لقد لمتنا – يا أم غيلان – في السرى » السرى : السير ليلا .
(٤) الصوارم : السيوف ، والقنا : جمع قناة ، وهي الرمح ، والجدا : العطاء .

ونحوه قولهم : « أهلك الناسَ الدينارُ والدرهم » جُعِلَتِ الفِتْنَةُ إهلاكاً . ثم أُثْبِتَ الإهلاكُ فعلاً للدينار والدرهم .

١٥ – وهو في القرآن كثير ، كقوله تعالى « وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا » [١] نُسِبَتِ الزيادةُ التي هي فعلُ الله إلى الآيات ؛ لكونها سبَباً فيها . وكذا قوله تعالى « وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ [٢] » .

ومن هذا الضرب قوله : « يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ » [٣] فإن الفاعلَ غيرُهُ ، وَنُسِبَ الفعلُ إليه ؛ لكونه الآمرَ به .

وكقوله : « يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا » [٤] نُسِبَ النزْعُ – الذي هو فعلُ الله تعالى – إلى إبليس ؛ لأن سَبَبَهُ أكلُ الشجرة ، وسبب أكلها وسوسته ومقاسمته إياهما إنه لمن الناصحين .

وكذا قوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ؟ »[٥] نُسِبَ الإحلال الذي هو فعلُ الله إلى أكابرهم ، لأن سبَبه كُفْرُهم ، وسبب كفرهم أمْر أكابرهم إياهم بالكفر .

وكقوله تعالى « يَوْماً يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيباً » [٦] نُسِبَ الفعلُ إلى الظَّرْف ؛ لوقوعه فيه ، كقولهم « نهاره صائم » .

وكقوله تعالى « وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا » [٧] .

---

(١) الأنفال : ٢
(٢) فصلت : ٢٣
(٣) القصص : ٤
(٤) الأعراف : ٢٧
(٥) ابراهيم : ٢٨
(٦) من سورة المزمل : ١٧
(٧) من سورة الزلزلة : ٢

١٦ — وهو غير مختص بالخبر، بل يجري في الإنشاء، كقوله تعالى « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هامَانُ ابنِ لِي صَرْحاً » (١)، وقوله « فأَوْقِدْ لي يا هَامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً » (٢) وقوله فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى » (٣).

١٧ — ولا بُدَّ من قرينة إما لفظية، كما سبق في قول أبي النَّجْم؛ أو غير لفظية، كاستحالة صدور المُسْنَد من المُسْنَدِ إليه المذكور، أو قيامه به عقلا، كقولك: « محبتُك جاءت بيْ إليك » أو عادةً، كقولك « هزم الأميرُ الجندَ » و « كسا الخليفةُ الكعبة » و « بَنَى الوزيرُ القصرَ » وكصدور الكلام من الموحِّد في مثل قوله: « أشاب الصغير البيت ».

١٨ — واعلم أنه ليس كل شيء يصلح لأن تتعاطَى فيه المجازَ العقليَّ بسهولة، بل تجدُكَ في كثير من الأمر تحتاج إلى أن تُهَيِّىءَ الشيء، وتصلحَه له، بل تتوخَّاه في النظم، كقول من يصف جَمَلاً:

تَجُوبُ لـه الظلماءَ عَيْنٌ كأنها
زجاجة شَرْبٍ غَيْرُ مَلأى ولا صِفْرِ (٤)

يريد أن يهتدي بنور عينه في الظلماء، ويمكنه أن يخرقَها، ويمضي فيها، ولولاها لكانت الظلماء كالسَّد الذي لا يجد السائر شيئاً يُفرِّجه به، ويجعل لنفسه فيه سبيلا، فلولا أنه قال « تجوب له » فعلَّق « له » بـ « تجوب » لما تبين جهةُ التجوُّز في جعل الجوب فعلاً للعين كما ينبغي؛ لأنه لم يكن حينئذ في الكلام دليلٌ على أن اهتداء صاحبها في الظُّلمة ومضِيَّهُ فيها بنورها، وكذلك لو قال.

---

(١) من سورة غافر: ٣٦
(٢) من سورة القصص: ٣٨
(٣) من سورة طه: ١١٧
(٤) تجوب: تقطع وتشق، شرب: جمع شارب أو اسم جمع له، ملأى: مملوءة صفر: فارغة.

« تجوب له الظلماءَ عينُه » لم يكن له هـذا الموقعُ ، ولا نقطع السِّلْكُ ؛ من حيث كان يعيبه حينئذ أن يصفَ العينَ بما وصفها به .

واعـلم أن الفعلَ المبنيَّ للفاعلِ في المجـاز العقليِّ واجبٌ أن يكونَ له فاعـلٌ في التقدير ، إذا أُسْنِدَ إليه صـار الإسنادُ حقيقةً ؛ لما يشعر بذلك تعريفُه كما سبق .

وذلك قـد يكون ظاهـراً ، كمـا في قـوله تعـالى : « فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ » (١) أي : فما ربحوا في تجارتهم .

وقد يكون خفيّاً ، لا يظهر إلا بَعْدَ نظرٍ وتأمُّلٍ ، كما في قولك « سَرَّتْني رُؤيتُك » أي : سرني الله وقتَ رؤيتك ، كما تقول : « أصل الحكم في أنبتَ الربيعُ البقلَ » أنبتَ اللهُ البقلَ وقتَ الربيع ، وفي « شفَى الطبيبُ المريضَ » شَفى اللهُ المريضَ عنـد علاج الطبيب ، وكما في قولك « أقْدَمَنِي بَلَدَكَ حـقٌّ لي على فلان » أي : أقْدَمَتْنِي نفسي بلدك لأجل حقٍّ لي على فلان ، أي : قَدِمْتُ لذلك ، ونظيره « محبتُك جاءت بي إليك » أي : جاءت بي نفسي إليك لمحبتك ، أي جئتُك لمحبتك ، وإنما قلنا « إن الحكم فيهما مجاز » لأن الفعلين فيهما مسندان إلى الداعي ، والداعي لا يكون فاعلاً ، وكما في قول الشاعر :

وصيَّرني هواكَ ، وبي لحَيْني يُضْرَبُ المَثَلُ (٢)

أي : وصيرني اللهُ لهواكَ وحالي هـذه ، أي أهلكني الله ابتلاءً ، بسبب هواكَ . وكما في قول الآخر وهو أبو نواس (٣) :

يَزيدُكَ وَجْهُهُ حُسْناً إذا ما زِدْتَهُ نَظَرا

---

(١) سورة البقرة : ١٦

(٢) الحين : الهلاك ، والبيت من جملة أبيات ، نسبها عبد القاهر في دلائل الإعجاز لابن البواب ، أبي الحسن ، علي بن هـلال ، الكاتب المتوفى في سنة ٤٢٣ هـ ، ونسبها صاحب معاهد التنصيص لمحمد اليزيدي ، وهو شاعر عباسي من بني تميم .

(٣) هو أبو علي الحسن بن هانىء ، الحكمي ، شاعر الغزل والمجون في عهد الرشيد والأمين . توفي في سنة ١٩٥ هـ .

أي يَزِيدكَ اللهُ حسناً في وجهه – لما أودعه من دقائق الجمال – متى تأمَّلْتَ – .

١٩ – وأنكر السكاكي وجُودَ المجاز العقلي في الكلام ، وقال : الذي عندي نَظْمه في سلك الاستعارة بالكناية ، بجَعْلِ الربيع استعارةً بالكناية عن الفاعل الحقيقي بواسطة المبالغة في التشبيه – على ما عليه مَبْنَى الاستعارة ، كما سيأتي – وجَعْلِ نسبة الإثبات إليه قرينةً للاستعارة ، وبجعل الأميرِ المُدَبِّرِ لأسباب هزيمة العدُوِّ استعارةً بالكناية عن الجُنْدِ الهازِمِ ، وجَعْلِ نسبة الهَزْمِ إليه قرينةً للاستعارة .

وفيما ذهب إليه نظرٌ ؛ لأنه يستلزم أن يكونَ المرادُ بـ « عيشة » في قوله تعالى : « فَهُوَ في عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ [1] » صاحب العيشة ، لا العِيشَةَ ، و بـ « ماءٍ » في قوله تعالى : « خُلِقَ مِنْ ماءٍ دَافِقٍ [2] » فاعل الدفق ، لا المنيّ ؛ لما سيأتي من تفسيره للاستعارة بالكناية .

وأن لا تصحّ الإضافة في نحو قولهم : « فلانٌ نهارُهُ صائمٌ وليْلُهُ قائمٌ » . لأن المراد بالنهار – على هذا – فلانٌ نفسه ، إضافة الشيء إلى نفسه لا تصح .

وأنْ لا يكونَ الأمرُ بالإيقاد على الطين في إحدى الآيتين – وبالبناء فيهما – لهامان ، مع أن النداء له .

وأن يتوقّف جواز التركيب في نحو قولهم : « أنبت الربيع البقل ، وسرتني رؤيتك » على الإذْن الشّرعيّ ؛ لأن أسماء الله تعالى تَوْقِيفِيّةٌ .

وكل ذلك منتف ظاهر الانتفاء .

---

(١) سورة الحاقة : ٢١
(٢) سورة الطارق : ٦

ثُمَّ ما ذكره منقوض بنحو قولهم : « فلان نهاره صائم » فإن الإسناد فيه مجاز ، ولا يجوز أن يكون النهارُ استعارةً بالكناية عن فلان ؛ لأن ذكر طرفي التشبيه يمنع من حمل الكلام على الاستعارة ، ويُوجب حملَه على التشبيه ، ولهذا عُدَّ نحوُ قولهم « رأيت بفلان أسداً ، ولقيني منه أسد » تشبيهاً لا استعارةً ، كما صرح السكاكي أيضاً بذلك في كتابه .

تنبيه : إنما لم نورد الكلام في الحقيقة والمجاز العقليين في علم البيان ، كما فعل السكاكي ومَنْ تَبِعه ؛ لدخوله في تعريف علم المعاني ، دون تعريف علم البيان .

التنبه لقراءة النص البلاغي

سبق أن سألنا : « كيف نقرأ النص البلاغي [1] » ؟ .. وأراني ، هنا ، محتاجاً للتذكير بالسؤال ، وللتلفيت إلى جوابه ؛ لأن قراءة النص البلاغي القديم ، خصوصاً ، محفوفة بالمخاطر ؛ فمن المعلوم : أنها تقرأ قراءة تردادية لا مناقشة فيها .. وأحياناً ، يمكن القول : ولا تدبُّر .. لأن فعلنا القرائي : أقرب إلى التسرع ، أو رفع العتبِ ، كما يقولون ... ويستطيع المتفحص المهتم : أن يرى نصَّ القزويني سائراً في سائر الكتب الحديثة ، بعباراته وأمثلته وتعليقاته ، دون توقف مع ما فيها .. وقد عللت سيرورة النص القزويني هذه : بجوابي المتقدم لسؤال القراءة [2] .. ومن ذلك التعليل : أنه نصٌّ مدرسي ؛ لكن « المدرسية : تستدعي التأمل والحفظ في البداية .. ثم النظر والمحاورة .. ثم النقد والممارسة في الغاية » ..

لعل مستوانا التطوري في عرض المسائل « الإنشائية والخبرية » : صار يتيح لنا « المحاورة والنقد » .. ولنمثل لذلك ، بعد هذا النص الطويل الذي

---

(١) علم المعاني ، جـ ١ ، ص ٣٨٦ ـ ٣٩٢
(٢) نفسه : ٣٨٨

أخـذناه من كتاب « الإيضاح في علوم البلاغة » ؛ وهو نص مخـرج بقسمين ؛ الأول : القول في أحوال الإسناد الخبري [١] •• والثاني : فصل الحقيقة العقليـة والمجاز العقلي [٢] ••• وقد حافظت له على هذا التقسيم المبدئي ؛ لكنني رقمت مقاطعه ترقيماً يوحّد بين القسمين ؛ فهي تسعة عشر مقطعاً (١ — ١٩) •• وهـذا التقطيع : مفيد للبحث والباحثين ؛ لأنه يمكن من رؤية التفاصيل التي تشرح مسألة واحدة ، هي : « الإسناد » ؛ وفي هذه النقطة : تلتقي التفاريق ؛ لأن الإسناد : منه حقيقة عقلية ؛ ومنه مجاز عقلي ، كما في المقطع الثامن •• لكن القزويني في المقطع التاسع عشر : يصرح بافتراقه عن السكاكي بهذه المسألة ؛ فيقول :

« لم نورد الكلام في الحقيقة والمجـاز العقليين في علم البيان ، كما فعـل السكاكي ومن تبعه ؛ لدخوله في تعريف علم المعاني ، دون تعريف علم البيان »[٣] ••

والقزويني في مخالفة السكاكي : أقرب إلى طبيعة المسألة ؛ لكنه في إيضاح الإسناد العقلي : يبتعد عـن مسٍّ الجوهري منها ، عندما تكون الأمثلة حيـاةً وممارسة •• ولنجعلَ الحال يغني عن المقال : نتأمل في سياق ما أورده بالمقطعين : الرابع عشر ، والخامس عشر ؛ فقـد رأى المجاز العقليَّ ، باعتبار المسند إليـه والمسند : أربعة أقسام ؛ لأنهما إما حقيقتان ، كقولنا « أنبتَ الربيعُ البقلَ » ••• وإما مجازان ، كقولنا : أحيا الأرضَ شبابُ الزمان •• وإما مختلفان ، كقولنا : أنبت البقلَ شبابُ الزمان [٤] ••• أو غيرُ مختص بالخبر بل يجري في الإنشاء[٥] : كقوله تعالى : فلا يخرِجنّكما من الجنّةِ فتشقى •• (طه ١١٧) ••

وفي المقطع الخامس عشر : قرر أن المجاز العقليَّ كثير في القرآن ؛ وجـاءَ بأمثلة من الآيات : نناقش مثالاً منها ؛ لنرى مدى المطابقة بين النظرية والممارسة ؛ يقـول :

---

(١) الإيضاح : ٩١ — ٩٦
(٢) نفسـه : ٩٧ — ١٠٨
(٣) الإيضاح : ١٠٨ وعلم المعاني ، ج ١ : ٤٢٤
(٤) نفسـه : ١٠٣ وعـلم المعاني ، ج ١ : ٤١٩
(٥) نفسـه : ١٠٥ ؛ وصناعة الكتابة ٤٧٣

« ومن هذا الضرب قوله : « يذبِّح أبناءهم » ؛ فإن الفاعِلَ غيرُه ، ونُسِب الفعل إليه ؛ لكونه الآمرَ به » ... وكقوله : « ينزِع عنهما لباسَهما » ؛ نُسِبَ النزعُ – الذي هو فعل الله تعـالى – إلى إبليس ؛ لأنَّ سببَه أكلُ الشجرة ، وسببُ أكلها وسوسته ومقاسمته إياهما إنه لمن الناصحين » [1] ..

جاء القزويني بجزئي الآيتين : ليبرهن المجاز العقلي ؛ لأن الفعلَ في كلتيهما : أسند إلى غير فاعله الأصلي ..

المثال الأول : مأخـوذ من سورة القصص ؛ والعودة الى سياق السورة : تظهر الفاعل الأصلي والفاعل المجازي ؛ لذلك لا بـد من إيضاح ما تركه صاحب الإيضاح عاماً ؛ فالنص القرآني أوضح لمن يستوضحه من كل الموضحين ؛

« نتلو عليك من نبـأ موسى وفرعون ، بالحقِّ ، لقوم يؤمنون ... إن فرعون : علا في الأرض ، وجعلَ أهلَها شِيَعاً ؛ يَستضعف طائفةً منهـم ؛ « يُذبِّحُ أبناءهم » ؛ ويستحيي نساءهم ؛ إنـه كان مِن المفسدين ... ونريد أن نَمُنَّ على الذين استُضعفوا في الأرض ، ونجعلَهم أئمةً ، ونجعلَهم الوارثين ... ونمكِّنَ لهم في الأرض ؛ ونُرِيَ : فرعون ، وهامان ، وجنودهما .. منهم ماكانوا يحذرون »..

(القصص ٣ – ٦) ..

الشاهد المعنوي : أن فرعونَ ليس الفاعلَ الحقيقي لتذبيح الأبناء .. إنما هو الذي أمرَ بتذبيحهم ، والذين قاموا بالفعل ، حقيقة ، هم رجاله المنفذون لأمره ؛ لذلك اعتبر الإسناد : مجازاً عقلياً ؛ فقد أسند الفعل إلى فرعون لكونه الآمرَ بـه مع أن الفاعلَ غيرُه ...

المناقشة هنا : لإيضاح المعمَّم ، وإفادة العلم بالنصِّ الكليِّ ، الذي أخذت منه جملة « الإسناد العقلي » ..

---

(١) نفسه : ١٠٤ وعلم المعاني ، جـ ١ : ٤٢٠.

أما المناقشة في المثال الثاني : فلها هدف آخر ؛ فعبارة الإيضاح : تخالف النص القرآني في تخريجها لمسألة الإسناد العقلي أو المجازي بالجملة المأخوذة من سورة الأعراف ، وهي « ينزع عنهما لباسهما » ؛ ففاعل « ينزع » ، وفق عبارة الإيضاح ، هو الله تعالى ؛ – ونعوذ بالله العاصم الحفيظ – ولكن النزعَ : نُسِبَ إلى إبليس ؛ لأنه كان سببَ الأكل من الشجرة ... وذلك الإسنادُ : باعتبار المجاز العقليّ ...

نحن لا نرى ما يراه « أصحاب الإيضاح » ؛ بل ما يراه النصُّ القرآني ، كما هو ، دون زيادة ولا نقصان ؛ وعبارة الإيضاح : تثير مشكلة وجودية طويلة ؛ وتقتبس كلمات من آيات ؛ لكنها تتركها عامة مبهمة ؛ فما معنى هذه الكلمات ، في العبارة الإيضاحية [نُسِبَ النزع – الذي هو فعل الله تعالى – إلى إبليس ؛ لأنّ سببه : أكلُ الشجرة ؛ وسبب أكلها : وسوسته ، ومقاسمته إياهما .. إنه لمن الناصحين] .. كيف يفهم طلاب البلاغة أو المؤلفون فيها : هذه العبارة من « الإيضاح في علوم البلاغة » ؟ .. ثم هل يوافقون على حكمها دون مناقشة ؟! ..

في سورة الأعراف ، عشرون آية (١١ – ٣١) : تشرح بوضوح تامٍّ مسألة هذين الأبوين المشار إليهما بالضمير « إياهما » من عبارة القزويني في الإيضاح .. وهذان هما : أبوا البشر .. وأي خطأٍ معهما : يصيب عموم ذريتهما ، وفق طبيعة السياق القرآني المؤكدة في قصة ابنيهما [١] ..

لذلك يكون التأمل في آيات الأعراف[٢] هذه : أجدى – بما لا يقاس – من التأمل بصحف البلاغة التي أريق لها وبها : حبرٌ كثير ... وهذا التأمل : لا يجدي البلاغة وأساليبها فحسب ، بل يجدي الحياة وصراطها المستقيم ؛ ففي كل جملةٍ من جملها : صورة إسناد حقيقي أو عقليٍّ ؛ وبالوقت ذاته ، في كل من هذه الجمل : جمال قاعدة حيوية للسلوك المستقيم إلى حياة النعيم ...

---

(١) لاحظ : سورة المائدة : « واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق » ... الى قوله « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض – فكأنما قتل الناس جميعاً ... ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » ... (٢٧ – ٣٢) ..

(٢) الآيات تبدأ « ولقد خلقناكم » .. آية : ١١ .. وتختم « ويحسبون انهم مهتدون » .. آية (٣٠) .

نأخذ آيــة « النزع » ابتداءً ؛ لنرى من فاعل الفعل فيها ؛ ثم نرى الآيات العشرين بالمنهجية ذاتها : لتبين بلاغة المعنى في هذا الذي نسميه « أحوال الإسناد الخبري ، حقيقيه ومجازيه » ..

الآية : « يا بني آدمَ : لا يفتننَّكم الشيطانُ ، كما أخــرجَ أبويكم مــن الجنة .. يَنزِع عنهما لباسَهما ؛ لِيُرِيَهُما سوآتهما .. إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم .. إنا جعلنا الشياطين أوليــاء للذين لا يؤمنون ..

من فاعل « ينزع » الحقيقي .. ومن فاعله المجازي ؟ ..

عبارة القزويني : واضحة ؛ فهي من « الإيضاح » .. وصورة الإسناد فيها : عقليــة ؛ أسند فعل « نزع الثياب » إلى إبليس ، باعتباره سبباً فيه .. أما النزع الحقيقي : فليس لإبليس ؛ وإنما « هو فعل الله تعالى » .. وبذلك تكون الصورة « مجازاً عقلياً علاقته السببية » ..

هل ظهــر للمتابع الكريم : سبب توقفي مع هذه المسألة .. وهــل ظهرت خطورة الحكم فيها ؟

أذكِّرُ بالمثال السابق « يذبِّح أبناءهم » ؛ فقد فهمنا أن فرعوناً : لم يكن الفاعل الحقيقي وإنما أصدر الأمر وقام من يصدر لهم أوامره بفعل التذبيح ... فكيف يصح في عقل عاقل : أن يكون الله مؤتمراً بأمر إبليس « ينزع » عن آدم وحواء لباسهما ؛ لأن إبليس أمر بذلك ؟ ...

أستغفر الله لي ولأصحاب « الإيضــاح » ، باعتبار القزويني : ينقــل آراء سابقيه من « سكاكي .. وجرجاني .. » وغيرهما ... وأقوِّم انحرافــاً حصل في التقاط صورة الإسناد المجازي ؛ فالذي يقوم بنزع الثياب عن « أبويكم » : هو إبليس بالملابسة السببية المجازية ؛ ولكن النازع الحقيقي : هو صاحب الثياب ؛ أي هما هما الأبوان ؛ لذلك سئلا عن فعلتهما .. وأخرجا من الجنة بعــد عتاب وحــوار بديعين مؤثرين : بينهما وبين ربهما .. وهــذا طرف منه ، للتأمل على هــذا المفترق :

- وناداهما ربُّهما :

ألم أنهكما عن تلكما الشجرة •• ؟

وأقل لكما : إن الشيطان لكما عدوٌّ مبين ؟

- قالا :

ربنا •• إنا ظلمنا أنفسنا •• وإن لم تغفر لنا •• وترحمنا •• لنكونَنَّ من الخاسرين •• » (٢٢ - ٢٣)

إن قراءة الآيات العشرين بتمهل وتأمل : تبصر بمعرفة الفاعل المسند إليه كل خير •• وهو الفاعل الأصلي ••• وتبصِّر بمعرفة الفاعلين الزائفين المدَّعين والطفيليين ، وكلهم يرتبطون بإبليس ••• كما تبصر بارتباط الفعل بفاعله : حقيقةً ومجازاً ••• وسيعرف القارىء المتمهل لهذه المجموعة العشرينية المتتالية من آيات الأعراف : كيف يعمر البناء الكلامي الإعجازيُّ تعميراً متكاملاً ؛ وفي عمارته : تأسيس لقصة الحياة والمجيء إلى كوكب الأرض هذا •• ثم تأسيس للفعل المسند إلى الفاعل المسند إليه ••• وفي هذه العمارة « الأعرافية » : أساس لأحوال « المسند إليه •• والمسند » •• ولأحوال « متعلقات الفعل •• والقصر •• » •• ثم لأحوال « الجمل الموصولة والمفصولة •• والألفاظ الداخلة في أساليب الإطناب والمساواة والإيجاز » •• ومن وراء كل ذلك : يشرق الفهم بنور الإعجاز لمن جاهدوا لهذا الشروق ••• وهذه هي آيات الأعراف العشرون : لمن يجاهدون لتذوق « حقائق الإسناد ومجازاته » ••••

ولقدْ خلَقناكُمْ ثمَّ صوَّرناكُمْ ثمَّ قلْنا للملائكةِ اسجدوا لِآدمَ فسجدوا إلاَّ إبليسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدينَ * قالَ ما مَنَعكَ ألاَّ تَسْجُدَ إذْ أمَرْتُكَ قالَ أنا خَيرٌ مِنهُ خلَقْتَني مِن نارٍ وخلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكونُ لَكَ أنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قالَ أنْظِرني إلى يَومِ يُبعَثونَ * قالَ إنَّكَ من المُنظَرِين * قالَ فَبِما أغْوَيْتَني لأقْعُدَنَّ لهمْ صِراطَكَ المُسْتَقيم * ثمَّ لآتِيَنَّهُم مِنْ بَيْنِ أيْديهِمْ ومِنْ خَلفِهمْ وعَنْ أيْمانهِم وعَن شمائِلهِم ولا تَجِدُ أكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ * قالَ أخْرُجْ مِنها مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جهَنَّمَ مِنكُمْ أجْمَعِينَ * ويَا آدَمُ اسْكُنْ أنْتَ

مِنَ الظَّالِمِينَ * فوَسْوَسَ لهُما الشَّيطانُ ليُبْدِيَ لهُما ماوُورِيَ عنهُما مِنْ سَوْءاتِهِما وقالَ ما نَهاكُما ربُّكُما عنْ هذهِ الشَّجَرَةِ إلاّ أنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أوْ تَكونا مِنَ الْخالِدِينَ * وقاسمَهُما إنِّي لكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلاَّهُما بِغُرورٍ فَلمَّا ذاقَا الشَّجرةَ بَدَتْ لهُما سَوْءاتُهُما وَطَفِقَا يَخْصِفانِ عَلَيهِما مِنْ وَرَقِ الجَنَّةِ وناداهُما ربُّهُما ألَمْ أنْهَكُما عَنْ تِلْكُما الشَّجرةِ وأقُلْ لَكُما إنَّ الشَّيطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالاَ رَبَّنا ظَلَمْنا أنْفُسَنا وإنْ لمْ تَغفِرْ لَنا وتَرحَمْنا لنكونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ * قالَ اهْبِطُوا بعضكُمْ لبعضٍ عدوٌّ ولكمْ في الأرضِ مُسْتَقَرٌّ ومتاعٌ إلى حِينٍ * قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وفِيها تَموتُونَ ومِنْها تُخْرَجُونَ * يا بَنِي آدمَ قدْ أنْزَلْنا عليكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْءاتِكُمْ وَرِيشاً ولِباسُ التَّقوَى ذلِكَ خَيرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللهِ لَعلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيطانُ كما أخْرَجَ أبَوَيْكُمْ مِنَ الجنَّةِ يَنزِعُ عنهُما لِباسَهُما ليُرِيَهُما سَوْءاتِهِما إنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إنَّا جَعلْنا الشَّياطِينَ أوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ * وَإذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا آباءَنا عَليْها واللهُ أمَرَنا بِها قُلْ إنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بالفَحْشاءِ أتَقولُونَ على اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ * قُلْ أمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأقِيمُوا وُجوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسجِدٍ وَادْعوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَما بَدَأكُمْ تَعودونَ * فَرِيقاً هَدَى وفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إنَّهُمُ اتَّخَذوا الشَّياطِينَ أوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أنَّهُمْ مُهْتَدُونَ *

إن سياق هذه الآيات : يدفع أوهام المتقولين بما لا يتيحه النصّ ولا يُبيحه ، وتمكن العودة إلى ما ورد بهذا الموضوع في سور أخرى ، مثل : « ص ؛ وطه ؛ والبقرة » ، وغيرها [1] •• كما تمكن الاستفادة منهـا لتبين : أحـوال متعلقات الفعل •• وأحوال الإسناد •• وأحوال التأليف الأرقى ••• !

---

(١) لاحظ دراسة في الموضوع بعنوان « خاتم النبيين في الهجرة والحج » ؛ مجـلة « نهج الاسلام » ، عدد ٢٨ ؛ ١٩٨٧ .. والبحث مع مجمله المزاد : أعد لمؤتمر « الرسول العربي » ، في جامعة باسمه الشريف في الجمهورية الاسلامية ..

احوال متعلقات الفعل

أ – خماسية اللزوم والتعدي : معمولات الفعل
ب – محاولات فهم واقتراب من بنـاء الجملة
جـ – نماذج من معـاني النحو والقصص اللغوي :

١ – وشاح بردى وبحيرة الفعل
٢ – هندسة العيادة اللغويـة
٣ – تنور اللغـة وخبز المشتقات الفعلية (أبجد)

« ولا تقتلوا أولادَكم » ••

الأنعـام : ١٥١ ؛ الإسراء : ٣١

أحَدٌ برعَمَ الشهـادةَ وحيـاً	مـع جبريـلَ بالتنزّل دارَ :
ليس شـيءٌ من الوجود يُساوي	نشوَةَ الوصل رحمةً واقتدارا ••
أصحيحٌ أنّا نمـوتُ يتـامَى	في لثـام •• وأنتَ أكرمُ جارا ؟!
دمعـةُ السيف يا عزيزُ استجارت	دائمـاً كنتَ للضعيف استـجارَ
ســدّدِ الرميَ يا بصيرُ وناصِرْ	شيبَ ابراهيمَ الذي بكَ حـارَ
وأدر دفّـةَ السـفين بنـوحٍ	بالمزامـير تـرضـعُ الأنهـار
بأذانٍ مُزَمْزِمٍ : إيـهِ اسـما	عيلُ •• إنا مراضعٌ بالصحارى ••
فامحقِ الظلمَ يا قديرُ وزلزلْ ••	يا سـلاماً يُجـدّدُ الأعمـارَ
يا جـواداً أحبّـه بثقـاتي ••	أسـألُ اللهَ واحـداً قهـاراً
كشفُكَ الحبَّ بالمعاني أمـانٌ	فافتح الدهر : حضرةً وانتصارا ••

١٤٠٨/٣/٢٨ ← ١٤٠٨/٤/١

خماسية اللزوم والتعدي

معمولات الفعل

يُعرَف الإعجازُ بأحكامِ النحو : كما يَرى الجرجاني •• وقد يكون للمسند : متعلّقات" ؛ إذا كان فعلاً ، أو متصلاً به ، أو في معناه ، كاسمِ الفاعل ونحوه ، وفق عبارة القزويني ••

والرأيان : يعتمدان على بناءِ الجملة ؛ فمعرفة أحكام البناء : تدل إلى حضور المعنى بهذا المقام الذي جاء به •• ولبلوغ الواقعية نعمد إلى الممارسة ؛ فكيف تتعرف أحكام البناء في مثل هذه الخماسية ، من مجزوء البحر الكامل :

قلبي يُسبِّحُ ربَّه   كالبحر يخفق في الشواطِئْ

وَفؤادُ ابراهيمَ بُسْتانيٌّ رائعةِ المبادِئْ

ومُنىً سليمان" أتى   فقطيعُه عَمَّ الموانئْ

ولصالحٍ حمدُ العليِّ وأحمدٍ •• سَعَةَ البآبئْ

والخضرُ صلّى خالداً   كمحيطه الهادي يُهادِئْ

نلاحظ الجملَ الفعلية ؛ ففي البيت الأول : جملتان فعليتان ؛ « يسبِّح •• يخفق » •• وكذلك في البيت الثالث : جملتان فعليتان ، هما « جملة أتى •• وجملة عمَّ » •• ومثل ذلك في البيت الخامس جملتان ؛ « صلّى •• يُهادِئ » ••

فما هي أحكام النحو فيها •• ؟ ولماذا جاءت متعلقات الفعل فيها كما جاءت ؟

الجملة الأولى : يُسبِّح ربَّه ؛ وفاعل الفعل : : مستتر جوازاً تقديره

« هو » ؛ يعني القلب ؛ كأنما يقول : يسبح قلبي ربَّه •• وهذه جملة فعلية تامة ؛ ظهر فيها المسند الفعلي والمسند إليه الاسميّ •• كما ظهر المتعلَّق المفعوليّ ؛ فالفعل متعلّق بمفعوله ؛ وهذا المفعول متعلَّق للفعل : يتعلق به ، ويلابسه ؛ لأنه يتحقق فيه وبالاستناد عليه •• وهذا التعلق الاستنادي بمعمول الفعل أو مفعوله : ليس كالإسناد الذي هو علاقة الفعل بالفاعل ؛ فعلامة الإسناد : هي الضمة المقدرة على باء القلب •• وعلامة الاستناد أو التعلق ، هي : الفتحة الظاهرة على باءِ الربّ ••

ويمكن التفكير بالجملة على مستوى حذف المفعول به ، والقول : « يسبِّح قلبي » •• أو : يسبحُ القلبُ ••• فنكون مع طرفي الجملة : المسند والمسند إليه ••• وينشأ عن وضع الجملة الجديد : أسئلة ؛ مثل : هل أنزل الفعل المتعدي منزلة الفعل اللازم فاكتفى بفاعله ؟ •• أم لا نزال نقصد تعلق الفعل بمفعولٍ مقدر ومرادٍ •• ؟ •• وإذا كان القصدُ : تقديرَ المفعول وإرادته ، فما هو الغرضُ الذي أداه حذفه ؟

السؤال الأول : يثير فكرة اللزوم والتعدي ؛ فالفعل اللازمُ : يكتفي بفاعله ، مثل : تشرق الشمسُ ؛ •• والفعل المتعدي : يتخطى ملابسة الفاعل إلى ملابسة مفعول به ، أو مفعولين ، أو ثلاثة مفاعيل ، حسب طاقته المتخطية ، أو المتجاوزة ؛ مثل : سبَّحَ القلبُ ربَّه •• عمَّر الحيُّ فتَّه أخلاقاً •• ويمكن التأمل بالنص المأخوذ من « اللغة والحياة في شاعرية القواعد » ، لمعرفة اللزوم والتعدي ومعاني النحو في صورهما ، كما يتضح لنا من « وشاح بردى وبحيرة الفعل » : — الحلقة الملحقة بهذا الباب •••

ومن الأمثلة الدالة على اعتبار الفعل المتعدي كالفعل اللازم ، قوله تعالى « أنه هو أضحك وأبكى » •• والأصل : أنه هو أضحك الإنسان وأبكاه ؛ لكنه خذف المفعول به واكتفى بإسناد الفعل إلى فاعله لزوماً •••

ومن أمثلةِ حذف المفعول به : لنية المبالغة بإثبات الفعل لذاته ؛ مثلُ قولنا :

« الإقناعُ بك : أن يرى المبصرون » •• ففعل « يرى » : متعدٌّ ؛ والنية بالمفعول به : أن يرى المبصرون آثارك التي تجعل من يراها مقتنعاً برؤاك وبصائرك وأعمالك المحققة •• لكن حـذف المفعول : قُصِدَ به إثبات الرؤيـة للفاعل دون التعلق بمفعول ؛ لأن المبصرَ إذا رأى : يعلم حق العلم ويقدر قيم الآثار التي تـدل على صاحبها ••

هذان من أمثلة إنزال الفعل المتعدي منزلة الفعل اللازم ، عند حذف مفعوله •• وذلك لجواب السؤال الأول ••

أما عن السؤال الثاني : فنفكر بالمفعول المتعلّق به مع حذفه ؛ ونتأمّل القرينة الدالّة عليه ؛ فنقدره وفق مقتضاها ؛ فإذا اقتضت العموم : قدر المفعول العـام ؛ ومن أمثلته المعتمدة في كتب « علم المعاني » ، قوله تعالى : « والله يدعو إلى دار السلام » (يونس : ٢٥) •• ففعل « يدعو » : متعد ، حذف مفعوله ؛ لكنه ظـل في النيـة مقصوداً ، وتقديره : « يدعو كلَّ مخلـوق •• كلَّ إنسان » •• لأن « دار السلام » : تعني الجنـة ؛ والدعوة عامة إلى الجنة ؛ لذلك جـاءَ التقدير معمّماً بلفظ مفعول به عام « كلَّ » •••

مما تقدّم : فهمنا أن حذف المفعول به ؛ يكون بنية إثبات الفعل واعتبـار لزومه •• أو يكون بنية تعلق الفعل بالمفعول المحذوف لأغراضٍ يقتضيها السياق وبلاغـة الأداء ••

وحول غرضية الحذف : وضع السؤال الثالث •• وجوابه : يتطلب التأمـل بالقرينة الدالة عليه •• وبالغرض المعنوي الذي يشير إليه بغيابه •• ومما يذكـر من أهـداف الحذف للتشيل لا الحصر : الاختصار •• التعميم •• الإيقاع •• الترفع •• دفع التوهم •• البيان بعد الإبهام •• للحقيقة أو الادعاء ••

أ ـ أمثلة اختصار المفعول به ، حذفـاً : تدخل في باب الإيجاز بالحذف ؛ وأغراضها البلاغية : معلومة في بلاغة الإيجاز ورسالته ؛ ومنها قولنا : « أرى ••

تابعْ مكالمتي » •• ففعل « أرى » متعد ، حذف مفعوله اختصاراً ؛ والأصل : أرى رأيَك ؛ أرى ما تراه ؛ •• وهذا الاختصار شبه عام في اللغات •• فالمحدث يتكلم ، ويريد التيقن من إيقاع كلامه وتأثيره ؛ فيشجعه المستمع بكلمة واحدة « أرى » ؛ والمقصود : أنا أرى بانتباه ما توجه إليه •• ومعلومة صيغ الكلمة في لغات أخرى مثل الانكليزية « I See » •••

ب – ومن أمثلة التعميم المقصود من حذف المفعول به ، قولنا : « عملتَ ما يُريح ويؤنس » •• ففعل « يريح » : متعدٍّ ؛ ومفعوله المحذوف : ضمير المتكلم ، والأصل : يريحني ؛ لكنه حذف هذا المفعول : لإفادة التعميم ؛ فكأنه يقول : إن عملك يريحني ويؤنسني كما يريح الآخرين ويؤنسهم ؛ لأنه عمل الخير ؛ وهذا التعميم للمعنى : ما كان يظهر لو ذكر المفعول به ؛ بل كان يحدد بالفرد المتكلم •• والبلاغة : بلوغ وتبليغ ؛ وكلما اتسعا : أدت رسالتها أكثر ؛ أليس في الحديث الشريف : « أحبُّكم إلى الله أنفعكم لعياله » ؟ ••

جـ – ومن أمثلة الإيقاع : الافتنان بالموسيقى وفق المقتضى الذي يستدعين فن التعبير ؛ كقوله تعالى في سورة الضحى : « والضُّحى ؛ والليل إذا سجى ؛ ما ودّعك ربُّكَ وما قلى ؛ وللآخرة خيرٌ لك من الأولى » ••• ففي قوله « ما ودّعك ••• وما قلى » : حذف الكاف المفعولية من الفعل الثاني ، مراعاة للإيقاع الترنيمي في فواصل السورة الموقعة على الألف المقصورة ؛ مع أن أحكام النحو : تستدعي حضور الكاف المحذوفة بالمعنى لاكتماله ؛ ما قلاك ربك : أي ما أبغضك ، ولا تغيَّر عليك •• لأنه « ما ودّعك » ؛ فهو لا يزال معك •• « ولسوف يعطيك ربك فترضى » ••• ومراعاة الإيقاع اللفظي : مسألة تستدعي انتباهاً ؛ لأنها تستحضر مستوى أعلى من البلاغة ؛ فحذف المفعول به هنا : أبلغ من إظهاره ؛ ووقف البلاغيون عن المسألة الظاهرة ؛ فرأوا بالحذف تابعاً للضرورة الموسيقية •• والأصل أن الموسيقى تناغم المعنى ، وتطابقه ؛ • ولذلك تفاصيله في التماس معاني النحو « بشاعرية القواعد في اللغة والحياة » ••

د – ومن أمثلة الترفع ؛ أو ما يسمونه : « إرادة ذكر المفعول ثانياً ، بحيث

يقع الفعل على صريح لفظة » •• أو ما يسمونه : « التأدب في الحديث » •• وفي التسميتين يكررون المتداول في كتب البلاغة من البحتري :

قد طلبنا •• فلم نجدْ لكَ في السؤدد والمجد والمكارم ، مِثْلا ••

والشاهد أن فعل « طلب » : متعد ؛ لكن مفعوله حذف على نية ذكره مفعولاً لفعل « نجد » المنفي •• والأصل : طلبنا مثلاً لك فلم نجده ••• وبلاغة الحذف : أن المعنى حقق تفرد هذا الممدوح الذي لم يجد الشاعر له مثلاً ، أي نظيراً ؛ لذلك جعل المثل المضاهي لمدوحه محذوفاً من وراء فعل « طلب » ولو كان فاعلو الطلب « جماعة » •• ولو كان فعلهم مؤكداً « قد طلبنا » •• ومَن هذه منزلتُه : تقتضي الحال معه هذا الاكتفاء بالإيماء دون التصريح بمثل القول « قد طلبنا لك مثلاً فلم نجد » ••• وفكرة الترفع : قد لا يبلغها معنى هذا التأليف الذي جاء به البحتري ؛ لأنها تعني التوجه إلى المخاطب وحده دون موازنات بغيره ؛ كأن يثير من المعاني ما يمنع أن يكون له مثلٌ ؛ وبحالة من الترفع عن هذا الافتراض •• كقولنا مثلاً :

وجدتكَ ذا فضلٍ هو البكرُ والمنى
أأطلب ••• سبحان الذي وهب •• الغنى ؟

فالفعل « أطلب » : متعدٍ ، حذف مفعوله ، ترفعاً عن طلب الغنى ممن يَهبه ابتداءً بلا طلب ؛ لأنه صاحب الفضل البكر ؛ ولأنه صاحب الفضل المستقبلي المتمنَّى •• أبمثل هذه الحضرة الرفيعة : يصح وقوع الفعل الطلبي إلى منحدر التصريح المفعولي •• ؟ ! بل الترفع عن ذلك أولى ؛ وتقتضيه الحال ••

هـ – ومن أمثلة دفع التوهم ، قولنا : « بلغنا إلى اليقين » ؛ فالفعل « بلغ » : متعدٍ ؛ حذف مفعوله ؛ وخشية التوهم أن ذلك المفعول يكون وصولاً إلى ما يريب •• كالقول : بلغنا مجمع الرِّيَبِ والمشكلات وما شابه هذا الافتراض••• حذف المفعول به المفترض ، وصوَّر الغايةَ القصوى التي يبلغها المفكر الجاد ، وهي اليقين ، أي الاستقرار والاطمئنان إلى تبيُّنِ الحق وانكشافه له •••

و – ومن أمثلة البيان بعد الإيهام ، أو التفصيل بعد الإجمال : ما يعتمد على المشيئة « شاء » •• كمثل قوله تعالى : « قل : فللّه الحجةُ البالغةُ ؛ فلو شاء لهداكم أجمعين » •• (الأنعام : ١٤٩) •• أو قوله : ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدة •• (النحل : ٩٣) ••

ففعل المشيئة ، « إذا وقع شرطاً ولم يكن تعلقه بالمفعول المحذوف غريباً » : يحذف بعده المفعول به ، كما في الآيتين الكريمتين ؛ والتقدير بآية الأنعام : فلو شاء هدايتكم لهداكم أجمعين •• وقد دل على هذا المفعول « هدايتكم » : كل من الشرط « شاء » والجواب « لهداكم » •• ومثل هذا في آية النحل « ولو شاءَ جعْلكم لجعلكم أمة » •••

وكما يأتي البيان بعد الإبهام بحذف المفعول به : يأتي بذكره ؛ ليقرر في ذهن المتلقّي ؛ ومثله قولنا :

ولو شئتُ من صخرٍ غنىً جرت
منابعُ تبرٍ شاءها الله مجتنى

فمفعول المشيئة ، هنا ، مذكور ؛ لدفع الغرابة ؛ لأنه من المستغرب : أن يريد الإنسان من الغنى من الصخر ؛ لذلكَ اقتضت الحال ذكر المفعول به « غنى » : للبيان بعد الإبهام • كما اقتضت حذفه مع تعليق الإرادة به ودلالة الشرط والجواب عليه في الأمثلة السابقة ••

ز – وتبقى الحالة السابعة من حالات حذف المفعول مع تعلق الفعل به : لتعيين حقيقة أكيدة •• أو لتعيين ادعاء يُدّعى ؛ •• ففي أحوال تعيين الحقيقة ، يقال : نحمد ونشكر •• ويكون القصد : نحمد الله •• ونشكر الله •• وحذف المفعول : يُعيّن بلاغة القصد ، فكأنّ القائل يؤكد : أن الله وحده أهل الحمد وأهل الشكر ••• وقد تستعار هذه الصيغة في أحوال يدعيها أصحابها ، مبالغةً ، كالقول : « نجلّ ونكبرُ » •• ويراد الممدوحَ ملكاً أو أميراً أو غيرهما ••

فحـــذف المفعول لادعاء تعيينه وأنه معلوم في الأمــير ، ووحده يستحق الإجلال والإكبــار •••

إن أحوال حذف المفعول مع تعلق الفعل به : تظهر للمفعول مخصوصية في بلاغةِ المعنى ؛ وهذه المخصوصية : تعرف من سياق التعبير ومن مقتضى القرائن والأحوال •• والأغراض السبعة المشار إليها : أمثلة" للممكن من استكشافِ دور متعلّقات الفعل في بلاغة أدواره ، عنــد الحذف •• فكيف تكون بلاغة أدواره لو ذكر وتقــدّم على فعله ؟ ! ! ••

في جملة البداية من حديثنا « قلبي يسبّح ربّه كالبحر » : رأينا ترتيباً لمكونات الجملة ؛ « يسبِّح القلب ربَّه كالبحر » •• الفعل •• فالفاعل •• فالمفعول بــه •• فالمضاف إليه •• فالجار والمجرور ••

هذه جملة فعلية تامــة الأركان والقيود ؛ وترتيبها هو الطبيعي المألوف في الاستعمال اللغوي •• لكن البلاغة : تغير أماكن محتويات الجملة لأغراض معنوية تقتضيها الحال ؛ كأن تقــدمَ المفعولَ به على الفعل ؛ أو تقــدم عليه معمولاته الأخرى : كالجار ، والظرف ، والحال ••

عندما نرى مثل هــذه التغيرات البنائية : نفكر بالمعنى المقصود من ذلك ؛ فلو قلتُ : ربَّه يُسبِّح قلبي كالبحر •• أو : كالبحر يُسبِّح قلبي ربَّه •• لكان القصد مخصوصاً بالتوجه إلى المعنى عن طريق تناول ذي خصوص ••

ففي تقدم المفعول على الفعل ، « ربَّه يُسبِّح •• » : خَصَّ الفعل بمعموله ؛ أو قصر عليه ؛ أي قصر التسبيح على الرب تعالى ، ولا يتعداه إلى غيره ؛ والتسبيح : صفة •• والرب : موصوف ؛ لذلك يكون هــذا التقديم : نوعاً من قصر الصفة التسبيحية على الموصوف الربوبي •• ومثل هذا المعنى واضح في جملتي التعبد والاستعانة من سورة الفاتحة « إياك نعبد •• وإياك نستعين » ؛ ففي تقديم الضمير المفعول به على فعله : قصر فعل التعبد والاستعانة على المعبود المستعان ، المخاطب

بضميره الذاتي « إيَّاك » •• ونلاحظ : تركيب الضمير « إيَّا + ك » •• فلذلك دلالته المعنوية ، بلاغة ونحواً •• فلننتبه •••

وفي تقدم الجار والمجرور على الفعل ، « كالبحر يسبح ربه » : إفادة تخصيص من جهة الاتساع والعمق والمجهول ؛ فالبحر : « يخفق في الشواطىء » ؛ وخفقه : منبعثٌ من الأعماق ؛ وتفسيره : « وإن من شيءٍ إلاّ يُسبِّح بحمده » ، كما في الآية الرابعة والأربعين من سورة الإسراء •• فالفكرة : معلومة عند العموم ؛ لأن البحـــر وتموجات البحر : لا تخفى على أحـــد •• لكن القلب وخفقات القلب : لا تظهر إلا لذي اختصاص بالقلب أو مراقبة القلب ، على نحو حسي كالأطباء ، أو على نحو نفسي كالفقراء من أهـــل القلوب الذين لا يفترون عن ذكـــر الله ؛ إن تقديم شـــبه الجملة « كالبحر » على الفعل « يسبِّح » : خصت الفعل بالتزام طبيعي نحو السبوح لا يفقهه إلاّ من شـــاء الله ؛ والآية الإسرائية استدركت هذا الاستدراك بمسألة فقـــه التسبيح « وإن من شيء إلاّ يسبِّح بحمده ؛ ولكـــن لا تفقهون تسبيحهم » ••

البلاغة : ذات طموح بالفقه ؛ لذلك تتوسَّل أساليب الحقيقة والواقع حيناً •• وأساليب المجاز والخيال حيناً آخر •• وأساليب الإعجاز وكشف الغيب كلما فتح لمهدي إلى هذه النعمة مقتضى حال •••

ما قيل في مثال التقدم المفعولي « ربَّه يسبِّح » •• أو مثال التقدم الجارّي « كالبحر يسبِّح » : يصدق على معمولات الفعل الأخرى التي نعنيها بمتعلَّقات الفعل ؛ كالظرف ؛ كالحال ؛ كالتمييز ••• الخ •• فتلك المتعلقات : تفهم بلاغتها من فهم معاني النحو فيها ؛ وهذا الفهم : يصلنا بالأغراض المقصودة من كل صورة بنائية ذات تأخير وتقديم ، أو ذات حذف وإثبات ••

والبيت الثالث من الخماسية التي اعتمدناها لإيضاح متعلقات الفعل : يرينا صورتين من الترتيب لمكونات الجملة ؛ الأولى في شطره الأول « ومُنىً سليمانٌ أتى » ••• والثانية في شطره الثاني « فقطيعُه عَمَّ الموانىء » ••• والأصل في

الترتيب اللغوي المألوف : أتى سليمان مُنىً .. وعمَّ قطيعه الموانئَ ... لكن هذا الترتيب العاديَّ المألوفَ : لا يعطي للمعنى مقتضاه ؛ فكل إنسان له « مُنىً » ويؤتاها بصورة من الصور ؛ وكلٌّ راعٍ له قطيعه الذي يسوقه على الشواطىء أو في البراري ... أما منى سليمان وقطيعه : فمسائل مختلفة ؛ وسليمان : ملك نبي ؛ وقصة مناه : معلومة في حكاية الكتاب العزيز ؛ فهو موهوب هبة : لا تنبغي لأحد سواه .. ومعجزات التصرف السليماني : معلومة ؛ كإحضار قصر بلقيس من اليمن إلى القدس ، قبل ارتداد طرفه .. كذلك : أتى سليمان مناه .. لذلك وجب الأسلوب المخصوص في تصوير الحال المخصوصة ، فقيل « ومنى سليمان أتى » ؛ فكان في تقدم معمول الفعل عليه وعلى الفاعل : تقرير وضع سابقٍ فائقٍ ... وكذلك في الجملة الثانية ؛ فقطيع سليمان : ليس قطيع خراف ؛ إنما هو قوى خارقة سخرت له من الإنس والجن والكائنات .. وهذا الوضع : أوجبَ هذا البناء التقدمي ؛ فقيل « فقطيعه عمَّ الموانىء » ...

بمثل هذا المستوى : نفهم أحوال متعلّقات الفعل ؛ من تقديم وتأخير ؛ من إثبات وحذف .. وهذا الفهم لبلاغة هذه الأحوال : يصح فيما يتعلق بالفعل ذاته ، باعتباره « المسند » .. ويصح فيما يتعلق بالفاعل ذاته ، باعتباره « المسند إليه » .. ولكل منهما أحواله التفصيلية في بحوث المهتمين بالفهم ...

محاولات فهم واقتراب من بناء الجملة

وما نجده في « دلائل الإعجاز » ، حول « التقديم والتأخير [1] » .. أو حول « الحذف والإثبات [2] » : ليس إلا محاولة فهم لما يسميه « المطلوب في حديث الإعجاز هو ترتيب المعاني [3] » ... وكذلك ما نجده في « الإيضاح » ، من أقوال حول « أحوال متعلقات الفعل .. والمسند إليه .. والمسند .. والإسناد الخبري » :

(1) دلائل : ٧٩ – ١٠٣
(2) نفسه : ١٠٣ – ١٢١
(3) نفسه : ٥٠

ليس إلا محاولة فهم لمراتب البلاغة الواقعة بين طرفيها الأعلى والأدنى ؛ وهي مراتب كثيرة متفاوتة [1] ... ولا بأس من الاستئناس بمحاولتنا الحديثة في « صناعة الكتابة » ؛ فقد جربنا التفهم ، كما جربنا بناء أبواب البلاغة بناءً « علائقياً » .. قد يجد المتأمل فيه : ما لا يجده في أي كتاب آخر على هذه الصورة التطبيقية الموحدة بين علوم البلاغة المختلفة .. والأمثلة التجددية بيِّنة : في أنواع العلاقات (ص ٢٣٣ – ٣٨٢) .. وفي صور التشبيه [2] (ص ٢٣٣ – ٢٧٨) ..

بناء الجملة العربية : جاذبٌ للغاية ؛ فقد اجتذب اهتمام القدامى والمحدثين إلى هذا التبين الشغوف لمكوناتها ونوايا المعنى من كل تقديم أو تأخير ؛ من كل حذف أو إثبات .. وبحوث الجرجاني : بينات تأكيد لما نشير إليه .. وكذلك اهتمامات القزويني في « مختصر المفتاح للسكاكي » .. ثم في « إيضاحه » ..

والتأمل بعبارة القزويني في « إيضاحه » : يجدد تأكيد اهتمامه ؛ وقد رأينا مواقفنا من بحوثه الموفقة أو غير الموفقة .. فلننظر في باب « أحوال متعلقات الفعل بعبارته » ، بعد ما تقدم من إيضاح المستوى الواجب للنظر ببلاغة التقديم والحذف .. فماذا نجد لديه ؟

عالج هذا الباب بأربع عشرة صفحة [3] ؛ وبتسع مقاطع ؛ اقل في أولها :

١ – « حالُ الفعلِ معَ المفعولِ كحالهِ معَ الفاعلِ ، فكما أنك إذا أسندْتَ الفعلَ إلى الفاعلِ ؛ كانَ غرضُكَ أن تفيد وقوعَه منه ، لا أن تفيد وجودَه في نفسه فقط ؛ كذلك إذا عَدَّيته إلى المفعول ؛ كان غرضُك أن تفيدَ وقوعَه عليه ، لا أن تفيد وجودَه في نفسه فقط ، فقد اجتمع الفاعل والمفعول في أن عمل الفعل

---

(١) الايضاح : ٨٢ ؛ والأبواب المذكورة .
(٢) صناعة الكتابة : المقدمتان وما أشير إليه ..
(٣) الايضاح : ١٩٥ – ٢٠٨

فيهما إنما كان ليُعْلَمَ التباسُه بهما ، فعَمِلَ الرفع في الفاعل ليُعْلَمَ التباسُه به من جهة وقوعه منه والنصب في المفعول ليُعْلَمَ التباسه من جهة وقوعه عليه .

أما إذا أُريد الإخبار بوقوعه في نفسه من غير إرادة أن يُعْلَمَ مِمَّنْ وقع في نفسه ، أو على مَنْ وقع ؛ فالعبارة عنه أن يقال : كان ضرب" ، أو وقع ضرب" ، أو وُجِدَ ، أو نحو ذلك من ألفاظ تفيد الوجود المجرد » .

وقال في ثانيهما مقالة مطولة ؛ مددها بأمثلة كثيرة لحذف المفعول به ، بغرض إثبات المعنى في نفسه للفاعل أو نفيــه عنه .. فيعتبر الفعل بمنزلة اللازم [١] ... أو يحتفظ له بتعديه ويفسر معنى الحذف ودلالته البلاغية ؛ فقد يكون : للبيان بعد الإيهــام ، كما في فعل المشيئة [٢] .. أو أن يكون حذف المفعول بــه لقصد التعميم فيه مع الاختصار [٣] ... وعند اشتباه الحال في أمر الحذف وعدمه لعدم تحصيل معنى الفعل [٤] : فلا يقدر محذوف في الكلام ؛ كقوله تعالى ، « قُل ادعوا الله ، أو ادعوا الرحمن : أيّاً ما تدعوا .. فــله الأسماء الحسنى [٥] » .. فلا يقدر المحذوف وراء « أياً ما تدعوا .. » لأن الدعاء بمعنى التسمية التي تتعدى إلى مفعــولين ؛ أي : سموه الله ، أو الرحمــن ، أيــاً ما تسموه فلــه الأسماء الحسنى » [٦] ...

إن حديثه عن اشتباه الحال في أمر الحذف لعدم تحصيل معنى الفعل : يمثل المقطع الثالث من معالجته ؛ ويسوّي مسألة اشتباه معنى الدعاء ومعنى النــداء .. ويري الدعاء بمعنى التسمية ، كما لاحظنا ...

في المقطع الرابع : يبدأ معالجة التقديم وأغراض تقدم المفعول وما يشبهه من

---

(١) نفسه : ١٩٥
(٢) نفسه : ١٩٨
(٣) نفسه : ٢٠١
(٤) نفسه : ٢٠٣
(٥) إسراء : ١١٠
(٦) الإيضاح : ٢٠٣

المتعلّقات على الفعل ؛ فيرى في التقديم : « ردَّ الخطأ في التعيين ؛ كقولك : زيداً عرفت .. لمن اعتقد أنك عرفت إنساناً وأنه غير زيد ، وأصاب في الأول دون الثاني ، وتقول لتأكيده وتقريره : زيداً عرفت لا غيرَه .... وكذلك إذا قلت « بزيد مررت » : أفاد أن سامعك كان يعتقد مرورك بزيد ؛ فأزلت عنه الخطأ ، مخصِّصاً مرورك بزيد دون غيره [1] » .

أما عبارة القزويني في المقطع الخامس ، فتقرر أن « التخصيص » في غالب الأمر ، لازم للتقديم ، ولذلك يقال في قوله تعالى ، « إياك نعبد وإياك نستعين » : معناه نخصك بالعبادة ، لا نعبد غيرك ؛ ونخصك بالاستعانة ، لا نستعين بغيرك [2] ..

وفي المقطع السادس : يرى مع التخصيص اهتماماً بشأن المقدَّم [3] ..

وفي المقطع السابع والمقطع الثامن : يبحث تقديم بعض معمولات الفعل على بعض [4] .. ثم يبحث تقديم الفاعل على المفعول [5] ..

وفي المقطع التاسع والأخير : يبسط رأي السكاكي في التقديم ؛ وهو للعناية مطلقاً [6] ..

وهذه عبارة القزويني ، كما هي ، في المقاطع الثلاثة (٦ ، ٧ ، ٨) كاملة غير منقوصة : لتبيِّنِ المستوى التعبيري المطابق للبحث عن معاني النحو في أحوال متعلقات الفعل ؛ يقول :

٦ – [ويفيد التقديم في جميع ذلك وراءَ التخصيص اهتماماً بشأن المقدَّم ،

---

(١) الإيضاح : ٢٠٤ – ٢٠٥
(٢) نفسه : ٢٠٥
(٣) نفسه : ٢٠٧
(٤) نفسه : ٢٠٧
(٥) نفسه : ٢٠٧ – ٢٠٨
(٦) نفسه : ٢٠٩

ولهذا قدّر المحذوفُ في قوله : « بسمِ اللهِ » [1] مؤخّراً وأُورِدَ قوله تعالى : « اقرَأ بِسْمِ رَبِّكَ » [2] فإن الفعل فيه مقدم، وأجيب بأن تقديم الفعل هناك أهمّ ؛ لأنها أولُ سورةٍ نزلت ، وأجاب السّكاكيّ بأن « باسم ربك » مُتَعلّق بـ « اقرأ » الثاني ، ومعنى الأول : افعل القراءةَ وأوجدها ، على نحو ما تقدم في قولهم « فلانٌ يُعْطِي ويمنع » يعني إذا لم يُحْمَلْ على العموم ، وهو بعيد .

٧ — وأما تقديم بعضِ مَعْمولاته على بعض ، فهو إما لأن أصلَه التقديمُ ولا مُقْتَضِيَ للعدول عنه ؛ كتقديم الفاعل على المفعول ، نحو : « ضرب زيد عمراً » وتقديم المفعول الأول على الثاني ، نحو « أعطيت زيداً درهماً » .

وإما لأن ذكرَه أهمّ ، والعناية به أتم ، فيُقدّم المفعولُ على الفاعل إذا كان الغرضُ معرفةَ وقوعِ الفعلِ على مَنْ وَقَعَ عليه ، لا وقوعِه مِمَّنْ وَقَعَ منه ، كما إذا خرج رجلٌ على السلطان ، وعاث في البلاد ، وكثر منه الأذى ، فقُتِلَ ، وأردتَ أن تُخْبِرَ بقتله ، فتقول : « قَتَلَ الخارجيَّ فلانٌ » بتقديم « الخارجي » ؛ إذ ليس للناس فائدةٌ في أن يعرفوا قاتلَه ، وإنما الذي يريدون علمَه ؛ هو وقوعُ القتل به ، ليخلُصوا من شرّه .

٨ — ويُقدّم الفاعلُ على المفعول إذا كان الغرضُ معرفة وقوع الفعل مِمَّن وقع منه لا وُقوعه على مَنْ وَقَع عليه ، كما إذا كان رجلٌ ليس له بأسٌ ، ولا يُقَدَّرُ فيه أنْ يَقْتُلَ ، فَقَتَلَ رجلاً ، وأردت أن تخبر بذلك ، فتقول « قتل فلانٌ رجلاً » بتقديم القاتل ؛ لأنّ الذي يَعْني الناسَ مِن شأن هذا القتل نُدُورُه وبعده من الظن ، ومعلوم أنه لم يكن نادراً ولا بعيداً من حيث كان واقعاً على مَنْ وقع عليه ، بل من حيث كان واقعاً مِمَّن وقع منه .

وعليه قوله تعالى : « وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إمْلاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ » [3] وقوله تعالى : « ولا تقتلوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ

---

(١) الفاتحة : ١

(٢) العلق : ١

(٣) بعض الآية ١٥١ من سورة الأنعام . الإملاق : الافتقار .

إملاق ، نحنُ نَرزُقُهُمْ وإيّاكُمْ » (١) قدّم المخاطبين في الأولى دون الثانية ؛ لأن الخطاب في الأولى للفقراء ؛ بدليل قوله تعالى : « منْ إملاق » فكان رزقهم أهمَّ عندَهم من رزق أولادهم ؛ فقدّم الوعدُ برَزْقهم على الوعد برَزْقِ أولادهم ، والخطاب في الثانية للأغنياء ؛ بدليل قوله : « خَشْيَةَ إمْلاقٍ » فإن الخشية إنما تكون مما لم يقع ، فكان رَزْقُ أولادِهم هو المطلوب دون رَزْقهم ؛ لأنه حاصل ؛ فكان أهم ؛ فقدّم الوعد برَزْق أولادهم على الوعد برَزْقِهِم .

وإما لأن في التأخير إخلالاً ببيان المعنى ، كقوله تعالى : « وَقَالَ رَجُلٌ مُؤمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إيمانَهُ » (٢) فإنه لو أُخِّرَ « مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ » عن « يَكْتُمُ إيمانَهُ » لتُوُهِّمَ أن « مِنْ » متعلقةٌ بـ « يَكْتُمُ » فلم يُفْهَم أن الرجل من آل فِرْعَوْنَ .

أو بالتناسب (٣) ، كرعاية الفاصلة ، نحو « فَأوْجَسَ في نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى » (٤) .

وإما لاعتبار آخَرَ مناسبٍ .]

هذه عبارة القزويني ومن نقل عنهم : في بسط أحوال من « التعلق والإسناد » وما تستدعيه معاني النحو وأحكامُه من«التقديم والتأخير أو الحذف والإثبات»؛.. ومثل العبارة القديمة : عبارة المؤلفين المعاصرين بعلم المعاني ؛ هؤلاء ، أيضاً ، يبحثون « المفعول به » تحت عنوان « أحوال متعلقات الفعل » ؛ ويعرضون نماذج « تقديمه على الفعل » ؛ أو « حذفه من الجملة » .. وقليلاً ما يعتنون بترتيب معمولات الفعل .. وأقل من هذا القليل : عنايتهم بتعليل معاني النحو وإظهار فلسفتها لتأدية المعنى ؛ فكيف نغني هذه القلة ؟ ! ..

---

(١) بعض الآية ٣١ من سورة الإسراء .
(٢) بعض الآية ٢٨ من سورة غافر .
(٣) متعلق بكلمة « إخلالا» الواقعة اسماً لأن في الفقرة السابقة .
(٤) الآية ٦٧ من سورة طه . اوجس : احس .

إن الجرجاني في « متعلقات الفعل تغير معنى جـزئي الجملة » : يظهر دور التعدية في إحداث المعنى الجديد .. لكنه لا يحدد أصولها وفروعها ، تاركاً لطالب هذا العلم أن يبحث عنها في كتب النحو ، وأن يفلسفها بطريقته ، وفـق مقتضى الحال .. ولهذا الافتراض المكمل : أضفت حلقاتٌ من « اللغة والحياة في شاعرية القواعد » ، تقـدم صور الفعل المتعدي جملة واحدة وبصورة « وشـاح بردى وبحيرة الفعل » .. كما تقـدم صور المشتقات الفعلية بأسلوب القصص اللغوي الذي دار على ألسنة « مية ومصباح وزاهر وزهرة وسالمة » ، في « تنور اللغـة وخبز المشتقات » .. ثم « البحث عن خبز عربي » ...

نعطي الفرصة للدخول بهـذا الامتحان الطريف .. وبعـد العرض : نعود لمناقشة ما فُهِمَ ..

من معاني النحو في القصص اللغوي :

وشـــاح بردى

و

بحـــيرة الفعـــل

لقيتُهما على سطح البحيرة •• كانا يُجذّفان ويتحاوران •• وكانت ضرباتُ المجذافين تُنبىءُ الملاحظَ بحماسة الحوار أو بهدوئه •• فاقتربت بزورقي من زورقهما •• وتركته ينسابُ بحرّيةِ الهوء •• وأصغيت كمن لا يُصغي•• فسمعتُ منهما ما يذكر بجهادٍ وأملٍ في قصّة الشروق وأول الرّبيع ••

قالتِ الصبيّة : بُحيرةُ بردى •• لها سبعةُ أشواقٍ ، كلٌّ شوقٍ منهـــا يجري نهرَ خصبٍ يُوشّحُ دمشق ومن يَزور دمشقَ •• فكلٌّ خضرة وشاحٌ من بردى ••

قال الشاب : مسيرةُ النهـــرِ الأول ذاتُ لونٍ معيّنٍ •• كأنّما يكتفي بذاته • •فتأمّلي : حصَـلَ الخِصبُ •• فنبتَ النباتُ •• وعرضَتْ نزهـــةٌ •• وحدثتْ أمورٌ •• فكانَ الرّبيعُ ، أي جاءَ وحصل ••

قالت الصبيّة : تحــدُثْ صفاتٌ حسيّةٌ على ضفتي النهـــر ؛ تنظّفُ الطبيعةُ ، ويطهُرُ الهواء ؛ فيقصُرُ الليلُ ، ويَطولُ النهار ••

فيفرَحُ النّاسُ •• ويبطرون •• وقديماً : مرضوا •• وأشِروا ••
فكم : سَمِنَ سَمِينٌ •• وذلّ ذليلٌ ••
وكم : شرُفَ قومٌ وكرُموا • وكم لؤمَ قومٌ ولو ظرُفوا ••!••
حتى وُضعتِ المعاييرُ : فانكسرَ الزّيف••وانصرف الزائفون••وانتصر الأصلاء••

قال الشابّ : مسيرة النهر الأول ، والثاني ، والثالث ، والرابع •• تحدِثُ أربعةَ فصولٍ لكلٍّ منها أربعُ جِهات ؛ فتأملي :

رضيَ النهرُ عن المكان •• فمرَّ بهِ •• أو مرَّ عليه •• فازدهر المكانُ ••

وشممتُ أطيابَ التفتّح •• وذقتُ ثمارها •• ولمستُ أكمامَها •• فسمعتُ همساتِها •• ورأيتُ بسماتِها ••

نصحتني التفتحاتُ •• فشكرتها •• وقصدتُ إلى جهـة النصح ••

ففغرتْ أفواهُها •• ففهمت الإشارة ؛ وشحوت فمي ، أي فتحته بابتسامة الرّضى ••

قالت الصبيّة : وأنا رضيتُ تجاوز الأنهرِ الأربعةِ •• الى النّهر الخامسِ •• فإني أراه أعمقَ وأوسَعَ •• له فرعان •• لثانيهما ثلاثُ شعبٍ :

الأول يمتدُّ وينجزر : ينقَصُ الماءُ •• وما يَنقصُنا الماءُ شيئاً ••

والثاني يمتــدُّ في ثلاث شُعَبه الدائمــة •• فتأمّلْ مواسِمَ الدوام في تعدّياتِ العشاق :

منحَ النهرُ الناسَ نفسَه •• فكسوا شاطئيه شجراً •• ووهبوه اجتهاداً •• فألبسوا الترابَ ثيابَ حنانه ••

كأنّما أمرَ النهرُ الناسَ بالعملِ •• أمرَهُم العمل •• فاختاروا العمــل نسباً •• واستغفروا الله من خطأهم •• وكنوا أنفسَهم بالعمال •• فدعاهُم العــالم بالحضاريين •• وسمّاهم أهلَ النهر •• وصدقهم النهر بالوعد •• فكالَ الخِصب بالكثرة •• ووزنهُ بالوفــرة ••

قال الشاب : لماذا اتشحت بوشاحِ النهر •• وتركتِ القلب يترجّحْ بــين أفعال الظن وأفعال اليقين •• ليتكِ تحوّلين اتجاه الوشاح ••

قالت الصبيَّةُ : ظننتكَ متابعاً •• فهَبْ ظني صحيحاً •• فقلت خلت حديثَ النهـر واضحاً •• وحسبته كافيـاً •• حتى زعمته ناقصاً •• فعددتُ حـديثي يتكمَّلُ •• وحجوته سيتمَّم ••

لكن دورة الفصول : علمتنيَ الصَّبر •• فتعلَّم الصَّبرَ منهجَ النجاح •• رأيتك قادراً •• ووجدتك تستطيع •• ودريتُ أنك تحاول •• فجعلتك موعدي••

قال الشابُّ : يتحوَّلُ ماءُ النهر مواسِمَ زهر وثمرٍ وبناء •• لقد جعلني بردى صبوراً •• وصيَّرني حكيماً •• واتخـذني صديقاً •• وترك بذور الحبِّ غاباتٍ في صدري •• فانطلقت بوشاح بردى من بحيرة الفعل ••

قالتِ الصبيَّة : فلنعبرْ إلى النهر السَّابع •• فقـد أعلمتك أنَّه الأغنى •• وقـد أراني الغنى مصدر قوَّة •• وأكد ذلك المنبئون والمخبرون والمحدثون : أنبأوني بأنبائه •• فنبأتك بها وعنها •• فلا تقل : من أنبأكِ هذا ؟

قال الشاب : أنتِ متحمِّسة لأنهـر البحيرة السَّبعة •• كأنما هي أنهـار العالَمِ جميعاً •• أما سمعت بالبحيراتِ العشر التي لها مزايا بحيرتنا هذه ؟

قالت الصبيَّة : أعرفُ أنَّ في العالَمِ آلافَ البحيراتِ وملايين الأنهر •• لكنني ، على بحيرةِ بردى عرفتك •• وبوشاح بردى رأيتكَ متشحاً •• ألفيتُك ، هنا ، دليليَ إلى البحيراتِ كلِّها •• وإلى ما يتوزعُ عنها من أنهار •• أَيْلامُ قلبي لإخلاصه ، فقد قال الحكماء : إذا عرفَ الإنسانُ كيف يقرأ قلبه •• عرف كيف يقرأ قلوبَ الناس جميعاً •• وأنا أتعرَّفُ قلبي في وشاح بردى وبحـيرة الفعل •• لأتعرَّف إلى البحيراتِ والأنهر في مواطِن أهلي بالعالَمِ كلِّه ••

قال الشاب : وقد فاضَ وجهه بالتأثُّر :

علمتُ أنَّكِ رائعة •• ووجدتُكِ تموِّجين السَّعادة •• وما أظنُّ السَّعادةَ في غـيرِ ما تصنعين :

شيئاً ظنُّوا السَّعادة •• والسَّعادة مشيئة رأيتُ ••

ومصيرُ العملِ الفعليِّ مُعلَّقٌ بين الشيءِ والمشيئة •• بين ظنّهم ورؤيتي•• بين التّعليقِ المانع وبين التعلّقِ المبـدع •• فكيف يكونُ الانسجام في هـذا الإطار العالميِّ القلِق ؟

قالتِ الصبيَّة : العالَمُ دنيـا وبسيطة •• والوعي عليا مركّبةُ الغنى •• وبالوعيِ الحنون تعلو الدنيا فترتفعُ فوق الموانع المبطلةِ لنشاطِ الفعل ••

علمتُ : لأنتَ شجاعٌ •• ورأيتُ : لتفوزَنَّ الشجاعةُ •• وظنّوا : أرأيٌ في العالَمِ أم شجاعة ؟ وإن أدري أقريبٌ أم بعيـدٌ ما يأملون ؟ ••• ويعلَمُ العالَمُ أيُّ الموقنين أجدى •• وليَعلَمُنَّ أيُّنا أقومُ سبيلاً ••• فقد درينا متى الوصول •• ودروا فجرَ أيِّ يومٍ وصولُنا •• وسيعلمون أيَّ مُنقلَبٍ ينقلبون ••• متى كان الحقُّ ينفى من أجـل الباطل ؟

قال الشاب : لقـد علمتُ ما الظالمون ينجحون •• ووجـدت ، والله ، إن محتالٌ منتصر •• ورأيتُ بالصبر ، لا باطلٌ في العالم ولا ظلم ••

وإن أدري لعلّها تجربة للمجاهدين •• وأنت تعلمين لو جدَّ القـوم لبلغوا المنى •• وأظـن إن القوم لبالغون •• وأعلم كم معـركة خاضها الصّابرون •• فإلى متى تخوضُ المجاذيفُ في ماءِ البحيرة ؟

قالتِ الصبيَّةُ : ما كنتُ أدري قبلَ البحيرة ما وشاحُ بردى ، ولا أنهـرَ البحيرة في الفعلِ ••

أظنني وعيتُ ما ينبغي ليَ وعيُه : فحذفتُ أشياءَ وأثبتُّ المشيئة :

أين شركاءُ الأمسِ ، الذين كانوا يزعُمون ؟ ••

ما رأيتُ شركاءَ الزّمان ، الذين زعموا أنّهم فيه شركاء ••

لقـد اتضح تاريخُ الحق ، فلا تحسبَنَّ غيرَه للمحبِّين جميعهم •• ولا يحسبَنَّ الذين يكابرون ، بما صار واضحاً ، هي خيراً لهم ••

قال الشاب : قلتِ الحقّ واضحاً •• وهم يظنون المكابرةَ في الحقّ خيراً •• وما تصـدق الظنون :

أيقولون : باطِلاً منتصِراً ؟ ••
أبعد زمان الحقّ يقولون : الشعبَ جاهلاً ؟
أفي حضرةِ الشعوبِ يقولون : ظالماً خالداً ؟

ونحن نعرفُ مع شاعر المستقبل : فما مات مظلوم ولا عاش ظالم •• ونسألُ مع شـاعر التاريخ بصيغة العصر :

أجُهّالاً – أقول – بني زماني
لعمرُ أبيكِ أم متجاهلينا •• ؟

قالت الصبيّة : إنك تجـذفُ بحماسةٍ وقوّة •• أتُريدُ عبور بحيراتِ العالم من بحيرةِ النبع الصّامدةِ في سهلها بين الجبال ؟

توحّدَ السؤالُ في ثغريهما •• واتّجه الزورقُ وجهة البحيراتِ العشر •• وعدتُ أحمل عنهما أطيب الذكرى •• فقد لقيتهما على سطح البحيرة •• يجذفان ويتحاوران •• كأنما العالم والناس في زورقهما الصّغير •••

« وشاحُ بردى وبحيرةُ الفعل » : قصّةُ حياة طويلة ٍ مع الجهـاد لبلوغ الأمل •• فماذا لقصّةِ اللّغة في قصّةِ الحياة ؟

لغـةُ العربِ : تجعَلُ الفعلَ صديقَ الحيـاةِ الأول •• فالفعلُ عامِلُ الرّفع •• وكلّ فاعلٍ يرتفعُ ويعلو بالفعل •• وكلّ مفعولٍ ينتصِبُ ويتفتّحُ بالفعـل ••

تلك هي خاصّة العربية الأولى : عامليّة الفعل •• فالفعلُ يمهّدُ للكفاءةِ ، دون نظرٍ إلى سابقِ نسبٍ أو طبيعةٍ أو رأي ••

الفعلُ هو المعيـــار •• هو المقياس •• هو العامل ••

وعملُ الفعلِ يظهَرُ في الفاعلِ رفعاً •• وفي المفعولِ به نصباً •• وتُصوَّر أعمالُه في سبع ظهورات •• هي التي رُمِزَ إليها بالأشواق السبعة •• أو بالأنهر السبعة •• التي هي فروع بردى ••

النهر الأول منها : نهرُ الفعل المكتفي بفاعله •• وأمثلته في النصِّ : حصلَ الخِصبُ •• عرضتْ نزهــةٌ •• الخ ••

وأمثلة هذا الفعل : تدلُّ على حدوث ذات •• نبتَ النبات •• كان الربيعُ ••

أو حدوثِ صفــةٍ حسيَّة •• طهرتِ الطبيعةُ •• واعتدل الهــواء ••

أو حــدوثِ أمــر عارض •• فــرحَ الناسُ •• مرضَ القــويُّ ••

أو يجيء عــلى وزن معيَّن •• سَمِنَ سَمِينٌ •• ذلَّلَ ذليــلٌ ••

•• شرُفَ قــومٌ •• ولؤمَ آخــرون ••

•• ينتصر الشرفاء وينخــذلُ الزائفون ••

النهر الثاني : نهر التعدّي لمفعول واحدٍ بوساطة حرف الجر : رضي النهــر عن المكان ••

النهر الثالث : نهــر التعدي لواحد ، إنما يتعدى الفعــلُ بنفسِه : رأيتُ بسماتها •• الحواس ••

النهر الرابع : يتعدى لواحد ، بنفسه مرة ، وبالجار أخــرى : شكرتها •• وشكرتُ لهــا ••

النهر الخامس : يتعدى بنفسه مرة •• ولا يتعدى مــرّة أخرى : فغــرت أفواهها •• شحوت فمي ••

هذا التعدّي الواحديّ متشابه" ومتنوّع •• لذلك كان أربعة أنهــر ••

النهر السّادس : نهر التعدي لمفعولين •• وهو فرعان :

فرع المتعدي لمفعولين مرّة •• وغــير المتعدّي مرّة" أخرى •• وأمثلته : نقَصَ المال •• ونقصته ألفــاً ••

وفرع" يتعدّى لمفعولين باستمرار •• وهو ثلاث شعبٍ : أولاها أفعــال العطاء : منح النهرُ الناسَ نفسه •• الخ •• ومفعولُها الأوّلُ فاعل بالمعنى •• فالناسُ : مفعول بــه أول •• إنما هو الذي يَقبل منحةَ النهــر ، فهو فاعــل القبول بالمعنى ••

وثانية الشعب : أفعال القيد والإطلاق ؛ بمعنى أن مفعولَها الأول مطلَق" من قيــد التعدي بالحرف •• وثاني مفعولِها مقيَّد بــه مرّة مسرَّح" منه ، أي مطلَق منه ، مــرّة أخرى •• والأمثلة واضحة : أمرَ النهــرُ الناسَ بالعمل •• أمرهم بالعمل •• وهي عشرة أفعال : أمــر ، استغفر ، اختار ، كنى ، سمّى ، دعا ، صدق ، زوّجَ ، كال ، وزن ••

وثالثةُ الشعبِ •• أفعالُها : أفعال القلوب •• والتحوّل ••

ومن أفعال القلوب ما هو يقيني ، مثل : علم ، رأى ، وجد ، درى ، جعل ، ألفى •• تعلَّمْ •• علمتني الصبرَ •• فتعلَّمِ الصبر منهج العمل ••

ومنها ما هو ترجيحي ظنيّ ، مثل : ظن ، خال ، حسب ، زعم ، عدّ ، حجا ، هب ••• ظننتك متابعاً •• فهب ظني صحيحاً ••

أما أفعال التحول ، فصار وما في معناها : صيَّر ، جعلَ ، اتخذ ، ترك ••

وأمثلتها واضحة في النص : جعلني بردى صبوراً •• وصيَّرني حكيماً ••

أما النهر السّابع ، فنهر التعدّي إلى ثلاثــة مفاعيل •• وأفعاله : أعلَم •• وأرى •• وما أشربَ معناهما مثل : أنبأ •• نبأ •• أخبر •• خبَّر •• حدّث ••
« أعلمتك أنه الأغنى •• وأراني القــوة مصدر غنى » ••

إن تأمُّلَ فن التأليف في قصَّةِ البحيرة •• يكشف للمتأمِّل صيَغ البنـاء الفعليِّ •• وكيف يسودُ الفعل فيرفع فاعلاً •• وينصب مفعولاً واحداً أو مفعولين أو ثلاثة •• ويُظهر أشكال أعماله أو إلغاءها أو تعليقها فيما يتعلق بأفعال القلوب •• كما يظهر فعل القول متشابهاً معها بشروط •• فهل يرتفع القول إلى الفعلِ حقّاً ؟

هـذه أقصوصة لغوية ؛

لكن أحداثها تمت على سطح البحيرة ؛ وتحت سماء شرقية صافية : مما جعل « اللازم والمتعدي » في حالة تنفس في هواءٍ طليق ، بعيداً عن تحكُّماتِ « زيـد وعمرو » •• وعن قيود التعبير المكررة في كتب النحو والبلاغة : حتى الإيهـام بأنها توقيفية ، أي لا يجوز استخدام غيرها ، أو لا يصح التعبير عن حكمها بغـير صيغتها في تلك الأساليب المعلومة ••

أرجو أن لا يحسب هذا الكلام رغبة غضٍّ من قـدر أحد •• وآمَلُ أن يؤخَذ مأخـذَ الجدِّ والاهتمام ، كأن تقارن صيغة من « وشاح بردى وبحيرة الفعل » مع مماثلتها من صيغة « الإيضاح في علوم البلاغة » ؛ أو من صيغة « شرح شذور الذهب ، لابن هشام » ؛ أو من صيغة « دلائل الإعجاز » •• ولا بـد أن المقارنة : ستولد صيغة ثالثة ، أو رابعة ، أو خامسة ، •• عند المقارنين ؛ خذ مثلاً من أي فصل من فصول القصة الحيوية •• أو من التعليق عليها •• تأمل مثـلاً عبارة « وشـاح بردى » :

« وعمل الفعل يظهرُ في الفاعل رفعـاً •• وفي المفعول به نصباً •• وتصور أعماله في سبع ظهورات ، هي التي رمز إليها بالأشواق السبعة ، أو بالأنهر السبعة ، التي هي فروع بردى •• النهـر الأول منها : نهر الفعل المكتفي بفاعله ؛ وأمثلته في النص : حصلَ الخصب •• عرضت نزهة » ••

لا بأس من القيام بالنزهة المفكِّرة بلا لهوٍ ، ولو إلى « تنور اللغـة وخبز المشتقات » بعد « بحيرة الفعل » •• ! ؟

تنور اللفة

و

خبز المشتفات

لماذا يخافونَ من الامتحانِ ؟

تطاردُهم أشباحُ الامتحاناتِ إلى منطقةِ النّوم .. فيحلمُون أنهم في قاعاتِ الامتحان .. وأنّ الأسئلةَ لم تكن متوقّعةً .. أو أنّ الأسئلة جاءت أبسطَ ممّا يُظَنّ .. ولذلك فوجئوا بها .. فلم يُحسنوا الإجابة .. ويتندّرون بشجاعة نابليون العسكرية وخوفِه من الامتحانِ .. وهذا التندر يريحُ أعصابهم .. أو يخفّفُ مِن انكسار خواطرهم ..

حدّثني فيلسوف" كبير" أنّه يقدّمُ امتحانَ الشهادة الثانوية مع ابنته الخائفة من الامتحان ..

وأخبرتني سيّدة" نابهة" أنّها تقدّمُ امتحان الشهادة الابتدائية مع ابنها .. وتسهر معه .. وتستيقظُ معه .. وكأنّها بنتُ السنواتِ العشر ..

علّقتُ على هذا التشبيه ، يومذاك ، وقلتُ :

لذلكَ لا خسارة .. فهؤلاء الصّغار يعودون بآبائهم وأمهاتهم إلى الطفولة والشباب .. أي إكسيرٍ مجدّد هم ؟ وأيُّ فضلٍ غامرٍ لأيّام الامتحانِ على الكبار والصّغار معاً ؟ .. فالصّغار قلّما يحظون برعاية الكبار كما يُمنحونها أيام الامتحان .. ولذلك يَعتبرون مِحن الامتحان منحاً .. ويتجدّد حماسُهم بالحنان .. وتستيقظ قواهم بالاهتمام ..

أعجبكِ هذا التعليق .. فضحكتِ .. وقلتِ :

كأنَّكَ في قلوبِ الكبار والصِّغار جميعاً ..

ظننتُ أنَّكَ تتركُ مناطِقَ الأحلام لأصحابها الحالمين .. وإذا بكَ ترى ما نراه .. وتُطارد أحلامَنا كأنَّكَ امتحانٌ آخرُ لضمائرنا ..

ما دامَ أمرُ الكشفِ الرؤياويِّ هكذا ..

فكيف تُفسِّر لي هـذا الحلمَ اللغويَّ ؟

« رأيتُ نفسي في الجامعة .. وأفواجُ الطلاَّب يدخلون مداخلَ الجامعة .. ويتوزَّعون زمراً زمراً ..

لا أعرفُ كم مضى من الوقتِ .. وجدتُني جالسةً على مقعدٍ مجاورٍ لنافذةٍ مفتوحةٍ على الشرقِ .. فتذكَّرتُ اللغةَ والحياة .. واستعدتُ فصولاً من لقاءاتِ الشروقِ بين : « أملٍ وجهاد » .. لأنسَى مخارفَ الأسئلة ..

وأخيراً وُزعت الأوراقُ .. ثمَّ وُزِّعت الأسئلة .. وبصعوبةٍ قرأتُ ورقة الأسئلة .. إنَّها مكتوبة بلغةٍ عربيَّة .. وأعرفُ هذه الحروف .. لكنَّني قرأتُها عدَّة مراتٍ حتّى فُتِحَ ليَ بابُ الجوابِ .. وعندما فتِحَ لي البابُ ، طرِدتُ من القاعة لأنَّني استيقظت » .. فكيف تفسِّرُ رؤياي ؟

أخذتكِ موجةٌ من الضَّحك .. كسبَّاحةٍ متمرِّسةٍ بالسِّباحة ، إيماناً منها بالواجبِ التربويِّ الذي يمليه القولُ النبويّ : « علِّموا أولادكم السِّباحة .. والرِّماية .. وركوب الخيل » ..

وعندما أعادتك موجةُ الضحك إلى شاطىء الهدوء ، قلتِ : إن ما أريد تفسيره ، هو نصُّ الأسئلة من هذا النص الغامض : ما المشتقات فيه ؟ .. ما مواقع الجمل بين قوسين ؟ .. ما الشاهد ؟ .. !

كانت أعينُ الرَّفيقات والرِّفاق مشدودةً إلى كلماتِك .. تستعجلُك تذكر النصِّ .. وأكثر من رفيقةٍ حاولت أو تضربَكِ لتقولي .. ثمَّ أحجمت خوفاً على الحلُمِ اللغويِّ ..

وأخيراً قلتِ .. هذا ما أذكره مِن النصِّ :

« يوم الجمعةِ : عطلةُ الأسبوع ..

قصدتِ مزرعةً في الرِّيف .. فاستوقفتكِ نارٌ تسطَعُ من تنُّور .. وعندما اقتربتِ من النار .. رأيتِ فلاحةً منهمكة بين القصعةِ والميزر ..

القصعةُ مملوءةٌ بالعجين .. وهي آخِذةٌ من العجين مُتداوَل قبضتها ، أي بمقدارِ ما تستوعِبُ قبضتُها من العجين ..

كانتِ الفلاحةُ سعيدة الحركات .. تقرِّصُ عجينها بشكلِ كُراتٍ ، تنقلُها إلى الميزر .. فرِحةً بعملها لأنَّها تُعِدُّ خبزها النظيف لأفرادِ أسرةٍ شريفةٍ ..

كانت تمارسُ عملها برشاقةٍ تُشعِرُ أنَّ لكلِّ ثانيةٍ قيمةً .. نار التنُّور المشتعلةُ ، تهمَدُ رويداً رويداً .. وتتحوَّلُ إلى جمرٍ .. بينما هِيَ تقرِّصُ العجين .. ثمَّ ترقهُ حتى يتحوَّل أرغفةً .. تحملها « بِكارتِها » إلى جدران التنور ، والكارة « مخبَزَةٌ » تُعينُ اليد في عملها وتحميها من الحرارة .. وهي تدفعُ الأرغفة العجينيَّةَ إلى « المخبز » ، أي التنُّور ..

ما رأيتُ خبّازةً أمهرَ من تلكَ الفلاحة .. ولا شممتُ عطراً أطيَب رائحةً من ريحِ خبزها ..

دعتني لتذوُّقِ خبز حنطتها الأسمر ..

إنَّ لأوجه أرغفتها : لون الورد .. ورائحة أنفاسه ..

سألتني عن اسمي .. فقلت : ميَّةُ .. فعلَّقت : صدق ذو الرمّةِ عندما وصفَ حبيبته ميَّة بأوصافٍ تنطبقُ عليك :

ومَيَّةُ أحسَنُ الثقلين جِيداً وسالِفَةً وأحسنُهم قَذالا

فلم أرَ مثلَها : نظراً وعيناً ولا أمَّ الغزالِ ولا الغزالا ..

ولمّا سألتُها عن اسمِها .. قالت : سالمة ..

فلم أجِدْ في ذاكرتي ما أعلِّقُ به على اسمِ تلكَ الفلاّحة الخبّازة .. وداخلني شعور بالنقصِ أمام شخصيتها السّالمة من المخاوفِ والعقد .. لكنني أخفيت هذا الشعور بالالتفاتِ إلى خبزها .. وأخذتُ عضّةً من الرّغيف .. وقلتُ : إنَّ خبزَ التنور في الأريافِ أطيبُ من خبزِ الأفران في المدن .. وخبزَكِ يا سالمةُ أشهى من اللحم والعسل ..

ولكن .. وتردّدت بالسؤال .. فشجعتني نظراتُها .. وقلت : ولكن مِن أين لكِ ما تحفظينه من الشعر الجميل .. فأنتِ على ما يبدو : كالبدويات الشاعرات ..

وأغرقت سالمةُ بالضّحكِ قبل الإجابة ..
ولم أسمع منها جواباً ..

لأنَّ المراقبة سحبتِ الورقةَ من بين يديَّ .. وقالت : لقد انتهى الوقت .. » ..

هذا ما أذكرُه من الحلمِ اللغويِّ .. فكيف تفسّره لنا .. ؟ وكيف تمّت صياغةُ المشتقاتِ فيه ؟ .. وما هي مواقعُ الجملِ الإعرابيّة ؟ وما الشاهدُ في بيتيْ ذي الرّمة ؟

قلتُ : أنتِ تذكرين المشتقات السبعة ؛ فهي : اسم الفاعل ومبالغاته .. واسم المفعول .. والصفة المشبهة باسم الفاعل .. واسم الآلة .. واسم المكان ..

واسم الزمان .. واسم التفضيل .. وأنتِ تعرفين قواعد صياغتها النظرية : من الثلاثيِّ . ومن المزيد ... فكيف تستخرجينها من النصِّ ؟ !

قلتِ : يُصاغ اسمُ الفاعلِ من الفعلِ الثلاثيِّ على وزنِ فاعل .. ومن غيرِ الثلاثيِّ على وزن مضارعه المعلوم بإبدالِ حرفِ المضارعة ميماً مضمومةً وكسرِ ما قبل آخره ..

وصياغته ، أو صورة اشتقاقه هذه تدلُّ على من فعل الفعلَ على وجهِ الحدوث .. وعندما يريدُ الكُتّابُ الدلالة على المبالغة في معنى حدوثِ الفعلِ يُحوّلون اسم الفاعل إلى أوزانِ صِيَغِ المبالغةِ ، مثل : فعّال .. مِفعال .. فعول .. فعيل .. فعِل .. وقد يستخدمون أوزاناً سماعيّة أخرى ، مثل : مِفعَلْ .. فِعّيل .. مِفعيل .. فُعَلة .. فُعَال .. فُعّال ..

ويُسوون بين المذكر والمؤنث في بعض الصيغ ؛ مثل : فعول ومفعال ومفعل ومفعيل ..

هذه قاعدة اشتقاقِ اسمِ الفاعلِ .. أحفظُها مثلَ اسمي .. ولكنَّ المشكلة في التطبيق .. كيف أستهدي إلى اكتشافِها في مثلِ هذا النص ؟

قلتُ : المسألةُ مسألةُ انتباه .. نضَعُ القاعدة المقياس في ساحةِ انتباهنا .. ونقرأ النصَّ .. فتنادينا المشتقات نداء .. لأن كلَّ مشتقٍّ يتجاذب مع صِيغهِ الاشتقاقيّة ..

لاحظي جيداً ما ينطبق من كلماتِ النصِّ على قوالب اسمِ الفاعلِ ومبالغاته .

ألا ترين : فلاّحة .. منهمكة .. آخذة .. مشتعلة .. خبّازة .. ذاكرة .. سالمة .. شاعرات .. المراقبة ..

هذه الكلمات .. وردت في سياق النص .. وهي أسماء فاعل .. أو مبالغة لها . نرتبها حسب : الثلاثي .. والمزيد .. والمبالغة ..

آخذة .. ذاكرة .. سالمة .. شاعرات ..

هذه الكلمات : أسماء فاعل مشتقة من أفعال ثلاثية ، هي : أخذ : آخذ .. مؤنثه : آخذة .. ذكر : ذاكر .. مؤنثه : ذاكرة .. سلم : سالم .. مؤنثه : سالمة .. شعر : شاعر .. مؤنثه : شاعرة .. جمع شاعرة : شاعرات ..

منهمكة .. مشتعلة .. مشتعلة .. مراقبة ..

هذه الكلمات الثلاث : أسماء فاعل مشتقة من أفعالٍ مزيدةٍ على الثلاثيّ ، هي :

انهمَك .. يَنهمِكُ .. مُنهمِك .. الفعل خماسيٌ ..

اشتعل .. يَشتعل .. مشتعل .. الفعل خماسيٌ ، أيضاً ..

راقَبَ .. يُراقبُ .. مراقب .. الفعلُ رباعيٌ ..

أما : فلاّحة .. وخبّازة .. فقد أريد بهما مبالغةَ معنى حدوث الفعل الثلاثي .. فهما من فعلي : فلح .. خبز ..

فلح .. فالحٌ .. فلاّحٌ .. ومؤنثه فلاحة .. والمعنى الحسيٌ من كثرة تجديد الأرض .. والمعنى الفكري من كثرة النجاحِ في الأعمال ..

خبَزَ .. خابزٌ .. خبازة .. مخابزٌ : اسم الفاعل .. وخباز : مبالغته .. وخبازة : مؤنث خبّاز ..

قلتِ : إذا كان الأمر كذلك .. فإننا ننجحُ بالامتحان .. نحفظ القاعدة النظرية .. ونجتذبُ من النصِّ الكلمات المصاغة وفْقَ كلٍّ مشتقٍّ من المشتقاتِ السّبعة ..

وبالمنهج ذاته : نحدد قواعد الجمل التي لها محل من الإعراب ، وهي :

الخبرية •• والحاليــة •• والمفعولية •• والمضافة إلى الظرف •• والوصفية •• والتابعة لجملة لها محل من الإعراب •• والواقعة بعــد الفاء ، أو إذا ، جوابــاً لشرط جــازم ••

وكذلك نحدد الجمل التي لا محل لهــا •• ونستخرج موقع كل جمــلةٍ حسب المعنى ••

ضحك الرفاق والرفيقات ، وقالوا : إنك عرفت بهذه السهولة ؛ لأنك عشت الحلم اللغوي مع تلك « الخبازة » كما كان العرب يعيشون في بوادي اللغــة •• فكيف تتذوق خبز التنور كما تذوقتِــه ؟ !

البحث عن خبز عــربي

شغَلَتْ حكايَةُ « سالمَةَ وميَّةَ » جماعاتٍ من طالباتِ الجامعةِ وطلاّبها ••
وتحمَّسوا لزيارة « تنورِ اللغــة » في الرِّيف •• ليتذوقوا « خبزَ المشتقاتِ »
على الطبيعة •• ولعــلَّ تلكَ « الخبّازةَ الفلاحة » تخبزُ لكلِّ طالبةٍ « خبزاً
تنوريّاً » يليق باسمها ••

قالوا لميَّة : وأنتِ دليلُنا السِّياحيُّ بعد الامتحانِ ••

وقال واحدٌ من الرِّفاق : ما لَنا نسينا الامتحان •• وشغَلَنا حــلمُ ميَّة
بالأســئلة ••

قالت زميلتُه : أنا أفضّلُ اكتشافَ المشتقاتِ من نصِّ الحلُمِ قبل المشاريع
المستقبلية التي تتحدَّثون عنها •• وبعد الامتحانِ يخلُق اللهُ ما لا تَعلمون ••

قال زميل : نستمعُ إلى الحُلُمِ قطعةً قِطعةً •• لنتوقّف عند المشتقاتِ :
مشتَقّاً مشتَقّاً ••

قالت ميّةُ : ألا تذكرونَ كيف أخبرتكم ما رأيتُه على ورقةِ الامتحان ؟ ••
فأنــا لا أزال أذكــر أنّه يتضمَّن المشتقات جميعَها ؛ ففيه : اســمُ الفاعِلِ
ومبالغاتُه •• والصِّفةُ المشبَّهةُ به •• واسمُ المفعولِ •• واسمُ التفضيلِ ••
واسمُ الزمانِ •• واسمُ المكان •• واسمُ الآلة ••

قال زميل : نحبُّ الدخول في التفاصيل •• لنكتشفَ المشتَقَّ •• ولنتذكر
كيفَ اشتُقَّ من غيره •• ولنعرِفَ كيفيَّة عمله ••

قالت ميَّةُ : ماذا تجدون في المقطع الأول ؟

« يومُ الجمعةِ .. عطـلةُ الأسبوع ..

قصدتِ مزرعةً في الرِّيف .. فاستوقفتك نارٌ تسطَعُ من تنّور .. وعندما اقتربتِ من النار .. رأيتِ فلاحةً منهمكة بين القصعةِ والميزر . »

قالت إحدى الزميلات :

ألا ترونَ تعقيـداً في النصِّ ..وتداخُلاً بـين المشتقات .. ؟ .. فماذا تعتبرون هذه الألفاظ ، في سياق المشتقات : مزرعة .. ريف .. نار .. تنّور .. فلاّحة .. منهمكة .. قصعة .. ميزر .

قالت ميَّة :

لا أرى تعقيداً .. ولا تداخُلاً هذه هِيَ الحياةُ البسيطةُ .. الحيـاةُ وحدةٌ في كلِّ جزئيَّةٍ منها نجسُّ نبضَ الحياة جميعاً ..

والطريقُ إلى تبسيطِ الأشياء في تقسيمها ، كما يقـال .. وإذا عمدنا إلى ما ذكرته لنرى البساطة .. أخذنا منه ما يتعلّقُ باسم الفاعل ومبالغته .. أليسَ ذلك واضحاً وبسيطاً ؟

قالت زميلتها ، زهرةُ :

تَعنين الجملةَ الأخيرة : « رأيتِ فلاّحةً منهمكةً بين القصعةِ والميزر » .. ؟

فاسمُ الفاعل : منهمكة .. ومبالغةُ اسم الفاعلِ : فلاّحة ..

واسمُ الفاعل : يصاغُ من الثلاثي على وزن فاعل .. ومن غيره على وزن مضارعه المعلوم .. فنقول : همَكَ : هامك .. وانهمَكَ : منهمك .. فـلح : فالح .. أفلح : مفلح .. وعند المبالغة بالدلالة على محدث الفعل ، نقول : فلاح ..

لكنَّ المشكلةَ في عملِ اسمِ الفاعلِ ومبالغاته •• والمشكلةُ الأعظمُ في « القصعة والميزر » •• لأنَّها مشكلةُ الخبز •• وماذا نسمِّيها في إطار المشتقات ؟

ضحِكَ الرِّفاقُ والرفيقاتُ للغمزةِ الإشكاليَّة حول الخبز •• وقال الزميلُ ، زاهر :

لا أرى مشكلةً يا زهرَة ••

فاسمُ الفاعلِ ومبالغتُه يَعملان عمل فعلِهما المبني للمعلوم •• ولقيامِهما بعملِ الفعلِ صيغتان :

الأولى : حرَّةٌ من الشروط ؛ فإذا كان اسمُ الفاعلِ معرَّفاً بأل •• عَمِلَ عَمَلَ فعلِه ، دون شروط •• فكأنَّه الحبُّ تماماً •• فليس للحبِّ شروط ••

يقولون : الخبَّازُ المتقنُ خبزَه مشهورٌ بين الجماهير •• والآكلون بذوقٍ ،
يذهبونَ إلى المتقِنِ خبزَه •• ولا يأكلون من خبزِ سواه ••
فالخبَّازُ الخبزَ بإتقانٍ يجتذبُ بإتقانِهِ كما اجتذبَتِ الخبَّازة
القرويَّةُ سالمةُ •• زميلتنا ميَّةَ ••

فاسمُ الفاعل ، المتقِن : عمِلَ عَمَلَ فعلِه ؛ فنصَبَ المفعول به : « خبز » ، دون شرط •• لأنه معرَّفٌ بأل •• فقلنا : المتقنُ خبزَه •• وإلى المتقِنِ خبزَه ••

وكذلك مبالغة اسمِ الفاعل المعرَّف •• قلنا : الخبَّازُ الخبزَ بإتقانٍ جذابٌ ••فالخبزَ مفعول به لمبالغة اسم الفاعل الخباز ••

أليست هذه الصيغة المعرَّفة ، الحرَّة من الشروط ، واضحة ؟

أمَّا الصيِّغةُ الثانيَةُ : فمُقيَّدةٌ بشرطين :

الأول : تشترط باسمِ الفاعلِ المجرَّد من « ال » ، أن يَدُلَّ على الحال

أو الاستقبال لا على الماضي •• ليعمَلَ عَملَ فعلِه •• وفي « حلم ميَّة » مقطعٌ يقول :

« القصعةُ مملوءةٌ بالعجين •• وهي آخذةٌ ، من العجين ، متداوَلَ قَبضتها ؛ أي بمقدار ما تستوعِبُ قبضتها من العجين »

آخذةٌ : اسمُ فاعل ، دالٌ على حدوثِ الفعلِ بالحالِ ؛ لأن ميَّة رأت سالمةً تعمَلُ ذلك العمَلَ في حينه ••

ومتداول : مفعولٌ به لاسمِ الفاعلِ ، منصوبٌ بالفتحةِ الظاهرة •• وهو ، من حيث الصيغةُ الصرفيَّةُ ، اسمُ مفعوله ، كما سنرى ••

ثاني الشروط لإعمال اسم الفاعل المجرَّد من « ال » :

يُشترَطُ به أن يَعتمِدَ على سابقٍ لهُ •• وهذا السَّابقُ يكونُ : نفياً •• أو استفهاماً •• أو مبتدأ خبره اسمُ الفاعل •• أو موصوفاً صفتُه اسمُ الفاعل •• أو حالُه اسمُ الفاعل ••

يقولُ الناسُ عن خبزِ الأفرانِ في المدينة :

١ – ما مُنْضِجٌ الخبَّازونَ عَجينَ الآكلين ••
٢ – فهلْ ناوٍ رفاقُنا تحسينَ خُبزِنا •• ؟
٣ – إنَّ الإحسانَ مربِّح صاحبَه ••
٤ – وكم من إنسانٍ مُتقنٍ خبزَه •• لا يَنسى صنيعَه الناسُ ••
٥ – فقد جاءتِ الأخبار مشجعةً عن سالمة •• إن اسم الفاعل في هذه الأمثلة عمِل عمَل فعله ، مع تجرده من « أل » ؛ لأنه مسبوقٌ بنفيٍ في المثال الأول •• وباستفهام في الثاني •• وبمبتدأ ، هو : في الثالث •• وبموصوف هو صفته في الرابع •• وباسم هو حال منه في الخامس •• فهل تمت أحوال اسم الفاعل في الفرن أم في التنُّور ؟

قالت زهرةُ ، موجِّهةً خطابَها لميَّة :

هل تَظنين أنَّني اقتنعتُ ببساطةٍ ما تتحدَّثون حـوله •• فأنت تقولين : « رأيتُ فلاَّحةً منهمكةً بين القصعةِ والميزر » •• وزميلُنا زاهر ، يختمُ كلامَه بقوله : « فهل تمَّتْ أحوالُ اسمِ الفاعلِ في الفرن أم في التَّنور » ؟

فهمتُ ، تماماً ، ما تُريدانه للغةِ وللحياة ؛

فقـد أوضحتما ، بامتياز ، صياغةَ اسمِ الفاعلِ •• وشروطَ عمله •• من الوجهةِ اللغويَّة ••

وأوضحتما ، بامتيازٍ أيضاً ، واقعَ الخبزِ في كثيرٍ من أحياءِ المدنِ ؛ فمنه ما هو أقربُ إلى العجين •• لكنَّ ما يجبُ عملُه صار واضحاً ••

ما أريدُ تأكيدَه ، هو ، الغِـنى المتنوِّع في الجملة •• فمِن جملةٍ واحدة ، أثيرت مشكلةُ صياغة اسـم الفاعل ومبالغاتـه •• وشروطِ عمله •• « فلاَّحـةً منهمكةً » •• لكن انهماك الفلاَّحة بين « القصعة والميزر » يثيرُ سؤالاً حـول هـذين الاسمين : « القصعة •• الميزر » •• فما علاقتُهما بالعجينِ والخبز مـن الوجهة الاشتقاقية ؟ أليس الاشتقاقُ أخـذَ كلمةٍ من أخرى مع تناسُبٍ بينهما في المعنى وتغييرٍ في اللفظ •• ؟

فأينَ التناسُبُ اللفظيُّ بين العجـين وبين القَصعةِ والميزر ؟ •• وكذلك أسأل عن التناسُبِ اللفظيِّ بين الخبز وبين الفرن والتنور •• ؟

أليس في قواعدِ الاشتقاقِ ما يدلنُّا إلى كلماتٍ أنسبَ وأعربَ ؟

قالت ميَّة :

إنَّ القصعةَ صفحةٌ ، يُلَتُّ بها الطحينُ بالمـاء ، وتُفتُّ الخميرةُ ، في الطحين •• ويُدلَك دلكاً قويّاً باليدينِ ، حتَّى يتحوَّل معجوناً متماسكاً ••

يُفرزُ بمقادير قبضةِ اليد •• وتُنقَلُ تلك المفروزات إلى مكانٍ آخرَ غير القصعة ، يُسمّونه : الميزر •• أي مكان التمييز بين مقادير العجين ؛ وفي هذا الميزر تُرَقّ الأقراصُ قُرصَةً قُرصةً •• وتحوّل إلى مثل قرصِ الشمسِ باستدارتِها •• هذه القِطعُ العجينيّة المُقرّصة •• تَصيرُ رُقاقاتٍ •• وتُنقَلُ ، بعد ذلك ، إلى ضميرِ التّنور بعون « الكارةِ » لليد •• والكارة : هي الآلة المستخدمة لنقلِ الرُّقاقاتِ من الميزر إلى التنور •• ومعروفٌ أن التنّور هو تلك التجويفة الفخارية أو الترابية التي تُوقد بها النار لإنضاج العجين وجعلِه خبزاً •• والفُرن مثلُ التنّور من حيث الوظيفة ، وإن اختلفَ عنه شكلاً ••

قال زاهر : وما المشكلةُ التي تَبحثان عن حلّها ، أنتِ وزهرة •• إنّ الفُرن والتنور بمعنى واحدٍ ، فهما مكان تحويلِ العجين خبزاً •• ؟

قاتلزهرة : ولكن لا علاقة بين لفظيهما ولفظ الخبز •• فأين الاشتقاق ؟ وهل هُمَا من المشتقات ؟

قال زاهر : هما اسمُ مكانٍ للخبز ••

قالت ميّة : إنّ التنّور كلمة سريانية •• وإن الفُرن كلمة لاتينيّة •• وتعريبهما ، وفقَ المعنى الواقعيّ ،، ووفق الصّياغة العربيّة •• هو : المخبِز ••

لأن اسم المكان : يصاغ من الثلاثي ، المكسور العين في المضارع ، على وزن « مفعِل » والفعل : خبَزَ يخبِز مخبِز •• بينما يصاغ على وزن « مفعَل » إذا كان مفتوح العين ، أو مضمومَها ؛ مثل : ذهب يذهب مَذهب ••••

قال زاهر : الآن ، فهمت المشكلة التي تبحثانها •• وفهمت سرّ التعريب عن طريق الاشتقاق الرابط بين اللغة والحياة •• ألا يوجب ذلك أن نبحث عن سالمة على كل المخابزلنأكلَ خبزاً عربيّاً ؟ ! •••

مصباح

بين ريـاح التجدد

أثارَتْ عبارةُ زاهرٍ : زميلتيه ، زهرةَ وميَّة •• قال : « ألا يُوجِبُ ذلكَ البحثَ عن سالمةَ على كلِّ المخابزِ لنأكلَ خبزاً عربيّاً ؟

فقالت زهرةُ بلهجةِ الغيَّارة : وهل صدَّقتَ ميَّةَ وحديثَها عن سـلامة سـالمةٍ ؟

وأغضبَ الاتِّهامُ ميَّة ، فرفعَت صوتها بالقول : ومتى كنتُ أكذبُ في روايتي ؟ • •ولماذا أكذِبُ وسالمَة" فلاحة" قرويَّة" لا أعرفُها من قبـلُ •• ؟ وما قلتُ عن سلامةِ ذوقِها •• وسلامةِ لغتِها •• وسلامة خبزها •• إلاَّ ما خبرتُه بنفسي •• وهي موجودة" على مقـربةٍ من مدينتنا •• ويمكننا الذهـابُ إلى « تَنّورها » ، والتحدُّثُ إليها ، والتأكد من سلامةِ ما حدَّثتكم عن سـالمةَ « الخبَّازة » التي لم أذُقْ مثلَ خبزِها من قبلُ ، فهل تتفضلين معي يا آنسة زهـرة ؟

كانت لهجةُ ميَّةَ مثيرةً •• فاحتشـدَ الطلابُ والطالبات حول زملائهم : زاهر ، وزهرة ، وميَّة •• ليستطلعوا الخبر •• ولما عرفوا أنَّ النِّقاشَ يـدورُ حـول المشتقاتِ وحلم الامتحانِ •• رجوا ميَّةَ أن تهـدِّئ انفعالها ليفهموا ما سمَّاه زاهر : سرَّ التعريب عن طريق الاشتقاقِ في الربط بين اللغة والحياة ••

تحلَّقتِ الزَّميلاتُ حول ميَّةَ •• وكانت أعينُ الزُّملاء ترجو بالنظرات

أنْ تشرَحَ لهم حلم المشتقاتِ •• لأنَّها زارت تنور اللغة في الرِّيف •• وتذوقت خبز المشتقاتِ السَّالِمَ من النقصِ كسلامة خابزته الريفيَّةِ من العيوب ••

حدَّقتْ ميَّةُ بالعيون •• وتأمَّلت الوجوهَ •• فاجتذبها الجوُّ •• الرفيقات جميعُهن •• والرِّفاقُ جميعُهم •• يُحبونَ المعرفة السَّالمة النافعة •• وحتَّى زهرة ، شعرت بالحرجِ •• وأدركت أنَّ مصلحةَ الجماعةِ لا تُضيِّعُ من أجلِ شعورٍ خاصٍّ بالغيرة •• فتقدَّمت من ميَّة معتذرة •• ورجتها أن تعفوَ عن تسرُّعها •• وقالت :

« قصدتُ أن ينتبهَ زاهرُ لما يقوله •• فالمبالغةُ ليست دائماً ، حسنةَ الأثر •• » ••

فأنا مثلُه : فهمتُ من حلمكَ اللغويِّ •• كيف نفهمُ الواقعةَ كما هِيَ •• وكيف نشتقُّ لها اسمَ زمانٍ ، أو اسمَ مكانٍ ، أو اسمَ آلةٍ •• يتَّفقُ مع ما هو الواقعُ والحياة ، في مجتمعنا العربيِّ ••

لا أكتمُ أنَّني فهمتُ الطريقَ الأقومَ إلى اشتقاقِ الكلماتِ العربيَّةِ •• وإلى تصفيةِ لغتنا من كلماتٍ شائعةٍ غير عربيَّة •• فمكانُ الخبز ، في الشائع ، هو : التنورُ •• أو : الفرنُ •• والكلمتان غير عربيتين •• وتعريبُهما بصياغةِ اسم المكانِ من فعل « خبز » •• إن كلمة « مخبِز » أجملُ وألصقُ بالخبزِ •• فلماذا الكلمتان الأجنبيتان ؟

أثار حديثُ زهرةَ رفاقَها ورفيقاتها •• فقال واحد منهم ، اسمُه ، مِصباح :

ولكن كيف ألغينا « الفرن والتنور » من أجلِ « المخبز » •• ؟ فأنا لم أفهَمْ شيئاً من كيفيَّةِ الاشتقاقِ التي تتحدثون عنها ••

قال زاهر :

أيُّها الزَّميلُ •• كنتُ مثلَك ، في البداية •• لم أفهم شيئاً من حديثِ

الاشتقاقِ اللغويّ •• وكُنت خائفاً من امتحانِ المشتقاتِ •• لكنني فهمتُ كلَّ شيءٍ عندما أصغيت إلى إيضاح ميَّة •• ولم أعُدْ خائفاً من الامتحان ، بل صرتُ مشتاقاً إليه لأظهِرَ فيه سعادةَ فهمي ؛ فقد خلَّصني الفَهمُ من عُقدِ النَّقصِ والخوف •• وأنا أرى أن تفتح أذنيكَ وقلبَكَ لسَماع الحديثِ الجديد ممَّن زارت « تنور اللغة » •• وعرفت « خبز المشتقات » ••

قالت ميَّةُ ضاحكةً :

إنَّ زميلَنا لا يحتاج من يشرح له ، أو يضوِّىءُ له الطريقَ •• فهو : مِصباحٌ •• ومِصباحُ اسمٌ مشتَقٌ •• فمن أين اشتقَّ •• وما اسمُه بين المشتقات ؟ •• وهل يَعمَلُ عَمَلَ فعله الذي اشتقَّ منه ••

ضحكَ الرِّفاق والرَّفيقات للملاحظةِ •• وارتبكَ مصباح ، وقال : لا أعرفُ أن اسمي من المشتقات •• وأنا مختلف معكم جدّاً •• لأنَّ كلامكم غريبٌ وغامضٌ وغير واقعيٌ •• كيفَ يمكنُ أن يكونَ اسمي داخلاً في درس المشتقاتِ اللغويِّ ولم أكن في أيَّام سيبويه ، أو أيَّام ابن هشام ؟

كانَ بين الرِّفاقِ مَنْ يميلُ إلى موافقةِ مِصباح •• وكان بينهم مَنْ تعجَّبَ من بلاهتِهِ المتزمتة ••

لكنَّ ميَّةَ أحبَّتْ أن تجرِّبَ طريقتَها مع هذا النموذج أيضاً •• فالأذكياء ليسوا كلَّ الناس •• إن البلهاء أيضاً من الناس •• ورعايتُهم واجبٌ إنسانيٌ •• وإن كان بعض المربِّين يُفضِّلُ عزلَ الأغبياء والبلهاء عن الأذكياء والنابهين ••

قالت ميَّة :

ما أجمَلَ اسمَك يا مِصباح •• هل تعرِفُ أيَّ ذكاءٍ خارقٍ ألهمَ أمَّكَ وأباكَ أن يُسمِّياكَ : مصباحاً ؟ •• هل فكَّرتَ بفضلهما عندما اختارا لك هذا الاسم الجميل الذي يُوحي مَعانيَ عديدة ؟

واستلمَ الرِّفاقُ مِصباحاً •• فقالت زهرة :

إنَّ مِصباحاً يذكِّر بالصُّبح •• ومعناه : السِّراجُ ، أو القنديل •• ومن معانيه : السِّنان العريض •• والقدح الكبير الذي يُصطبح به أي يُتناوَلُ به الصَّبوح •• والصَّبوح : كلُّ ما أكِلَ أو شرِبَ صَباحاً •• ويقالُ : مصابيح النجوم ، أي أعلام النجوم ••

فتدخَّلَ زاهر ، وقال بلهجة المتهكم :

المِصباحُ : اسمُ آلةٍ •• هذا كلُّ ما يفهمُه منه الدارسُ الاشتقاقي •• راجعي كتب اللغة وستوافقين معي : أنَّ مصباح اسمُ آلةٍ فلا تبالغي بمدح مصباح ولا منفاخ ••

ضحكَ الطلاَّبُ والطالباتُ من إثارة زاهر لزميله مصباح •• وأخذتْ ميَّةُ موقِفَ الدِّفاعِ عن مِصباح •• فقالت :

لكن ما قلتَه يا زاهر •• لا يَغضُّ من قيمة اسم مصباح الجميل •• وأنتَ تعرف أن اسمَ الآلة يُشتَقُّ من الفعلِ الثلاثيِّ المتعدِّي على وزنِ آلةِ الفعلِ •• وهي : مِفعَلُ ومِفعال" ومِفعلَة ••

إنَّ الفعلَ الثلاثيَّ ، هنا : صبَحَ الناسَ يصبَحُهم ، أي قدِمَ إليهم صباحاً •• وأنتَ تعرف معنى الصَّباح الشروقي المنير •• وما به من حركة ونشاط ••

فمِصباح" : اسم آلةٍ لفعل المجيء المبكِّر المُنير •• ولو كان الفعلُ لتَناوُلِ الصَّبوح •• أو لنفاذ السِّنان •• أو لتألُّقِ النُّور ••

قال زاهر : لكن اسمَ الآلة لا يُصاغُ على هذه الأوزان وحدها •• فقد سَمِعَتْ صِيَغ" أخرى لاسمِ الفاعلِ ومبالغته ، تدلُّ على اسمِ الآلةِ ؛

كقولهم : كابح ، « للفرام » الذي يضبط السيَّارة مثلاً .. وكقولهم برَّاد وسخَّانة .. وساطور .. وقدُّوم .. وحِزام .. وضِماد .. فما رأيك أن نَطبِّقَ ذلك على مصباح ، فنقول : صابح ، وصبَّاح ، وصبَّاحة ، وصابوح ، وصبوح ، وصِباح ؟

قالت ميَّة : يَصحُّ أن تقولَ هذا .. ويَظلُّ الاعتبار لاسمِ آلةِ الفعلِ الدالِّ على المجيء المبكِّر المنير .. هذا من جهة .. من جهة أخرى تستطيع صياغةَ الآلات الشائعة وفق قاعدة اسم الآلة السالمة من المشكلات والاختلاطات .. ألا تستطيعُ القول (للفرام) : يكبح ، مكباح ، ومكبحة .. ويصحُّ من هذا دلالةً على استعمال اسم الآلة هذا ، هو قولنا : مِقود ، أو مقواد ، أو مِقودة .. لأن هذه الآلة تستعمَلُ للقيادةِ كلِّها ، وليس للكبح وحده .. وكذا يُقال بالنسبة لأسماء الآلات الأخرى ..

قالت زهرة : هناك أسماءُ آلة لا تجيءُ على أوزانِ الصِّياغة السابقة ، مثلُ : مُنخُل .. ومُكحُلة ..

قال زاهر : وما المانعُ من القولِ : مِنخَل .. ومِكحَلة .. ؟ إنَّ ذلك أفصحُ وأسلَمُ اشتقاقاً .. ؟

قالتزهرة سلْ سالمةَ على« تنور اللغة »..وتذوَّقْ معها«خبز المشتقات».. وستعلِّمك تعريبَ الكلماتِ الشائعة .. ونرجوك أن تخبرنا خبر « الكارة » عندما تعودُ .. لنعرفَ كيف تصيرُ اسمَ آلةٍ أفصح .. ما رأيُك ؟

قال زاهر : أنا أثقُ بسليقة الريفية سالمة ، ومقدرتها على اشتقاقِ ما تشاء من مشتقاتٍ تنسجمُ مع فعل الحياة الواقعيَّةِ ذاتِها .. أنتِ تعرفين أنَّ الكارة : اسم الآلة الذي تستعين به الخبازة للصق الأرغفة على باطنِ التنور .. ومثلها : السهم ، أو الشاحوط ، الذي يستخدمه الخباز لوضع الأرغفة في ضمير الفرن .. ولكن ألا ترين : أن « مِخبزَة » أجملُ من « كارة » .. وأن « مخباز » أدلُّ على آلة الخبز من السهم أو الشاحوط أو سواهما من الكلمات الشائعة .. ؟ .. أنصفي يا زهرة .. فالعدل أليَق بنا ... ؟

لتنظر بعيون أفعالك

كانَ مصباحٌ يتأمَّلُ وجوهَ رفاقِهِ وحركاتهم •• ويهتَزُّ لكلماتهم كما تَهتز شعلة شمعةٍ بين نسماتٍ خفيفةٍ ، تهجُمُ على الشعلةِ حتى الإطفاء وتتراجع عنها حتى الإذكاء ••

كنتُ أتأمَّلُ مصباحاً وأقرأ حيرته بين رياح التجدُّد •• وشجَّعته نظراتُ ميَّة •• وكلماتُها الحنونةُ ، وهيَ تشرَح اسمَه وتربطُه بالصَّباح •• وبالشروق المبكِّر المضيء ••

قليلونَ من المعلِّمين ، هـمُ المتمهِّلون •• أولئك يحنُّون على نفوسِ المتعلِّمين •• ويَصبرون عليها •• ويتعاطفون مع عواطفها ويدركون عذابَها وهي تحاوِلُ انسجاماً مع رياح التغيُّر •• هؤلاء يصبرون ويعرفونَ عـذابَ براعمِ الورد وهي تمزِّق أكمامَ الصَّمتِ لتفصِحَ عن لونها وطيبها ••

كذلك كانت ميَّةُ تنتظر مصباحاً وتنظر إليه •• إنها بعد « حلمِ التنّور » ارتأت رأياً جديداً في التعامُلِ مع الآخرين ••

قالت لمصباح •• وهي تراقِبُ أعين الرَّفيقات والرِّفاق :

كيف ترى وجهَك أيُّها الزميل ؟

فقال مصباح : عندما أنظـر إلى المرآة ••

قالت : ونحن مرايا لك •• وبآرائنا حول اسمك ومعناه ترى صلته اللغوية بالمشتقات والاشتقاق ؛ فهو اسمُ آلةٍ تدلُّ على أداةِ فِعلِه صبَح ••

وابتسمَ مصباحُ ابتسامةً تترجَّح بين البلاهـةِ والسرور •• لكنه ودَّع بها تزمته •• وانطلَق بالكلام ، فقال :

أتصوَّر أنَّني عرفتُ اسميَ بعد حواركم حـول معناه •• وفهمتُ كيف تحيا المعاني بالألفاظِ الميتة •• لم يكن رفيقي زاهرٌ مخطئاً عندما قال : « إنني اسمُ آلةٍ وحسب » •• صحيحٌ كان لفظ مصباح بالنسبة لي « آلة » يحرِّكني بها من يناديني فأستجيبُ لندائه •• لكنني لم أكـن على انسجامٍ مع مستوى اسمي •• فمصباح : اسمُ آلةٍ •• واسمُ الآلة يدلُّ على آلةِ فعله •• لكنني لم أكن دالاًّ على ما يعنيه فِعلُ « صبح » ••

أمَّا اليوم ، بعد حوارنا •• بل بعد حواركم ، ولو كان قاسيَ السخرية ، فقد أحسست أن رياح التجدُّد هزَّتِ العلاقة بين اسميَ ومعناه •• أحسستُ أن قناةً شُقَّتْ بين اسمِ الآلةِ مصباح •• وبين دلالةِ فعله « صبَح » ••

كأنني أحلُم قبيل الفجرِ •• بثغرِ نجمةِ الصبح •• أو بولوجِ « أجمةِ » الشرح •• لقد شُرحَ صدري لفعل اسميَ المنير •• وتبدو لي المشتقاتُ كقامات السنابلِ والزنابق تنهض من فعـل اسمي « صبح » •• أتريدون التأكـد من تجـدُّدي ؟

أستطيع أن أبرهن صلة حروفي بالمشتقات جميعها : اسـمَ فاعل •• واسمَ مفعول ، وصفةً مشبَّهة ، واسم تفضيل ، واسمَ زمان ، واسمَ مكان ، واسـمَ آلة ••• يا ألله لماذا لا نكتشف الأسرار وهي فينا ؟

كانَ وجهُ ميَّةَ يتألَّقُ فرحـاً لنجاح تجربتها التعليميَّة •• وراحت تثني على مواهبِ مصباحٍ وتذكُّره بأصول اشتقاق المشتقاتِ •• وتمهِّدُ له ليُطبِّقَ تلكَ الأصول على فعل اسمـِهِ •• فقالت :

كنتُ واثقةً ، من البداية ، بكَ يا مِصباحُ •• فالقول المعروف : « لكلٍّ

من اسمِهِ نصيب » صحيحٌ إلى حدٍّ بعيد •• وهاهو صباحُ اسمِكَ يُشرِق في ما تشتقه منه ، متحرِّراً من أمثلةِ سيبويه وعلماء الصرف الآخرين ••

قال مِصباحٌ متحمِّساً :

تذكَّرتُ بفضلِ حماستكم درساً سليقيّاً ، قالتــه لي أمِّي عــن حروفِ اسمي •• وركمت الدروسُ والأيامُ ذلكَ الدرسَ •• أمَّا درسُ الأمِّ الذي أزلتم الرُّكامَ عنه فيتعلّقُ بحروفِ اسمي •• قالت أمي ••

يا مِصباح : أنا سميتُك مصباحاً لتنظُرَ بعيون أفعالك •• فاسمك : مشتَقٌ من صبَحَ •• وصِيَغُ هذا الفِعل :

١ – صبَحَ يصبَح صَبْحاً : أي جاءَ مبكِّراً مع نور الصُّبح ••
٢ – صبِحَ يصبَح صَبَحاً وصُبْحَةً ، أي كان وضيئاً لامعاً ••
٣ – صبَح عن الحــقِّ يصبَح صَبْحاً : أي بيَّنَه ••
٤ – صبُح الوجه يصبُح صباحة : أي أشرق وأنار ••
٥ – أصبَحَ المصباحَ : أي أسرجَه •• والمصباح : السراج ، أو القنديل••

٦ – وأرجو أن تصبحَ ، مثلَ اســمك ، مبكِّراً ، لامعــاً مبيناً •• هذه عيون فعلِك فانظر بهــا •• وشقٌّ لحياتِك وحياة غيرك مشتقات الإنارة ••

فاسمُ الفاعل من فعلك :صابِح •• وهذه الصِّيغةُ تشتَقُّ للدلالةِ عليك عندما تُحدثُ فعل الصُّبح •• أي عندما تضيء ••

والصابحُ رفاقَه مشكورٌ يا مصباحُ •• أصابحٌ أنتَ رفاق المستقبل ؟

اسمُ المفعول من فعلك : مصبوحٌ •• وهــذه الصِّيغةُ تشتقُّ للدلالةِ عليكَ عندما تتلقى فعلَ الصُّبح •• أنتَ مصبوحٌ عنــدما تَصبَحك نجمةُ الصُّبح •• عازفةً ألحانَ البكور على نافذة بيتك ••

كأني أراكَ مصبوحةً ذاكرتُك بين الرِّفاقِ أمُصبَحٌ مستقبلُك بالتعاوُنِ يا مِصباح ..

والصِّفةُ المُشبَّهةُ باسمِ الفاعِلِ من فِعلكَ : صَبيحٌ وصُباح .. والفعلُ ، هنا ، صبُحَ يَصبُحُ صباحة .. بمعنى صار جميلاً .. أو مشرقاً ومنيراً .. وهذه الصِّيغة تشتقُّ للدلالةِ عليك عندما تتصِفُ بالفعل على وجهِ الثبوت ...

والصُّباحُ وجهُه كالصبيحةِ الوجهِ .. كلاهما صورة جمالٍ جاذبة .. فكن صبيحَ الوجهِ وصُباح الروح يا مصباح ..

واسمُ التفضيل من فعلك : أصبَحُ .. وهذه الصِّيغةُ تشتق للدلالة على امتيازك في منافسة غيرك بفعلِ الصُّبح أو الصَّباحة ..

أنتَ أصبَحُ من سواك ..إذا سبقتهم بالبكور .. فحييت نجمَةَ الصُّبح : ثغراً وأجمَةً .. فهل أنتَ أصبحُ ممن ينهضون لرياضةِ الصَّباح أم همُ أصبحُ منك ؟

واسمُ الزمان والمكان من فعلك : مَصبَح .. وهذه الصِّيغة تشتق للدلالة على زمان فعلك ومكانه .. فهل تَصبَحُ أبناء جيلك ؟

أما اسم الآلة من فعلك ، فهو : مصباح .. وهذه الصيغة تدل على فعلك .. وكم أتوق إلى مستقبل استعمالك لهذه الآلة يا « مصباحي » ؟

هذا درس أمي حول اسمي .. فكيف أيقظتم سليقة الأم بي ؟ ..

كانَ الرِّفاقُ والرفيقاتُ مندهشين لفصاحةِ مِصباح وبلاغته .. وكانت ميَّةُ أكثر اندهاشاً .. لكنها لم تقُلْ شيئاً .. فقد سبقها زاهِرٌ إلى القول :

وكيف نسيتَ سليقة الأمِّ اللغويَّة ، بعد هذا الوضوح والدقَّة ؟

قال مصباح : لقد خوّفني معلّمو اللغــة الذين مرّوا في حياتي •• لكثرة انتقاداتِهم وتكهماتهم •• كانت أعصابي ترتجفُ من الخوف عندما يبدأ أحدهم التهكم من زميلٍ لنا •• وفضلتُ الصّمت •• ومع الأيام صار خوفي عــادة •• بل صرت مقتنعاً بأنهم وحدهم يعرفون اللغــة •• وبأنّ أحداً سواهم لا يمكنه أن يتعلم النطقَ الصحيح •• أو التركيب السليم ••

كنت أتظاهر بالقناعة أوّلاً •• ثمّ فجأة صرت مقتنعاً معهم •• بل صرتُ متعَصّباً لآرائهم •• وصرت أعتبر تأتأة أحدهم كأجملِ لهجةٍ في العالم •• بــل صرت أحسب رطانة آخرَ منهم موهبةً عليا •• وصار شبهُ الأخرس فيهم يبدو لي وكأنّه يحسِنُ الخطابة بمئاتِ اللغات ••

صرتُ كأبي نواس في حــالة سكره ، فقــد صرّح أنّه كان يرى الديك حماراً •• وأنا زاغت أمام فهميَ الأشياء •• وصرتُ متزمتاً مع معلّمي التزمت •• وقبلت بكلّ شيء إلاّ بوجودي •• هم أرادوني ملغيّاً •• وقبلتُ ذلك •• بــل تحمست لرأيهم •• ورأيتُ ما يرونه •• وسمعت ما يسمعونه •• فقــد أغمضوا عينيّ •• وسدوا أذنيّ •• وخدّروا عقلي وقلبي •• حتّى صرتُ أشبهَ بالأنعام : لي قلبٌ ولا أفقــه به •• ومحظورٌ على قلبي الخفقانُ بغــير نقراتِ أفكارهم المجمّدة •• ولي عينان ولا أبصر بهما •• ولي أذنان ولا أسمَعُ بهما ••

لقــد ركموا ينابيعَ السليقة عندي ••

لقد وأدوا فطــرة الله التي حاورتها أمّي وخاطبتها بتلك البَساطة السحريّة الأخّاذة ••

يا ألله •• ما الذي جرى ؟

كيف كنت نائماً : فأيقظني حواركم ؟ •• كيف كنت ميتاً فأحياني الاختلاطُ بكم ؟ •• وكيف استطعتم إحضارَ صوتِ أمّي إلى ذاكرتي •• لقــد أحدثتم معجزةً في حياتي •• لن أعود إلى قبر التزمتِ مرّةً أخرى •• لقد حرّرتموني

من الخوفِ الذي زرعوه •• لقد بصرتموني بالصِّراط المستقيم إلى اللغة والحياة ••

وكفّ مِصباح عن الكلام بشفتيه •• لأن عينيه أخذتا بالبيانِ عن تأثّرِه بما همرتاه من الدّموع ••

وأسرعَتْ ميّة لتغيير جوّ التأثّر •• فقالت :

لقد ذكّرني مِصباح بسالمة •• عندما كان يتحدّثُ عن عيونِ الفعلِ وعمّا يشتقّ من صِيَغِ فعلِه •• تخيلت أنني على « تنّور اللغة » وكأنني أتناول « خبز المشتقات » من تلك الفلاحة الخبازة ، سالمة •• حسبت أنني أسمعُها وهي تعلّق على اسمي بقول ذي الرمة :

وميةُ أحسَنُ الثقلينِ جيداً وسالفةً •• وأحسنهم قذالا ••
فلم أرَ مثلَها نظراً وعيناً ولا أمّ الغزالِ ولا الغزالا ••

فكرت لحظة بشاهد اسم التفضيل « أحسن الثقلين ••• وأحسنهم » •• لكنني فضلت الاستغراق بالتخيّلِ •• كأنما كنت أسمع صوت « سالمة » من نبرات صوتك يا « مصباح » فلماذا لم تقل لنا : إنك ابن سالمة ؟ ! فلم أرَ مثلَها نغَماً وصوتاً •• ولا ذوقاً •• ولا كرماً ولطفا ••• !

* * *

مفاتيح التصويب والتعريب

مقصدُ علم المعاني : معرفة أسباب التفاضل بين نظم ونظم •• وأدلة معرفة الإعجاز في نظم القرآن : هي معاني النحو ؛ فما هي تلك المعاني ؟

خذ مثلاً « أحوال متعلّقات الفعل » ؛ وتأمّل مباحث الجرجاني والسكاكي والقزويني فيها •• فماذا أنت واجد غير التحريض على معرفة أسباب تقدم المفعول به على فعله أو حذفه ، أو ما يقابل ذلك من تأخره أو إثباته •• ومع ذلك : لا نجد شفاء في هذه التحريضات ، ولا تُعرفُ فيها طبيعة التعدي واللزوم ••

لذلك دفعت مثالاً عملياً لإتمام التجربة المرجوة لتحريضاتهم ، وهي : مواجهة معاني النحو في الفعل وتعديه وعمل مشتقاته بما يُتم وظائفه •• ولم أفترض التجربة افتراضاً ، بل أخذتها من وسطها النحوي ؛ فمادتها من برنامج سابق لنا : أذيع بعنوان « اللغة والحياة » ؛ وهذه المادة المقدمة هنا : أخذت من مستوى القصص اللغوي ؛ وقد جاءت قصة الفعل وقصة مشتقاته بأسلوب طبيعي : فيه السرد والحوار •• وفيه الأسلوب والإثارة ، وقد مررنا بالحلقات الخمس مروراً معيناً ؛ فماذا فهمنا منها لمعاني النحو ؟ •• وكيف يمكن أن تدلنا هذه المعاني بنظريتها إلى تلمس الإعجاز في التأليف الجليل ؟

نستعيد العناوين بالتسلسل ، فهي :

هذه العناوين الأدبية تمثل كلمتين بأسلوبنا الصارم المدرسي ، هما : « الفعل ومشتقاته » .. لكن الكلمتين تستدعيان معاني العناوين الأدبية : لمن يريد اتخاذ معاني النحو إلى دلائل الإعجاز ، أو إلى المستوى الأعلى للنظم ؛ لأن الفعل مثل البحيرة : لما له من طاقة معنوية تتفتح في عديد من الصيغ التوليدية ، صرفاً وفقهَ لغة ومَعْجَمةً .. لذلك كانت البحيرة المصاحبة له : دقيقة الدلالة على معناه .. وحتى لا يظل المعنى عاماً غير معلوم الجهة : فقد خصص بإحدى بحيرات الطبيعة المألوفة لأهل البلاد المعنية بالخطاب ؛ فهي : بحيرة بردى ؛ وإنما هي البحيرة المنطلقة مع معنى الوشاح ؛ والوشاح : يعني قلادة تقدير تزين صدر من يحمل الوشاح ؛ وهذا التعبير : « وشاح بردى » ماذا يعني ؟ ألا يعني استحقاق بردى المقدَّرَ لأفضاله على دمشق ، التي هي « هبة بردى » كما يقال لمصر « هبة النيل » ..؟.. كأن بردى الممتد بفروعه السبعة بأحضان دمشق : يتشح ببساتينها وقصورها ونشاط الحياة فيها .. وكأن هذا الوشاح يساوي البحيرة نفسها ؛ لذلك عطفت عليه « وشاح وبحيرة » ؛ وما بعدهما « بردى والفعل » ؛ وبهذه الصورة تتجلى طاقة الفعل مثل طاقة النهر : تلابسُ الفاعل رفعاً وتلابسُ المفعول به نصباً ...

هذه المعاني النحوية : تتفتح في التعبير الأدبي ، الذي انتهض بالتصوير البلاغي ؛ فقام بردى : بَطَلاً يتقلّد وشاحاً .. وسار الفعل بموكب أسطولي ، أو بنزهة زورقية فوق بحيرته ؛ فكأن بردى منتصر بحرب ؛ وكأن الفعل محتفل بعيد أو بعرس ..

لعلَّ محسنَ الإصغاء : يقتنع قبل القصة بضرورة إيجاد مثل هذا الوشاح لتكريم المحسنين بدلاً من الأوشحة التي لا تعني معاني الخِصب التي يحملها بردى الوفيُّ لمدينته التي لا يفارقها ولا يهاجر منها بأي فرع من فروعه السبعة : مثله في ذلك مثل المشتقات الفعلية التي لا تهاجر من فعلها ، بل تشق الطرقات بينه وبين كل الجهات ..

قد تنفتح نوافذ الفهم إلى الدلائل الرمزية الجامعة بين الفعل والماء : باعتبار الماء في صميم كل حي ومتحرك ... وقد يزيد الرمز انفتاحاً : تقدم الفهم خطوة

أخرى حيث « تنور اللغة وخبز المشتقات » ... هل لفحت نار التنور وجوه الأرغفة ، أم ذكرت بقيم النار الحضارية .. ؟ .. أم أنها زملت المعنى بالطباق بين ماء بحيرة ونار تنور ؟ !

« ترتيبُ المعاني : هو المطلوب في حديث الإعجاز » ، كما يقول الجرجاني .. لكن ترتيب المعاني في الجملة لا يحبس في الأمثلة الميتة التي تكرر مع « زيدٍ وعمرو » ؛ إنما ينطلق في أمثلة الحياة الدافقة من مقتضى حال الأعمال الإنسانية المشهودة الوقائع في « النار والماء » وعلى « المخابز والمنابع » ..

إن معاني العناوين الأربعة (٢ – ٥) : تبعث مقاصد علم المعاني من معالجة قضية من قضايا « النحو والصرف » ، تعالج فيها صياغة المشتقات من الفعل ومواقع الجمل من الإعراب في فصل من قصةِ « صناعة الخبز » .. وهذه المعالجة : تدور في واقع الحياة اليومية ؛ لأن الخبز : مسألة العيش اليومي .. ويفاجىء الواقعُ انتباه الطلاب المتحاورين : فيرون أن خبزهم اليومي خاضع لظروف وتسميات غير عربية ، ولا تجانس خبزهم اليومي ؛ فما علاقة « التنور أو الفرن » بالخبز ؟

إن معالجة المشتقات الفلعية السبعة .. ومحالّ الجمل من الإعراب : لفتت الانتباه إلى مسألة اشتقاقية جذرية ، وهي مسألة التسميات المشتقة من الحياة ؛ فالفرن : تسمية ، لا تينية الأصل ، لمكان صنع الخبز .. والتنور : تسمية سريانية للمسمى ذاته .. فلماذا لا يسمى هذا المكان تسمية ظاهرة الصلة بالفعل الذي يجري فيه ، وهو فعل « الخَبز » ؟

إن قاعدة اشتقاق اسم المكان من فعله معلومة ؛ ووزنه : « مفعِل » ، إذا كان ثلاثياً مكسور العين في المضارع ، مثل « خَبَزَ يخبِز » .. وتكون التسمية الناشئة لمكان فعل الخبز ، هي « مخبِز » بدلاً من التسميتين اللاتينية والسريانية.. وبهذه التسمية الجديدة : يُقوّم التعريب خطوط الصلات بين الفعل العربي وملابساته السبعة التي تسمى المشتقات : اسم مكان ، واسم زمان ، اسم فاعل ، وصفة مشبهة به ؛ اسم مفعول ، واسم آلة ؛ واسم تفضيل .. وبهذا التقويم

اللغوي : يقوي الحسّ الحيويّ بالعروبة ذاتها ؛ لأن « اللسان ذو دور فعال في بناء الإنسان » ، كما هو معلوم في قواعد التربية النفسية والمجتمعية والفكرية •• ألا تظهر بلاغة معاني النحو في هذا الاشتقاق ؟

مثل هذه البلاغة المعنوية : تظهر في تعريب التسميات الملابسة للفعل العربي ملابسة واقعية في الحياة ، كما تظهر في وظائف الجمل المؤداة في مواقعها الإعرابية من بناء الكلام ، أو نظمه ، أو تأليفه ••• وبمعرفة الدلائل المعنوية لهاتين المسألتين « مسألة المشتق المفرد ، ومسألة الجملة المؤولة إلى مفرد » : تعرف أسرار من بلاغة ترتيب المعاني في الجملة ، ومن ترتيب الجمل في الكلام المؤلف بصورة من صور الأجناس التعبيرية •• ألا يَستحق هذا المقصد اجتهادَ الباحثين عن خبز عربي ، كما ختم « زاهر » محاورة الحلقة الثانية ؟ !

نلاحظ جملة زاهر في البحث عن خبز عربي ؛ لنرى ترتيب معانيها :

« وفهمتُ سرَّ التعريبِ ، عن طريق الاشتقاق الرابط ، بين اللغة والحياة »••

الكلمة الأولى : ضمت الفعل والفاعل ؛ أي المسند والمسند إليه الضمير المتصل « فهمت » ؛ فهي جملة مفيدة ؛ وترتيب ركنيها : طبيعي مألوف ؛ فالفاعل اتصل بفعله اتصال توالٍ ولابسه ملابسة ارتفاع بني عليه •••

الكلمة الثانية : سرَّ ؛ وهي المفعول به ؛ وقد لابست الفعل ملابسة انتصابٍ به ؛ وهي كذلك في موقعها الترتيبي الطبيعي ؛ لم تقدم على فعلها ، ولم تقدم على الفاعل ؛ لأنها مرتبطة بما بعدها ارتباط إضافة •• فهي مضافة ؛ والكلمة الثالثة : مضاف إليها « سر التعريب » ••

الكلمة الرابعة : « عن » ، وهي حرف جر ؛ والكلمة الخامسة بعدها : مجرورة بها ؛ « عن طريق » •• والكلمة السادسة مضاف إليها ، « عن طريق الاشتقاق »•• والكلمة السابعة : واصفة لسابقتها ، « عن طريق الاشتقاق الرابط » •• وشبه

الجملة : متعلق بالفعل ، ويمكن القول : فهمتُ ، عن طـريق الاشتقاق الرابط : سرَّ التعريب •• لكن الترتيب الأول : أبلغ ؛ لأن بلوغ سر التعريب هو الغـاية ، بينما « طريق الاشتقاق الرابط » وسيلة ••

الكلمة الثامنة : « بين » ، وهي ظرف مكان بالمعنى ؛ وما بعدها مضاف إليه ومعطوف عليـه •• وهي في محل نصب مفعول فيه متعلق بالفعـل « فهم » •• ويمكن القول : فهمتُ ، بين اللغـة والحياة : سرَّ التعريب •• أو فهمت ، عـن طريق الاشتقاق الرابط ، بين اللغة والحياة : سرَّ التعريب ••

إن تكوين الجملة : يقـدم لمعاني النحو بناءً مرِناً ؛ لأنها مركبة من أربع طبقات ؛ الأساس : وفيه المسند والمسند إليه « فهمت » ••• والمفعول به والمضاف إليه « سرَّ التعريبِ » : وفي هذه الطبقة يكتمل التأليف اللغوي بنيويّاً ؛ فالفاعل وما يتعلق به ، فاعلاً ومفعولاً ، صار موجوداً ؛ وزيد عليه التضايف بين « السر والتعريب » •• وبهذا التضايف : اكتسب المعنى جهة اختصاص ؛ فلو قال « فهمت سرّاً » : لكان البناء تامّاً ؛ لكن المعنى لا يسلِّم السامع جهة السر ؛ فقـد يكون : « سر الطب » ؛ أو سر الهندسة ؛ أو سر الرياضيات ؛ أو سر الحقوق ؛ أو سـر اللغـة •• إلى آخـر ما يمكن احتماله بعد السر ••• فالإضافة : ليست مسألة إعرابية في مستوى الجـر بالإضافة ؛ بل هي مسألة معنى يتجلى بالتخصص الواضح الصريح ••

في الطبقة الثالثة من بنـاء الجملة « عن طريق الاشتقاق الرابط » : تظهـر مسألة التعليق بالحرف ؛ وحروف الجر : ذات شـأن لمعاني النحو في سياق النظم البلاغي ؛ وتظهر قـوة التأثير الجار بثلاث كلمات لكل منهـا دلائل اختصاصه ؛ مجروراً بالحرف ؛ ومضافاً إليـه ؛ وصفة لموصوف مجرور •• والثلاثـة : تمثل دوائر واسعة في هيكل النحو ؛ دائرة الخفض بالحرف وبالإضافة ؛ ودائرة الاتباع وهي ملابسة لما تتبعه في أحوال الحركات والسكون •• نعتبر هذه المعاني المحضرة : دلائل لاهتمام النحاة بشبه الجملة •• وشبه الجملة : نوعان ؛ نوع يتعلق بالحرف ؛ ونوع يتعلق بالظرف ، وهو ما تقدمه لنا الطبقة الرابعة لجملة زاهر •• « بين اللغة

والحياة » •• ويمكن تقـديم الجملة على الفعل ؛ ألا يقال : عن طريق الاشتقاق الرابط بين اللغـة والحياة : فهمت سرّ التعريب •• ؟

إن معـاني النحو : تتيـح للبلغاء فرصاً عـديدة لتصوير « ما يتخلج في صدورهم » تصويراً يطابق مقتضى أحوالهم في تلك التخلجات ، كما يقول الإمام زين العابدين (ع) •• وأمرن الأدوات المساعدة للتعبير : أشباه الجمل ، والتوابع ، والمعمولات ؛ وكلها من متممات الجملة ؛ أو الفضلات المزادة والمتعلقة بركن المسند من أركانها •• وهذه المرونة في اللغـة : تحتاج مرونة في الإنسان نفسه ؛ ليتمكن من مسايرة « التخلجات المعنوية » التي تحرك خلجان إحساسه باستمرار ••• وهذا المعنى الذي نستدرجه إلى النفوس ، أو نستدرج مقـامات النفس إلى معارجه : ليس إلا لسادة نفوسهم ، أذكياء المشقة ؛ أما قال المتنبي « لولا المشقة ساد الناس كلهـم » ••• ؟

الحلقتان اللتان تلتا جملة زاهر : تظهران المواسم المشتقة من حقول المشقة في تجربة التعليم المثيرة ، التي جربتها بطلة القصة « مية » على زميلها « مصباح » •• وشاركها في هذه البطولة : زاهر وزهرة •• وجماعة غفيرة من طلاب الجامعة في أيام اهتمام بالامتحان •• وقد يكون العنوانان مُنبئين ؛ فهما : « مصباح بين رياح التجدد •• لتنظر بعيون أفعالكَ » •• لكن الدخول إلى ساحة التجربة وحضور المعركة : يمنح الداخل الحاضر من معاني النحو في بلاغة بناء الجمل مِنَحاً تختلف بحسب درجة انتباهه ومقتضى حـاله ••

إن كلمات مصباح الختامية : من طيبات الدلائل إلى أسرار الإعجاز •• ومن أطيب أنواع الخبز الحماسي الذي يوزعه من كان أعمى : فأبصر •• وكان مقعداً : فقـام على ساقين سليمتين •• ألا يحـق له الغناء لبحيرة الفعل وتنور اللغة ؟ •• أليس لنا أن نسأل : ومن يستحق « وشاح بردى » على صدره •• وخبز المشتقات لجياع بنـاته وبنيه ؟ !

هـذه قصور على البحيرة ومخابز : من معـاني النحو •• فكيف نُقصِرُ الإسناد والتعليق ؟

أحـوال القصـر

أ – طُرُقُ القصر من رباعية « المرتجى »

ب – من أسلوب الجرجاني « لا وإنما » ..

جـ – من معاني النحو في مسرح اللغـة والحياة

١– ـ العيادة اللغوية في أراجيح الحرية (٣٧)

٢ – عِمارةُ الجُملِ بين المنطق والإلهام (٣٩)

قُلْ : إنما أنا بَشَرٌ مِثلُكُم ، يُوحَى إليَّ ؛

أنَّما إلَهُكُم إلهٌ واحدٌ .. (الكهف : ١١٠)

دَبِّرِ المـدَّ فذو الفضل قـديرُ

إنَّ ذا القـرنين بالحسنى يـدور

لحظةَ الغمرِ .. كريماه .. مُذيعٌ

وربيـعٌ .. ألفَ ألفٍ يستديرُ

إنما أنتَ سـعيدٌ .. مُستطيعُ

كانَ أوحى : أنما البَرَّ سـريعُ

مكِّنِ الـروحَ بفردوسِ خبـيرِ

يا نصيري .. إنما أنتَ البـديعُ

١٩٨٧/١٢/٩

القصر : تخصيصٌ وإلزامٌ ؛ بالتقديم ؛ وإنما ؛
بالعطف ؛ وبالنفي والاستثناء ..

رباعية المرتجى وطـرق القصر

القصر : من أساليب تتبع أحوال اللفظ العربي لمطابقة مقتضى الحال ؛ وأحوال القصر : أبنية" فنية مخصصة لإحضار ما يخص المخاطب أو المتكلم أو الموضوع •• وهذه الأبنية يسمونها : طرق القصر ؛ وهي طرق معلومة في النحو ، مثل : العطف ، وهو من التوابع المعلومة : توكيداً ، ونعتاً ، وبدلاً ، وعطفاً •• ومثل : الاستثناء والنفي ؛ والاستثناء من مسائل المستثنى بإلا أو إحـدى أخواتها وما يرافق ذلك من مقتضيات معاني النحو الاستثنائية •• ومثل : إنما ؛ وهذه الطريقة المعنوية : تقع في معـاني النحو التوكيدية ، مع « إن » ومواضعها وما يتعلق بوظائفها •• ومثل : تقـديم ما حقه التأخير ، ومنه ما رأيناه مع « أحوال متعلـّقات الفعل » ، كتقديم المفعول على معموله الفعلي بقوله تعـالى « إياك نعبد وإياك نستعين » ؛ وحق البناء المألوف : نعبد إياك •• ونستعين إياك ••

هذه البنى الأسلوبية : تسعى لمطابقة مقتضى الحال ، عنـد المخاطب الذي يتوجه إليـه المتكلم بخطابه •• أو عنـد المتكلم نفسه •• أو في رسالة الخطاب الموضوعية •• وأتم صور القصر ما اتزنت بنيته اتزان مطابقة مع الثلاثة : المتكلم ، والمخاطب ، والموضوع •• وبالممارسة تتضح أصول الأحكام ؛ لذلك نعمـد إلى أمثلة تظهر تعاون البلاغة والنحو في تأدية الرسالة البيانية المؤثرة ••

نأخـذ من رباعية « المرتجى » : ما يصح مفاتيح دخول إلى أربعـة أبواب « القصر » ؛ وهي :

إياكَ نعبدُ •• إنما أنتَ الرَّجا ••

لا ربَّ إلا خـالقي •• لا ملتجا ••

الحول حولَك ، لا تحوّلُ هالكٍ

فهَبِ الفقيرَ مهيمني : ما يُرْتجَى ••

في الشطر الأول : طريقتا قصر ؛ طريقة التقديم ؛ وطريقة « إنما » ••

إياك نعبد : فالمفعول تقدم على فعله ؛ فهو : مقصور عليه ؛ والمعنى الفعلي : مقصور ؛ أي أن فعل العبادة : مخصوص لهذا المعبود ، المالك يوم الدين ، الرحمن الرحيم ، رب العالمين •• وهـذا التخصيص : يؤكـد الالتزام بالتخصص ؛ ففعل التعبد : متخصص بعبادة هذا المقدم على كل الأفعال والفاعلين ؛ والسياق الكوني في إبداع الوجود : يؤكد هذه الصورة المُبينية ؛ فالإنس والجن والوجود كلـه : إنما خلقهم خالقهم لعبادته ، كما هو معلوم في آيات الخلق ••

ومن وجهة بنيوية : نلاحظ ترتيب مكونات الجملة ؛ فهي : مسند « نعبد » ؛ ومسند إليه « نحن » •• ومتعلق الفعل « إياك » •• والترتيب المبدئي : أن يتقدم المسند فالمسند إليـه فالمعمول •• لكن تغيير التركيب : يعطي المعنى توجيهاً إلى منزلة بهذا المظهر لها خصوصها وتميزها وتفردها ؛ لذلك يعتبر المقدّم في الترتيب : مقصوراً عليه •• وما يليه هذا المقصور التابع لما تقدمه •• وهذا التقدم قد يكون : مفعولاً به ، كما في مثالنا ؛ أو حالاً ، مثل : ضاحكاً جاء الربيع ؛ أو شبه جملة ، مثل : في الحديقة طال صمتي للشذى •• فوق البحيرة تنزهت •• ولا فـرق بين قصر الصفة على الموصوف أو الموصوف على الصفة ؛ فقصر الموصوف على الصفة يعني تقديم المسند على المسند إليه ، مثل : إنسانٌ : أنا ؛ مُمثلُ موهبتي وأحوالي : أنا ••• وقصر الصفة على الموصوف يعني تقديم المسند إليه على المسند ، مثـل : أنا أهتم بشؤون كلماتي ؛ والمقصود : لا غيري من يهتم بها هذا الاهتمام ••

والموصوف والصفة في هذا الأسلوب من علم المعاني : يعنيان ركني الجملة الخبرية ؛ فالموصوف : يعادل المسند إليـه •• والصفة تعادل المسند •• وهـذه الدلالة : سياقية ؛ أي تفهم من السياق ؛ فقولنا : فهم الطالب ؛ فيهـا موصوف

وصفة ؛ الطالب : هو الموصوف ، وهو الفاعل ، وهو المسند إليه •• وفعل الفهم : هو الصفة ، وهو الفعل ، وهو المسند •• وهـذه الملاحظة لتمييز معنى الوصف في علم المعـاني عنه في علم النحو •••

ويتبع هـذا التمييز إيضاح آخـر بشأن ركني القصر : المقصور والمقصور عليـه ؛ فهما يتلازمان في ظـرف القصر جميعاً ؛ فالفتوة في العبـارة المشهورة « لا فتى إلا علي » : صفة مقصورة على شخص الإمام علي (ع) ؛ لأنـه وحده : امتاز بموقف الوقوف في وجـه فتيان قريش المحتشدين لاغتيال خـاتم النبيين ، ليلة الهجرة المشهورة في التاريخ •• وهذه الصفة : هي المصطلح « المقصور » •• أما « علي » الاسم ، فهو : المصطلح « المقصور عليه » ، أي الذي خُص بهـذه الصفة التقديرية ، التي هي « الفتوة » الباسلة المنجدة •• وسلك التاريخ الثقـافي طريق القصر « بالنفي والإثبات » ؛ فقد نفى فتوة الحق المنقذة لمحمد (ص) عن غير علي (ع) وأثبتها له وحده •• ومن الممكن أن تسلك الطرق الأخرى : إنما ؛ العطف ؛ التقديم ••

ويتبع هذين المصطلحين « المقصور والمقصور عليه » : مصطلحان آخران ؛ هما : الحقيقي والإضافي ؛ فمن القصر : ما يكون حقيقياً ؛ ومنه ما يكون إضافياً ••

ومثال القصر الحقيقي : المثال المتقدم ؛ لأنه جرى مرة واحدة ؛ فعلي وحده : بات على فراش النبي ، ليـلة الهجرة ؛ ليجتذب انتباه فتيان القبائل إليه ،وليصرفهم عـن الانتباه إلى هجرة مربيه ونبي الإسلام ورحمـة العالمين ؛ فالقصر الحقيقي بالتحديدات المدرسية : ما يكون التخصيص فيه ملتزماً بالمقصور عليه ، لا يتجاوزه إلى غـيره ؛ ويكون الحكم القصري : مطابقاً للحقيقة والواقع ••• وجمل الخبر في الرباعية التي تحمل هـذه المطابقة للحقيقة والواقع ؛ إياك نعبـد •• إنما أنتَ الرجـا •• لا ربَّ إلا خالقي •• الحول حـول الله •• فهل من حول أو قوة : يتجاوزان حـوله وقوته ؟

ومثال القصر الإضافي : ما ينزل رُتَباً كثيرة عن مستوى الشمول والتفـرد

في القصر الحقيقي ؛ لأنه يخصص بالنسبة إلى محدود معيَّن ، كقولهم : ما ربحَ من خصومات العرب إلا أعداؤهم ؛ فغرض المتكلم ، هنا : تخصيص الربح بالعدو ، وقصره عليه ، بحيث لا يتعداه إلى أي من طرفي الخصومة ؛ فإذا اختلفت الجزائر والمغرب : فإنما يربح عدوهما المشترك •• وكذلك في اختلاف العـراق وايران : إنما يربح عدوهما المشترك •• وبلاغة القصر الإضافي : تتجلّى في تأكيده الربح للعدو ، لينتبه الصديق ، إن كان ينتبه ، أو يريد أن ينتبه •• وعلى كل المستويات : الأسرية : والوطنية : تصح بلاغة هذا المثال •• لأن القصر الإضافي : تخصيص بمـا يُعيِّن المتكلم الإضافـة إليـه ، وليس تعميماً إلى كل ما عـداه كالقصـر الحقيقي ••

وهما ، الحقيقي والإضافي : إنما يعتبران باعتبار غـرض المتكلم من جملته الخبرية ، بأية صورة من صور القصر ، تقديماً أو عطفاً •• أو استثناء ونفياً •• أو تأكيـداً مع « إنما » •••

الحقيقي والإضـافي ، من تقسيمات القصر المراعية لغـرض المتكلم •• أما تقسيماته باعتبار حال المخاطب : فتؤدي معاني أخرى ، مثل قلبِ مفهوم المخاطب إلى ما يقابله ، أو : مثل تعيين ما لم يكن معيناً للمخاطب ، أو : مثل تفريد ما لم يكن منفرداً من صفات الموصوف الواحد •• ودعيت هذه الأغراض الثلاثة : أقسام القصر بهذا الاعتبار ، فهي : قصر قلب ، وقصر تعيين ، وقصر إفراد ••

قد يكون المخاطَبُ في مستوى فهم : يعاكس ما هو الواقع ، فيخاطبه المتكلم العارف بالواقع خطـاباً مقنعاً : يُجلِّس له فهمه السابق ، فيقول لمن كان موهوماً أنه عدو يتربص به الأذى : **« ما أنـا إلا صديق يسعى لعونك »** ، •• فالقصر بالنفي « ما » : أزال فكرة العداوة ، والمجيء بعـد المقصور عليه « أنا » بالأداة « إلا » : أثبت عكس العداوة ، فكأنما قـال له : أنا صديقك المعينُ فحسب ، لا شيء سوى الصداقة المعينة لكَ عندي •• الجملة الواصفة للصديق بالعون : تخصيص آخـر ، يقوِّي المعنى ، ويطمئن المخاطب ، ويبشره بالعون ••• ولعلهم

سموا هـذا القصر كما سمّوه : ليدخلوا إلى القلب انقـلاباً مجـدّداً للشعور والموقف ••• وطرق القصر جميعها : تؤدي هذا المعنى القلبي ؛ ويصح القـول : **إنما أنـا صديق** •• بطريقة تأكيد « إنما » •• المهم أن يصل إلى المخاطب : الحكم المعاكس لما كان يعتقده •• وذلك بقصر الصداقة على المتكلم « أنا » ونفي العداوة التي كانت مزعومة أو مفترضة •••

وقد يكون المخاطب : شاكّاً أو متردداً ؛ فيعيِّنُ له المتكلم : ما يزيل شكه وتردده ؛ كأن يقول « ما المحاضرُ إلا معتذر ، عن إلقـاء محاضرته اليوم » •• لزميل له ليس متأكداً من حضور المحاضرة أو غيابـه ••• فيأتي أسلوب القصر بالنفي والإثبات : معيناً على اتخـاذ موقف ؛ لأن المحاضرَ معتذر : فلماذا القلق أو التردد بين الذهاب أو عـدمه ؟ !

بلاغة التعيين وبلاغة القلب : مستويان من مراعاة حال المخاطب ؛ والمستوى الثالث من مراعاة حـاله : هو قصر الإفراد ؛ ودلالته نفي الشركة ، وإثبات واحدة الصفات للموصوف بمثل القول : ما هو إلا أستاذ جامعة •• فهذا الأسلوب يوجَّهُ لمـن كان يظن ذلك الأستاذَ الجامعي : مقاولَ بناء •• أو مربي أبقـار •• أو موظف جمارك ••• الخ ••

إن أبنية القصر جميعها : تؤدي وظائف المعنى للمخاطب ؛ فتعكس مفهومـه كما في قصر القلب ؛ أو تحدد له ما لم يكن محدداً ، كما في قصر التعيين ؛ أو تختار له ما كان متردداً في اختياره ، كما في قصر الإفـراد ••• وكذلك تؤدي وظائف المعنى للمتكلم ، كما تقـدم في أمثلة القصر الحقيقي والقصر الإضافي ••• ولا تتخلف هـذه الأبنية عن تأدية دلائل المعنى باعتبار حـال المقصور : صفة على موصوف •• أو موصوفاً على صفة ؛ وقـد سبق التوقف مع قصر الفتوة على « علي » (ع) بأسلوب « لا فتى إلا علي » ؛ فالفتوة : لا تتجاوزه إلى سواه ؛ لأنها وهي « المقصور » : وقف" عليه في سياق التاريخ الهجري والثقافة الحركية في بدء الإسلام ؛ وذلك قصر الصفة على الموصوف •• فإذا قلنـا : « ما علي إلا

ربيب محمد » جئنا بقصر الموصوف على الصفة ؛ يعني لا يتجاوز علي الصفة التربوية التي نشّأه عليها محمد (ص) منذ طفولته ؛ وقد قيل : « ما وجدانُ عليٍّ إلا خُلُقُ محمد » •• لأن تاريخ علي : يثبت أنه لم يجىء بشيءٍ يخالف فيه محمداً ، أو يرتأي عليه رأياً ؛ لذلك رُئي أسلوب القصر بالنفي والإثبات : أبلغ للتعبير عن واقع الحال ••• وهذا لا يعني أن طرق القصر الأخرى لا تؤدي المقتضى •• بل يؤدّى بطريقة « إنما » •• والعطف •• والتقديم •• ألا يصح قولنا : إنما علي ربيب محمد •• ؟ •• ويكون التأثير الأسلوبي بإلهام متعلمي البلاغة : أن يتأملوا في فصاحة الكلام النبوي ؛ لأنه أنتج مثل صاحب « نهج البلاغة » ••• وجانب آخر من تأثير الأسلوب الذي قصر الموصوف « عليّاً » على الصفة التربوية ، التي بذلت من « خاتم النبيين » (ص) : هو الالتفات إلى الأعظم والأهم من العلائق التربوية ؛ فلعلي : صلات أخرى وجليلة مع خاتم النبيين •• لكن أسلوب القصر : أدى توجيهاً إلى اعتبار التربية والتعليم : أعظم الأنساب وأوثق العلائق ؛ وذلك من مستويات الوعي البلاغي التي تؤديها رسالة القصر ••

هذه صور من دلائل أسلوب القصر على مقتضى الحال : من جهة غرض المتكلم •• ومن جهة حال المخاطب •• ومن جهة اعتبار المقصور ، أي الرسالة التي يراد حملها في تركيبة الكلام الجامعة بين الموصوف والصفة ، بين المسند إليه والمسند ••

وهذه الصور القياسية : تستدعي من أحوال القصر أشباهاً لها ، تفهم من السياق النظمي أو التأليفي ؛ وقد رأينا في « مكونات الجملة » : معاني للقصر ليست بطريقة « إنما •• أو : العطف •• أو التقديم •• أو النفي والإثبات » •• بل هي بالطريقة التي اقتضاها نسق الإشارة ، بقول ابن الفارض « هـذا العقيق ؛ فقف به » ؛ أي : هـذا وحده •• لا غير •• فقط •• « هـذا العقيق » ؛ مكان حُبِّنا المثير: « فقف به متوالهاً إن كنت لست بواله » •• (ص ٣٤٤) ••

طرق القصر : واضحة الأساليب في بناء رباعية « المرتجى » •• والتأمل في

دلائلها المعنوية : يثير من بلاغـة القصر أحوالاً ، لها في كتب البلاغة مساحات واهتمامات ..

١ - خـذ الجملة الأولى : « إياك نعبد » ؛ ففيها القصر بطريقة التقديم ؛ لكن هـذا الأسلوب القصري : أكـد بإيجـازه المعنى .. وذكَّر بما في أبواب « التقديم والتأخير » واجتهادات الباحثين في تعليلها بأبواب من علم المعاني ، مثل « التقديم في أحوال متعلقات الفعل .. أحوال المسند إليه .. أحوال المسند » ..

٢ - خذ الجملة الثانية « إنما أنت الرجا » ؛ ففيها القصر بطريقة « إنما » .. وهي طريقـة طَبَعَتْ « باب القصر والاختصاص » بطابعها عند الجرجاني ، في « دلائل الإعجاز » .. وقد عالج هذا الباب بثلاث وعشرين صفحة (٢٥٢ - ٢٧٤) ، معظمها : دارت في فلك « إنما » ؛ ولا بأس من التوقف مع أقسام الباب : لتصور أهمية هذه الطريقة في خاطره ، بغض النظر عن النتائج التي توصل إليها ؛ وهـذه حركته في باب القصر والاختصاص :

أ - فصل في مسائل إنما ومواقعها : ٢٥٢ - ٢٥٤
ب - فصل النفي والإثبات : ٢٥٥ - ٢٥٦
جـ - فصل في إنما ومواقعها : ٢٥٧ -
د - بيـان آخر في « إنما » : ٢٥٨ -
هـ - « لا » العاطفة وإنما : ٢٥٩ -
و - النفي والإثبات بما وإلا : ٢٦٠ - ٢٦٧
ز - النفي والإثبات بما وغير : ٢٦٨ - ٢٦٩
ح - عود إلى مباحث إنما : ٢٧٠ - ٢٧٣ ..

ويبدو أن هيمنة « إنما » على باب القصر والاختصاص ، عنـد الجرجاني : جاءت من تقديره للأصل فيها ، وهو « إن » المشبهة بالفعل ؛ فقـد جعلها خاتمة الباب الطويل في كتابه بعنوان « باب اللفظ والنظم » (١٩٢ - ٢٥٢) ..

ويمكن التأمل بتقسيمات هـذا الباب لمعرفة مكان « إن » الذي اتصـل بمواقع إنما ؛ فهي :

أ - اللفظ والنظم : ١٩٢ - ٢٢٤
ب - اشتراط الذوق فيه : ٢٢٥ -
جـ - فصل في المجاز الحكمي : ٢٢٧ - ٢٣٦
د - في الكناية والتعريض : ٢٣٧ - ٢٤٢
هـ - فصل في إن ومواقعها : ٢٤٢ - ٢٥٢

ختم هذا الفصل الأخير بقوله : « وليس الذي يعرض بسبب هذا الحرف من الدقائق والأمور بالشيء - الذي - يدرك بالهوينا ؛ ونحن نقتصر الآن على ما ذكرنا ، ونأخذ في القول عليها ، إذا اتصلت بها « ما » .. (٢٥٢)

كذلك نصغي إلى أسلوبه في الفصل الختامي من مباحث إنما ؛ فقـد افتتح فصل « العود إلى مباحث إنما » ، بقوله :

« إن قيل : مضيتَ في كلامك كله على أن « إنما » للخبر لا يجهله المخاطب ، ولا يكون ذكرك له لأن تفيده إياه ؛ وإنا لنراها في كثـير من الكلام ، والقصد بالخبر بعدها : أن تُعلم السامع أمـراً قد غلط فيه بالحقيقة ، واحتاج إلى معرفته كمثل ما ذكرت في أول الفصل الثاني من قولك : إنما جاءني زيد لا عمرو ، وتراها كذلك تدور في الكتب للكشف عن معان غير معلومة ، ودلالة المتعلم منهـا على ما لم يعلم ؛ قيل : أمّا ما يجيء في الكلام من نحو : إنما جاء زيد لا عمرو : فإنـه وإن كان يكون إعلاماً لأمر لا يعلمه السامع فإنه لا بد مع ذلك من أن يدّعي هناك فضلَ انكشاف وظهور في أن الأمر كالذي ذكر ؛ وقد قسمت في أول ما افتتحت القول فيها : إنها تجيء للخبر لا يجهله السامع ولا ينكر صحته ، أو لما تنزل هـذه المنزلة .. وأما ما ذكرت من أنها تجيء في الكتب لدلالة المتعلم على ما لم يعلم : فإنك إذا تأملت مواقعها وجدتها في الأمـر الأكثر قد جاءت لأمر قد وقع العـلم بموجبه وشيء يدل عليه . مثال ذلك أن صاحب الكتاب قال في باب كان : « إذا

قلت : كان زيد : فقد ابتدأت بما هو معروف ، مثله عندك ، وإنما ينتظر الخبر ؛ فإذا قلت : حليماً : فقد أعلمته ما علمت ؛ وإذا قلت : كان حليماً : فانما ينتظر أن تعرفه صاحب الصفة » ، وذاك أنه إذا كان معلوماً أنه لا يكون مبتدأ من غير خبر ولا خبر من غير مبتدأ كان معلوماً أنك إذا قلت : كان زيد : فالمخاطب ينتظر الخبر ، وإذا قلت : كان حليماً : أنه ينتظر الاسم ، فلم يقع إذن بعد « إنما » إلا شيء كان معلوماً للسامع من قبل أن ينتهي إليه » •• (٢٦٩ - ٢٧٠) ••

هذا من أسلوب الجرجاني في تعليل معاني « إنما » ودلائلها في إعلام السامع •• وهو كما يلاحظ المتأمل فيه : أسلوب يجاهد صاحبه للإفهام وإثارة الانتباه لمعاني النحو وأدوارها في بلاغة القصر بإنما •• ومما ختم بها كلامه قوله : « وهذا موضع فيه دقة وغموض ، وهو مما لا يكاد يقع في نفس أحدٍ أنه ينبغي أن يتعرف سببه ويبحث عن حقيقة الأمر فيه •• ومما يجب أن تجعله على ذكر منك من معاني « إنما » ما عرفتك أولا من أنها قد تدخل في الشيء على أنه يخيل فيه المتكلم أنه معلوم ويدعي أنه من الصحة بحيث لا يدفعه دافع » •••• مثل :

ألا أيها الناهي فزارة بعدما   أجدّتْ لغزو ؛ إنما أنت حالم •••

يريد أنها تغير الادعاء وتلغيه •• فتفاجىء بغير ما كان قبلها من المعلوم المدعى •• وهذا من أحوال بلاغتها ••

اجتذبت حماسة الجرجاني في معالجة « إنما » إلى جملة الرباعية « إنما أنت الرجا » : لأقولَ إن وراء هذه الطريقة ثَريّاً من الدلائل لمن يلتمسه ••

٣ - ولنأخذ الجملة الثالثة من رباعية « المرتجى » ؛ « لا ربَّ إلاَّ خالقي »•• ومؤكدتَها بإيجاز الحذف « لا ملتجا » •• والمعنى : إلا خالقي : لا ربَّ •• ولا ملتجا ••• ففي هذه الجملة : طريقة القصر بالنفي والإثبات •• ومن المعلوم : أن « إلا » و « لا » لهما أخوات في قواعد الاستثناء والنفي من علوم النحو •• ومعرفة معاني النحو فيها : تمنح منح البلاغة المعنوية ، لمن يستعطونها تلك المنح ••

فهل نقصدها في « القصص اللغوي » ؛ لنتعرف ألوان « إلا » وأخواتها •• وألحان « لا » و : ليس •• و : ما •• وإن •• و : لم •• وغيرها من أدوات النفي ؟

قد نجد وقتاً لهذا القصد في مختارات من حلقات : « اللغة والحياة في شاعرية القواعد » ، كما عملنا في التماس معاني النحو من « وشاح بردى وبحيرة الفعل » ثم من « تنور اللغـة وخبز المشتقات » •• وكنا قد أشرنا إلى « هندسة العيادة اللغوية » ، التي تدخل في أحوال القصر ، من باب « إنما » •• (ص : ٤٣١) ••

٤ — وفي الجملة الرابعة من الرباعية : نصل إلى طريقـة القصر بالعطف ؛ « الحول حولك ، لا تحوّلُ هالكٍ » ••

إن القصر « العطفيّ » : يحتاج توقفاً عطوفاً ؛ لأنه يجتذب معه من معاني النحو أرتالاً مديدة من « التوابع » •• ويكون القصر بأدوات عطف معينة ؛ هي : لا ؛ بل ؛ لكن ••

وللباحثين في القصر أساليبهم في تناولها ؛ ولا بأس من الإصغاء للقزويني ، هـذه المـرة ، والاستماع إلى أسـلوبه في معالجة القصر بالعطف ؛ يقول في (الإيضاح : ٢١٥) :

« وللقصر طرق ؛ منها : العطف ؛ كقولك في قصر الموصوف على الصفـة إفراداً : زيدٌ شاعرٌ لا كاتبٌ ؛ أو : ما زيدٌ كاتباً بل شاعرٌ ؛ وقلبـاً : زيدٌ قائمٌ لا قاعدٌ ؛ أو : ما زيد قاعداً بل قـائم ؛ وفي قصر الصفة على الموصوف ، إفراداً أو قلبـاً ، بحسب المقام : زيـدٌ قائمٌ لا عَمْرو ؛ أو : ما عمرو قائمـاً بـل زيـدٌ » ••

وعبارة الجرجاني مختلفة الإبانة عن عبارة القزويني ، وقد أشرنا إلى أقسام القصر والاختصاص عنده ؛ والقسم الخامس منها : هو « لا العاطفة وإنما » •• ويمكن الهـدوء التأملي معه في هذا القسم : لأنه به أقرب إلى إيضاح طريقته في

التعبير عن آرائه في معاني النحو ودلائلها البلاغية من خلال هاتين الأداتين « إنما » و « لا » ؛ وهما : طريقتا قصر ؛ ••

قبل أن نسرح مع الجرجاني وصديقيه « زيد وعمرو » في موازنته بين « لا وإنما » : نتوقف قليلاً مع جملتنا التي أخذناها من رباعية « المرتجى » ؛ وهي : « الحول حولك لا تحول هالك » ••

الإعراب المعنوي للجملة :

الحول : مسند إليه ، مبتدأ؛ حولك : مسند ، خبر المبتدأ ؛ والمقصود : حول ؛ والكاف : مضاف إليه ••

لا : حرف عطف ؛ تنفي عن ما بعدها ما وجب لما قبلها ؛

تحولُ : معطوف على المسند « حول » •• وهو مضاف ؛ ما بعده : مضاف إليه « هالكٍ » ••

والمعنى : أن الحول كلّه : حولُ الخالقِ الباقي •• وليس الحول لذوي الوجوه الهالكة ؛ والإشارة اقتباسية من معنى قوله تعالى « كلٌّ من عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » ، وما في معناه من آيات إثبات البقاء لوجه الجليل الكريم ونفيه عن غيره من وجوه الكائنات الهالكة بالفناء •• فما تقوم به : إنما بإكرامه •• وما يبقى سوى وجهه في واجبية الوجود ؛ وهذا من أسرار العبارة : « لا حول ولا قوة إلا بالله » •• والرباعية : مرتجى •• جمعت طرق القصر الأربعة ؛ وساقتها بمقتضى حال : يظهر نية التوحيد من كل الجهات بأحوال القصر الكلية ••

إن تحليل الرباعية : يوحد بين النقد والبلاغة ؛ ويستثير وجهي نظرية الأدب « الخارجي ، من نفس وسيرة ومجتمع وفكر وفن •• والداخلي بما فيه من طبيعة لغوية وتركيبية » •• لذلك نصغي لمثال من الجرجاني وآخر من القصص اللغوي ومعاني النحو ••

عبارة الكتاب القـــديم :

دلائل : ((لا)) العاطفة ((وانما))

اعلم أنها تفيد في الكلام بعدها إيجاب الفعل لشيء ونفيه عن غيره فإذا قلت : إنما جاءني زيد : عقل منه أنك أردت أن تنفي أن يكون الجائي غيره فمعنى الكلام معها شبيه بالمعنى في قولك : جاءني زيد لا عمرو ، إلا أن لها مزية وهي أنك تعقل معها إيجاب الفعل لشيء ونفيه عن غيره دفعة واحدة وفي حال واحدة وليس كذلك الأمر في : جاءني زيد لا عمرو ، فإنك تعقلهما في حالين . ومزية ثانية وهي أنهـا تجعل الأمر ظاهراً في أن الجائي زيـد ولا يكون هذا الظهور إذا جعلت الكلام بلا فقلت : جاءني زيد لا عمرو .

ثم اعلم أن قولنا في (لا) العاطفة : إنها تنفي عن الثاني ما وجب للأول ليس المراد به أنها تنفي عن الثاني أن يكون قد شارك الأول في الفعل بل أنها تنفي أن يكون الفعل الذي قلت إنه كان من الأول قد كان من الثاني دون الأول . ألا ترى أن ليس المعنى في قولك : جاءني زيد لا عمرو : انه لم يكن من عمرو مجيء إليك مثل ما كان من زيد حتى كأنه عكس قولك : جاءني زيـد وعمرو . بل المعنى أن الجائي هو زيد لا عمرو فهو كلام تقوله مع من يغلط في الفعل قد كان من هـذا فيتوهم أنه كان من ذلك . والنكتة أنه لا شبهة في أن ليس ههنا جائيان وأنه ليس إلا جاءٍ واحـد وإنما الشبهة في أن ذلك الجائي زيـد أم عمرو فأنت تحقق على المخاطب بقولك : جاءني زيد لا عمرو . أنه زيد وليس بعمرو . ونكتة أخـرى وهي أنك لا تقول : جاءني زيد لا عمرو . حتى يكون قد بلغ المخاطب أنـه كان مجيء إليك من جاءٍ إلا أنه ظـن أنه كان من عمرو فأعلمته أنه لم يكن من عمرو ولكن من زيد .

وإذ قد عرفت هذه المعاني في الكلام بلا العاطفة فاعلم أنها بجملتها قائمة لك في الكلام بإنما فاذا قلت : إنما جاءني زيد ٠ لم يكن غرضك أن تنفي أن يكون قد جاءَ مع زيد غيره ولكن أن تنفي أن يكون المجيء الذي قلت إنه كان منه كان من عمرو ، وكذلك تكون الشبهة مرتفعة في أن ليس ههنا جائيان إلا جاءٍ واحد ، وإنما تكون الشبهة في أن ذلك الجائي زيد أم عمرو ، فإذا قلت : إنما جاءني زيد حققت الأمر في أنه زيد ٠ وكذلك لا تقول : إنما جاءني زيد ، حتى يكون قد بلغ المخاطب أن قد جاءك جاءٍ ولكنه ظن أنه عمرو مثلاً فأعلمته أنه زيد ٠ فإن قلت فانه قد يصح أن تقول : إنما جاءني من بين القوم زيد وحده وإنما أتاني من جملتهم عمرو فقط : فإن ذلك شيء كالتكلف والكلام هو الأول ٠ ثم الاعتبار به إذا أطلق فلم يقيده بوحدَه وما في معناه ٠ ومعلوم أنك إذا قلت : إنما جاءني زيد : ولم تزد على ذلك أنه لا يسبق إلى القلب من المعنى إلا ما قدمنا شرحه من أنك أردت النص على زيد أنه الجائي وأن تبطل ظن المخاطب أن المجيء لم يكن منه ولكن كان من عمرو ، حسب ما يكون إذا قلت : جاءني زيد لا عمرو : فاعرفه ٠

هذا مستوى من الأسلوب الكتابي ؛

ميز الجرجاني فيه بين عبارتين ، هما : إنما جاءني زيد ٠٠ و : جاءني زيد لا عمرو ٠٠ فقال : إنهما متشابهتان ؛ لكن الأولى تمتاز بجعل مجيء زيد ظاهراً وتنفي المجيء عن غيره ؛ ٠٠ ويمكن تكرار قراءة هذا النص : لمعرفة عدد المرات التي كرر فيها « جاءني زيد لا عمرو » ؛ فقد يكون الأمر مدهشاً ٠٠ وقد تكتمل التسلية إذا جرّب متمهل أن يحصي زيداً وعمراً في اثنين وثلاثين سطراً ؛

وإني أنصحُ بصداقةِ الحبيب أيوب ؛ فهو أبو بشر ؛ وستنفع هذه الصداقة في بلوغ لآلىء المعنى وراء مثل هذه الأصداف الأسلوبية ، التي تواجه قارىء علوم اللغة عموماً ؛ فالجرجاني وسيبويه وأمثالهما : إنما يجتهدان بإخلاص للتعرف إلى « أسرار البلاغة في معاني النحو » وإلى الإعجاز في « دلائل النظم » ٠٠٠ أفيقبل مُحبّو المعنى نصيحتي ؟ ! إذاً : فليزوروا « عيادة اللغة وعمارة الجمل » ٠٠

من معاني النحو في مسرح اللغة والحياة :

العيـــادة اللغــوية
في
أراجيح الحـــرية

امــل : فكَّرتُ « بمفاجآتِ الأراجيح ومكافآت الشرط القسم » •• بعـد لقاءِ الشروق السَّابق •• وفكَّرتُ بالعلاقةِ بين اللثُّغةِ والشروقِ •• لماذا تريد أن يكون لقاؤنا لتعلمِ اللثُّغةِ مع الشروق ؟

جهاد : لأنَّ الشروقَ يَعني للحياة معانيَ كثيرة •• فعندما ينهضُ الإنسانُ قبلَ الفجر ويتأمَّل في الظلام المنشور على العالم يفكِّر أنَّ أجنحة هــذا الظلام أقوى من أن تردَّ عن أبصار أهل الكون ••

امــل : لكن الظلامَ لا يَلبث أن يَلمَّ أجنحته وينحسِرَ عن العالم ، وقد صار الأمر معروفاً عند الناسِ منذ القديمِ إلى اليوم •• حتى ألفوا الظلام ولم يعودوا يخافون امتداده ••

جهاد : وهنــا مكمنُ السرِّ •• فالناسُ يَعرفون الظــلام ويعرفون أنَّه ينحسر عن العالَمِ عندما تجيء أشعةُ الشمس الطالعةِ من الشرق ••

امــل : ألذلك تسحبني كلَّ يومٍ قبــل الشروق لأرى كيف تتراجع طيورُ الظلام السُّود أمام طيور الشروق الشقر ؟ لقد فهمتُ الأمثولة ••

جهاد : ولأمورٍ أخرى غير ذلك •• فأنا أربط بين الظلامِ والنور •• وأريد أن ندرك من سرِّ الليل والشمس ما ينعكس على حياتنا ونحــن ندرسُ قواعدَ اللغــةِ ••

امـل : كلّما ظننتُ نفسيَ أكملتُ العـلمَ تضعنّي على مدخـلِ مسألةٍ جديدة •• وتعيدني إلى حجم المتعلّمة كأنما تصرخ بي لا تتكبري •• تذكري قـول الشاعر :

وقل لمن يدّعي في العلم فلسفةً حفظتَ شيئاً وغابت عنكَ أشياءُ

جهاد : هنا السؤال : ما الذي حفظتِه وما الذي غابَ عنك ؟

امـل : هذا امتحان أرجو أن أنالَ منحَه وأتجنَّب محَنَه •• فقد حفظت الطريقةَ التي تعلّمني بها القاعدة اللغوية •• أفهَمُ أحكامَها كما أراد النحاة •• ننطلق إلى صلة ذلك بالحياة •• نفتح قاعدة لسلوكنا الأخلاقيّ وبنـاء مجتمعنا وتربية الإنسان ••

جهاد : هذا كثير وجميل •• لكنكِ قفزتِ إلى مسألةٍ جديدة ونحن أمام تفسير الصّلة بالزّمان •• أعني صلةَ طريقتنا التّعليمية بالزّمان •• فأنتِ منَ البدايةِ سألت عن سببِ لقائنا لتعلّمِ اللغة مع الشروق •• لماذا مع الشروق ؟ ألاَ يصحّ ذلك في وقتٍ آخر منَ الليلِ والنهار ؟

امـل : أرى أنّك لا تمهلني أحياناً لأتمّمَ كلامي ؛ فأنا قلت : إنّني فهمتُ أموراً ولم أفهَمْ أموراً أخـرى •• وهذه المسألةُ الزمانيّةُ من الأمور التي أفهمُها •• فإلحاحُك على زمانِ الشروقِ يبدو لي توجيهاً إلى أمرٍ معيّنٍ في الحياةِ وإلى أمر معيّن في اللّغـة ••

جهاد : نعيدُ قراءة كتاب الطبيعة : أحدُ بابيه الليـلُ •• والباب الآخر النهار •• بالتفصيل قبل الشروق والشروق فترتان من الظلام والنور •• نحبّ أن نشهَدَ لقاءهما وافتراقَهما •• لمـاذا ؟ هـل بدا لكِ ملمحٌ من السرّ ؟

امـل : تعني أنّ التأمّلَ بحـركة الزّمان في الطبيعة تعلّمنا أن نحـرّك مشاعرنا في صميمنا بمثل منهجها ؟

جهاد : أعني أنَّ الظلامَ الطبيعيَّ مهما تراكم وكان كثيفاً فإنَّه يُفسحُ المجال للنور عندما تنهضُ الشمسُ وتقرِّرُ الطلوعَ والشروق ..

امل : فهمتُ .. وكذلك النَّفسُ البشريَّةُ ، مهما تراكمت عليها الهمومُ فإنَّها تزولُ عنها إذا نهضَ في صاحبها اهتمامُ الطلوع المشرق ..

جهاد : هذا مهمٌ يا أمل .. وهو حلٌ مُسبَقٌ لكلِّ المشكلات .. القاعدة الكونيَّةُ تقول بلسانِ الشمس : ما من ظلام يَستمرُّ إذا جاء الشروق ..

امل : وفي النَّفس ما في الطبيعة ، فتاريخ الإنسان يقول : ما من همٍّ يقيمُ أبدَ الدَّهر .. كل الهموم تتساقط تساقُطَ أوراقِ الشجر في الخريف ..

جهاد : لذلك يُحَبُّ الخريفُ ، من هذه الناحية ، فهو يُجرِّدُ كثيراً من الأشجار من كسوتِها التي تحجبُ أغصانها عن الضياء المباشر ..

امل : هذا ملمَحٌ آخرُ .. فالناسْ والكتَّابْ يَستعيرون سقوط الأوراق

جهاد : كلٌّ شيء يتحوَّل بالنظرة إليه أو بزاويةِ النظر .. وقد عبَّر الشعراء عن مثلِ هذه النظرية المثنوية إلى الأشياء ، فقال ابن الرومي يَمدح العسل ويذمَّه :

تقول هذا مُجاجُ المسك تمدحُه   وإن تَعِبْ قلتَ : ذا قيءُ الزنابير

امل : حتى العسل يمكن أن تشوِّهَه طريقةُ النظر إليه فتجعله « قيء زنابير » أعاذنا اللهُ من أصحابِ مثل هذه النظرة التي تقلِبُ العسلَ قيئاً ..

جهاد : حتَّى أصحاب هذه النظرة في العالم ينطبقُ عليهم مغزى لقائِنا عند الشروق .. فليكونوا تراكمَ ظلامٍ .. أو ليكونوا أوراق أشجار صيفيَّة .. فلا بُدَّ لشروقِ الحبِّ فينا أن يُحوِّلهم إلى حقيقة العسل التي هي « مجاج المسك والشفاء » .. ولن تكون بأيَّةِ حالٍ « قيء زنابير » هل فهمتِ جديداً من لقاء الشروق ؟ وهل تنوين اكتشاف مفاجأة جديدة بأرجوحةٍ جديدة ؟

« موسيقى »

أمــل : تسألني عن شوقي إلى اكتشاف مفاجأة جديدة بأرجوحة جديدة.. وأنت تعني أرجوحة من أراجيح « الكسر والفتح » .. فقـد اكتشفنا رؤى جديدة من ترجحنا بأرجوحتي « الشرط والقسم » .. وأحسب أننا نستطيع اكتشاف رؤى أخرى في أراجيح المواضع التي يجوز فيها كسر همزة أنّ وفتحها ..

جهاد : إذا طبّقنا القاعدة المنهجيّة من لقـاء الشروق .. القاعدة الطبيعيّة تقول : إنّ الظلام ينكشف عن الشروق ، ونحن نلحّ على اللّقاء ساعة الانكشاف هـذا .

أمــل : فهمتُ مسألةً أخرى مِنَ الحياة لِلّغة .. كأنما تقول لنا الحياة : كلّ مسألةٍ لغويّةٍ ، مهما كانت غامضةً في البداية ، فإنها تتّضحُ عند الشروق .. والشروق هنا يأخذُ معنىً نفسيّاً ، فهو شروق الهمة والذوق فينا .. وأتصوّر أنّكَ تريدني متعلّمةً عند الشروق لأتحمّس مثـلَ الطبيعةِ ، مثلَ طبيعةِ الحياة ، فأشرقُ شمس اهتمامي لأكشفَ حقائق اللّغـةِ جميعاً ..

جهاد : ودائماً تفاجئُكِ اللّغةُ بمجدّداتِ التكشفات كلّما عزمتِ على الاكتشاف .. فكيف عزمُكِ اليومَ على اكتشافِ المكافآت في أرجوحة الابتـداء .. ؟

أمــل : النّحاة يُجيزون فتحَ همزة أنّ وكسرها ، « إذا وقعت بعد مبتدأ ، هو في المعنى قولٌ وخبرُ « إن » قولٌ .. والقائلُ واحِدٌ » .. مثـلُ قولهم : « خيرُ القولِ .. إنّي أحمَدُ الله » ..

جهاد : ويصوغون الفكرة صياغاتٍ أخرى ، كالقول : يجوز كسرُ همزة أن وفتحها ، إذا وقعت خبراً عن قولٍ ومخبراً عنها بقول والقائل واحد ..

أمــل : المهمّ المعنى .. أعني أن نُدرك مِنَ الصّيغةِ ما يُريده الصّائغ .. ولا أكتم فإن سهولة اللّغةِ وصعوبتها إنما تتولّدان من طريقة صياغتها ، أي من الكيفية التي تقدم بها ..

جهاد : دعي صعوباتِ « تعليم اللثغة » واشتغلي بالمسألةِ ذاتِها التي بدأتِ التحدثَ عنها ، وهي الكسرُ والفتح بعد المبتدأ الخاص ..

أمل : المبتدأ الخاص هو المشتركُ مع الخبرِ بالقولية .. ونظل مع مثال النحاة لنصغيَ إلى تعليلاتهم لجواز الفتح والكسرِ في مثالهم المتداول : « خيرُ القولِ ـاِ ـنِي أحمد الله » ..

جهاد : الذين يُجيزون فتح همزة أن في هذه الحالة ، يعتبرونها مع صلتها مصدراً ويعربونه خبراً للمبتدأ .. على تأويلِ « خيرُ القولِ حمدُ الله » ..

أمل : وبعبارة تفصيلية ، يقولون في المثال : « خيرُ القولِ أني أحمدُ الله » ..

خيرُ : مبتدأ مرفوع .. وهو مضاف .. القول : مضافٌ إليه مجرور .. أن : حرف نصب وتوكيد مشبَّه بالفعل .. الياء : ضميرٌ متصل مبني على السكون في محلٍّ نصب اسم ان .. أحمدُ : فعلٌ مضارع مرفوع للتجرُّد .. فاعله : مستترٌ وجوباً تقديره : أنا .. الله : لفظ الجلالة تحمَّلَ فعلَ الفاعل ، منصوبٌ بالفتحةِ الظاهرة ..

جهاد : تميلين ، في إعرابكِ ، للتفصيل ؛ فتتناولين المفرداتِ واحدةً واحدةً ؛ والفكرةُ من هذا المثال أن نعرِف لماذا أجاز النحاةُ فتحَ همزة أنَّ بعد المبتدأ الذي وصفتِه بالخاص ..

أمل : أميلُ هذا الميل لأسبابٍ شفائيَّةٍ ، فأنا عندما أدركُ مسألة لغويةً حتى الجذور أشعرُ أنني أدرك حالةً من حالاتي النفسيَّة حتى الأعماق ..

جهاد : إذاً ، أنتِ تؤيِّدين الفكرة القائلة بإنشاءِ « عيادةٍ لغويَّة » يُداوَى بها الناس عن طريقِ اللثغة ..

أمل : ليتَكِ تنفِّذُ مشروعَك هذا .. فأنا أتصوَّره من أنفع ما يُخدَم به الإنسانُ في عصرنا ..

جهاد : دعي « **العيادة اللغوية** » وعودي إلى مثال المبتدأ الخاص ؛ وأجملي القاعدة فيما أجازه النحاةُ من فتح همزة أن بعد المبتدأ المشترك مع الخبر بالقولية ••

أمل : قلنا : إنّهم أجازوا ذلك ، على اعتبار « أن واسمها وخبرها » جملة تؤول بمصدر يُعرَبُ خبراً للمبتدأ •• فيكون التأويل : خير القول حمدُ الله •• ويكون الإعراب : خيرُ : مبتدأ مرفوع •• القول : مضاف إليه •• حمدُ : خبر المبتدأ مرفوع •• الله : مضافٌ إليه ••

جهاد : إنّ إجازة النحاة هذه تعيدُنا إلى المبتدأ العام في ما يُوجِبُ فتحَ همزة أنّ ، أعني بذلك المبدأ قولهم : يجبُ فتحُها إذا قُدِّرت بمصدر ••

أمل : لكنّ القضيّة هنا قضيةُ تجاوز •• فقد تجاوزوا الوجوبَ إلى الحريّة ، وتركوا الأرجوحة تتحرّكُ باتجاهي الفتح والكسرِ ، فلم يُقيّدوا المتكلّم باتجاهٍ واحد ••

جهاد : أمَا ترينَ في ذلك مبدأ للحياة ، فالحياة : ظلام ونور •• ليلٌ وشروق •• نومٌ ويقظةٌ •• وحرّيةُ الإنسان لا تتحقّقُ إلاّ بالاختيار•• وعندما يختار الجمودَ على حالةٍ واحدةٍ يُصبح عبد اختياره ويفقدُ ما أعطيَ له من حرّية ••

أمل : أنتَ تثير قضيّة الحرّيةِ من مشكلةٍ لغويةٍ بسيطةٍ ، هي جواز فتح همزه ان وجواز كسرها • لذلك نتأمّلُ ما أجاز للنحاة كسر همزة أن بعد المبتدأ الخاص ؟

« موسيقى »

جهاد : « خيرُ القول إني أحمَدُ الله » عبارةٌ تقرأ بصورتين : الأولى تُفتح بها همزة أنّ للاعتبارات التي ذكرت •• والثانية تكسرُ بها همزة أنّ لاعتبارات أخرى ، أوضحَها النُّحاةُ •• فماذا قالوا ؟

أمل : أنقلُ إليك أقوالَهم ، على حذر ، فقد قالوا بهذه المسألة : ومَن

كسر همزة أنَّ جعلَها جملةً خبراً عن خير •• كما تقول : أول قراءتي (سبِّح اسمَ ربِّكَ الأعلى) •• فأوَّلُ : مبتدأ •• و « سبح اسم ربِّك الأعلى » جملة خبر عن « أول » •• وكذلك : خيرُ القول : مبتدأ •• و « إني أحمد الله » خبره •• ولا تحتاج هذه الجملة إلى رابط ، لأنَّها نفسُ المبتدأ في المعنى ، فهي مثلُ : « نطقي اللهُ حسبي » •• ومثَّلَ سيبويه هذه المسألة بقوله : « أول ما أقول : أني أحمد الله » •• وخرَّجَ الكسر على الوجه الذي تقدَّم ذكره ، وهو أنَّه من بابِ الإخبار بالجمل ، وعليه جرى جماعة من المتقدِّمين والمتأخرين•• » •• (ص ٣٦٢/جـ١/)••

جهاد : كذلك تميلين إلى التفصيل في سرد المسألة ، وتقولين : على حذر •• فلماذا هذا التفصيلُ في السَّرد ولماذا الحذر في نقلِ عبارة ابن عقيل الشارحة لما أراده ابن مالك ؟

أمل : لأنني أحبُّ معرفةَ الفروقِ الدقيقة بين الجملة التي أوَّلها النحاةُ بمصدر وأعربوه خبراً للمبتدأ وبين الجملة ذاتِها التي لم يؤولوها بمصدر ومع ذلك أعربوها خبراً للمبتدأ ذاته •• ففي المرَّةِ الأولى ، قالوا مع فتح الهمزة : خير القولِ حمد اللهِ •• وفي المرةً الثانية ، قالوا مع كسر همزة ان : « خيرُ القول : إني أحمد الله » •• فما الفروق الدقيقةُ بين الحالتين ؟ فأنا لا أرى ذلك بوضوح تام •• ؟

جهاد : أنتِ تحرِّكين قضيَّةً من قضايا التركيب ، هي قضيَّةُ الجمل التي لها محلٌ من الإعراب ، والجمل التي لا محلَّ لها من الإعراب ••

أمل : أليست الجملةُ التي لها محلٌ من الإعراب جملةً مسؤولة مؤوَّلةً ؟ أليس من شروط أن يكون للجملةِ محلٌ من الإعراب أن يَصحَّ تأويلُها بمفرد•••

جهاد : وهذا ما خلَقَ في تصوُّرك الإشكال في جملة « إني أحمد الله » ••• كأنما تقولين : إنَّهم أعادوا الجملةَ مع الكسر إلى الحالة إياها مع الفتح ولا بُدَّ من التأويل •• ولم تنتبهي لقولهم : « ولا تحتاج هذه الجملة

إلى رابط » •• فالفروق بين الجملتين تكمن في الرّابط بين المبتدأ الخاصّ وجملة الخبر •• هل بدا لك الأمـــر ؟

امـل : بدا لي طرفٌ من الأمرِ لا أعرف صوابَه تماماً •• تراهم أرادوا بالرّابط ما يُميِّزُ جملةً من جمـلةٍ ؟ واسمَحْ لي أن أطرَحَ القضيّة المعنويّة في بسطِ الجملتين بحالتيهما •• ما الفرق المعنوي بين قولهم :

خـيرُ القولِ أني أحمدُ اللهَ

و : خـيرُ القول : إني أحمدُ اللهَ •• ؟

جهاد : في الجملة الأولى ارتبط الخبر بالمبتدأ فحَمدُ الله هو خير القول •• والإلحاح المعنويُّ على مواسِمِ الخـير في عبارة الحمد •• بينما اتّجه الإلحاحُ في الجملةِ الثانية إلى المتكلم ذاته : فخير قوله ذلك القول الذي يحمَدُ به اللهَ •• في عبارة الفتح إطلاقٌ وفي عبارة الكسر تخصيصٌ ••

امـل : بدا ليَ الأمرُ أكثرَ وضوحاً •• فعبارة الكسر حافظت على الفرديّة وميَّزت ما هو الخير في قول الفرد •• لكنَّ مسألةَ الجملة التي لها محلٌّ من الإعراب تَبقَى مُثارةً في خاطري حتى تَشرَحَ لي بالتفصيل أسرار ما له محلٌّ من الإعراب منها وما ليس له محلٌّ ••

جهاد : أذكرُ لك أسماءَ تلك الجمل لا على سبيل الإيضاح الكامل في هذا اللقاء •• وإنما على سبيل التذكير •• فالجمل التي لها محلٌّ من الإعراب ، هي : الواقعةُ خبراً •• الواقعةُ حـالاً •• أو مفعولاً به •• أو مضافةً إلى الظرف •• أو واقعةً بعـد الفاء أو إذا جوابـاً لشرطٍ جازم •• أو الواقعة صفةً •• أو التابعةَ لجملة لها محلٌّ من الإعراب ••

امـل : أنا أعرفُ أسماء الجمل التي لها محلٌّ من الإعراب •• ولكن المهم أن أرتفعَ إلى سماءِ معانيها وما دلالـةُ الحياة فيها ؟ وهل يكمُنْ بكلٍّ منها سرٌّ منهجيٌّ للحياة ؟ وهل يُفيدُ تحليلُها وتركيبُها في ما تُسمّيه : « العيادة اللغويّة » ؟

جهاد : هذه مسائلُ ؛ قلتُ : إنني أذكرها الآنَ ، ونلتقي مع الشروقِ لبسطِ أسرارها في لقاءاتٍ أخرى •• والمهمُّ أن تعرفي في هذا اللّقاء سرَّ الكسرِ والفتح لهمزة أنَّ في جملة المبتدأ الخاص الذي يشترك مع الخبر بالقوليّة••

أمــل : فهمتُ أنَّ إجازة الفتح تطلِقُ المعنى إلى وحدة ما بين المبتدأ والخبر عبـر التأويل المصدريِّ •• وفهمتُ أنَّ إجـازة الكسر تقيّد المعنى بالخصوصِ الفرديِّ •• لكن هذا الفهم بقيَ تعلمياً وليس تفتحياً •• أعني أنّكَ لم تـوصلني إلى حالة الإدراك العليا للقضية •• أقنعتني بقبول اللغويين القدامى •• ووعدتني بلقاء تفتّح لي الوضوح من فهمي العميق التأثري •• فهل تفي بالوعد عند شرح الجمل ؟

« موســيقى »

وهذا مستوى آخر من الأسلوب الكتابي ؛

ميَّزتُ فيه بين عبارتين ، هما : خيرُ القولِ أني أحمدُ الله •• و : خـيرُ القولِ إني أحمد الله •• وظهر من حوار « أمل وجهاد » : أن فتح همزة « أن » في الأولى يـوحّد بين المبتدأ والخبر بتأويلٍ مصدري صورته « خـيرُ القولِ حمــدُ الله » ؛ وبذلك توكيد على معنى النحو في دور القول الطيب الحميد ••• بينما وجّهَ الحوارُ إلى دلالةِ كسر همزة « إنَّ » ؛ فهي دلالة تؤكد دور المتكلم في القــولِ الأفضل ••• فدلالة الكسر « تقيد المعنى بالخصوص الفردي » •• ودلالة الفتح تطلق المعنى إلى ارتباط يعمُّ المسند إليه والمسند بمثل الوحدة ؛ وقد يكون التأمل بمثل هذه الملاحظة مثمراً ؛ لأن بلاغة المعنى : تشير إلى امتياز الفتح ؛ ولو قرىء طرفا العبارة بالتبادل : لاتضح الأمر أكثر ؛ جرب التأمل بها على صورتها الأولى « خيرُ القولِ : حمدُ الله » •• ثم على صورتها الأخرى « حمــدُ الله : خيرُ القول » •• هذه دلالة الرابط المعنوي الموحّد بين الطرفين •• وقد لا يتيسَّر هــذا الوضوح في جملة جواز الكسر ؛ فلو قلت « إني أحمد الله : خير القولُ » لا يكون قولك مطابقاً للواقع الشامل لأنه مقيَّد بإنية ضيقة •• وفي كل فصل من فصول مسرح اللغــة والحياة : تتجلى لك معان من النحو تبلغ الرسالة البيانية ؛ وفي هــذا الفصل والذي يليه : بيّنة ؛ والأكمل أن تقـرأ حلقات هذا « المسرح اللغوي » على توالي ما بنيناها عليه •• لمن لهم همٌ وهِمة ••

عمارة الجمل
بين
المنطق والالهام

امل : كانَ لقاءُ « الأذكياءِ وحدَهم » ممتعاً ومثيراً .. « فالأذكياءُ وحدَهم يتذوقون جمالَ الجُمل » : عبارةٌ شغلت تفكيري منذ لقائنا الماضي .. كيف اكتشفتَ الخطورة في تركيبِ الجملة ؟

جهاد : تعنين : لماذا نقدِّمُ ونؤخِّرُ في مكوِّناتِ الجملة ؟

امل : أعني إدراكَ الحكمةِ في تكوين الجملة . فالجملةُ العربيّةُ ، إمّا جملةٌ اسميّةٌ ، وإما جملةٌ فعليّةٌ .. وكلُّ الكلامِ الذي يُقالُ أو يكتبُ أو يركّبُ في صورةٍ من صور هذين القالَبين .. ومع ذلك يبقى لكلِّ متكلِّمٍ أو كاتبٍ خصائصُه المميّزة .. فمن أينَ يأتي الاختلافُ بين جملِ هذا وذاك ؟

جهاد : قلنا : إنَّ « الأذكياءَ وحدهم يتذوقون جمالَ الجمل » .. ومثل هذا القول يَصحُّ في تركيب الجُمَلِ .. فالأذكياءُ وحدهم يعرفون أسرارَ الجمال في تكوين الجمل ، فيقدمون ويؤخرون ، ويستفسرون ويخبرون ، حَسْبما تُبدي لهم حكمة الذوق وحكم الاجتهاد ..

امل : حدّثتني مرّةً عن فنِّ العمارة .. وقلتَ لي : المتعاطي مع اللّغةِ إنما يتعاطى مع مادّة بناء ، تماماً كالمهندسِ والمعماريّ .. واليوم ، إذ تُشدِّدُ على الذّكاء والذوق والاجتهاد في تكوين الجملةِ الجميلةِ التي تميّزُ صاحبَها عن غيره .. أسألك عن سرِّ التّشابُهِ بين فن العمارةِ وعلم اللّغة ؟ ..

جهاد : في فنٍّ العمارة ثلاث نظريات مشهورة : النظرية الوظيفيّة •• والنظرية العضوية والنظرية العموميّة •• وفيها جميعاً نوعٌ من الاعتماد على ما يُسمّونَه الانسجام بين المنطقِ والإلهام ••

امل : بدأتُ أتذكّرُ حديثَكَ الماضي •• ويبدو ليَ ، الآن ، جديداً مع فنٍّ تركيبِ الجملةِ •• أعني أنَّ الجملةَ تتركّبُ وَفْقَ المقياسِ المعماريِّ الذي هو الانسجام بين المنطق والإلهام ••

جهاد : لكنَّ هذا الكلام عامٌّ ونظريٌّ •• ولا يتخصّص إلا بالممارسة العمليّة •• أعني أن نبنيَ جملاً ينسجِمُ فيها المنطِقُ والإلهام ، وتتحدَّد نظريّة التّعمير اللغويِّ ، أهِيَ وظيفيّة أم عضويّة أم عموميّة •• فهل تبدأين صِياغةَ الأمثلة أو عمارتَها ، إن شئتِ •• ؟

امل : نعودُ إلى كتبِ اللّغةِ •• وإلى الحياةِ ذاتِها•• ونستعينُ بدروسِ النواسخ •• أو دروسِ الأخواتِ ، كما تحِبُّ أن تقولَ دائماً ••

جهاد : الأخوات كثيرات •• كان وأخواتُها •• كاد وأخواتُها •• ظنَّ وأخواتُها •• إنَّ وأخواتُها •• وقد كنّا في لقاءاتنا الأخيرة ضيوفاً على الأختِ « أن » •• لذلك ، أحِبُّ أن يكونَ التأمّلُ بإحدى عمائر الأختِ أنَّ ••

امل : أثار شرحُكَ لمسألةِ التقديم والتأخير تعجّبي •• فعندما تأمّلنا تركيبَ الجملة : « إنَّ ، لفردوسِ الغابةِ ، جاذبيّةَ الحماسةِ والحبِّ» •• كشفَ لنا جمالُ التركيب ؛ لأنّه نوعٌ من العمارةِ الاجتماعيّة •• فقد قلتَ لي : إنَّ خبرَ « أنَّ » تقدّمَ على اسمِها ، لأنّه هو الغايةُ •• والغايةُ هيَ الأهمّ •• والأهمُّ ينبغي أن يُقدَّم في كلِّ بناء اجتماعي ، بدءاً من القاعدة الأسرية ••

جهاد : وأسعَدني ذكاؤُكِ في تذوّقِ الجمالِ اللغويِّ ؛ فأنت تتمتعين برشاقة الحركةِ بين القاعدةِ اللغويّةِ والسّلوكِ الاجتماعيِّ في الحياة

لذلكَ أعمِّرُ من التحدُّثِ إليكِ أبنيةَ الجُمَلِ التي تُسعِدُ الأذكياء وتُساعِدُ العادِين ليكونوا شيئاً مذكوراً ••

أمـل : « إنَّ مِنَ البيانِ ، لسحراً » •• وإنَّ أسلوبَكَ التربويَّ لمصدِّقٌ هذه العبارة النبويّةَ المتداولةَ •• أعني : « إنَّ ، من البيان ، لسحراً » ••

جهاد : لاحظي ما قلتِه كيف عُمِّرَ بطريقةٍ ملهمةٍ •• في كلامِكِ جملتان تحقّقانِ مبدأ العمارة الذي هو الانسجامُ بين المنطق والإلهام •• جملتاكِ الجميلتان : واحـدةٌ أخذتِها من التراثِ العربيِّ القديم •• والثانية عمّرتِها من أجل الأولى ••أعني بالأولى : « إنَّ ، منَ البيانِ ، لسحراً » •• وأعني بالثانيةِ : « إنَّ أسلوبَكَ التربويَّ لمصدِّقٌ هذه العبـارة النبويـة » ••

أمـل : في حديثِكَ عـن « فـنِّ العمارة » •• قلتَ : إنّهم يَعتبرونَ « التعجُّبَ » أعظمَ الأسرارِ التي تجعَلُ الإنسانَ إنساناً ؛ لأن التعجُّبَ الدائمَ يحرِّكُ الإنسانَ ويثيرُه ويُلهمُه ويدفَعُه إلى معرفةِ المجهولِ والتّسامي فوق أنانيةِ المادّية والتطلّع إلى مثلٍ عُليا ، كالمجدِ والكمال والحقِّ والحرّية •• وحديثُك يُثيرُ تعجُّبي فأكتشف أسرارَ الجمالِ في الجُمل ••

جهاد : نجرّبُ اكتشافَ الجمالِ التركيبيِّ في الجملةِ النبويّة أوّلاً •• أعني : « إنَّ من البيان ، لسحراً » •• فماذا يبدو لكَ منها اليوم ؟

أمـل : يَبدو لي جمالُ العمارة للكلماتِ : « إن ّ ، من البيان ، لسحراً » :
إنَّ : حرفُ نصبٍ وتوكيد •• من البيان : جارٌ ومجرور ، الجارُ متعلّقٌ بخبر إنَّ المقدّم •• لسحراً : اللام : لامُ الابتداء المؤكّدة •• سحراً : اسم إنَّ المؤخَّر ••

جهاد : تعنين أنَّ أصلَ الجملة : لسحرٌ حاصِلٌ مِنَ البيـان •• فلما دخلت « إن » نُسخ التركيبُ الأول وصار كما هو الآن لغرضٍ معنويٍّ واجتماعيٍّ ؟

امل : أفكِّرُ أنَّ من الممكن القول : إنَّ لسحرٌ حاصلٌ من البيان .. لأنَّ اللغويينَ ، في مثلِ هذه الحالةِ ، يُجيزون تقديمَ الخبر وتأخيرَه .. ولكنْ هل يَظلُّ المعنى هو هو ؟

جهاد : السِّحرُ يَعني التغيير .. والبيانُ يَعني الإفصاحَ عن المبدأ المغيِّر .. ولما كان التأكيد على المبدأ هو المقصود قُدِّمَ المبدأ الذي هو سرُّ البيان المؤثِّر .. وهذا سببُ تقديمِ الخبر وتأخيرِ الاسم هنا ..

امل : ولكن .. ألا ترى أنَّ لامَ التأكيد دخلت على المبتدأ ، أعني اسمَ إنَّ المؤخَّر .. ومن حقِّها ، وهي لامُ الابتداء ، أن تتصدَّرَ الكلامَ ؛ وتكون الجملة عندئذٍ .. « لأَنَّ ، منَ البيان ، سحراً » .. ؟

جهاد : المسألةُ تحتاجُ تبصُّراً بعمارة الجملةِ اللغويَّةِ .. ولماذا تركَّبُ هكذا أو هكذا .. وأنت تذكرين أحوالَ همزة « إنَّ » : وجوبَ فتح ووجوبَ كسرٍ .. وتذكرين أغراض ذلك ؟

امل : أذكرُ ذلك .. وأعرفُ أنَّ لامَ الابتداء تدخُلُ على خبرِ « إنَّ » المكسورةَ الهمزة .. وأكثرُ اللغويين لا يُجيزون دخولَ هذه اللام على خبرِ باقي أخواتِ « إنَّ » .. أمثال : لعلَّ .. لكنَّ .. أمسى .. أنَّ المفتوحةَ الهمزة ..

جهاد : أجاز بعضُهم ذلكَ شذوذاً أو تَساهُلاً في التخريج .. والآنَ ، ندعُ ذلك إلى جملتِكِ الثانيَة ، فقد حقَّقتِ بها ما عليه أكثرُ اللغويين من دخولِ لام الابتداء على خبر « إنَّ » المكسورة ..

امل : تعني قوليَ : إنَّ أسلوبَكَ التربويَّ لمصدِّقٌ هذه العبارةَ النبويةَ المتداولة : « إنَّ منَ البيان لسحراً » .. ؟

جهاد : هذا ما عنيتُه .. « إنَّ أسلوبَكَ لمصدِّقٌ » .. فإعراب الجملة :

إنَّ : حرف توكيد ونصب .. أسلوبَ : اسمها المنصوب .. وهو

مضاف ، والكاف : مضاف إليـه •• لمصدِّق : اللام : لام الابتداء •• مصدقٌ : خبرُ إنَّ المرفوع ••

امـل : الجملةُ ، هنا ، طبيعيَّة •• أعني ظلَّ المبتدأ أوَّلاً •• وظلَّ الخبرُ ثانيـاً •• والجديدُ في التركيب هو تأخُّرُ لام الابتداء من البدايةِ إلى الخبر •• فلماذا حصَلَ تأخيرها ؟

جهاد : اللغويونَ يَعتبرونَ حقَّ هذه اللام أن تدخُلَ على أوَّل الكلام ؛ لأنَّ لها صدر الكلامِ ؛ فحقُّها أنْ تدخُلَ على الأختِ « أنَّ » ذاتها •• فتكون جملتك ، وفق رأيهـم ، « لأنَّ أسلوبَك مصدقٌ » •• ويبقى إعراب التركيب الخماسيِّ : لام الابتداء •• أنَّ •• اسمُ أن •• كاف الإضافة •• خبر أن ••

امـل : لكنَّ العمارة بهذه الطريقة ليست منطقيَّة ؛ لأنَّ الغايةَ من اللام التأكيد •• وكذلكَ الغايةَ من « إنَّ » •• وازدحام التوحيد في حرفين متلاصقين يُخلُّ بعمارة الجملة ••

جهاد : لهـذا أخَّرَ اللغويونَ لام الابتداء ، وأدخلوها على خبر « أن » المكسورة ؛ ليكونَ التوكيد موازناً بين أوَّلِ الجملةِ وآخرها •• فركنا الجملة : المبتدأ والخبر •• والمؤكِّدان الموازنان بينهما : حـرفا توكيد هما : « إن •• واللام » ••

امـل : إنَّ دور الحروفِ في عمارة الجملةِ يَمنحُها جمالاً واتِّزاناً ؛ •• وانَّ توزيعَ الحروفِ في الجملةِ ينبغي أن يكون محقِّقاً لمبدأ العمارةِ ، أعني الانسجامَ بين المَنطق والإلهام ••

جهاد : يبدو أن مبـدأ العمارة هـذا أحدثَ تأثيرَه السحريَّ •• فأنت تكرِّرين عبارة العمارة « الانسجام بين المنطقِ والإلهام » •• والسؤالُ الذي يخطُرُ لي ، وقد يكون مفاجئاً ، هو : هل فهمت معنى هذا المبـدأ « الانسجام بين المنطق والإلهام » •• ما معنى الإلهام ، مثلاً ؟ ما صلةُ

ذلك بتعمير الحجارة لتكون منازلَ تحلُّ أزمة السكن في العالم ؟ ما صلة ذلك بتعمير الكلمات لتكون وضوحاً يحلّ مشكلات الخلاف في العالم ؟

« موسيقى »

امل : تعلمتُ كيف أتوقّعُ مفاجآتك ، فتثيرُ تعجُّبي ، وأظلُّ منتبهةً .. قدَّرت أنك ستسألني عن « مبدأ الانسجام بين المنطق والإلهام » .. لأنك تحبُّ الاكتشافَ في الأشياء التي يكرّرها الناسُ حتى الأُلفة ..

جهاد : وهل أعددتِ نفسكِ للإجابة على الأسئلة الثلاثة التي طرحتُها عليك :

امل : أما الإلهامُ فهو مقدرةٌ إنسانيّةٌ تجعلُ الإنسانَ على اتصالٍ مباشَرٍ بالحقائق الأولية .. وتجعل له مقدرةً على إنتاج صور ذهنية ليس له بها سابقُ مفهومية ولا معرفة .. ودون هذه المقدرة لا يستطيعُ الإنسانُ الاتصالَ بأسرار الكون .. (٨٨)

جهاد : هذا المعنى آمَنَ به المعماريون ، وقالوا : يحتاج المعماريُّ العظيمُ إلى انسجامٍ ضروريٍّ وأساسيٍّ بين « المنطق السليم » وبين « الإلهام العظيم » .. ويكون من المؤسف لو ظنَّ أحدٌ أنَّ التّصميم يتمُّ بتطبيق قواعد وقوانين كالمسائلِ الحسابيّة ، أو أنَّ المباني العظيمة تبدأ من حسابِ الأوزان والجهود قبل أن تتخيّلَها عاليةً شامخةً في أذهاننا ..(٨٩)

امل : ألا ترى أنَّ هؤلاءِ المشتغلين بالحجارة والمادّة ينبّهون إلى الموهبةِ الخفيّة التي تفوقُ العلم .. فالمنطِقُ السليمُ هو منطقُ العلم .. لكنَّ الإلهامَ العظيمَ هو الذي يعطي العلمَ منطقيته ويقودهُ في سبُلِ الكشف والانتاج ..

جهاد : هذا فهمٌ جيّدٌ على مستوى العمارة .. لو طُبِّقَ الانسجام بين العلم والذوق لحلّتْ مشاكلُ التّعمير .. ولاستطاع المهندسون الملهمون إيجاد سكن لكلِّ إنسانٍ بكلِّ مكانٍ ..

امل : ألا تعتقد أنَّ اختلافَ النظرياتِ المعماريَّة هو الذي يُسبِّبُ المشكلات .. فمثلاً : أصحابُ النظريةِ الوظيفيَّة ، يقولون : الشكل يَتبعُ الوظيفة .. أي أنَّ العمائر تبنَى وَفْقَ حاجة النَّاسِ إليها دون زخرفاتٍ وأمورٍ تُبدِّد الوقت والمال .. هذه النظريةُ تضمر الحلَّ للمشكلة العالمية في السكن .. لكن أصحابَ النظرية العموميَّة يرفضونَ النظرية الوظيفيَّة ، ويهتمون بالبناء ذاتِه دون اعتبارٍ للإنسان الذي تُصمَّمُ من أجله .. (١٠٠)

جهاد : هناك النظرية الثالثة ، التي هي النظرية العضويَّة .. أصحابُها يعتقدون : أن الشكلَ والوظيفة شيء واحد .. أي هم يطالبون بالاتجاه نحو الطبيعة للتعلُّمِ من دروسِها ومبادئِها وأشكالها .. ويطالبون بأن تكون العمارة « عضويَّة » ، تتحد فيها المتانةُ والجمال بطريقةٍ تامَّةٍ ، بحيث لا يمكن فصلُ أحدهما عن الآخر .. كما هو حاصِلٌ في كائنات الطبيعة .. (٩٨)

امل : أظنُّكَ فتحتَ لي الباب إلى إدراكِ الصِّلة العميقة بين مبدأ العمارة وبين اللغة .. فالنظريةُ الوظيفيَّةُ في العمارة هي مثلُ « النحو الوظيفيِّ » .. أي استخدامُ اللغة بالحياة .. وهذا يَعني ضرورة التخفيف اللغويِّ من الأمور الأساسيَّة .. النحوُ الوظيفي يحلُّ مشكلات المتعلِّمين .. فبوقتٍ قليلٍ يتقنون كلَّ ما هو ضروريٌّ لهم في الحياة ..

جهاد : وأين تذهبين بالنظرية العموميَّة في العمارة هي مثلُ « الاهتمام اللغويِّ المجرَّد » .. الذي يهتمُّ باللغة لذاتِها لا من أجلِ الناس .. وبذلك يبتعِدُ أهلُ اللغة عنها ويشعرون أن دراستها مضيعةٌ للوقت ؛ لأنَّهم لا يرونَ لها أية وظيفة اجتماعية في الحياة ..

امل : لذلك تُطبِّقُ نظريةَ « الوحدة العضويَّة » في مباحثك ، فترى في

كلٌّ قاعـدة نحويَّةٍ أو صرفيَّةٍ قاعدةٌ منهجيَّةٌ للسلوكِ الإنسانيِّ وهذا هو الانسجام بين المنطِق والإلهام ..

جهاد : يَعني صرتِ تعتقدينَ أنَّ الإلهـام ضروريٌ لدراسةِ اللّغـةِ وتدريسها .. ؟

امـل : من البدايةِ ، كنتُ أبحثُ عن هذا الانسجامِ لأصِلَ إلى أسرارِ اللّغةِ التي تصلني بالمنابع الأصلية للحياة وتقنعُني بالأقوال الكثيرة التي تمدَحُ اللّغةَ وبيانَها .. كنت أحفظُ تلكَ الأقوال ولا أقتنعُ بهـا .. أما اليوم فقد اختلفَ الأمر .. إنني أتذوق الكلماتِ وانسجامَها مـع بعضِها كما أتذوقُ انسجامَ الإيقاعِ والحركاتِ في أجمَلِ الرَّقصات ..

جهاد : عنـدما نصِلُ إلى الرَّقص تتأمَّل .. فماذا نجـدُ بين تجاذُبِ الكلماتِ في الجُمَلِ وتجاذُبِ الرَّاقصين والراقصات ؟

امـل : أليست حركةُ المبتدأ والخبر في جملِ « إن وأخواتِها » صورةٌ من صور الحركةِ .. يتقدَّمُ الخبرُ على الاسم ، ويتأخَّر عنه .. تتصدَّر لامُ الابتداء قبل « إن » .. أو تتصدر اسمَ إن .. أو تتصدَّرُ خبرَها.. هذه التنقلات أليست شبيهةٌ بتحرُّكاتِ الرَّاقصين ، يدفع بعضهم بعضاً أو يجذُبُه .. ؟ إن تحركات لام الابتداء ودخولَها على « إن أو اسمها أو خبرها أو معمول خبرها » من الأمثلةِ الواضحة ..

جهاد : وما قولُك بمسألةِ العطفِ في جملة « إن » .. هـل تفسَّر هذا التَّفسيرَ الرَّاقص ؟ فقد قال اللغويون : إذا أُتِيَ بعـد اسمِ « إن » وخبرها بعاطفٍ جاز في الاسم الذي بعده وجهان : أحدهما : النَّصبُ والثاني الرَّفع ..

امـل : إنَّ هذا التجويزَ للرَّفع والنَّصب نوعٌ من الحركة « الرقصيَّة » .. لكن على مستوى فكريٌّ في المعـاني .. لكنني أحبُّ معرفةَ أقوالِ اللغويين في أمثلة النصب والرَّفع ..

جهاد : اللغويون ، كما تعرفين ، أوفياء •• فصداقتهم لزيد وعمرو مستمرّة ، وتظهرُ في كلّ مجال •• وهم ، في هذه المسألة ، يمثلون بقولهم : « إنّ زيداً قائمٌ ، وعمراً » •• أو : إنّ زيداً قائمٌ وعمروٌ ••

امـل : في الحالة الأولى أجازوا النّصبَ عطفاً على اسم إنّ •• فقالوا : إنّ زيداً قائمٌ وعمراً •• وكأنّهم يقولون : إنّ زيداً قائمٌ •• وإنّ عمراً مثلُه في القيام •• فاختصروا الجملة الثانية ودلوا عليها بالعطف على اسم إن الأولى ••

جهاد : أما في الحالة الثانية فقد أجازوا الرّفع لاعتبارات أخرى « إن زيداً قائمٌ وعمروٌ » فقالوا : « عمرو » معطوفٌ في الأصل على محلّ اسم « إنّ » •• واسم إنّ ، في الأصل ، مبتدأ •• وبعضُهم رأى أنّه مبتدأ وخبَره محذوف •• والتقدير : إنّ زيداً قائمٌ •• وعمرو كذلك ••

أمـل : ألا يمكن أن نعتبرَ جوازَ نصب عمرو وجوازَ رفعه من الحركات التي توقّع في الجملة إيقاعاً معيّناً ، كلّ مرّة •• وما الرّقص ؟ أليس حركاتٍ تتبّع إيقاعاً ؟ ولنسمّ الرّقصة هنا : رقصةَ زيدٍ وعمرو مع إن ••

جهاد : إنّ العطف ، بمعناه اللغوي ، أولى بالتوقّف عنده •• أليسَ العطفُ سرّ التلاقيات •• والعاطف والمعطوف ، هنا ، واتباعُ المعطوف لاسم إن أو خبرها •• أمورٌ يفكّرُ فيها •• فإذا استكملت إن اسمَها وخبرها وجاءَ العاطفُ جاز نصبُه ورفعه •• أما قبل أن تُستكمل « إنّ » فالنّصب أولى •• والمثال : « إنّ زيداً وعمراً قائمان » ••

امـل : إنّ زيداً وعمراً يرقصان مع أخوات إن بصورتين ، إذا أُتيَ بعد أسمائها وأخبارها بعاطف •• فإن المكسورة ولكنّ وأن : تتساوى في هذه المسألة •• أمّا ليت ولعلّ وكأن •• فلا يجوز معها إلاّ النّصب •• وصياغةُ الجمل على غرار الجمل السّابقة مع زيدٍ وعمرو ••

جهاد : أفكّر بهذه الجمل : هل هي جميلة ؟

أمـل : كلاّ .. ليست جميلةً .. لكنها صحيحةٌ وَفقَ منطِقِ اللّغة ..

جهاد : وأين مبدأ الانسجامِ بين المنطِق والإلهام ؟

أمـل : هذا الذي شكوته من لقاءِ الشروقِ الأولِ .. فقد كانت الأمثلةُ اللغويّة وشروحُها ، على صحتها ، لا تمنحني أيّةَ سعادة .. ثمّ تغيّر الأمر عندما حــلّ مكان زيدٍ وعمروٍ ، كلُّ شعوب المخلوقات .. إنّ الحياةَ جميلةٌ وأهلَ الحياة .. أو : إنّ الحياة جميلةٌ وأهلُ الحياة .. هذا مثالٌ بديلٌ تلهمُه رحلتُنا المتعةُ في أقاليم أن وأخواتها .. وقبل الوداع لأقاليم هذه الأخوات .. أحبُّ أن نتّفق على اللقــاء في إقليمٍ جــديد من تفتحات الصَّبر في فصول الجمــلة.. أيــن ؟ ومتى ... وإلى اللقــاء ..

موسيقى الختـــام

وهــذا مستوى آخر من أساليب الكتابة ؛

وسّعت ، في هذا الأسلوب ، معاني النحو ، فقد « تغير الأمر عندما حــلّ مكان زيد وعمرو ، كل شعوب المخلوقات » ، كما في عبارة أمل الأخيرة .. وإذا عدنا إلى ما قبل الحواريتين وتأملنا في المستوى الكتابي الآخر المعبر عن معاني النحو بفروق ما بين « لا » و « إنما » من أدوات العطف التي يُجرى بها أسلوب القصر .. إذا عدنا هذه العودة التأملية إلى (ص ٤٩٨) : فإننا مدركون حالاً شدة الفروق بين الأسلوبين .. فالعبارة القديمة تقول لقارئها ماذا نعني ؛ والعبارة المجددة تبوح لأجيال محبي اللغــة بما ينبغي ..

والحواريتان السابقتان : أخــذتا من مجموعة « القصص اللغوي في شاعرية اللغــة والحياة » ؛ وأذكر ، هنا عناوين الحواريات العشر والعنوان العام لهما ؛

العنوان العام : لهندسة اللغــة والحياة ؛ أو للأذكياء وحدهم ..

والعناوين المفردة ؛ هي :

١ – شــأن الضمير في ضمير الشأن ..
٢ – علاقة التخطيط من خلال فتح همزة أن ..
٣ – أساسيات التعلم في ما يوجب كسر همــزة إن ..
٤ – مفاجــآت الأراجيح في مكافآت الشرط والقسم ..
٥ – العيادة اللغــوية وأراجيح الحــرية ..
٦ – الأذكياء وحدهم يتذوقون جمال الجُمل ..
٧ – عمارة الجمل بين المنطق والإلهــام ..
٨ – فصول الجمل ودرجات الموسيقى ..
٩ – بواكير ابتكار في كلمة طيبة ؛ في « لا » الشافية للجنس ..
١٠– جواهــر القلب في قوالب « لا » ..

بعد هــذا التذكير المؤمّل : ندخل إلى « أحوال الجمل المشتركة بين الخبر والإنشاء » ..

احوال الجمل المشتركة

إنّا أعطيناكَ الكوثرَ ؛ فصلِّ لربِّكَ وانحَرْ

إنّ شانئكَ هو الأبتر ؛ (١٥ = ١٠٨)

مزارعُ فلاّحٍ ؛ وجنّاتُ فالحٍ ... لعمرُكَ ما الثورُ الثريّا بناطحٍ

فيوسفُ من يعقوبَ روحُ محبّةٍ ... وللغلِّ إخوانُ القِلَى والفضائح

١٩٨٨/١/١٦ = ١٤٠٨/٥/٢٧

تصارحُ إحساسي بكلِّ خفيةٍ ... رؤى الحيِّ والقيومِ عند بصيرتي

أقاربُ ذي الدنيا طيوفُ مُبوِّيءٍ ... ويَبقى على مائي حنانُ إوزّتي

يُصوِّتُ في النار اشتعالُ مُدَفّئي ... ويعلو مع الأسحارِ لحنُ مُنبِّيءٍ

كأني في الفردوس والزّهرُ أسرتي ... وكوثرُ أمّ الخالدينَ تلألِيءُ

١٩٨٨/١/٢٧ = ١٤٠٨/٦/٨

- ١ -

مواضع الوصل بالـواو

في تاريخ البحث البلاغي : استـقر الباحثون على تنـاول مواضع الوصل ومواضع الفصل بأسلوب تقسيمي مشترك وواضح ؛

فالوصل بين الجملتين بالواو : واجب" في ثلاثـة مواضع ؛

١ – إذا قـُصِـدَ إشراكـُهما في الحكم الإعرابي ؛ كقوله تعالى : « وأنه هو أضحكَ وأبكى ؛ وأنه هو أماتَ وأحيا » ••• والتقدير : هو مضحك" ومبك ؛ وهو مميت" ومحيي •• فجملة : « أضحك » خبر المبتدأ « هو » ؛ والجملة بعدها « أبكى » : تابعة لها إعراباً ؛ وكذلك يقال في الجملتين التاليتين « أمات وأحيا » •• وفي سائر الكلام : تصح هذه القاعدة ؛ ويجب دخول الواو ، واصلة" ، بين الجملتين اللتين قصـد المتكلم اشتراكهما في الحكم الإعرابي ، كيفما كان ذلك الحكم ، في حـالة : رفع ؛ أو نصب ؛ أو خفض ••

فإذا لم يقصد التشريك الإعرابيّ بـين الجملتين : حذفت الواو ، وفـُصِلَ بينهما وفق مقتضى حال المعنى ؛ ومن ذلك قوله تعالى في وصف المدعين الإصلاح « ألا إنهم همُ المفسدون » ؛ جاء بتأكيد فسادهم بعد قولهم المدعي « إنما نحـن مصلحون » •• والسياق الإعجازي في آيات من سورة البقرة : يظهـر للمتأمل « بلاغـة الفصل والوصل » على نحو من صور الحياة المتحركة عملياً •• ومن المفيد جـداً أن نتأمل الآيات المصورة بأسلوب الفصل نوعـاً من المخادعين •• المرضى الكاذبين •• المفسدين •• السفهاء •• المحتقَرين •• » وهذه ثلاث صور لثلاثة من أوضاعهم ، صوروا فيها بأسلوب منع الوصل العاطف :

أ – « إذا قيل لهم : لا تفسدوا في الأرض ؛
قالوا : إنما نحن مصلحون ؛

ألا إنهم هم المفسدون ؛ ولكن لا يشعرون » •••

ب – « وإذا قيل لهم : آمنو كما آمن الناس ؛
قالوا : أنؤمن كما آمَنَ السفهاء ••
ألا إنهم هم السفهاء ؛ ولكن لا يعلمون » ••

جـ – « وإذا لقوا الذين آمنوا ••
قالوا : آمنّا ••
وإذا خَلَوا إلى شياطينهم ••
قالوا : إنّا معكم ؛ إنما نحن مستهزئون ••
اللهُ يستهزىء بهم
وَيمُدُّهم في طغيانهم يعمهون » ••

في الصور الثلاث : حذف واو العطف ؛ وقرر الفصل بين جُمَلٍ قالها هؤلاء المخادعون •• وبين جمل ردّ عليهم بها : حسيبٌ « يعلم المفسِدَ من المصلح » ••

في الصورة الأولى : قالوا : « إنما نحن مصلحون ؛ ألا إنهم هم المفسدون » ؛ فجملة المدعين : مقول القول ، مفعول به ؛ وجملة الحسيب : فصلت عنها بترك العطف ؛ لأنه لم يقصِدْ الإشراكَ الإعرابيَ بينهما ؛ فهما كلامان لمتكلمين مختلفين تمام الاختلاف ومن كلِّ الوجوه ••

وكذلك في الصورتين الثانية والثالثة ؛ « إنما نحن مستهزئون •• الله يستهزىء بهم » ••• وقبلها : « أنؤمن كما آمن السفهاء •• ألا إنهم هم السفهاء » •••

وفي التأمل بالجمل المتصلة أو المنفصلة : يصل المتأمل إلى مستوى آخر من مستويات الاشتراك في الحكم الإعرابي ؛ فليس المدلول الواقعي مقتصراً على الحكم النحوي ، بل هو يمتد في الحكم المعنوي ؛ فالتشريك بالحكم الإعرابي : يعني التطابق المعنوي بين الجملتين كما في « هو أضحك وأبكى » ؛ فالإعراب المشترك : هو البيان الواضح الواصل بين المضحك والمبكي ، أصلاً وفروعاً ••

وليس الأمر كذلك عند اختلاف البيانين ؛ فالمدعون يحرمون من العطف بالواو ولو اتسقت جملهم من وجهة النحو وكانت بوزن الجمل التي تليها ، مثل « نحن مصلحون » ••• « هم المفسدون » •• فهما جملتان متساويتان نحواً ؛ لكنهما مختلفتان منبعاً وحركة ؛ وقد لاحظنا السياق المميِّز في صور المدعين المرضى القائلين عن أنفسهم : إنما نحن مصلحون •• أنؤمن كما آمن السفهاء •• إنما نحن مستهزئون •••• والذين ردت جملهم بجمل تلتها مفصولة عنها : ألا إنهم هم المفسدون •• ألا إنهم هم السفهاء •• الله يستهزىء بهم » •••

أردت هذا التوقف مع الحكم الإعرابي : مثل نافذة على مشرف ؛ لتوسعة آفاقِ النظر إلى دلالات الإعراب الملتقية بمعاني النحو والمتجاوزة إلى معاني المعاني •••

٢ - الموضع الثاني من مواضع الوصل : يقع على الجهة المقابلة للموقع الأول ؛ ويسمونه « كمال الانقطاع مع الإيهام » ؛ ومثاله : « لا - و - بارك الله فيك » ، جواباً لمن عرض عليك المساعدة بمثل القول : « هل لك حاجة أساعدك في قضائها ؟ •• » ••

ووجوب الوصل بين جملة « لا حاجة لي » وبين جملة « بارك الله فيك » : لدفع الإيهام ؛ فلو لم تأت الواو العاطفة : لظن المخاطب أنك تدعو عليه بمثل نفي مباركة الله له « لا بارك الله فيك » ••• وهذا القصد غير مقصود ؛ لذلك وجب الوصل بين جملتين بينهما كمال الانقطاع •• والمقصود : أنهما مختلفتا الأسلوب ؛ فالأولى : خبرية ؛ لا حاجة لي •• والثانية : إنشائية ؛ بارك الله فيك •• فأولاهما : خبر منفي •• وثانيتهما : أمر مثبت •• وهذا معنى التسمية للعلاقة بينهما ؛ فهي : « كمال الانقطاع » ؛ إذ لا لقاء بينهما في الوجهة المبنوية ولا في الوجهة المعنوية المقصودة •••

٣ - الموضع الثالث من مواضع الوصل : وسط بين الموضع الأول ، الذي هو « كمال الاتصال » وبين الموضع الثاني ، الذي هو « كمال الانقطاع »••ويسمونه

« التوسط بين الكمالين » •• ومثاله مصبَّغ بصباغ المقتضى المتحوِّل بأحوال العلاقة بين الجملتين ؛ فإن اتفقت الجملتان خبراً : كانت الصبغة غيرَها عند اتفاقهما إنشاءً ؛ وإن اتفقتا بالمعنى واختلفتا باللفظ : كانت الصبغة التعبيرية مناسبة؛ ونمثل لذلك بعباراتٍ من الحسيب الحق ؛

أ – « إنَّ الأبرار لفي نعيم؛ وإنَّ الفجَّار لفي جحيم » ••

فالوصل بين الجملتين : تمَّ هنا بالواو ؛ لأن الجملتين : اتفقتا خبراً ؛ ووجدت بينهما مناسبة معنوية ورابطة هي رابطة التضاد بين العالمين : عالَم الأبرار المنعمين في جنات النعيم •• وعالم الفجار المعذبين في نيران الجحيم ••• ويقول الباحثون البلاغيون : « وليس هناك سبب يقتضي الفصل » ••

ومثل هاتين الجملتين القرآنيّتين : كثير من حيث الاتفاق الخبري والوصل بين المتفقتين لعدم ما يوجب الفصل ؛ مثل قوله تعالى : « يُخرج الحيَّ من الميِّت ؛ ويُخرجُ الميِّتَ من الحيِّ ؛ ويحيي الأرض بعد موتها ؛ وكذلك تُخرجون » ••• والتعاطف هنا بين الجمل : له مستوى آخر من التطابق الموحد بين مخرج الحياة من الموت ومُخرج الموت من الحياة ، الذي هو ذاته محيي الأرض وباعث النيام والموتى ••

ب – « كلوا واشربوا ولا تُسرفوا » ؛

التعاطف بين الجمل ، هنا ، لأنها متفقة إنشاءً ؛ فجملتا الأمر « كلوا واشربوا » : متفقتان متصلتان بالواو •• وكذلك يصح التواصل بين الأمر والنهي ؛ فهما أسلوبا إنشاء طلبي ، كما علمنا من « مقتضى حال الإنشاء » •••

جـ – « وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيلَ : لا تعبدون إلاَّ الله ؛ وبالوالدين : إحساناً ، وذي القربى ، واليتامى ، والمساكينِ ؛ وقولوا للناس : حُسْناً ؛ وأقيموا الصلاة ؛ وآتوا الزكاة •• ثم توليتم وأنتم معرضون » •• (٢/٨٣) ••

صورة الوصل في الآية : تعطي اتفاق المعنى بين الجملتين مع اختلاف اللفظ ؛ وتقدير السياق : « لا تعبدوا إلاّ الله — و — أحسنوا بالوالدين إحساناً ..

وصور الوصل الست الباقية : تقدمها واو العطف ملوّنة بألوان المقتضى ؛ فكأنما تقول مع الإيجاز : وأحسنوا بذي القربى .. وأحسنوا باليتامى .. وأحسنوا بالمساكين .. وقولوا ... وأقيموا .. وآتوا .. الصور الوصلية : واضحة .. وبلاغتها : مبينة مشرقة .. وعندما تغيَّر الإنشاء الإيجادي في أوامر البديع : اختلف الأسلوب إلى الخبر .. واختلفت أداة العطف إلى « ثمَّ » ولفظ الواو انقلب عن العطف الواصل إلى الحال المبكِّت « ثمَّ تولَّيْتُم وأنتم معرضون » ...

هذه مواضع الاتصال بين جملتين بالواو ؛

- ٢ -

مواضع الفصل بترك الواو

أما مواضع الانفصال أو الفصل : فثلاثة أيضاً ؛ ومن تسمياتها : كمال الاتصال ؛ وكمال الانقطاع ؛ وشبه كمال الاتصال أو شبه كمال الانقطاع ...

أ — عندما تؤكد جملةٌ جملة : لا يحتاج الكاتب للوصل بينهما بالواو العاطفة ؛ لأن قواعد التوابع : تميِّز أسلوب العطف من أسلوب التوكيد ، أو أسلوب النعت ، أو أسلوب البدل ، مع أنها جميعاً : تتحد فيما يُسمَّى التبعيَّة ؛ أي تابعية جملة لجملة ، أو مفردة لمفردة ؛ وحسب مقتضى الحال النحوي أو المعنوي ..

وفي سائر أساليب التوابع : لا يُحتاج إلى العطف بالواو ؛ لعلل معنوية يظهرها أسلوب التبعية ، توكيداً ، أو نعتاً ، أو بدلاً ، أو بياناً ... ومن الأمثلة الموضحة :

— « يُدبِّرُ الأمرَ : يفصِّلُ الآيات ؛ لعلكم بلقاء ربكم توقنون » ..

الجملة الثانية « يفصل الآيات » : جزء من الجملة الأولى « يدبر الأمر » ؛ لأن تدبير الأمر : كلٌّ ؛ ومن هذا الكل : تفصيل الآيات •• لذلك ترك الوصل بين الجملتين لتمام الاتحاد والاتصال بينهما ؛ فالجزء لا يعطف على كلّه ، ولا يحتاج إلى واصلة بينهما ؛ فالصلة قائمة ذاتيـة ••

ومن كمال الاتصال : أن تؤكد الجملة الثانية سابقتها توكيداً لفظيّاً ، مثل « فمَهِّلِ الكافرين : أمهلهم رويداً » ••• أو أن تؤكدها تأكيداً معنويّاً ، مثل : « ذلك الكتاب : لا ريبَ فيه » ؛ فالجملة الثانية تعني أن الكتاب المشار إليـه ، لا يتطرق إليه شك لوضوح برهانه ، وإعجاز بيانه ؛ وقد وازن باحثون بين الجملتين وبين القول : هـذا فلانٌ عينُه ؛ فلفظة « عين » أكدت الخبر قبـله ؛ وكذلك « لا تثريب فيه » : أكـدت « ذلك الكتاب » ، الذي هو كتـاب الله ؛ وهو : هدى ونور ؛ وفيه تفصيل لكل شيء ؛ ويعجز الإنس والجن عن إتيان آيـةٍ مِن مِثله ؛ فمن أين يتطرق إليه « التثريب » أي الشك •• لذلك لم يكـن الوصل بالواو ضرورة ؛ بـل وجب الفصل ••

ومثل هـذا التأكيد المعنوي : كثير في الآيات القرآنية ؛ ويفهم من السياق والمقتضى •• كقوله تعالى : « ما هـذا بشراً ؛ إن هذا إلاّ مَلَكٌ كريم » •• فالآيـة الثانية ، أو الجملة الثانية : ليست إلاّ توكيد المعنى الظاهـر في الجملة الأولى ••

وتؤيد القاعدة أمثلةٌ من الشعر ؛ كقول المتنبي :

وما الدهـر إلاّ من رواة قصائـدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهـر منشداً

فقد فصل بين الجملة الأولى وما تلاها : لأن إنشاد الدهر لشعره ليس إلاّ توكيداً لإخباره « أن الدهـر من رواة قصائده » •• فـلم الوصل بـين المعنى وذات المعنى ؟ !

ب – فأذعتُ عليهم ؛ قلتُ : أيهـا الأذكياء الأنقياء ؛ هل أرشدكم إلى سعادة الوعي وصراطٍ أقوم •• ؟

إن الجملة الأولى « أذعْت عليهم » مبهمة ؛ لا يظهـر منها محتوى البلاغ المذاع من المذيع على المستمعين •• فلما جـاءت جملة القول ومقولها : استبان ما كان مبهماً في الجملة الأولى ؛ لأنها بيان لهـا ؛ وتعتبر بمنزلة عطف البيـان ؛ وعطف البيان : لا يعطف على متبوعه ••

ولتأييد هذه القاعدة من قواعد ترك الوصل إلى الفصل بين الجمل المشابهة : يقدمون أمثلة قرآنية وشعرية ، نجدها في مبحث الفصل حيث قرىء ؛

من الأمثلة الشعرية :

– كفى زاجراً للمرء أيام دهـره   تروح لـه بالواعظات وتغتـدي

– الناس للناس من بدو وحاضرة   بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

فجملتا « تروح » •• « بعض لبعض » : توضيح وبيان لمـا سبقهما ؛ لذلك فصل بين الجمل الأولى والثانية ؛ وترك الوصل ••

ومن الآيـات المتداولة لتأييد القاعـدة : تلك التي تفضح وسوسة إبليس الأولى لآدم ؛ وهي :

« فوسوس إليه الشيطان : قال : يا آدم ! •• هل أدلُّكَ على شجرة الخلد وملْكٍ لا يبلى » ••

فجملة القول : أوضحت جملة الوسوسة ؛ فهي بيان لها ؛ لذلك فصلتا ••

جـ – وحدثتهم بما يحبون ؛ حـدثتهم بحياتهم ولغتهم وتربيـة سياستهم ومجتمعهم •• يا قوم : استمعوا أحسن القول ؛ استمعوا نـداء المزمّل والمدثّر وهو الأندي والأعلى ••

إن جملَ الحديث : تظهر قاعدة المبادلة بين الجمل ؛ فجملة « حدثتهم بحياتهم » : بدل بعض من كل هو جملة « حدثتهم بما يحبون » .. فحديث الحياة واللغة والتربية السياسية : بعض من كلي ما يحب المحبون الذين نحدثهم ... كذلك في جملتي الاستماع ؛ فالجملة الأولى : شاملة مستغرقة لمعنى الجملة الثانية ؛ لذلك تعتبر بمنزلة بدل الاشتمال ؛ ألا يظهر التأمل بجملة « استمعوا نداء المزمِّل والمدثِّر » : ما هو مستغرق مشمول بجملة « استمعوا أحسن القول » ؛ لأن الإشارة إلى قول الله في سور القرآن العزيز .. وسورتا « المزمل والمدثر » من ذلك القول ؛ أولاهما : تظهر قواعد الصحبة والزمالة ، لإعداد النفس في قيام الليل وقراءة القرآن .. وثانيتهما : تظهر قواعد التبليغ والمواجهة ، للتحقق بين الناس .. وهما السورتان الثالثة والرابعة بترتيب نزول السور القرآنية ، وهما مع سابقتيهما « اقرأ .. والقلم » .. وتاليتهما « الفاتحة » : دورة أولى تامة في سياق تفسيرنا للقرآن العزيز « منهج لليسر التربوي » ...

هذه الأمثلةُ الثلاثةُ : مثال التوكيد .. ومثالُ البيان .. ومثال البدل : صور لمواضع الفصل بين الجملتين ؛ لكنها صور ترك الوصل لكمال ما بين الجملتين من اتصال وتآلف ؛ فالتوكيد لا يعطف على ذاته ، وكذلك عطف البيان وأشكال البدل ..

وترك الوصل بين الجملتين : يكون لكمال الانقطاع وشبهه .. كما يكون لكمال الاتصال وشبهه ..

من أمثلة الفصل لتمام الانقطاع : ما سبق تقديمه من الحكم الإعرابي من مواضع الوصل ؛ فهناك قدمت أمثلة من سورة البقرة : تميز بين ما يقصد به التشريك بين الجملتين في الحكم الإعرابي وبين ما لا يُقصد به ذلك التشريك ؛ فلتحسب تلك الأمثلة في حسبان من يريد معرفة مواضع الفصل لتمام الانقطاع بين جملة وجملة ؛

ومن الأمثلة الفصلية : تلك الجمل التي تختلف خبراً وإنشاء ؛ كقوله تعالى في سورة الفاتحة :

« إياك نعبد وإياك نستعين : اهدنا الصراط المستقيم » ••

فجملة « اهدنا » : مختلفة في اللفظ والمعنى عن سابقتيها ؛ فهي : إنشائية بالأمر •• وسابقتاها : خبريتان ؛ لذلك ترك الوصل بالواو بينها وبين ما سبقها •• وكذلك يترك في مثيلاتها ؛ وعندما يكون الاختلاف بين الجملتين بالمعنى فقط ؛ إذ لا يكون بينهما مناسبة ، كقولهم « كفى بالشيب داءً : صلاحُ الإنسان حفظ الوداد » •• إذ ما العلاقة بين الجملتين ؛ « كفى بالشيب » •• وجملة « صلاحُ الإنسان » : لذلك فصل بينهما « لعدم وجود مناسبة معنوية بينهما » ••

ومن الأمثلة الشعرية :

– لا تحسب المجد تمراً أنت آكله لن تبلغَ المجد حتى تلعق الصبر!

– وإنما المرء بأصغريه كل امرىء رهنٌ بما لديه ••

في المثال الأول : تباين بين الجملتين ؛ لاختلافهما أسلوباً ؛ فالأولى إنشائية « لا تحسب » •• والثانية خبرية « لن تبلغ » ••

وفي المثال الثاني : تباين بين الجملتين ؛ لابتعاد المناسبة بين معنى الجملة الأولى ومعنى الجملة الثانية ••

ومن أمثلة اختلاف الجملتين بالمعنى فقط :

– جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوي من صديقي

فالجملتان « جزى الله الشدائد » و « عرفت بها » : اختلفتا من جهة المعنى ، وإن بدتا بثبوت الشكل المتشابهة خبراً •• فهما بلفظ الخبر •• وقد تكونان بلفظ الإنشاء ، مثل : « ألم يهبْكَ الله نعمة الصحة ؛ اشكرهُ على ذلك » ؛ فالجملتان اختلفتا من جهة المعنى ؛ فأولاهما : بمعنى الخبرية الماضوية ؛ وثانيتهما إنشائية بالأمر ؛ وظاهرهما الاتفاق اللفظي بالإنشائية ••

أما ما يسمونه « شبه الانقطاع وشبه الاتصال » : فمن أمثلته :

١ ـ يقولون : إني أحمل الضيم عندهم
أعوذ بربِّي أن يُضام نظيري

٢ ـ السيف أصدقُ إنباءً من الكتب
في حدِّه الحد بين الجدِّ واللعب ..

البيت الأول : مثال لشبه كمال الانقطاع ، وفيه ثلاثة جمل : « أعوذ بربِّي » لم تعطف على « يقولون » ، لئلا يتوهم أنها معطوفة على الثانية « أحمل الضيم » ..

وكذا في قول الشاعر :

وتظن سلمى أنني أبغي بها
بدلاً .. أراها في الضلال تهيم ..

لم يعطف الجملة الثالثة « أراها » على الجملة الأولى « تظن » ؛ لأن هذا العطف يوهم بأنه على الجملة الثانية القريبة « أبغي » ؛ ومثل هذا التوهم يخل بالمعنى ؛ لذلك كان الفصل مع شبه كمال الانفصال بين الجملة الأولى والثالثة : تظن ـ و ـ أراها .. في المثال الثاني ؛ وبين يقولون ـ و ـ أعوذ .. في المثال الأول ...

أما البيت الثاني : فمثال لشبه كمال الاتصال ؛ فالجملة الثانية : جواب لسؤال اقتضته الجملة الأولى ؛ فجملة « السيف أصدق » : متضمنة سؤالاً عن سبب الحكم الذي تضمنته ... وجملة « في حدِّه الحد » : جاءت جواباً عن هذا السؤال المقدر ...

وأذكياء الباحثين : يعدون الأمثلة ؛ ويلتزمون بها حدود سابقيهم ؛ لتظل أحكامهم في مشروع المألوف ..

من هـذه الأمثلة قول لأبي تمـام أيضاً :

ليس الحجاب بمقصٍ عنـكَ لي أمـلاً
إنَّ السمـاء ترجّى حـين تحتَجِبُ

فقد فصل الجملة الثانية عن الأولى : لقوة الرابطة بينهما ، وكأنهـا جواب السؤال المتضمن في الأولى ، فكأن سائلاً قال : وكيف لا يقصي الحجاب ؟ .. وجاء الجواب في الجملة الثانية طبيعيّاً مقنعاً ، فعند احتجاب السماء بالغيـوم : يرجى منها العطاء ، لأن هذا الاحتجاب : بشائر المطر ودلائله ، ومن المطر يكون إخصاب الأرض وخـيرها ..

ومن الباحثين من يذهب إلى تسمية الجملة الثانية بالمستأنفة ، أو الاستئنافية ، وينوعون الاستئناف ، ومن أمثلتهم : ما يدخـل في التفكير الموصل إلى الحضرات وراء الكلمات ،

أ – « لا إكراه في الدين : قد تبيَّن الرشد من الغيِّ »

في الآية جملتان ، أولاهما استدعت سؤالاً ، فكأن قائلاً قال : لماذا لم يكن هناك إكراه في الدين ؟ ..وهذا السؤال يستفسر عن سبب الحكم مطلقاً ، بمعنى أنه يجهـل سببه ، فيأتي الجواب والإعلام في الجملة الثانية « قد تبين الرشـد من الغيّ » ، لذلك لا حاجة للإكراه ، فمن شـاء فليكن في الرشد المنقذ ، ومن شـاء فليختر لنفسه ما أحبت ثمود لنفسها ، فثمود قـوم صالح (ع) هم الذين استحبوا العمى واختاروا الضلالة على الهـدى ، وكانت عاقبتهم ما أخبرت بـه سورة الشمس ..

ومثل هـذا التعليل المفكر على تخوم « شبه كمال الاتصال » بين الجملتين وتسمية الجملة الثانية : مستأنفة .. نجد في الشعر أمثلة طيبة ، كقول القائل :

قال لي : كيف أنت ؟.. قلت : عليـلُ
سـهر دائـمٌ ، وحـزن طـويـل ..

والشاهد في الجملتين المتجاورتين « أنا عليل : سهر دائم » •• أولاهما : اقتضت سؤالاً عن سبب العلة •• والثانية حملت الجواب الذي يُسمَّى الاستئناف ، وهو : « سهر دائم » ••

ب – « وما أبرِّىءُ نفسي : إنَّ النفس لأمَّارة بالسوء » ••

كذلك في الآية جملتان ؛ الأولى أثارت سؤالاً عن السبب الخاص لهذا الحكم وعن حصوله أم عدم حصوله ؛ فكأن سائلاً سأل : ولم تتهم نفسك وتنفي عنها البراءة ؟ •• فاستأنف المسؤول الكلام جواباً عامّاً يشمل النفس « إنَّ النفس لأمَّارة بالسوء » •• وجاءت جملة الجواب مفصولة عن جملة الحكم : لشبه كمال الاتصال بينهما ؛ فكأن الثانية تأكيد للأولى ؛ ولأن الفصل أعطاها استقلالاً من جهة أخرى : سميت استئنافاً •• أو جملة مستأنفة ؛ فكأن التوقف بين السؤال والجواب : محسوب القيمة في معاني الجملة شبه المتصلة كما في معاني الجمل شبه المنفصلة ••

جـ – ومن الأسئلة التي تقتضيها الجملة الأولى : ما يعرف من المقام الذي يرسل به الكلام ؛ ومن ذلك قول الشاعر :

زعم العواذل أنني في غمرة   صدقوا ؛ ولكن غمرتي لا تنجلي ••

كأن سائلاً سأل عن حكم العواذل : أهو صادق أم كاذب ؟ وجاء الجواب « صدقوا » •• والاستدراك توكيد للجواب ••

عالج القزويني أنواع الاستئناف هذه بست صفحات من كتاب الإيضاح (٢٥٥ – ٢٦٠) •• وتفاصيله مفيدة لمن يشاء ؛ ليس في أنواع الاستئناف أو شبه كمال الاتصال ، بل في « أحوال الوصل والفصل » جميعاً •• وكذلك تفاصيل الجرجاني في هذا الباب •• ولا بأس من التوقف مع عبارة الكتابين القديمين : بصورة نقدية ؛ تستحسن حيناً ؛ وتقوم حيناً آخر •• ومما يقوم للباحثين بهذا الفصل : فهمهم لأبي تمام •• ومما يستحسن بحالهم « الجامع في الوصل » ••

- ٣ -

نقـد وتقـويم مع ابي تمام

كيف نُصلّي لربنا فنتصل بهباته وننفصل عن مُنَغِّصاتِ سواه ؟

نَحْنُ نَحِنُّ إلى تحقّق الحضراتِ وراءَ الكلمات ، كما نقـول بماهية « علم المعاني » •• والوصل والفصل من أبواب هذا العلم ؛ والباحثون بتاريخه وتطوره : يُعظمون أمـرَه ، فيقولون : « معرفةُ الفصل من الوصل ، تلك هي البلاغة ؛ لأن هـذه المعرفةَ : لا تتم لأحدٍ إلاّ إذا أكمل سـائر معاني البلاغة ؛ ولأن عـلم هذا الباب ، كما يقول الجرجاني ، أغمضُ وأخفى وأدق وأصعب من أي علمٍ من علوم البلاغة يُوصف بالخفاء والغموض والدقة والصعوبة » ••

والذي يبدو لنا : ينبه إلى مفارقةٍ بين طبيعة الموضوع وتاريخه ؛ فالخلاصة التاريخية : ما سمعناه من الجرجاني المؤسِّس ، كما يصفونه ، وممن تابعوه بالنقل الحرفي أو التعديلي •• والخلاصة الطبيعية لهذا العلم المعنوي : تقوم على العطفِ الواوي ؛ فـإن حضرت الواو : كان الوصل ؛ وإن غابت كان الفصل ؛ والتنبُّه : يوقظ النشاطَ لإدراك المطابقة بين العطف والخفـاء ؛ بين الوصل والدقـة ؛ بين الفصل والصعوبة ؛ بين الغموض وتتابع الجمل ، أي تعاطفها بعلائق تجعلها تعبيراً يوصل رسـالة من مرسل إلى متلق ••

مبادىء التجميل تُعنى بمعرفـة حدود الجُمل ؛ وبذلك يكون « الوصل والفصل » نظـرية تجميل ومجالاً لممارسة مبادئها •• ولسنا في موقف الجرجاني أو القزويني أو سواهما : لنقول ما قالاه بصعوبة الوصل والفصل ؛ فقـد أقنعنا الإعجاز القرآني : بإعدامِ الصعبِ ؛ لأننا لم نجد في هذا الكتاب العزيز : كلمة « صعب » ، ولا مشتقاً من مشتقاتِها ؛ ففهمنا اليسرَ بكل شيء ، من حيث الوجود الميسور •• وفهمنا أن الصعوبة ليست بالموضوع ذاتـه ؛ قـد تكون الصعاب

دلائل : ١٧٠ ـ ١٧٨ ؛ وانظر الايضاح للقزويني : ٢٤٦ .

في أعصابِ طلاب العلم ؛ وقد يكون الشفاء في شد العزم لمعرفته ؛ ولا بـد أن « معرفة الحقّ تحرر العارف » ، كما تقول كلمة من الله ألقيت إلى مريم العذراء ، وعرفت بعيسى ، أو المسيح ، أو ابن مريم •••

هذه واحدة بواحدة ؛ يقولون بصعوبة يؤكدها اتفاقهم في تاريخ البلاغة •• ونقول بيسر تربوي تؤكده طبيعة البلاغة والمطبوعون عليها ••

لذلك نعـود إلى « البلاغة الممارسة » ونتأمـل كلام البلغاء ، وننبـه إلى « شاعرية القواعد » في كل استعمال تطابق بـه الكلمات معانيَها أو حضراتِها ؛ فماذا في ممارسات الكلام للتأمّلِ ؟

كتب القزويني باب « الفصل والوصل » بثلاث وثلاثين صفحة ؛ أقامها على واحد وسبعين مثالاً ، أخذها من آياتٍ قرآنية ،وردت في تسعٍ وعشرين سورة ؛•• واعتمد على أربعـة عشر مثالاً شعرياً •• فمادة الباب الأصلية : خمسة وثمانون مثالاً من الوحي والشعر •• وهي موجودة في كتب سابقيه ، وخصوصاً السكاكي والجرجاني ومن أخذا عنه •• وكذلك هي موجودة في كتب المتأخرين عنه ، حتى في الكتب المدرسية الحديثة •• ولا يبالغ القارىء المنتبه : إذا قال إنهـا كتاب واحد ، تكرّر مادتـه ؛

أعرف أن طلاب البلاغـة غيورون على تراثهم ؛ وأنهم ذوو نخوة ؛ وأنهـم يطيرون « زرافاتٍ ووحداناً » لكل صيحة يرسلُها « أخ لهم » على ذمة شـاعر العـرب القـائل :

لا يسألون أخاهـم حـين ينـدبهم
في النائبـات على ما قـال برهـانا

قـوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهـم
طـاروا إليـه زرافات ووحدانا ••

لذلك أسألهم : أن يطلبوا البرهان للخير في مسائل البيان العـربي العريق ؛

ومن مطالب مسألتي أن يقرأوا « الفصل والوصل » مرتين ؛ الأولى مع الجرجاني ؛ والثانية مع القزويني ؛ ثم هم أحرار في اختيار كتاب جامعي حديث ، يقرأون به الطبعة المجدّدة والمعدلة للطبعتين السابقتين •• وإذا كانوا يحبون الحرية ويرغبون بالتحرر : فليقوموا بنجدة أنفسهم ، بنوع من الموازنة بين أقدم الصيغ وأحدثها ؛ وليجربوا حذف المكرر والاحتفاظ بالمعنى ؛ فقد تحمى نخوتهم فيجربون الصياغة المجدّدة التي يطابق بها اللفظ مقتضى حال المعنى ••

لا بأس من بعض التنغيص ؛ فلنقرأ مدخل القزويني الى باب « الفصل والوصل » ثم مدخل الجرجاني •• ولنكف عن القراءة لوقت نعتبره كافياً لاكتشاف التشابه التكراري ؛ يقول القزويني :

« الوصل : عطف بعض الجمل على بعض ؛ والفصل : تركه ؛ وتمييز موضع أحدهما من موضع الآخر ، على ما تقتضيه البلاغة : فنٌ عظيم الخطر ؛ صعبُ المسلك ؛ دقيق المأخذ ؛ لا يعرفه على وجهه ، ولا يحيط علماً بكنهه : إلاّ من أوتيَ فهم كلامِ العرب طبعاً سليماً ، ورُزق في إدراكِ أسراره ذوقاً صحيحاً ؛ ولهذا قصر بعض العلماء البلاغة : على معرفة الفصل من الوصل ، وما قصرها عليه لأن الأمر كذلك ، إنما حاول بذلك التنبيهَ على مزيد غموضه ، وأن أحداً لا يكمل فيه إلاّ كمُلَ في سائر فنونها ؛ فوجب الاعتناء بتحقيقه على أبلغ وجه في البيان ؛ فنقول والله المستعان » •• (ص ٢٤٦) ••

ونعتذر للمتابعة مع القزويني : لأننا نحب الاستماع إلى الجرجاني بهذا المستوى المدخلي ؛ القائل :

« إعلمْ ؛ أنّ العلمَ بما ينبغي أن يُصنعَ في الجمل من عطفِ بعضها على بعض ، أو تركِ العطف فيها والمجيءِ بها منثورة تُستأنف واحدةٌ منها بعد أخرى : من أسرار البلاغة ؛ ومما لا يأتي لتمام الصواب فيه : إلاّ الأعرابُ الخلّص ، والأقوامُ طبعوا على البلاغة ، وأوتوا فناً من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفرادٌ ؛ وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك : أنهم جعلوه حداً للبلاغة فقد جاء عن بعضهم

أنه سئل عنها فقال « معرفة الفصل من الوصل » ؛ (البيان والتبيين ١/٨٨) .. « ذاك لغموضه ودقة مسلكه ، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد : إلا كمل لسائر معاني البلاغة » (١٧٠) ..

إن العالمين الجليلين في هذا المدخل : يعطيان فكرة واضحة عن فن التأليف البلاغي ، فتلتقي القرون البلاغية في بضعة أسطر ، تحدد مسألة واحدة ، هي هنا : قيمة « الوصل والفصل » بين أساليب البلغاء .. ولا بأس من تأييد حكمنا بأدلة التاريخ ؛

فالجاحظ من القرن الثالث الهجري (٢٥٥ هـ) : هو الذي أشار إليه الجرجاني من القرن الخامس (٤٧١ هـ) ، بقوله « جاء عن بعضهم » .. وإلى الجرجاني أشار القزويني من القرن الثامن (٧٣٩ هـ) .. وبما أنه يلخص ويوضح كتاب المفتاح للسكاكي : فقد اجتذب القرن السابع (٦٢٦ هـ) ..

إن السكاكي مثلهم : يؤكد قيمة « الوصل والفصل » ، بين أساليب البلغاء ؛ فيقول :

« مركوز في ذهنك ، لا تجد لرده مقالا ، ولا لارتكاب جحده مجالا : أن ليس يمتنع بين مفهومي جملتين اتحاد بحكم التآخي ، وارتباط لأحدهما بالآخر مستحكم الأواخي ؛ ولا أن يباين أحدهما الآخر مُباينة الأجانب ، لانقطاع الوشائج بينهما من كل جانب ؛ ولا أن يكونا بَيْن بَيْنَ لآصرةِ رحمٍ ممّا هنالك ، فيتوسط حالهما بين الأولى والثانية لذلك ؛ ومدار الفصل والوصل – وهو ترك العطف وذكره – على هذه الجهات ؛ وكذا طيّ الجمل عن البين ولا طيّها ؛ وإنها لَمَحَكّ البلاغة ؛ ومنتقد البصيرة ؛ ومضمار النظار ؛ ومتفاضل الأنظار ؛ ومعيار قدر الفهم ؛ ومسبار غور الخاطر ؛ ومنجم صوابه وخطئه ؛ ومعجم جلائه وصدئه ؛ وهي التي إذا طبقت فيها المفصل : شهدوا لك بالقدح المعلى ، وإن لك في إبداع وشيها اليدَ الطولى ؛ وهذا فصل له فضل احتياج إلى تقرير واف وتحرير شاف » .. (المفتاح : ١١٩) ..

ومثل هؤلاء باحثو القرون في البلاغة ، مثل : ابن المعتز ، (٢٩٦ هـ) في : البديع •• أو قدامة بن جعفر (٣١٠ هـ) في نقد البلاغة •• أو العسكري (٣٩٥هـ) في الصناعتين •• أو القيرواني (٤٦٣ هـ) في العمدة •••

ومثلهم الباحثون المعاصرون في البلاغة والمعاني ؛ كلهم يكررون المسألة الواحدة مع أمثلتها ؛ وقلما تجد ما ينبىء برغبة التغيير أو التجديد في المسألة •• وقد يكون احتجاجهم مقنعاً ؛ لأن القواعد : ثابتة ؛ هل نطور بواو العطف مثلاً ؟

جوابنا التجددي في فهم الثابت ؛ فتربة الأرض في بلادنا : ثابتة ؛ ونوعية البذور : ثابتة ؛ لكن مواسم العطاء : تختلف ؛ تكون شحيحة حيناً ؛ وتكون سخية أحياناً ••• والصراط المستقيم : أوصل بالهدى ؛ لذلك نعمد إلى وقائع الأمثلة ؛ لتظهر إرادتنا في ضرورة فهم الثبات الإبداعي المتجدد ؛

يقول الجرجاني وهو في مجال تطبيق النظرية التي توجب الوصل بين جملة وجملة :

« ثم إن الذي يوجبه النظر والتأمل أن يقال في ذلك : إنّا وإن كنّا - إذا قلنا « زيد قائم وعمرو قاعد » - فإنا لا نرى ههنا حكماً نزعم أن الواو جاءت للجمع بين الجملتين فيه ؛ فإنا نرى أمراً آخر نحصل معه على معنى الجمع وذلك ألا نقول « زيد قائم وعمرو قاعد » : حتى يكون « عمرو » بسبب من « زيد » ، وحتى يكونا كالنظيرين والشريكين ، وبحيث إذا عرف السامع حال الأول : عناه أن يعرف حال الثاني ؛ يدلك على ذلك أنك إذا جئت وفطنت على الأول شيئاً ، ليس منه بسبب ، ولا هو مما يذكر بذكره ، ويتصل حديثه بحديثه : لم يستقم ؛ فلو قلت : خرجت اليوم من داري ؛ ثم قلت « وأحسَن الذي يقول بيت كذا » : قلتَ ما يُضحِك منه ؛ ومن هنا عابوا قول أبي تمام :

لا والذي هو عالم أن النوى صبر"
وأن أنا أبا الحسين كَريم ••

وذلك لأنــه لا مناسبة بين كرم أبي الحسين ومرارة النوى ، ولا تعلق لأحدهما بالآخر ؛ وليس يقتضي الحديث بهذا الحديث بذاك » •• (ص ١٧٢ - ١٧٣) ••

الجرجاني : مؤسس البلاغة ، كما يقول شوقي ضيف ، في « البلاغة تطور وتاريخ » ؛ وكما يقول كثيرون ؛ لذلك لا تصح مخالفته ، وعلى من جاء بعــده أن يلتزم التاريخ ؛ وأن يلتزم في فهم التطور : ما تعنيه مسألة انتقال العبارة الحاكمة من عصر إلى عصر ؛ أليس لذلك سميت عصور التراث العــربي بأسماء الدول الحاكمة ؟ •• وكان الأحــق بأصحاب التاريخ : أن يرتبطوا بالزمان وصاحبه ؛ ومنهــم مَن أحسن بتوزيع أبحــاثه على القــرون المرتبطــة بهجــرة خــاتم النبيين (ص) من مكة إلى المدينة ، باعتبار الإسلام الذي حمله : هو المعيار الذي يقاس عليه ، بلاغة وما سواها ؛ أليست إشارتنا إلى مادة هــذا الباب القرآنية : ملفتة إلى هذا الاتجــاه •• ؟

وإذاً من الوفــاء للجرجاني : أن يترك السكاكي لخياله حريــة التطور في السخرية المضحكة من مثل قول أبي تمام ، فيقول كلاماً غريباً بصور من العطف وضعها ليطلق حكماً يؤدي ما ظــن الجرجاني يريده ؛ ومن عبارته المهــذبة : (١٣٠ - ١٣١) ••

« متى قال قائل : زيد منطلق" ••• وإن القرد شبيه بالآدمي" ••• فعطف أخرج من زمــرة العقلاء ، وسجل عليــه بكمال السخافة ، أو عُدّ مسخرة من المساخر ، واستطرف نسقه هذا إلى غايةٍ ، ربما استودع دفاتر المضاحك وسفينَ نوادر الهذيان ؛ بخلافه إذا ترك العطفَ ، ورمى بالجُمَلِ رميَ الحصا والجوزِ ، من غير طلَب ائتلاف بينها ؛ فالخطب : يهون هوناً مّا ؛ ومن هنا عابوا أبا تمام ، حيث تعاطى الجمع بين مرارة النوى وكرم أبي الحسين ، في قوله :

لا والذي هو عالم أن النوى صبِر" ، وأن أبا الحسين كــريم ••

ومن الوفــاء للسكاكي : ألاّ ينسخ حكمه القزويني ؛ لذلك تابع سابقيه ؛ وتطورت المسألة إلى صورته التعبيرية :

« فكما يُشترط في كون العطف بالواو ونحوه : مقبولاً في المفـرد ، أن يكونَ بين المعطوف والمعطوف عليه جهة جامعَة» ، كما في قوله تعالى — يَعْلَمُ ما يلجُ في الأرض ، وما يخرجُ منها ، وما ينزلُ من السماء ، وما يعرُجُ فيها — يشترط في كون العطف بالواو ونحوه مقبولاً في الجملة ذلك ، كقولك : زيـد يكتب ويشعر ؛ أو يعطي ويمنع ؛ وعليه قوله تعالى : « واللهُ يقبضُ ويبسـطُ ؛ وإليه ترجعون » ... ولهـذا عيب على أبي تمام قوله ؛ إذ لا مناسبة بين كـرم أبي الحسين ومرارة النوى ، ولا تعلّقَ لأحدهما بالآخر » .. (٢٤٦ — ٢٤٧)..

هذه النماذج الثلاثة من فتاوى القضاة التراثيين : تعطي فكرةً واضحة عن كيفية الالتزام بالتاريخ ، وعن كيفية إدراك التطور في مثل تفتيح المضحك الذي رأيناه من الجرجاني إلى السكاكي ؛ وفي مثل مـزج الأمثلة بعضها ببعض عنـد القزويني ؛ ولا بأس من انتظار العودة إلى هذه الملاحظة ؛ لأن الخلط بين مستويات البلاغة : ليس هو التطور المنشود لمسألةٍ مّا ...

لقد ورثت الأجيالُ هذا « العيبَ » الذي أفتى به مؤسس بلاغة العرب ، كما يقول الأحفاد الباحثون ؛ وصار هذا العيب الموروث : من المقدسات التأليفية التي يشار إليهـا بالبنان في كل جامعة ومدرسة ؛ والجاهل من لم يكن عالماً علـم الوفاء لهـذا العيب ؛ لأنه التراث المقدس ..

لذلك جـاء في « علم المعاني » ، للدكتور عبد العزيز عتيق :

« ومن عيوب الوصل انعدام المناسبة بين المعطوف والمعطوف عليه ، كقول أبي تمام : « أن النوى .. وأن أبا الحسن » .. وإنما كان هذا العطف ، في هـذا البيت ، مَعيباً : لأنه لا مناسبة في المعنى بين المعطوف والمعطوف عليه ، إذ لا علاقة — مطلقاً — بين مرارة النوى وكرم أبي الحسين » .. (ص ١٨٧ — ١٨٨) ..

ولذلك جاء في كتاب « البلاغة الواضحة » لعلي الجارم ، ومصطفى أمـين : « لم يَعيبُ الناسُ العطفَ في الشطر الثاني من أبي تمام » ؟ ... (ص ٢٣٨) .

مسكين أبو تمام : لقد شهر عيبه الموروث بين الفقهاء وبين جماهير الناس ؛ مع أنه الطائي الأصيلُ ، حبيب بن أوس ؛ ومع أن باحثين أجلاء : يعتبرونه ذروة الشعر العربيّ .. ترى لماذا لم يفكر الباحثون بالبيت مجدّداً ؟ .. ألا يمكن أن يكون الحكم الموروث على بيت أبي تمام : منحرفاً عن جادّةِ الصواب ؟

قد يقال : ولكن الجرجاني ، مؤسسَ البلاغة : هو صاحب الحكم .. وقد صوت معه قضاة البلاغة القدامى .. وباحثوها المحدثون .. أما فهمتَ ما قاله السكاكي والقزويني .. وما جاء في كتب جامعية وثانوية حديثة ؟ ..

أقول : لعلي لم أفهم ؛ لأنني مثل أبي تمام : قليل الخبرة بأساليب البيان العربي .. أفيرضى أهل الذوق هذا الإفحام الذي يُرغمني على قبول الحكم المأخوذ بالأكثرية المسموعة ؟ !

لا بد من العودة إلى الجرجاني نفسه ؛ فهو يسلّم بصعوبة « الوصل والفصل » ؛ وأن هذا الأسلوبَ « من أسرار البلاغة ، ومما لا يأتي لتمام الصواب فيه إلاّ الأعرابُ الخلّصُ ، والأقوام طُبعوا على البلاغة ، وأوتوا فناً من المعرفة في ذوق الكلام ، هم بها أفراد » ... وربما نستطيع الحصول على موافقة من الجرجاني بأن أبا تمام : ممن طبعوا على البلاغة ، وأوتوا فناً من المعرفة في ذوق الكلام ... ولا يتعجلن الجرجانيون أكثر منه ؛ فقد بنيت رجائي على أحكام أخرى في الباب نفسه : تشهد لأبي تمام بسلامة بلاغته ، كقول الجرجاني :

« واعلم أنه إذا كان المخبر عنه في الجملتين واحداً ، كقولنا : هو يقول ويفعل ... ازداد معنى الجمع في الواو قوة وظهوراً ، وكان الأمر حينئذ صريحاً ؛ وذلك أنك إذا قلت : هو يضر وينفع ؛ كنت قد أفدت بالواو أنك أوجبت له الفعلين جميعاً ، وجعلته يفعلهما معاً ...... ومما له مأخذ لطيف في هذا الباب قول أبي تمام : (ص ١٧٤) ..

لهان علينا أن نقولَ وتفعلاَ
ونذكرَ بعض الفضل منكَ وتُفضِلاَ

المسألة : ليست هذه وحسب ؛ فالجرجاني ومتابعوه : قد يستحسنون لأبي تمام تارة وقد يعيبون عليه وعلى أمثاله ٠٠ ولا يمنعهم أحد ؛ فتلك مستويات فهمهم ؛ لكنها ليست كل المستويات ؛ وهم يقولون بالمراتب البلاغية الممتدة من صحة الجملة الإعرابية المتاخمة – كما يقولون – لأصوات الحيوانات ٠٠٠ وحتى حدود الإعجاز وما يقرب منه ؛ كما في عبارة « الإيضاح القزوينية » ؛ (ص ٨٢)٠٠

المسألة غير ذلك ؛ فهي مسألة التعسف الوائدة للحقائق العليا ، التي هي أكبر وأعلى من هؤلاء القضاة ومن مستويات فهمهم ؛ وربما ينفتح ذهن القارىء لما نقوله ، ابتداءً من قضية بيت أبي تمام وما رافقها من أحكام وأساليب ٠٠

نعود إلى البيت ، ونسجل استحساناً لمحقق الإيضاح ، الدكتور محمد عبد المنعم الخفاجي : فقد أشار بالحاشية إلى البيت السابق والبيت اللاحق لبيت العيب البلاغي ؛ وهذا هو البيت الذي صار عيبه تراثاً تُسأل عنه الأجيال ، نضعه في إطاره : لعلنا نفهم ما نشفي به أحد الفريقين ، أو نشفيهما معاً :

زعمتْ هواكَ عفا الغَداةَ كما عَفَا	منهــا طــلالٌ باللــوى ورسومُ
لا والذي هو عــالم أن النــوى	صَبِرٌ ٠٠ وأن أبا الحسين كريمُ
ماحلتُ عن سننِ الوفاء ، ولا غدتْ	نفسـي على إلفٍ ســواكَ تحومُ

من المعلوم في قصيدة المدح العربية : أن الشاعر يُصبِّر مطيته على احتمال المشاق ؛ لأن الممدوح : سينسيها متاعب الرحلة ؛ وقد يكون الخطاب للزوجة التي يتركها الشاعر وينأى عنها وعن بنيه : ليجلب لهم من الممدوح المقصود ما يعوض عليهم مرارة الصبر على الفراق ؛

بيت أبي تمام : مؤَسَّس على هـذا التقليد الشعري الثقافي المعلوم عند سابقيه كالنابغة والأعشى ، وسواهم ٠٠ ولا يزال مستمراً بصور تؤدي المعنى ٠٠ والمعنى الدقيق في البيت : هو القسَمُ بالعالم الوهاب أن الشاعر على وفائه لممدوحه محمد بن الهيثم بن شبانة ؛ لكن مرارة البعد عن الأهل : يعلمها الله العالم بمعاناة

من يعانيها •• كما يعلم هذا العالم تقدير أبي تمام لمواهب ابن الهيثم التي أبرز منها موهبة الكرم •• والبلاغة في البيت ، تظهر لذي تأمل : باجتماع الأمرين في خاطر أبي تمام ؛ أمر النوى ومرارته ، إذا ترك الأهل وذهب لملاقاة صديقه وممدوحه ؛ وأمر الكرم وعذوبته ، إذا قصد هذا الإلف البعيد مكاناً ، القريب وفاء •••

مستوى الجامع بين « مرارة النوى وكرم أبي الحسين » أعلى من الدرجة التي وقف عليها الجرجاني ؛ لذلك لم ير المناسبة الحميمة بينهما ؛ وكيف يستطيع « ما لم يحط به خبراً » ، على حدّ تعبير الخضر لموسى في سورة الكهف •• لقد كان مع زيد وعمرو : قبل لقائه ببيت أبي تمام ؛ ولا أدري لماذا نسي أو تناسى : أن مرتبة البلاغة الشعرية غير مرتبة قوله « زيد قائم وعمرو قاعد » •• ؟ ! أو مرتبة قوله : خرجت اليوم من داري •• ؟ !

مشكلة الخلط بين مستويات التعبير : تفقد البلاغة قيَمها ؛ وتضلّ بأصحابها عن صراط الإعجاز ، كما تغضب عليهم أجنحة المجاز أيضاً •• وربما تفقدهم أبسط حقوق الباحث في هذه الحقول الشريفة ؛ أقول هذا والألم سميري لمستوى القزويني في هذه المسألة : فقد غلطه عدم الانتباه ثلاث مرات : بعطف المفرد على المفرد ؛ وببنائه قول الله على مقالة زيد •• وبتغليطه أبي تمام ؛

الغلط الأول : ظنّ التعاطف بين الجمل تعاطفا بين المفرد والمفرد ؛ فقال : يشترط في كون العطف بالواو مقبولاً في المفرد أن يكون بين المعطوف والمعطوف عليه جهة جامعة ، كما في قوله تعالى : « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » ••• ونيته أن التعاطف بين الأسماء الموصولة « ما •• وما •• وما •• وما » •• ومعلوم : أن الاسم الموصول يجتذب معه جملة الصلة ؛ ويكون التأويل : « يعلم الوالج والخارج والنازل والعارج » •• وهذا بالتأويل : عطف مفرد على مفرد ؛ لكن مئات الأمثلة القرآنية أدل على عطف المفرد والمفرد مما اختاره : كعطف الليل على الضحى ؛ وعطف القمر على الشمس ؛

وعطف الحرور على الظل" .. وذلك معلوم للمتمسيه .. ومع ذلك فهذا الغلط : يمكن الاعتذار عنه ..

أما الغلط الثاني : فيتجاوز البنية الخارجية إلى القصد المعنوي ، ويدخل بعدم مراعاة المقتضى ؛ وذلك بأسلوبه في التعبير على اشتراط الجهة الجامعة للتعاطف بين جملتين : « كقولك زيد يكتب ويشعر ، أو يعطي ويمنع » ؛ وعليه قوله تعالى : « والله يقبِض ويبسِط ؛ وإليه ترجعون » ...

أتعجب أن يمر هذا التعبير ولا يخدش ذوق مشتغل ببلاغة العرب وإعجاز القرآن .. أقَوْلُ الله تعالى : يساق على هذه الشاكلة ، فيقال « وعليه قوله تعالى » .. يعني على قولك : « زيد يعطي ويمنع » ... أهذا هو المنهج البحثي أم المنهج الخلقي ؟

وفق قواعد البحث : لا بد من مراعاة المستويات البلاغية وقيم المادة المشكّلة لتؤديَ دوراً إفهامياً ؛ ففي مثل مادة الجرجاني المتعلقة بعطف الجملة على الجملة : للباحث طريقان ؛ الأولى : تبدأ من الأعلى وتنزل نحو الأوسط فالأدنى ؛ فيقال :

ومن أمثلة عطف الجملة على الجملة : قوله تعالى « يقبض ويبسط » ..

ومن أمثلتها الشعرية : قول أبي تمام « أن النوى .. وأن أبا .. » ..

ومن أمثلتها الشعبية : قولك « زيد يكتب ويشعر » .. الخ ويمكن أن تسلك الطريقة الثانية : ويكون البدء من مستوى البلاغة الأدنى .. ويصعد نحو الشعر .. ثم نحو الوحي ...

أما هذا الخلط الذي لا يُفرِّق بين كلام معجز ، وكلام بليغ ، وكلام صحيح الإعراب : فليس منسجماً مع ما قرر لمراتب البلاغة عند هؤلاء الباحثين أنفسهم .. لكن الإشكال في الممارسة دائماً ..

وعند إثارة الإشكال : نتوقف قليلاً ؛ لنرى : قيمة الأخذ بهذا التراث

على عواهنه •• فهل يتوقف ضرره على كتب البلاغـة أم يتجاوزها إلى أخلاق الأجيال الشابة المتعلمة وسلوك الأجيال الناضجة المعلّمة والمدبِّرة ؟ !

ربما تكون الصراحة المقنعة بحب الخير لمـن تصارحهم : أولى ، ولو كانت من المنغصات التي أشرت إليها من الأسطر الأولى ؛ إلا أنها أقل تنغيصاً مما سمعنا ورأينا في الأمثلة المقدمة ، حول « تكرار المسألة الواحدة •• وعدم التمحيص » ••

في اللقـاء الرابع مع طلاب الدراسات العليا ، قسم اللغـة : جربت تجربة خفيفة ؛ لأعرف ردود فعلهم وعواطفهم حـول محاولة القراءة المجدّدة لعـلوم اللغـة ؛ (١٩٨٧/١٢/١٦) ••

طلبت إليهم أن يقرأوا عشرة أسطر بعنوان « الإعجاز يعرف بأحكام النحو » ؛ وأن يصوغوها صياغة جديدة : لا تكرار بهـا ولا حذف لأية فكرة من أفكارها •• وعندما ناقشتهم بالممكنات لتحسين التأليف : أجابني أحـدهم بمثل الصارخ في وجهي دفاعاً عن مقدس لا يجوز أن يُمَسّ ، ومجمل صرخته : « هذا الجرجاني ، وكل شيء يقوله له أسراره البلاغية ، فهمنا ذلك أم لم نفهمه » •• وكان حوارنا حول قـول الجرجاني في أول نصه :

« فإذا ثبت الآن ، أن لا شك ولا مرية ، في أن ليس النظم : شيئاً ، غـير توخي معاني النحو ، وأحكامه فيما بين معاني الكلم •• ثبت من ذلك : أن طالب دليل الإعجاز من نظم القرآن •• إذا هو لم يطلبه في معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه ؛ ولم يعـلم أنها معدنه ومعـانه ، وموضعه ومكانه ؛ وأنه لا مستنبط له سواها ، وأن لا وجه لطلبه فيما عـداها : غار نفسه بالكاذب من الطمع ، ومسلّم لها إلى الخدع » •• (ص ٣٥٦ من هذا الكتاب) ••

كنت أريـد من الشباب أن ينتبهوا إلى معاني الكلمات المغنية عن بعضها ؛ وأن بـين أداة الشرط « إذا » وجوابها : عشرين كلمـة •• وأن جملة الجواب

« ثبت » دخلت في « شـلـل » من التركيب هو أشبه « بالشـلـل » ••• لكن صرخة الصارخ ذكرتني بحكايـة رويتها لهم عن « فرويد » الذي ألقى محاضرة حـول نظريته الجديدة في التحليل النفسي : فهرجوا ومرجوا •• وجاذبهم الحديث بمقاساة معلومة حتى أنهى كلامه ؛ فقال لهم : أشكركم أعمـق الشكر لحسن إصغائكم •• والحال يغني عن المقـال ••

وأكرر رجائي للشباب والشيوخ : أن يبصروا بعيونهم ، وأن يستفيدوا من قلوبهم ؛ فقد يكون ذلك أكثر إرضاء للأب الشيخ ؛ وللتراث ؛ وللحق ؛ ••

إذا قرر أحد الرؤيـة بقلبه : فسوف يرى أن جملة الجرجاني الشرطية قابلة للتحسين ؛ « فإذا ثبت أن لا شك ولا مرية في أن ليس النظم شيئاً غير توخي معاني النحو •••• ثبت من ذلك » •••

أهـذا تركيب عـربي مبين ؟

ألا يحسن القـول : « فإذا أيقنتَ أن دلائل الإعجـاز في معـاني النحو فالتمسْه بهـا » ؟ ! ••

لكن إدمان أمر : يجعل المدمن عبداً له ؛ أليس تناول « السكائر » مضراً ؟ •• ومع ذلك كم من المدمنين : يسلمون بتركه ؟ !

على مستوى آخر وأعلى : كتبت رسالة توضح أمـراً تخصصياً في مسألة مناقشة رسالتي دكتوراه ؛ فعولجت بتصويت : نالت الرسالة فيه صوتي المختصين بالموضوع فنياً وإدارياً ؛ وحكمت بالأكثرية غـير المختصة[1] •• كما حكم على بيت أبي تمـام •••

---

١ ـ وجهت الرسالة إلى مجلس كليـة الآداب بتاريخ ١٩٨٧/١١/٢٨ حول لجنـة المناقشة لرسالتي دكتوراه ؛ قدمت الأولى : ماجدة حمود ، بعنوان : حـركة النقد الأدبي الفلسطيني في الشتات .. وقدمت الثانية : مها العطار ، بعنوان : فن المقـالة في سورية .. وأدخلت الرسـالة مـع مجموعة « رسائل جامعية وعجائب إداريـة » ..

ولو أنك وسعت مجال النظر : لوجدت أن المسألة الجرجانية الموروثة لا تناقش ، ويستمات للدفاع عنها ، مع أننا رأينا انحرافها عن الصواب من البدء .. فهل نصل جملنا بواو العطف أم نقاطع بينها بلا عطف ؟

- ٤ -

احوال الكوثر في الفصل والوصل

قديماً : قالوا عن النبي العربي (ص) أقوالاً معلومة في سور من القرآن الكريم ؛ ودافع ربه عنه ؛ فهو على خلق عظيم ؛ وشانئه هو الأبتر ... فكيف صدق التاريخ هذا التطور ؛ ! ؟

إن سورة « القلم » وسورة « الكوثر » : تدافعان عن رسول الله وخاتم أنبيائه ؛ وإنني أذكّر بهما تشجيعاً للمؤمنين بقدرتهم على التفكير : لأن ساعة التفكر خير من عبادة ستين سنة أو سبعين ، كما هو مشهور من الأحاديث الشريفة .. وقد نجد في أصغر السور : عن « الوصل والفصل » ما لا نجده في مطوّلات البحوث ؛ بل بالتأكيد : نحن واجدون هباتٍ من الوعي لا تقاس بمنغصات التجارب التفهيمية ، التي اضطررنا للعبور من بعض مسالكها في « الوصل والفصل » ..

في سورة الكوثر : أتم صور الوصل والفصل ؛ وهي ثلاث آيات لا غير ؛ وهي أقصر سور الكتاب العزيز ؛ وهي الثامنة بعد المئة جمعاً ؛ والخامسة بعد العاشرة نزولاً .. نزلت بعد وفاة القاسم بن محمد (ص) ؛ وبعد قول الناس ومنهم « العاصي بن وائل » : صار محمد أبتر ، أي لا ذرية له ؛ وجاء الجواب خطاباً لخاتم النبيين :

١ - إنّا أعطيناك الكوثر ؛
٢ - فصلّ لربّك وانحر ؛
٣ - إنّ شانئك هو الأبتر ؛ » ..

في الآية الثانية : جملتان إنشائيتان بالأمر ؛ فصلِّ يا محمد لربّك •• وانحرْ ذبائح عيد النحر •• والمعنى القريب : مقنع" ؛ لأن الذبائح في عيد الأضحى : تأدية تاريخية تعود بالذاكرة إلى فداء اسماعيل بالذبح العظيم ؛ وتلقي إلى النبي الحفيد تعزية جديدة بالذكرى الرائعة ، ذكرى موقف الخليل من ابنه اسماعيل ؛ تلك الوقفة الباسلة الوفية من كليهما : الأب الخليل والابن السميع ••

وهنا : تؤدي أحوال الجملتين غاية الأسلوب البلاغي الواصل بالعطف بينهما ؛ فالواو : عطفت فعل النحر وفاعله على فعل الصلاة وفاعلِه ؛ والتناسب تام بين الجملتين ؛ لأن فاعل الصلاة والنحر واحد ؛ ولأن الأسلوب إنشائي في الجملتين ؛ ولأنهما متفقتان في الإعراب النحوي ولا يوجد ما يمنع اشتراكهما في أحكام النحو الإعرابية هـذه ••

في مثل هذا الوضع : يجب الوصل بواو العطف ، كما تمّ ؛ وكما يستنبط الملاحظون المتتبعون لبناء التراكيب وعلائق الجمل المتعاطفة ••

إن الاتصال بهباتِ الحال في السورة الكوثرية : يتدرج على سلّم علم المعاني ، الذي صار واضحاً لنا ؛ فأولى درجاته : التجميل ؛ لأن معرفة حدود العلائق بين الجمل هي البلاغة ، كما يقولون ؛ أما سمعنا أن معرفة الفصل من الوصل هي البلاغة وقمتها الأرقى ؟

في مبادىء التجميل : تحدّد الجملة بمسندها والمسند إليه فيها وما يلحق بهما من قيود أو روابط •• وعلى معرفة حدود الجمل : تفهم اهتمامات الباحثين بالوصل بين جملتين أو بالفصل بينهما •

في سور القرآن الكريم : علاقات أخرى ؛ وهو تقسيم النص القرآني المسمى سورة إلى آيات ؛ والآية قد تكون جملة وقد تكون عديداً من الجمل ، فهي بمثابة الفقرة ••

في سورة الكوثر : ثلاث آيات وفق التقسيم القرآني ؛ كلّ آية منها :

ألْتَفَتْ من جملتين ؛ فهي بحساب التجميل المبدئي : ست جُمَلٍ ؛ ومعرفة ذلك صارت ميسورة : لمن يعرفون بناء الجملة النحوي ، من فعل وفاعل ، أو من مبتدأ وخبر •• وهذا تطبيق المسألة وفق المبادىء المجمّلة :

١ — إنّا أعطيناك الكوثر •• هذه الآيــة الأولى ؛ وجملتاها : إنّا : جملة" أولى ؛ فهي : « إن » الحرف المشبه بالفعل •• و « نا » الضمير المتصل الذي هو اســم أن •• والجملة الثانية ، هي : أعطيناك الكوثرَ ؛ ومؤداها إلى خبر أن ؛ والتقدير : إنا مُعطوكَ الكوثر •• ومكونات الجملة الفعلية الخبرية : واضحة ؛ أعطى : فعــل ماض متعد ؛ نا : ضمير الفاعل ؛ ك : مفعول به أول ؛ الكوثر : مفعول به ثان ••

هذا جانب النحو في الجملة ؛ وزاوية من جانب المعنى ؛ ونترك رؤية الدلائل المعنوية إلى ختام رؤية الآيتين الباقيتين من زاوية النحو المتصل بزاوية المعنى ••

٢ — فصَلِّ لربّك وانحرْ •• هذه الآية الثانية ؛ وجملتاها متصلتان بواو العطف ؛ لأحكام سبقت الإشارة إليها ؛ فصل لربك : جملة أولى ؛ الفاء : استئنافية ؛ صلِّ : فعل أمــر ؛ فاعله : مستتر وجوباً تقديره « أنت » •• لربّك : جــار ومجرور ومضاف إليه ••• والجملة الثانية : وانحــرْ •• الواو : حرف الوصل العاطف ؛ انحر : فعل أمر ؛ فاعله : أنت •• وقد عطفت الجملة الثانية على الأولى كما نقول بالنحو ؛ وقد وصلتا ، كما نقول بعلم المعاني ••

٣ — إنّ شانئكَ هو الأبتر •• هذه الآية الثالثة ؛ وجملتاها : « إن شانئكَ » جملة أولى ؛ إن : حرف مشبه بالفعل ؛ شانىء : اسم ان منصوب ؛ وهو مضاف ؛ الكاف : في محل جر بالإضافة •• والجملة الثانية : هو الأبتر ؛ هو : ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ ؛ الأبتر : خبره ؛ والجملة منهما في محل رفع خبر ان ؛ والتقدير : إن شانئك مبتور •• ويمكن إعراب هذه البنية بصورتي إعراب أخريين ؛ وفي أية صورة إعرابية : نظل مع هذه القدرة البلاغية المؤدية غرضها الحتميّ ••

الزاوية المعنوية لهـذه الآيات المجملة : تظهر دلائل الإعجاز المعنوي ؛ فمن هو هذا الأبتر الشانىء لحامل القرآن ومبلّغه ؟ •• وما هو مدلول الكوثر الذي أعطي لرسول الله الأكـرم ؟ •• وما هذه الصلاة وهذا النحـر بين مِنَّة العطاء الكوثري وعِزَّةِ المنعِ البتار •• ؟

علمنا أن هذه السورة أوجز سور القرآن حجماً وتبدو من أسباب النزول : أنها قصة النبي العربي (ص) ومُركّز" لفصول استمراره المنتصر على أعداء الله المناوئين له ولرسالة الهدى الإلـهية التي يحملها جامعة خير الدنيا والآخرة ••

لعلم المعاني : عيون وأذواق ؛ تري وتعطي للإعجاز القرآني ومنه : ما لا يُرى ولا يُعطى بغيرها •• وتجربتنا مفتوحة أبداً لتأكيد هذا الذي نراه ونذوقه بعيون المعنى ومذاقاته ••

في تاريخ التفسير : أسماء مذكورة لتحديد الشانىء لرسول الله ؛ والشانىء : يعني المبغض ؛ ومبغضو رسول الله (ص) معروفون ومشهورون ؛ وقد ذكـر في هذا السياق : العاصي بن وائل السهمي ؛ وقيل : بل هو الوليد بن المغيرة ؛ وقيل : بل هو أبو جهل ؛ وقيل : بـل هو عقبة بن أبي معيط ••• لكنهم رجحوا تسمية العاصي ؛ لأنهم نسبوا إليه كلاماً بالنبيِّ سبَّبَ نزول السورة •• خلاصة الكلام : نقـل برواية عبـد الله بن عباس ، قال :

« كان أكبر ولد رسول الله (ص) : القاسم ؛ ثم زينب ؛ ثم عبـد الله ؛ ثم أم كلثوم ؛ ثم فاطمة ؛ ثم رقيـة •• فمات القاسم ؛ وهو أول ميت من ولده بمكة ؛ ثم مات عبد الله •• فقال العاصي بن وائل السهمي : قد انقطع نسله فهو أبتر » ••

وفي رواية أخرى تقول المعنى بصورة ثانية ؛ فقال العاصي : « إني لأشنؤه •• لا جرم لقـد أصبح أبتر » ••

والأبتر في لغة قريش : من مات ذكور أبنائه ؛ وصار فرداً •• ولا عقِبَ له •• وقـال العاصي بن وائل : « إن محمداً رجـل أبتر ؛ لا ولد له ؛ فلو قـد مات انقطع ذكـره » ••

وهكذا كان من أمر مناوئيّ رسول الله (ص) الذين مثلهم هذا « العاصي » من عصاة العرب لحق رسول الحق الأكرم •• وجاء جواب المهيمن الحكيم فأنزل السورة الأوجر والأعجز •••

وقولنا الأوجز : لأنها أقصر سور الكتاب العزيز ؛

وقولنا الأعجز : لأنها قصة المواجهة المستمرة بين نَبي الله وبين خصومه الإبليسيين •• ولأنها مع إيجازها الشديد : نهر معان دائم التدفق •• ويمكن فهم هذه الملاحظة على نحو تاريخي ، إذا تأمل المتفهم : روايات المفسّرين لمعنى لفظة « الكوثر » ذات العذوبة التي لا توصف ؛ لقد عدّ بعض الناقلين ستة وعشرين معنى لها ؛ ومن تلك المعاني ، قولهم بالكوثر :

« هو الخير الكثير ؛ نهر في الجنة ؛ حوض النّبي في الجنة أو في المحشر ؛ أولاده ؛ أصحابه وأشياعه إلى يوم القيامة ؛ علماء أمته ؛ القرآن وفضائله كثيرة ؛ النبوة ؛ تيسير القرآن وتخفيف الشرائع ؛ الإسلام ؛ التوحيد ؛ العلم والحكمة ؛ المقام المحمود ؛ نور قلبه ؛ إلى غير ذلك » •••

فهذه أربعة عشر معنى : يجمعها الخير الكثير ؛ إنما يأخذ بيدنا علم المعاني إلى التنبه العميق للمقابلة بين الآية الأولى والآية الأخيرة : « إنا أعطيناك الكوثر ••• إنّ شانئك هو الأبتر » ••

فالتقابل بين البنيتين ، والتأمل بأحوال اللفظ ، كما يقال في تعريف علم المعاني ، يفتح نوافذ الإعجاز البنيوي في الدلائل ذاتِها •• أصل المقابلة بين الجمل : يقوم على رؤية المسند إليه وما يستتبعه من مسند وقيود ••

نلاحظ المسند إليه في الجملة الأولى « نا » ؛ وهو ضمير جماعة المعطين ؛ الذين هم حسنى الأسماء الكريمة المتصلة برسول الرحمن بصور الاتصال الإنعامية المتعددة تعدد النعم الإلهية التي لا تحصى ••• وكذلك المسند إليه في الجملة

الثانية « نا » ؛ وهو نفسه فاعل الفعـل « أعطينا » •• وفضائل المعنى : تتجلى في تتمة الملاحظة ، فالمسند إليه في الجملتين متصل ؛ اتصل بالحرف المشبه بالفعل واتصل بالفعل •• والفعل جاء واسع الطاقة متجاوزاً بفيضه الإنسان المعطى إلى الكون الموهوب ؛ فكاف الخطاب والكوثر : يحملان آثار « نا » الواهبة بالتأكيد المسبق ••

هذه بنية الآيـة المناصرة بالإيجاب العطائي ••

أما بنية الآية المقابلة : فمختلفة ؛ « إن شانئك هو الأبتر » •• فالمسند إليه : منفـرد ؛ « شانىء » وليس جمعـاً •• وجملة الخبر « هو الأبتر » : اسمية ؛ ثابتة البتر ؛ فلن تكون يوماً متجدّدة ؛ ولن يصبح كاره رسول الله ، في ذات يوم ، موصولاً من الخلق ومحبوباً ؛ ولن يلهج باسمه أحد •• إلاّ بالذم واللعنة الدائمة كأبي لهب في السورة التي تذكر بقطعه ثم قطعه رغم حسبانه الخلود بالمـال •• والتحديق ببناء الجملتين وفق تعريف علم المعاني : يوصل إلى أحوال اللفظ المطابقة لمقتضى الحال في كلتا الآيتين ، الأولى والثالثة ••

وقـد فصل بين الجملتين ؛ فلم يُقـل : « إنا أعطيناك الكوثر – و – إن شانئك هو الأبتر » •• مـع أن الوزن الإعرابي متشابه •• ويقولون في أحكام الفصل : هنا « شـبه الانقطاع » ؛ وضابطه : أن عطف الجملة الثالثة على الجملة الأولى يوهم عطفها على ما توسط بينهما ، وليس المقصود ذلك في الكلام الملقى ؛ فلو وصلت الجملتان لأوهم عطف الآية الثالثة على معاني الآيـة الثانية « فصلّ لربّك وانحـر » •• وذلك بعيد لا يصح •• لذلك فُصِل بين الآيتين الثالثـة والأولى : دفعـاً للتوهم ولشبه كمال الانقطاع المعنوي مـع التشابـه البنيوي « إنا أعطيناك •• إن شانئك » •••

نترك المقـابلة هنا : لنتأمل في الآية المتوسطة من وجهـة المعنى والدلائل الإعجازيـة ؛

في التفاسير السريعة يقولون :

« فصلِّ لربك صلاة عيد النحر •• وانحر نسكك » •• وقد أشرت إلى إيضاح مثل هذا المذهب التفسيري ••

في التفاسير المتأنية المطولة : ينقلون أخباراً تغير معنى النحر ، وتقدمه منسجماً مع تأدية الصلاة ، بعيداً عن ذبح الأضاحي •• فالنحر في هذه الأخبار المأثورة يعني : « رفع اليدين في تكبير الصلاة إلى النحر » •• وعن البيهقي في سننه عن علي بن أبي طالب (ع) ، أخرجه ابن أبي حاتم ، والحاكم ، وابن مردويه •• « لما نزلت هذه السورة على النبي (ص) – إنا أعطيناك الكوثر – قال النبي (ص) لجبريل : ما هذه النحيرة التي أمرني بها ربي ؟ •• قال : إنها ليست بنحيرة ؛ ولكن يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبَّرت ، وإذا ركعت ، واذا رفعت رأسك من الركوع ؛ فإنها صلاتنا ، وصلاة الملائكة الذين في السماوات السبع ؛ وإن لكل شيء زينة ؛ وزينة الصلاة : رفع اليدين عند كل تكبيرة » •• قال النبي (ص) : رفع اليدين من الاستكانة التي قال الله : « فما استكانوا لربّهم وما يتضرعون » ••

ومن أخبار « النحر » المأثورة : ما يؤكد هذا المعنى ؛ فلتراجع في تفسير « الميزان جـ ١/٣٧٢ » •• أو غيره ••

إن سياق الأمر بالصلاة والنحر : يبدو بهيّاً بهذا المعنى الجديد على المألوف المتعارف من معنى « النحر » ••

هذا التآلف المتَطهّر بين النحر والصلاة : يفتح الباب إلى تآلفٍ أروع وأعلى لمعنى المفردة « الكوثر » ••

قلت لعلم المعاني : عيون تري ما لا يُرى بغيرها •• وربما دار بعض المفسرين قريباً من المعنى الأدق للمفردة « الكوثر » •• ولكن أحداً منهم في حدود علمنا

لم يُصرِّح بالمعنى المخصص للكوثر في هـذا السياق كما صرح بالمعنى المخصَّص للنحـر ..

إن بناء الجملة المركبة « أعطيناك الكوثر » : بوزن الوصل المتساوق بقوله « فصلِّ وانحر » .. ففي الجملتين تواصل وقد وصلتا بحرف العطف « الواو » ؛ مع أن النحر : جزء" مزين للصلاة ، كما في عبارة جبرائيل عليه السلام .. وعطف النحر للصلاة : نوع من إبلاغ قيمة هذه الحـركة المزينة للصلاة والرافعة لمرتبتها لتكون مثل صلاة الملائكة وصلوات السماوات السبع ؛ ولذلك دلائله الارتفاعية الخلودية ... ومثل هذا التأمل : ينقل إلى جملة العطاء ويوازن مع جملة الصلاة المزينة بالنحـر .. جملة العطاء ذات امتياز توحدي ؛ فلهـا فعل واحد يحتضن مفعولين ؛ الكاف النَّبوية ؛ والكوثر النَّبوية أيضاً ؛ لأن هذه الكوثر معطاة للنبي أيضاً ؛ والسر معها فهي زينة العطاء كما أن النحر زينة الصلاة .. ولينتبه أذكياء التأمل فقـد غيرت الجنس وبدأت أقترب من شاطىء الوضوح ؛ فأنا أقـول « هذه الكوثر » .. وهم يقولون « هذا أو ذلك الكوثر » .. إن تأنيث اللفظ له دلائل معنى اقتضتها حال السياق ..

عفو المفسرين : لقد عمموا حيث تقتضي الحال التخصيص ؛ فقالوا : الكوثر خير كثير ونهـر في الجنة ..

والسؤال البلاغي : وما علاقة هذا بتحدي الشانىء المعيِّر الشامت بالنبي لوفـاة أبنـائه ؟ ! .. !

بلاغياً : لا تقتضي حـدة السياق والموقف هذا النهـر في الجنة ؛ فلكل المؤمنين هذا الوعد ؛ ولهم جنات تجري من تحتها الأنهار .. فما الشفاء الدفاعي لرسول الله الأكرم بمثل هـذا المعنى ؟ !

كذلك لا تقتضي حدة الموقف وخصوصه : التفسير بالخير الكثير ؛ وليس تعويضاً على النبي (ص) مخصص ؛ لأن للمؤمنين جميعاً هبات خير كثير في جنة أو جنات عرضها السماوات والأرض مع رضوان الكريم ومن كل الثمرات ..

فما الخصوص المواسي لرسول الله بهـذا الخير الكثير العام ، والموقف واضح التحدي بشأن الأبنـاء ؟

ألا يمكن أن نسأل سياقياً : وممن كانت ذرية النبي (ص) التي جعلته موصولاً بذريته •• كما جعلته موصولاً باسمه ورسالته ؟

الجواب المحدّد الشافي : إن ذريته كانت من « الكوثر » المعلومة ، التي هي تسمية اقتضتها حال السياق لفاطمة ابنة محمد ، التي قال بإظهـار صلتهما « فاطمة بِضعة مني » •• ويروى أن أحب مناداته لها كانت « يا أم أبيها » •• وفي الكتب التي حملت هذه التكنية « أم أبيها » تفاصيل لمن يحب مزيداً من التعرف إلى أسرة رسول الله المعطى هذه الكوثر والذي « شانئه هو الأبتر » •• وفي كـل العصور ؛ لأنه « خاتم النبيين » المعطى خصوصَ الأبوّة وعموم الهدى •• فهل يسمع من لهم آذان وهبت للسمع ؟ ! !

هذا لون من ألوان التفهم بريشة علم المعاني الذي هو « تتبع لأحوال اللفظ العربي واستكشاف لمطابقته مع مقتضى حـال المعنى » كما يقول علماء المعـاني في تعريفاتهم ••

وقد دلنا إلى هذا اللون : خصوص لأحوال الوصل والفصل ؛ أرجو أنـه صار واضحاً •• أليس خصوص الوصل جمـع بين جملتين باعتبار المسند إليـه والمسند في كليهما ؟

– ٥ –

جامع الوصل والصدمة النقدية : بين البلاغة والشعر الحديث

نعود إلى عبارة الكتاب القديم ؛ فقد استطال الحديث في « إيضاح القزويني » حول « الجامع في الوصل » وقسّمه إلى : عقليٌّ ، ووهمي ، وخيالي ؛ وأظهـر حاجة « صاحب علم المعاني إلى التنبه لأنواع الجامع ، لا سيما الخيالي » •• ثـم أشار إلى محسنات الوصل •• وأفاض في حديث جملة الحـال المنتقلة : ليقول إنها « تجيء تارة بالواو ، وتارة بغير الواو » ••

يعتبر حديث « الجامع في الوصل » من المقاطع الموفقة في أحـوال الفصل والوصل ؛ لذلك أضع عبارة « الإيضاح » كما هي ؛ لنأخذ منها درساً مقـارناً : نذكر فيه لهيجل ذكاء ملاحظته .. ونذكر مقاطع من أساليب الشعر الحديث ومن أساليب البلاغيين .. ونترك للقارىء آثـار الصدمة لعله يميز بين غثّ الأمور وثمينهـا ...

أ – فمن عبـارة الإيضاح :

« يُحكى عن ورّاقٍ يصف حـاله :

عيشي أضيق من محبرة ؛ وجسمي أدقّ من مسطرة ؛ وجـاهي أرقّ من الزّجاج ؛ وحَظي أخفى من شَقّ القلم ؛ وبَدَني أضعفُ من قصبة ؛ وطعامي أمـرّ من العَفْص ؛ وشرابي أشـدّ سواداً من الحبر ؛ وسوء الحـال ألزم لي من الصمغ » [1] ..

ب – لهيجل في « فن الشعر » : ما يؤكد هذا المتجه ؛ فالشاعر : يتخذ أقنعته مما يعبر عن تجاربه وخبراته المعاشة وتجاربه التي ساورته شخصياً » .. [2]

جـ – إذا نظـرنا وفق هاتين النظرتين من القزويني وهيجل : ألا نفهم كثيراً من قصائد الشعر الحديث ونصوص البلاغة القديمة فهماً واقعيّاً ؟ وأعني بالواقعية : ما يدل على خبرات كتّابها من معادلاتهم الموضوعية التي يتوسلون بها في تعبيرهم..

إن التأمل بالنصين التاليين : قد ينبه إلى ما أراده هيجل وكروتشه وإليوت والقزويني وغيرهم من شأن الذاتية وراء موضوعات التعبير [3] ؛

---

١ – الايضاح للقزويني : ٢٦٥

٢ – راجـع « المسألة الغبراء » في « ملحق السبر الأدبي ومتجه لنظريـة عـربية في الأدب والنقـد » .. ص ٦٦١

٣ – تأمـل : في « المسألة الغبراء » وامثلتها .. مـن فـن الشعر لهيجل : ٢٤٣ ومن القصيدة المعاصرة لموسى : ٢٧٨

النص الأول من النثر البلاغي :

« درجات الحَمَلِ ثلاثون ؛
وكمُّ الخليفة في غـاية الطول ..
وما أحوجني إلى الاستفراغ ..
وأهـل الروم نصارى ..
وفي عـين الذباب جحوظ ..
وكان جالينوس ماهـراً في الطب ..
وختْم القرآن في التراويح سُنة ..
وإن القـرد لشبيه بالآدمي » ...

أما النص الثاني فمن الشعر الحديث :

« وحش" بلا رأسٍ : يتوّجُ نفسَه ربّاً ؛ ويبسط ظلّه :
وطناً كقبعة المهـرّج ؛ ظلّه أرض" تمدُّ حقولها سُرُرا ؛
وتهـذي ... »
« إذهبْ وطفُ : فِكَر" كأسماكٍ معفّنة ؛
مدينةُ ألسُن قطِعَتْ وديست .. »
« إذهبْ وطفُ : سترى خنازيراً ؛
يحولها الكتاب إلى ظِبـاء .. »
وأنا وأنت الساقيان وحولنـا :
حشرات أسلحةٍ تطوقنا وتفقس بيضها .. »
لا الأمس بل هـذا الحطام :
جثث" - أخ وأخ" ؛ حدائق عاشقين وأصدقاءْ ..
جثث - مواعيد ؛ تلهف غائب ، وحنين منتظـر ، وصبوة حالم ..
جثث - وتعجز أن تميِّز : أيهـا
سيف" يَجزُّ ؛ وأيها عنق يُجَزُّ .. وأيهـا » ...

قال صاحب النص النثري في التعليق التقديري لنصه الذي قدمه مثالاً على

عطف الجمل التي لا مسوّغ لربط بعضها ببعض : « حتى قال قائل : زيد منطلق ودرجات الحمل ثلاثون » ... فعطف أخرج من زمرة العقلاء ؛ .. بخلافه إذا تَرك العطفَ ورمى بالجُمل رميَ الحصى والجوز من غير طلب ائتلاف بينها ؛ فالخطب « إذن يهون هوناً مّا » ...

وقال صاحب النص الشعري الحديث ، مقدّماً لنصه :

« لا تشترك الأسماء المعروفة دينيّاً وتاريخيّاً ، مع الأسماء الواردة في هذه القصيدة إلا باللفظ ؛ فليست لهذه أية علاقة بتلك ، على أي مستوى ، إنما هي رموز وإشارات خاصة بعصرنا الحاضر [1] » ..

إن الجمع بين هذين النصين في خاتمة « أحوال الوصل والفصل : يحتاج اهتماماً بلاغيّاً ونقديّاً وتربوياً ؛ لأن « ممارسة البلاغة والتربية النقدية » : من الأهمّ باعتبارنا .. وهذا الأهمّ : يُستوعب ويُقدَّر بالمران الطويل وبمعرفة الجامع بين طرفي الكلام .. ولعل « الجامع في الوصل » الذي أشرنا إليه في مقدمة هذه الخاتمة : يساعد على استنباط الغاية من سياق هذا الكلام ؛ ويعلّم التمييز بين ما ينبغي فصله وما ينبغي وصله : على تنوع المستويات البلاغية والحيوية .. وهذه عبارة القزويني القديمة كما هي في « أنواع الجامع في الوصل ؛ ومحسناته ؛ والتذكير بواو الحال » ..

والجامع بين الجملتين يجب أن يكون باعتبار المُسْنَد إليه في هذه ، والمُسْنَد إليه في هذه ، وباعتبار المسند في هذه والمسند في هذه جميعاً ، كقولك : يشعر زيدٌ ويكتب ، ويعطي ويمنع ، وقولك : زيدٌ شاعرٌ وعمرٌو كاتبٌ ، وزيدٌ طويلٌ وعمرٌو قصيرٌ ، إذا كان بينهما مناسَبَة ، كأن يكونا أخوين ، أو نظيرين ، بخلاف قولنا : زيدٌ شاعرٌ وعمرٌو كاتبٌ ، إذا لم يكن بينهما مناسبة ، وقولنا : زيدٌ شاعرٌ وعمرٌو طويلٌ . كان بينهما مناسبةٌ أوْ لاَ .

وعليه قوله تعالى : « إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيهِمْ أأنْذَرْتَهُمْ

---

١ ـ مواقف : تموز ـ تشرين ١ ؛ ١٩٨٣

أمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ » [1] قُطِعَ عمَّا قبلَه ؛ لأنه كلامٌ في شأن الذين كفروا ، وما قبلَه كلامٌ في شأن القرآن .

وأما ما يُشْعِرُ به ظاهر كلام السكاكِيِّ في مَوْضع من كتابه ، أنه يكفي أن يكون الجامع باعتبار المُخْبَرِ عنه ، أو الخبرِ ، أو قيدٍ من قيودهما ؛ فإنه منقوضٌ بما مَرَّ . وبنحو ذلك : هزم الأميرُ الجندَ يومَ الجمعة ، وخاط زيدٌ ثوبي فيه ، ولعله سهوٌ ؛ فإنه صرَّح في موضعٍ آخرَ منه بامتناع عطفِ قولِ القائل « خُفِّي ضَيِّقٌ » على قوله : « خاتمي ضيِّق » مع اتحادهما في الخبر .

ثم قال : الجامع بين الشيئين : عقليٌّ ، ووَهْمِيٌّ ، وخياليٌّ .

أما العقليُّ فهو أن يكون بينهما اتِّحادٌ في التصوُّر .

أو تَماثُلٌ ؛ فإن العقل بتجريده المِثْلَيْن عن التشخُّص في الخارج يرفع التعدُّدَ .

أو تَضايُفٌ ، كما بين العلَّةِ والمعلولِ ، والسَّبَبِ والمُسَبَّبِ ، والسُّفْلِ والعُلُوِ ، والأقلِّ والأكثرِ ؛ فإن العقل يأبَى أن لا يجتمعا في الذِّهْن .

وأما الوهْمِيُّ فهو أن يكون بين تصوُّرَيْهِما شبهُ تَماثُلٍ ، كلَوْنِ بياضٍ ولَوْنِ صُفْرَةٍ ؛ فإن الوهمَ يُبْرِزُهُما في مَعْرِض المِثْلَيْنِ ، ولذلك حَسُنَ الجمعُ بينَ الثلاثةِ التي في قوله :

ثلاثةٌ تُشْرِقُ الدُّنيا ببهجتها
شمسُ الضُّحَى ، وأبو إسْحاقَ ، والقَمَرُ [2]

أو تَضَادٌّ ، كالسَّوادِ والبَياضِ ، والهَمْسِ والجَهارَةِ ، والطِّيبِ والنَّتْنِ ، والحلاوةِ والحُموضةِ ، والمَلاسَةِ والخُشونةِ ، وكالتَّحرُّكِ

---

١ ـ البقرة : ٦
٢ ـ انظر الشاهد ١٠٨ من كتاب الإيضاح .

والسكونِ ، والقيامِ والقعودِ ، والذهابِ والمجيءِ ، والإقرارِ والإنكارِ ، والإيمانِ والكفرِ ، وكالمتَّصفاتِ بذلك كالأسودِ والأبيضِ ، والمؤمنِ والكافرِ .

أو شبهُ تضادٍّ ، كالسماء والأرض ، والسهْلِ والجبلِ ، والأوّلِ والثاني ؛ فإن الوهم يُنْزِل المتضادّيْنِ والشبيهين بهما مَنْزِلَةَ المتضايفَيْنِ ؛ فيجمع بينهما في الذّهْن ؛ ولذلك تجد الضدَّ أقربَ خطوراً بالبال مع الضدِّ .

والخياليُّ أن يكون بين تَصَوُّرَيْهِما تَقارُنٌ في الخيال سابقٌ ، وأسبابُه مختلفةٌ ولذلك اختلفت الصُّوَرُ الثابتةُ في الخيالات ترتباً ووُضوحاً ؛ فكَمْ صُوَرٍ تتعانَقُ في خيالٍ ، وهي في آخرَ لا تتَراءى ، وكم صُورَةٍ لا تكاد تلُوح في خيالٍ ، وهي في غيره نارٌ على عَلَمٍ [1] .

كما يُحْكَى أن صاحبَ سِلاحِ مَلِكٍ ، وصائغاً ، وصاحبَ بَقَرٍ ، ومُعلِّمَ صِبْيَةٍ ؛ سافروا ذاتَ يوم ، وواصلوا سيرَ النهار بسَيْرِ الليل ، فبينما هم في وَحْشَةِ الظلام ، ومُقاساة خوفِ التخبُّط والضلال ؛ طلع عليهم البدر بنوره ، فأفاض كلٌّ منهم في الثناء عليه ، وشَبَّهَهُ بأفضل ما في خِزانة صُوَرِهِ ، فشبَّهه السِّلاحِيُّ بالتُّرْسِ المُذَهَّبِ يُرْفَع عندَ المَلِكِ ، والصائغُ بالسبيكة من الإبريز تَفْتَرُّ عن وجهها البَوتَقَةُ ، والبقّارُ بالجُبْنِ الأبيضِ يخرجُ من قالبه طريّاً ، والمُعلِّمُ برغيفٍ أحمرَ يصل إليه من بَيْتٍ ذي مروءة [2] .

---

١ ــ لا تتراءى : لا تتقابل . تلوح : تظهر . علم : جبل .
٢ ــ التخبط : السير على غير هدى . السلاحي : متولي أمر السلاح . الترس : صفحة من حديد تتقى بها ضربات السيف ونحوه . المذهب : المموه بالذهب . السبيكة : القطعة من معدن تذاب وتفرغ في قالب . الإبريز : الذهب الخالص . تفتر : أصله تضحك ضحكاً حسناً ، والمراد هنا لازمه ، وهو تكشفها وانفراجها عما في باطنها . البوتقة ، ومثلها البودقة : هي الوعاء الذي يذيب فيه الصائغ المعادن ، البقار : راعي البقر .

وكما يُحْكَى عن وَرَّاق يصف حاله : عَيْشي أضْيَقُ من مِحْبَرَة ، وجسمي أدقُّ من مسْطَرَةٍ ، وجاهِي أرقُّ من الزجاج ، وحَظِّي أخْفَى من شَقِّ القَلَم ، وبَدَني أضعفُ من قَصَبَة ، وطعامي أمرُّ من العَفْصِ ، وشرابي أشدُّ سواداً من الحِبْر ، وسوءُ الحالِ لي ألزم من الصَّمْغ [1] .

ولصاحب علم المعاني فضلُ احتياجٍ إلى التنبُّه لأنواعِ الجامعِ ، لا سيَّما الخيالي ؛ فإن جَمْعَهُ على مَجْرى الإلْفِ والعادةِ بحسبِ ما تَنْعَقِدُ الأسبابُ في ذلك كالجمع بين الإبل ، والسماء ، والجبالِ ، والأرض ، في قوله تعالى : « أفَلاَ يَنْظُرُونَ إلى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ؟ وإلىَ السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ؟ وإلى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ؟ وإلى الأرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ » [2] بالنسبة إلى أهْلِ الوَبَرِ [3] فإن جلَّ انتفاعهم في معاشهم من الإبل ؛ فتكون عنايتهم مصرُوفةً إليها ، وانتفاعُهم منها لا يحصل إلاّ بأن تَرْعَى وتَشْرَب وذلك بنزول المطَر ؛ فيكثر تقلُّبُ وُجوههم في السماء . ثم لا بُد لهم من مَأوَى يُؤْوِيهم ، وحِصْنٍ يتحصَّنون به ، ولا شيءَ لهم في ذلك كالجبال . ثم لا غِنى لهم لتعذُّرِ طولِ مُكْثِهم في مَنْزِلٍ عن التنقُّل من أرضٍ إلى سواها ؛ فإذا فتَّش البَدَوِيُّ في خياله وجد صُوَرَ هذه الأشياء حاضرة فيه على الترتيب المذكور ، بخلاف الحضَرِيِّ ، فإذا تَلاَ قبل الوقوف على ما ذكرنا ظنَّ النَّسْقَ لجهله مَعِيباً .

ومن مُحَسِّنَات الوصل تَناسُبُ الجملتين ، في الاسْمِيَّةِ والفِعْلِيَّةِ وفي المُضِيِّ والمُضارَعةِ ، إلاّ لمانع ، كما إذا أُريدَ بإحداهما التجدُّدُ وبالأخرى

تقدم نص الوراق للمقارنة وهنا للسياق والشرح ؛

١ ــ الوراق : المشتغل في الأوراق نسخاً وبيعاً . أو بهما معاً . المحبرة : الدواة ، والمسطرة : معروفة ، ويجوز في ميمها الفتح والكسر . الجاه : القدر والشرف . حظي : نصيبي . القصبة : ما تتخذ للقلم ، وتتكون سيقان نبتها من أنابيب وكعوب . العفص : نتوء يتكون على شجرة البلوط ، ويدخل في صناعة المداد .

١ ــ الآيات ١٧ ــ ١٩ من سورة الغاشية .

٣ ــ أهل الوبر : البدو ؛ لأنهم يعتمدون على وبر الجمال في كثير من شؤونهم ، ولا سيما الخيام .

الثبوتُ ، كما إذا كان زيدٌ وعمرٌو قاعدَيْن ، ثم قام زيدٌ دون عَمْرو ، وقلت : « قام زيدٌ ، وعمرٌو قاعدٌ » كما سبق .

ومما يتّصل بهذا الباب القولُ في الجملة إذا وقعت حالاً منتقلةً ، فإنها تجيء تارةً بالواو وتارةً بغير الواو ؛ فنقول : أصلُ الحالِ المُنْتَقِلة أن تكون بغير واوٍ ، لوُجوهٍ :

– الأول : أنّ إعرابها ليس بتَبَعٍ ، وما ليس إعرابه بتبعٍ لا يدخله الواو ، وهذه الواوُ ، وإن كانت تُسَمَّى واوَ الحال : فإن أصلها العطفُ .

الثاني : أن الحال في المعنى حُكم على ذي الحال ، كالخبر بالنسبة إلى المبتدأ ، إلاّ أن الفرق بينه وبينها أن الحكم به يحصل بالأصالة ، لا في ضمْن شيء آخرَ ، والحكم بها إنما يحصل في ضمن غيرها ؛ فإن الركوب مثلاً في قولنا : « جاء زيدٌ راكباً » محكومٌ به على زيد لكن لا بالأصالة ، بل بالتبعية ، بأن وُصِل بالمجيء وجُعِل قيداً له ، بخلافه في قولنا : زيدٌ راكبٌ .

الثالث : أنها في الحقيقة وصفٌ لذي الحال ؛ فلا يدخلها الواوُ كالنَّعْتِ .

فثبت أن أصلها تكون بغير واوٍ ، ولكن خُولِف الأصلُ فيها إذا كانت جملةً ؛ لأنها – بالنظر إليها من حيث هي جملةٌ – مستقِلَّة بالإفادة ؛ فتحتاج الى مايربطها بما جُعِلَت حالاً عنه . وكل واحد من الضمير والواو صالحٌ للربط . والأصلُ الضميرُ ؛ بدليل الاقتصار عليه في الحالِ المفردةِ ، والخبرِ ، والنعتِ .

أوردت عبارة الكتاب القديم ، هنا : لصلاحية مبادئها للنقد الحديث والقديم معاً ؛ ولأنها تثير مسألة العلة الجامعة في الكلام .. كما تثير مسألة الأحسن في الترابط ، والأدق في الفروق بالحرف الواحد الذي يكون للعطف وللحال ..

إن إثارات « الجامع في الوصل » مع الإشارات الخفيفة إلى قضايا « القناع » و « المعادل الموضوعي » وذاتية التعبير الفني : تشكل صدمة توقظ إلى التنبه الحديث لمسألة « الجوكوندا » التي رسمها « ليوناردو دافنشي » بصورة الامرأة المشهورة في العالم ، مع أنها ليست إلا صورة شخصية له كما يقولون ..

إن الخوض بهذه المسألة يستغرق طاقات من الإطناب والإيجاز وفق مقتضى الحال ..

صور
من المساواة
و
الايجاز
و
الاطناب

أ – مدخل بعبارة الكتاب القـديم

ب – من صور المساواة

جـ – من صور الإيجاز

د – من صور الإطناب

هـ – عـين الحـق

فأمَّا إن كان مِن المقـرَّبينَ
فرَوْحٌ وريْحـانٌ وجنَّة نعيـم
(الواقعة ٨٨ – ٨٩)

« المرأة ريحانة » = المرأة شـرٌ كلّها »
هذا أبلغ ما قيـل للمرأة ؟ !

« صور الاعتراض : ص ٥٧٤ – ٥٨٢ »

أريدُ من الإعجـازِ أمـراً مكوَّناً
وتُصْقَلُ غاباتُ العيونِ بروضةٍ
أنا الشمسُ في ذاتي أضيءُ وحاجبٌ
تلطّفَ ذو الفضلِ العظيم برحمةٍ
أنا الإوزَّةُ لا يُعلى عليَّ روافدي
تصوِّرُني الأحلامُ في الريح أنفُساً
مواطِنُ تحويلي وأشكالُ طـاقتي
رسـائلُ إدريس وشـيث وآدمٍ

يُساعد ذو القرنينِ والخضرُ نهجَنا
لجامعةِ القادي وأجيالهـا المنَى .. ؛
لأجفـانِ عينيـه الفتوحُ تحثُّنا
وأحياكَ فتّـاحٌ لتبلغَ أمـرنا .. ؛
تواصُلُ أنهـارٍ وأجنحتي السَّنا
وفي الماء أسماكاً وفي الأرض مجتنى
بفضلك يا فتّـاحُ بالحبِّ تُبتنى
بغابات ابراهيم حسنى لذي الغِنى..
٣/٢/١٩٨٨ = ١٥/٦/١٤٠٨

- ١ -
مدخل حديث لعبارة قديمة

وضع القزويني : مقدمة وخاتمة لصور المساواة والإيجاز والإطناب .. وقد يكون الجمع بينهما : بمثابة الخلاصة المعبِّرة عن أسلوبه المركَّز واختيارات سابقيه لأمثلة دالة على القواعد البلاغية .. لذلك وضعتهما متجاورتين .. ثمَّ أعطيت نماذج من صور المساواة .. ومن صور الإيجاز .. وفي كلا النوعين : أردت الإيصال المباشر بأسلوب الإيجاز ؛ لأن رسالة الإعجاز : استغرقت تفاصيل الايجاز وحققت المساواة [١] .. وتركت الإطنابَ وعداً لمتذوقي « مقتضى الحال » ..

في فصل « الصور الإطنابية » : أقمت معرضاً مرتَّباً على هذا النحو ؛ فصور الإيغال : كانت مدخلاً .. وجاءت صور التذييل .. ثم صور الاعتراض ؛ وفي هذه الصور الاعتراضية : تألق البحث إلى ذرى الحياة والموت وكانت « المرأة ريحانة » التألُّق ؛ لأنها « شرٌّ كلها وشرٌّ ما فيها أنه لا بدَّ منها » .. وظهرت وجوه المعنى من مفردة « الشر » على نحو لم يكن معلوماً ؛ فلنتأمل بصور الاعتراض وكيف يفك اللفظ من ظواهره : فيكون حياةً وحبّاً [٢] ....

بعد ارتفاع البحث إلى ذروة التعبير البلاغي الكشاف : انحدر إلى العبارة التقليدية في كتاب « الإيضاح » ؛ وقرئت منه صور : التكرير .. الإيضاح بعد الإبهام .. الاحتراس بالتكميل ثم التتميم .. وختمت أنواع الإطناب : بذكر الخاص بعد العام وذكر العام بعد الخاص ..

بعد ذلك : فتح البحثُ على « العين » ؛ لتكون تذكرة لذوي الطاقة [٣] : لعل الحنين يوقظ السعي لبلوغ « مقتضى الحال » الأعلى : فيصرخ ساع وصل كأرخميدس « رأيته بعيني » ..

بدأ القزويني مقدمة هذه الصور بنقل كلام السكاكي ؛ ثم ناقشه وقدَّم رأيه .. وهذه عبارة الكتاب القديم :

---

١ ــ ص : ٥٩٣ وما بعدها
٢ ــ ص : ٥٧٩ وما يتعلق بالاعتراض
٣ ــ ص : ٥٨٨ والانتباه مطلوب للوصول .. فقد ركز بالعنوان « عين الحق » : ما يلهم القراءة الذاتية في آفاق الكون وفي مستويات النفس ومقاماتها ..

- ٢ -

« قال السكاكي :

أما الإيجاز والإطناب ، فلكونهما نِسْبِيَّيْنِ لا يتيسَّر الكلام فيهما إلاَّ بتَرْكِ التحقيق ، والبناء على شيء عرفيّ ، مثل جَعْلِ كلام الأوساط على مَجْرَى مُتَعَارَفِهم في التأديـة للمعاني فيما بينهم – ولا بُدَّ من الاعتراف بذلك – مَقِيساً عليه ، ولنُسَمِّه مُتَعَارَف الأوساط وأنـه في باب البلاغة لا يُحْمَد منهم ولا يُذَمّ .

فالإيجاز هو أداءُ المقصودِ من الكلام بأقلّ من عبارات مُتعارف الأوساط ، والإطناب هو أداؤه بأكثرَ من عبارته ، سَواء كانت القِلَّةُ أو الكثرةُ راجِعةً إلى الجُمَل ، أو إلى غير الجمل .

ثم قال : الاختصار لكَوْنِه من الأمور النسبِيَّة ؛ يُرْجَعُ في بيان دَعْوَاه إلى ما سبق تارةً ، وإلى كون المقام خليقاً بأبسطَ ممَّا ذُكِرَ أخرى .

وفيه نظـر ؛ لأن كونَ الشيء نسبيّاً لا يقتضي أن لا يتيسَّر الكلام فيه إلا بترك التحقيق ، والبناء على شيء عُرْفِيّ .

ثم البناء على مُتعارف الأوساط . والبَسْطُ الذي يكون المقصودُ جديراً به ، رَدٌّ إلى جهالةٍ ؛ فكيف يصلُح للتعريف ؟

والأقربُ أن يُقال :

المقبول من طُرُق التعبير عن المعنى : هـو تَأدِيَةُ أصل المُرَاد بلفظٍ مُساوٍ له ، أو ناقصٍ عنه وافٍ ، أو زائدٍ عليه لفائدة .

والمراد بالمساواة : أن يكون اللفظ بمقدار أصل المراد ؛ لا ناقصاً عنه بحذف أو غـيره ، كما سيأتي ، ولا زائداً عليه بنحو تَكْرير ، أو تَتْميم ، أو اعتراض ، كما سيأتي .

وقولنا : « وافٍ » احتراز عن الإخلال ، وهو أن يكون اللفظ قاصراً عن أداء المعنى ، كقول عُرْوَةَ بنِ الوَرْدِ :

عَجِبْتُ لهم إذ يقتلونَ نفوسَهم
ومَقْتَلُهُمْ عند الوَغَى كان أعْذَرا

فإنه أراد : إذ يقتلون نفوسهم في السِّلْم ، وقول الحارثِ بْنِ حِلِّزَةَ :

والعيشُ خَيْرٌ في ظلا
ل النَّوْكِ مِمَّن عاش كَدّا

فإنه أراد : العيشُ الناعمُ في ظلال النَّوْكِ : خيرٌ من العيش الشّاقِّ في ظلال العقل ، فأخلّ كما ترى .

وقولنا : « لفائدة » احترازٌ من شيئين :

أحدهما : التطويل ، وهو أن يتعيَّن الزائد في الكلام ، كقوله :

« وألْفَى قَوْلَها كَذِباً ومَيْناً [1] »

فإن الكذب والمَيْنَ واحد .

وثانيهما : ما يشتمل على الحَشْوِ ، والحشو ما يتعين أنه الزائد . وهو ضربان :

أحدهما : ما يُفْسِدُ المعنى ، كقول أبي الطَّيِّبِ :

ولا فضل فيها للشجاعة والنَّدَى
وصَبْرِ الفتى ، لولا لِقاءُ شَعُوبِ [2]

---

١ ـ صدره « وقددت الأديم لراهشيه » :
قددت : قطعت ، الأديم : الجلد ، الراهشان : عرقان في باطن الذراعين ، والبيت لعدي بن زيد العبادي من أبيات في غدر الزباء بجذيمة الأبرش ونهايتها .
٢ ـ فيها . الضمير يعود الى الدنيا ، الندى : الكرم ، شعوب : الموت ، ومعنى البيت : أن الفضل فيما نعده فضائل في الحياة الدنيا ؛ إنما يعود إلى تيقن الإنسان أنه فانٍ غير مخلد .

فإن لفظ « الندى » فيه حشْوٌ يُفْسِد المعنى . لأن المعنى : أنه لا فضل في الدنيا للشجاعة والصبر والندى لولا الموتُ . وهذا الحكم صحيح في الشجاعةِ دون الندَى ؛ لأن الشجاع لو علم أنه يخلد في الدنيا لم يَخْشَ الهلاكَ في الإقدام ؛ فلم يكن لشجاعته فضل . بخلاف الباذل مالَه ؛ فإنه إذا علم أنه يموت هان عليه بذلُه ولهـذا يقول إذا عُوتِب فيه : كيف لا أبذُل ما لا أبقَى له ؟ أتَّى أثقْ بالتمتُّع بهذا المال ؟ وعليه قول طَرَفَةَ :

فإن كنتَ لا تَسْتَطِيعُ دفـعَ مَنِيَّتِي
فَذَرْنِي أبادِرْها بما ملكتْ يَدي [1]

وقول مِهْيارٍ [2] :

فَكُلْ إن أكلتَ ، وأطعِمْ أخـاكَ
فلا الـزَّادُ يبقَىْ ولا الآكِـلُ

فلو علم أنه يخلد ، ثم جـاد بمالِه ؛ كان جودُه أفضلَ . فالشجاعةُ لولا الموتُ لم تُحْمَد ، والندَى بالضدِّ .

وأجِيبَ عنه : بأن المراد بالندى في البيت بَذْلُ النفس ، لا بَذْلُ المال ، كما قال مُسْلِمُ بْنُ الوَلِيدِ :

يجـود بالنفس إن ضَنَّ الجوادُ بهـا
والجُودُ بالنفس أقصَى غايةِ الجُودِ [3]

---

١ ـ تسطيع : تستطيع ، دفع منيّتي : رد الموت عني وحمايتي منه ، والبيت من معلقة طرفـة بن العبد .
٢ ـ مهيار بن مرزويه الديلمي : شاعر تتلمذ للشريف الرضي ، واسلم عـلى يـده بعد المجوسية ، وتوفي سنة ٤٢٨ هـ .
٣ ـ يجود بالنفس : معناه هنا يسخو ويتكرم . والقصد : أن كرمه فوق ما يعرف الناس . فهو لا يغلي شيئاً على البذل والإعطاء ، ولو كان روحه وما به حياته .

ورُدَّ بأن لفظ الندى لا يكاد يُسْتَعْمَل في بذل النفس ، وإن استُعْمِل فعلى وجه الإضافة . فأمَّا مُطلقاً : فلا يفيد إلاَّ بذلَ المال .

والثاني : ما لا يُفْسِد المعنى كقوله :

ذكـرتُ أخي فعاوَدَني صُداعُ الرأس والوَصَبُ (١)

فإن لفظ « الرأس » فيه حَشْوٌ لافائدَةَ فيه . لأن الصُّداع لايُسْتَعْمَلُ إلا في الرأس ، وليس بِمُفسِدٍ للمعنى .

وقولِ زُهَيْرٍ :

وأعـلم عـلمَ اليومِ والأمسِ قبـلَه
ولكنَّني عن عـلمِ ما غَـدٍ عَمِ (٢)

فإن قوله « قبله » مُسْتَغْنىً عنه غيرُ مفسدٍ .

وقولِ أبي عَدِيٍّ :

نحنُ الرؤُوس ، وما الرؤُوسُ إذا سَمَتْ
في المجْـدِ للأقـوام كالأذْنـاب (٣)

فإن قوله « للأقوام » حشوٌ لا فائدة فيه ، مع أنه غيرُ مُفْسد .

---

١ ــ الصداع : وجع الرأس ، الوصب : المرض ، والوجع الدائم ، ونحول الجسم . وقد يطلق على التعب ، والفتور في البدن . ويعاب البيت ــ بغير ما ذكر هنا ــ بأن ذكرى الأحباب تؤلم القلوب لا الرؤوس ، وقائله ابو العيال الخفاجي .

٢ ــ عم : أعمى ، والكلام على التشبيه ، أي جاهل كالأعمى لا يدرك . والبيت من معلقة زهير بن أبي سلمى .

٣ ــ التشبيه ملاحظ في القيد المستفاد من جملة الشرط ؛ فهو لم يرتض لقومه في الرفعة بوضع الرؤوس الطبعي . وهو في حقيقته وضع ممتاز بالنسبة لغيره من الأعضاء ، بل جعلها رؤوساً سامية متعالية بالمجد وللمجد ، واختياره الأذناب ، دون سائر الأعضاء عند المقارنة : يشعر برغبته في التعريض . وصاحب معاهد التنصيص نسب البيت لعدي بن زيد ، لا لأبيه .

واعلم أنه قد تشتبه الحالُ على الناظر ؛ لعدم تحصيل معنى الكلام وحقيقتِه ؛ فَيَعُدُّ من الزائد على أصل المراد ما ليس منه ، كما مثّله بعضُ الناس بقول القائل :

ولمّا قَضَيْنَا من مِنىً كلَّ حاجةٍ
ومسَّح بالأركان مَنْ هُوَ ماسحُ [1]

وشُدَّتْ على دُهْمِ المهارَى رِحالنا
ولم يَنْظُرِ الغادِي الّذِي هُوَ رائح

أخذنا بأطراف الأحاديثِ بينَنا
وسالتْ بأعناق المَطِيِّ الأباطحُ

يُبَيِّنُ أنه ليس منه : ما ذكره الشيخ عبد القاهر في شرحه .

قال : أوّلُ ما يتلقّاك من محاسِنِ هذا الشعر ؛ أنه قال : « ولما قضَيْنا من مِنىً كل حاجة » فعبَّر عن قَضاء المناسك — فرائِضِها وسُنَنِها — بطريق العموم الذي هو أحدُ طُرُقِ الاختصار .

---

١ — منى : منسك من مناسك الحج ، الأركان : هي اركان الكعبة وجوانبها يمسها الناس بأيديهم وقت الطواف ، تخشعاً لله ، وتعبيراً بالحركة الظاهرة — وغالباً ما تكون بلا وعي ولا عمد — عن التعلق القلبي بهذا المشعر الحرام ، وتضعيف الفعل « مسح » للمبالغة في أصل الفعل ، وشدت الرحال : ربطت واوثقت على الركائب ، يكنى بشد الرحال عن السفر . الدهم : السود ، واحدها ادهم أو دهماء ، المهارى : جمع مهرية نسبة الى مهرة بن حيدان من اليمن ، وتوصف بها الإبل السريعة القوية ، الغادي : السائر وقت الغدوة ، الرائح : وقت الروحة ، هذا أصلهما . وقد يستعملان في مجرد الذاهب والآيب ، كما في البيت . اطراف الاحاديث تمثيلية ، مقتضاها تشبيه الحديث بين السامرين ، بثوب يلقى بين جماعة ، يتناوله كل منهم من جانب . المطي : جمع مطية ، وهي الركوبة ، والاباطح : جمع أبطح ، وهو مسيل واسع ، فيه رمل ودقاق الحصى ، وسيله بأعناق المطي : تصوير بديع لامتلائه بإبل تسير في رفق وموالاة حثيثة شبهها في حركة اعناقها التي توقظ في الذهن عند رؤيتها برؤية الماء يسيل وتتلاحق موجاته . وتنسب الأبيات لكثير بن عبد الرحمن صاحب عزة ، وتنسب كذلك ليزيد بن الطثرية ، وكلاهما شاعر اموي .

ثم نبَّه بقوله : « ومسَّح بالأركان من هو ماسح » علـى طواف الوَدَاع الذي هو آخرُ الأمر ، ودليلُ المسير الذي هو مقصوده من الشعر .

ثم قال : « وشُدَّت ـ البيتَ » فوصل بذكر مسح الأركان ما وَلِيَهُ من زَمِّ الركاب وركوب الرُّكبان .

ثم دَلَّ بلفظ « الأطراف » على الصفة التي تختصُّ بها الرِّفاقُ في السَّفَر : من التصرُّف في فنون القول ، وشُجونِ الحديث ، أو ما هو عادةُ المُتَظَرِّفين : من الإشارةِ ، والتلْويح والرمْزِ والإيماء ، وأنبأ بذلك عن طِيب النفوس وقُوَّةِ النشاطِ ، وفضْلِ الاغتباط ، كما تُوجِبُه أُلْفَةُ الأصحابِ ، وأنسة الأحباب ، ويليق بحـالِ مَنْ وُفِّقَ لقضاءِ العبـادةِ الشريفةِ ورجَا : حُسْنَ الإياب ، وتَنَسُّمَ روائحِ الأحبَّةِ والأوطانِ ، واسْتِماعَ التَّهـاني والتَحايَا مـن الخِلاَّنِ والإخوانِ .

ثم زانَ ذلك كلَّه باستعارة لَطيفةٍ ، حيثُ قَال : « وسالت بأعناق المَطِيِّ الأباطح » فنبَّه بذلك على سُرعة السَّيْر ، ووَطَاةِ الظهر . وفي ذلك ما يُؤكِّد ما قبله . لأن الظهور إذا كانت وَطِيئةً ، وكان سَيْرُها سهلاً سريعاً : زاد ذلك في نشاط الرُّكبان ، فيزداد الحديث طِيباً .

ثم قال : « بأعناق المَطِيِّ » ولم يقل : « بالمطي » لأن السرعة والبطءَ في سير الإبل يَظْهَران غالباً في أعناقها ، ويتبيَّن أمرُها من هَوَادِيها وصُدورها ، وسائر أجزائها تستند إليها في الحركة ، وتتبعها في الثقل والخفَّة » .

- ٣ -

تلك هي عبارة الكتاب القديم في الدخول إلى الإطناب والإيجاز والمساواة .. وهذه عبارته في ختم أحوال هذه الصور الأسلوبية .. قال :

« واعلم أنه قد يُوصَف الكلامُ بالإيجاز والإطناب باعتبار كثرةِ حروفه وقلتها بالنسبةِ إلى كلام آخـرَ مُساوٍ له في أصل المعنى ، كالشطر الأول مـن قولِ أبي تمـام :

يَصُدُّ عَنِ الدُّنيا إذا عنَّ سُودَدٌ
ولو برزَتْ في زِيِّ عَذْراءَ ناهِدِ [1]

وقول الآخر :

ولَسْتُ بنظّار إلى جانب الْغِنَى
إذا كانَتِ العَلياءُ في جانب الفقرِ [2]

ومنه قول الشّمّاخ :

إذ ما رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ
تلقّاها عَرَابَةُ باليَمِينِ [3]

وقولُ بِشْرِ بن حَازِم :

إذا ما المَكْرُماتُ رُفِعنَ يَوْماً
وقَصَّرَ مُبْتَغوها عن مَداها [4]

وضاقَتْ أذْرُعُ الْمُثْرِينَ عنها
سَما أوْسٌ إليها ، فاحْتَوَاها

---

١ ـ يصد عنها : يعرض ، عن : ظهر ، السودد : السيادة ، وكرم المنصب ، والقدر الرفيع ، برزت : ظهرت بعد خفاء ، الزي : الهيئة ، العذراء : البكر ، الناهد : الكاعب الثديين .
٢ ـ في رواية « ميال » بدل « نظار » وقائله : المعذل بن غيلان ، وينسب أيضاً لأبي سعيد المخزومي .
٣ ـ الراية : العلامة المنصوبة ليراها الناس ، وعلم الجيش ، والمجد : العز والرفعة وعرابة بن اوس الأنصاري ، وتلقيه راية المجد باليمين إذا ظهرت : تمثيل لتحفزه وإقباله على فعل المكارم كلما لاحت . والشماخ هو ابن ضرار الغطفاني .
٤ ـ مبتغوها : راغبوها ، مداها : غايتها ، المثرون : أهل الغنى والثروة ، ضاقت أذرعهم بها : عجزوا عنها ، سما إليها : ارتفع إليها . احتواها : أحرزها .

ويقرُب من هذا الباب قولُه تعالى : « لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ »[1] .

وقولُ الْحَمَاسِيِّ :

وَنُنْكِرِ إنْ شِئْنا على الناس قَولَهُمْ
ولا يُنْكِرُونَ القولَ حينَ نقولُ[2]

وكذا ما ورد في الحديث : « الْحَزْمُ سوءُ الظَّنِّ » وقول : العرب : الثِّقَةَ بِكُلِّ أحَدٍ عَجْزٌ » .

- ٤ -

من صور المساواة :

١ - قوله تعالى : فمَن يعمَلْ مثقالَ ذرَّةٍ خيراً يَرَه ؛
ومَن يعمَلْ مثقالَ ذرَّةٍ شرّاً يَرَه ...

٢- وقول المتنبي : إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكتَه
وإن أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تمرَّدا ...

٣ - وقول القائل : الصالح يحبُّ الصالحين ؛
والفاسد يبحث عن أمثاله ..

في هذه الأقوال الثلاثة : صور من المساواة ؛ وكل منها أدت المعنى بعبارة مساوية له ؛ كأنها الثوب المفصل على جسم لابسه .. لذلك لا يرى المتأمل صورة لفظية أعدل من الصورة المعطاة ؛ لأن إسقاط كلمة من كلمات الصورة : يخل

---

١ - الآية ٢٣ من سورة الأنبياء .
٢ - إنكارهم وردهم أقوال الناس ، وعدم إنكار احد عليهم قولا : كناية عن الرياسة والسيادة ، ونفاذ الكلمة ، والتحكم في الناس . والشاعر : السموأل بن عادياء .

بالمعنى •• وكذلك زيادة كلمة : تخلُّ به خللاً فضولياً •• فالخير والشر مع العمل والرؤية : في الصورة الأولى •• والكرم واللؤم مع السلوك وردوده : في الصورة الثانية •• والصالح والفاسد مع الحب والبحث : في الصورة الثالثة ••

المسطرة التي تقيس المعنى واللفظ المساوي له : نوع من التعارف بين المتعاملين بالكلمات للدلالة على الوقائع •• وللباحثين في صور المساواة وأسلوبها : تحديدات تدور في إطار ما تقدم ؛ كقولهم : « المساواة تأدية المعنى المراد بعبارة مساوية له ، بأن تكون الألفاظ بقدر المعاني » •• (نعيم : ٦٩) •• أو قولهم : « المساواة أن تكون المعاني بقدر الألفاظ ، والألفاظ بقدر المعاني ؛ لا يزيد بعضها على بعض » ••

(الجارم وأمين : ٢٤٠) ••

- ٥ -

ومن صور الإيجاز :

١ - قوله تعالى : ولكم في القصاص حياة ••

٢ - وقول المتنبي : أتى الزمانَ بنوه في شبيبته
فسرَّهم •• وأتيناه على الهرم

٣ - وقول القائل : ولو أن تأليفاً أوقع الألفة وحقق التقدمَ ••

هذه ثلاث صور من الإيجاز ؛

أولاها : تضمنت معاني كثيرة بكلمات قليلة ؛ لأن القصاص : يوقع الخشية في نفوس الآخرين ، فلا يتجرأ واحدهم على ارتكاب الخطأ بحق الآخرين ، وبذلك تكون الحياة قد وهبت لهم من القصاص الرادع عن العدوان على تلك الحياة •• ولأن الألفاظ المبنية على تلك الدلالات : موجودة ، لم يحذف منها شيء ، قيل بهذا النوع من الإيجاز : إيجاز القصر •• أي صورة التعبير المختصرة التي أدت المعنى بوفاءٍ وبأقل من المتعارف عليه من اللفظ ••

وثانيتها : حذفت منها جملة ؛ وتلك الجملة المحذوفة : مسببة عما ذكـر ؛ وهي : « فأحزننا » الزمان •• عـرفنا ذلك مما سبقها من جمل مذكورة ؛ فبنو الزمان : أتوه في شبيبته ؛ فسرّهم •• ونحن أتيناه في هرمه : فأحزننا •• وهـذا النوع من الإيجاز : يعرف بإيجاز الحذف ؛ وله أمثلة كثيرة ••

وثالثة الصور : من نوع إيجـاز الحذف الذي يقصد به إلى إغنـاء المعنى مع حذف شيء من التركيب ؛ والمحذوف : جواب شرط •• والمقصود بالجواب : لكان هذا التأليف •• يعني : ولو أن تأليفاً أوقع الألفة وحقق التقدم لكان هـذا التأليف الواضحُ النظيف ••

ومن تحديدات الإيجاز : هو جمع المعاني الكثيرة تحت لفظ قليل مع الإبانة والإفصاح ؛ ويكون إيجاز قصر : فتضمن عبارته القليلة معاني كثيرة ، دون حذف•• ويكون إيجاز حذفٍ : فتحذف من التركيب كلمة ، أو جملة ، أو أكثر مع قرينةٍ تعين المحذوف ؛ •• كما اتضح لنا من صوره [1] •••

- ٦ -

ومن صور الإطناب : ما أطنبَ الباحثون في عرض تفاصيلها ، حتى ذكروا من أنواعها ما يماثِل أبوابَ علم المعاني الثمانية ؛ فذكروا : الإيغال ؛ والتذييل ؛ والاعتراض ؛ والتكرير ؛ والعام بعد الخاص ؛ والخاص بعد العام ؛ والإيضاح بعد الإبهـام ؛ والاحتراس ••

في أمثلة أي من هذه الأنواع : تظهر بلاغة الإطناب وقيمته الإيضاحية ؛ لأن الإطناب : تأديـة للمعنى المراد بلفظ زائد عليه لفائدة إبانية ؛ وإلاّ كانت الزيادة اللفظية : تطويلاً أو حشواً ••

١ - من معاني الإطناب في الكلام : المبالغة ؛

١ ــ تلاحظ رسالة الإيجاز .. ص ٥٩١ وما بعدها ففيها التفاصيل ..

ومن معاني الإيغال : ما يفيد هذا المعنى ؛ يقولون أوغل في البلاد إيغالاً : أي ابتعد فيها ؛ والمتكلم : قد يلجأ إلى المبالغة في تصوير المعنى ؛ فيزيد في آخر كلامه شيئاً يتم المعنى قبل ذكره ؛ مثال ذلك : مبالغة الخنساء بتشبيه أخيها صخر بالجبل الذي في رأسه نار ؛

وإن صخراً لتأتمُّ الهداةُ به
كأنه علَمٌ ... في رأسه نارُ ..

فالمعنى المقصود تمّ قبل الجملة الأخيرة ؛ لكن هذه الجملة : أدّت المبالغة في التشبيه بصورة الإيغال بالمقصود الذي هو الدلالة على ارتفاع منزلة الأخ صخر ..

صورة الإيغال الإطنابية هذه : نجدها في معالجة القزويني الجامعة في كتاب « الإيضاح في علوم البلاغة » .. كما نجدها في الكتب الحديثة التي نقلت عنه بأمثلته ذاتها ..

وتصح صورة الإيغال بغير الشعر ؛ كقولنا : خذوا البلاغة مِمَّن يصدقكم قولاً وهم ذائقون .. فالمعنى تمّ قبل الجملة الأخيرة ، « وهم ذائقون » ؛ لكن المتكلم أراد الإيغال مبالغة في التحريض والإقناع ..

٢ - ومن صور الإطناب التذييل ؛ وهو ، كما يقول القزويني « تعقيب الجملة بجملةٍ : تشتمل على معناها للتوكيد » .. والجملةُ المعقَّبُ بها على الجملة الأولى : قد تكون مستقلة عنها أو غير مستقلة ؛ فإن كانت غير مستقلة : كان الإطناب بالتذييل غير جار مجرى المثل ؛ كقولنا : « كذلك علمناهم بما انتبهوا ؛ وهل يُعلَّم إلاّ المنتبه ؟ » ... فالجملة الاستفهامية « وهل يُعلّم إلاّ المنتبه » : غير مستقلة بإفادةِ المراد ، بل هي متوقفه على ما سبقها « كذلك علمناهم بما انتبهوا » ... أما إذا كانت الجملة المعقَّب بها : مستقلّة المعنى ، مستغنية عما قبلها ؛ فإن الإطناب بالتذييل : يكون جارياً مجرى المثل ؛ كقوله تعالى : « قل جاء الحقُّ وزهق الباطلُ ، إنّ الباطل كان زهوقاً » : تؤكّد معنى ما قبلها ؛ لكنها

تستقل بمعناها وتستغني عما أكدته ؛ لذلك ذهبت مثلاً ؛ وقيل : هذا نوع الإطناب بالتذييل الجاري مجرى المثل ...

وأمثلة التذييل مبسوطة في كتب البلاغة القديمة والحديثة ، وكلها لإيضاح القاعدة التي أوضحناها بمثالي التذييل المتصل بما ذيّله وبقي متصلاً به ، والتذييل المنفصل عما ذيّله بمعناه المستقلّ الجاري مجرى المثل ..

وقد يجتمع نوعا التذييل بمثل قوله تعالى « وما جعلنا لبشرٍ من قبلكَ الخلدَ ؛ أفئِن مِتّ فهُمُ الخالدون ؟ ؛ كلُّ نفسٍ ذائقـهُ الموتِ » (الأنبياء : ٣٤ - ٣٥) .. فجملة الاستفهام « أفئن مت » : غير جارية مجرى المثل ؛ لأنها تذييل متصل المعنى بسابقة ..وجملة « كل نفس ذائقة الموت » : جارية مجرى المثل ؛ لأنها منفصلة المعنى عن سابقتها مع توكيدها ...

وبلاغة التذييل : توكيدية ؛ وقد تؤكد منطوق الكلام ، كقوله تعالى « إنّ الباطل كان زهوقاً » وقد تؤكد مفهومه كقول النابغة :

ولست بمستبق أخاً لا تلمه على شعَثٍ .. أي الرجالِ المهذّبُ ؟..

٣ - ومن صور الإطناب : الاعتراض [1] ، والجملة الاعتراضية في النحو : من الجمل التي لا محل لها من الإعراب .. أما في المعنى : فيؤتى بها في أثناء الكلام لفائدة دلالية تطابق مقتضى الحال الذي يراه البلغاء ؛ ومن أمثلة ذلك قول المتنبي :

وتحتقر الدنيا احتقار مجرّبٍ

يرى كل ما فيها - وحاشاك - فانيا

الفائدة البلاغية المقتضاة : هي الدعاء بجملة معترضة « وحاشاك » ؛ ويقولون : هذه واو الاعتراض .. ويرون هذا الدعاء حسناً في موضعه ..

---

١ - تأمل بما أثارته هذه الصور حول « وجهي الحياة والموت في المرآة » .. وانظر الإشارات في المقدمة ، ص : ٥٦٨ .. وفي النتائج ، ص : ٥٩٢ ..

وكما يعتبرون الواو السابقة للجملة الاعتراضية : واو الاعتراض ؛ كذلك يعتبرون الفاء السابقة لها : فاء الاعتراض ؛ كما في قول الشاعر :

واعلم – فعلمُ المرءِ ينفعُه – أن سوف يأتي كل ما قدرا ..

ويسمون فوائد الاعتراض البلاغية : أغراضاً ؛ يُسمون منها ما يدل على ما يفهم من السياق ؛ ومنها ما هو :

أ – للتعظيم والتنزيه : «ويجعلون لله البناتِ –سبحانه– ولهم مايشتهون»..

ب – الدعاء : إن الثمانين – وبلغتها – قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

جـ – التنبيه : واعلم – فعلم المرء ينفعه – وقد سبق ذكر البيت ..

د – تخصيص أحد المذكورين : بزيادة التأكيد في أمر عُلِّق بهما ، كقوله تعالى « ووصينا الإنسان بوالديه – حملته أمُّه وَهْناً على وهنٍ ، وفِصالُه في عامين – أن اشكر لي ولوالديك » (لقمان : ١٤)

هـ – المطابقة مع الاستعطاف ، كقول أبي الطيِّب :

وخُفُوقُ قلبٍ لو رأيتِ لهيبَه
– يا جنتي – لرأيتِ فيه جهنَّما ..

و – التنبيه على أمر فيه غرابة ؛كقول الشاعر :

فلا هجره يبدو – وفي اليأسِ راحةٌ –
ولا وصلُه يبدو لنا فنُكارمُه ..

ز – التعبير المنبِّه للإعجاز ؛ كقوله تعالى :

« وإنْ كنتُم في ريبٍ ممَّا نزَّلنا على عبدنا : فَأْتُوا بسورةٍ مِن مثلِه ؛ وادعوا شهداءَكم من دون الله إن كنتم صادقين ؛ فإن لم تفعلوا – ولن تفعلوا – فاتَّقوا النار التي وَقودُها الناسُ والحجارة : أُعدَّت للكافرين » ...
(البقرة : ٢٣ – ٢٤) ..

فالاعتراض الإطنابيُّ : بقوله « ولن تفعلوا » ؛ لأن ذلك من الممنوعات التي تعجــز محاولها : فليسمع ذو سمع ؛ وليفقه ذو قلب ؛ وليقترب ذو ذوق بيقظــة خشوع : ليكتسب من الحضرات الحقة وراء الكلمات الدالة إلى الإعجاز والمعجز...

عند التوصُّل إلى مثل هذا المستوى من إدراك « الحضرات وراء الكلمات » في صورة « الإطناب الاعتراضية » : يمكن الانتباهُ إلى صراط الحياة السويّ ؛ ويمكن السلوك من البلاغة النظريــة إلى البلوغ الممارس ؛ ويصبح كلُّ شــيء ذا غايةٍ حيويَّةٍ لا عبث ولا مصادفة ...

ويمكن التوقف على برزخ بين الحياة والموت : لأن الغاية في مظاهر الحياة والموت ؛ ولأن الأبلغ من يحسن الفهم ثم يحسن الترجمة ؛ ونقرب الأبعاد بنماذج تأخذ إلى التوسع بالقياس عليهــا ؛

النموذج الأول : من عبارة الحياة ؛ وقد توقف عنده صاحِبُ الإيضاح ؛ فقــال :

« ومما جاء بين كلامين متصلين معنىً ، قوله تعالى :

« فإذا تطَهَّرْنَ ؛ فَأْتوهُنَّ من حيث أمركمُ اللهُ ؛ إن الله يحِبُّ التوّابين ؛ ويحِبُّ المتطهِّرين .. نساؤكم حرثٌ لكم ؛ فَأْتوا حرثكم » ...

البقرة : (٢٢٢ – ٢٢٣)..

« فــإنَّ قوله « نساؤكم حرثٌ لكم » ؛ بيــان لقوله « فأتوهنَّ من حيث أمركم الله » ؛ يعني : إن المأتى الذي أمركم به هو مكان الحرث ، دلالة على أن الغرض الأصلي في الإتيان : هو طلب النسل ؛ لا قضاء الشهوة ؛ فلا تأتوهن إلا من حيث يتأتى فيه الغرض ؛ وهو مما جاء في أكثر من جملة أيضاً » ..

هذا التوقف الإيضاحي : من الانتباه العبقريّ إلى بلاغة الآية ؛ وإلى امتداد التخصيص ؛ فالحياة : هادفة ؛ وبلوغ الهدف : له حيثياته ؛ والانحراف عنهــا :

يضيع الغاية ؛ والذي هو الأهم في الحياة : ليس سوى الإنسان بصيغتي الرجل والمرأة ؛ فكل الأحياء الآدميين : حصائل هـذا اللقاء الهادف بين هذا المثنى من مخلوقات البديع العادل ..

والقزويني : وقف عند دلالة الآيـة في سياق البحث الإطنابي بالاعتراض الذي يكون بين كلامين متصلين ؛ وهذا نوع آخرُ للاعتراض ، غيرُ ما يجيء في أثنـاء الكلام .. قصـِدَ بـه ، أي باتصال الكلامين : أن يكون الكلام الثاني توكيداً للأول ، أو بياناً له ، أو بدلاً منه ، أو معطوفاً عليه ..

والاتصال واضح بين الآيتين السابقتين ؛ فقد جاءت الثانية : توكيداً مفصلاً لمعنى الأولى .. « فأتوا حرثكم » : أكدت سابقتها « فأْتوهن من حيث أمركم » .. والتأكيد شمل المفهوم المعنوي والصورة اللفظية لابتناء الآيتين بالفعل « أتى » ؛ « فأتوهن .. فأتوا حرثكم » ...

هذا من أمر الحياة الجامع ؛ وأبناء الحياة يعرفون هذه الواقعة العالمية على ظهـر الكوكب الأرضي .. والمنتبه إلى غرضية اللقاء الذي أنتجه : يتعالى بنفسه وأفعاله عن العبثِ اللاهي على مستويات النفس في الحياة جميعاً .. ويعرف مَن هو وما مستواه من التزامه الحـر ..

النموذج الثاني : من عبارة الموت ؛ ونأخذه من النوع المعترض ضمن الكلام ؛ ومن الأسلوب الشعري ؛ فقد رثى ابراهيم بن المهدي ابنه بقوله :

وإني – وإنْ قُدِّمْتَ قبلي – لعالِمٌ
بأني – وإن أخرتُ – منكَ قريبُ ..

بلاغة الاعتراض في هـذا البيت : يظهرها التأمل بالصورة اللفظية المركبة تركيباً متداخِلاً ، يظهر الموت متغلغلاً في الكلِّ ؛ في الأبناء والآباء ؛ في السابقين واللاحقين ؛ وإذا فك تركيب البيت بهدوء : يتجلّى الموت بلطف الصاحِب المؤنس لمن سبق إلى غفوتـه ؛ ولمن لا يزال صاحياً ينتظر تلك الهـدأة أو يتخوفها ...

والمعنى التحسري في بنية البيت : لأن الموت سبق إلى ابن الشاعر ؛ فجعله مرتبكاً لتغيُّر المألوفِ من موتِ الآباء قبل الأبناء ..

بنية البيت : تحـرر من الاعتراض ؛ فيصير : وإني لعالم .. بأني منكَ قريبٌ ؛ وإن قدمتَ قبلي ؛ وإن أخرت .. لكن جملتي الاعتراض : منحتا الشطرين تشابكاً وتداخلاً يظهران التفاف الأبنـاء والآباء جميعاً بعباءة هذا الحاضن الأوسع الذي هو المـوت ..

الحياة والموت : منبعٌ ومصبٌ ؛ وبينهما الحركة ؛ لنقل : وجودنا نهـر ؛ وحركته بين مبـدأ رأيناه بصورة الإتيان المنجبِ .. وبين خاتمة رأيناها بصورة الفقدان المتعب ...

وحركاتُ الأحياء : تكون لحبٍّ ؛ أو تكون بحرب ؛ وقد التفت الباحثون أو بعضهم إلى احتشاد المظهرين في كلام صاحبِ نهج البلاغة ؛ فالمرأة ، عنـده : ريحانة .. والجهاد ، عنده : باب من أبواب الجنة ..

يعتبر كلام الإمام علي (ع) بالمرأة والجهاد : نموذجاً تامّ التكامل بصورة الإطناب ؛ وقـد تجلى لنا هذا الكلام فيهما : تحقيقاً ممارساً لمطامح « نظريـة الأدب » .. لكننا هنا : نشير إشارة إلى خطبته « أما بعد فـإن الجهادَ باب من أبواب الجنة » .. وقد افتتح الدكتور مزيد نعيم [1] « باب الإطناب » بالتحدث عن بلاغة إطناب الخطبة .. وهي بلاغة الحركة الجهادية في مجال الكدح النضالي لإحقاق الحـق وإزهاق الباطل ؛ بجعل السلوك في الحياة : على صراط قـويم ولتحقيق غرضٍ سـليم ...

من عبارة الدكتور نعيم :

« الإطناب في اللغة : مصدر أطنب الرجـل في الكلام ، إذا بالغ فيه ؛ وفي

---

١ ــ علـم المعـاني ؛ ص : ٥٩

الاصطلاح ، هو : تأدية المعنى المراد بلفظ زائد عليه لفائدة ؛ أي عرض المعنى في عبارة زائدة تحقق هذه الزيادة فائدة ؛ كقول علي رضي الله عنه :

« إن الجهـاد باب من أبواب الجنة ؛ فتحه الله لخاصة أوليائه ؛ وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجُنته الوثيقة ؛ فمن تركه رغبة عنه : ألبسه الله ثوب الذل وشملة البلاء » ..

« في هذه الخطبة حث على الجهاد ، وقد أراد أن يجعله واحداً من أبواب الجنة ؛ وأن هذا الباب مفتوح لخاصة أوليائه ... وقد أطنب : ليتحقق هدفه من الترغيب والإثارة إلى الجهاد » ... (ص : ٦٠)

الجهاد الحربيّ : وجـه من وجوه الحركة بين مبدأ الحياة وخاتمتها ؛ وفي الخطبة المشار إليها : تفاصيل هذا الوجه وصلته بوجوه الحركة الأخرى التي منها الغيرة على المرأة ، باعتبارها دلائل النسل وبنية الذرية ..

وعند هذه النقطة : نحتاج الإطناب أسلوباً متأنياً ؛ لتفهم نظرية عليّ العليا في المرأة ؛ وأقواله المجمعة في المرأة : تثير جدالاً طويلاً ؛ وكثيرون من الفقهاء : قالوا كلاماً غير بلاغي ؛ أي أنهم لم يدركوا مستويات الإيجاز والإطناب في كلمات علي (ع) بالمرأة .. مثل :

« المرأة ريحانة .. وليست بقهرمانة » ..

« المرأة شرٌ كلها .. وشرٌ ما فيها : أنه لا بد منها »

ريحانية المرأة : صورة مقبولة ؛ والإطناب فيها : يظهـر صحبة الريحـان للإنسان من المهـد إلى اللحد ؛ باعتبار المعلوم في التقاليد الشعبية من استخدام مسحوق الريحـان للأطفال بدلاً من المساحيق الحديثة .. وباعتبار غسل الميت على أغصان الريحان .. وقد يمتد الانتباه إلى صحبة الريحان للإنسان إلى ما بعد المنظور على الأرض من مهدٍ أو قبر .. ففي القرآن آيات تظهـر صحبة الريحان العليا مثل قوله تعالى في ختام سورة الواقعة :

« فأمّا إن كان من المقرّبين ؛
فروحٌ وريحانٌ وجنّةُ نعيـم ؛ ؛
وأمّا إن كان من أصحاب اليمين :
فسلامٌ لكَ من أصحابِ اليمين ؛ .
وأمّا إن كان من المكذّبين الضالّين
فنُزُلٌ من حميمٍ وتصليةُ جحيم ...
إنّ هذا لهُوَ حـقّ اليقين ؛
فسبّح باسمِ ربّكَ العظيم » ... (٨٨ – ٩٦) ..

من المفسرين : من يفهم الريحان « رزقاً حسناً » ؛ وبكل حـال ، إن تشبيه « المرأة بالريحانة » في كلام علي : مسألة مثيرة بدلائل اقترانها بوعيه مع دلائـل الريحانةِ المسمّاة « شجرة الآس » .. ولنا في هذه المسألة : تأمّلات مستقلة .. إنما هنا : نضعها في سياق الوعي البلاغي من مذاقِ الاعتراض في صور الإطناب ..

المسألة الحيية واضحة بقوله : المرأة ريحانة .. أما قوله : « المرأة شرّ » .. وتأكيده على كلية هـذا الشرّ .. وتخصيصه المعمق لملازمة هـذا الشر ملازمة الضرورة الأبدية .. من الأمور التي حيّرت الفقهاء ، حتى قال بعضهم بنفي هذا الكلام عنه ، وأنه منحول عليه ..

نحن نعتذر لهؤلاء الفقهاء ؛ لأن « بلاغة العرب » : ذات مستويات ؛ وعلي ذو نهج البلاغة : يفترض بالناظر بكلامه الاستئناسُ بدلائلَ الكلمة المتعددة .. فقد أشرنا في أماكن متعددة من مباحثنا : إلى تسعة وأربعين دلالة معنوية للفظ الواحد [1] .. وذكرنا بمناهج الأئمة ذات المستويات الدلالية ؛ فقد عرف عن الإمام الصادق (ع) ، صاحب « مصباح الشريعة » قوله :

« إني أتكلم الكلام على سبعين وجهـاً
ولي من كلهـا المخرج » ..

١ – لنا كلام في غير هـذا الموضع حول : « نظرية على (ع) في المـرأة والدنيا » .. وفي أثناء « شرحنا العصري لنهج البلاغة ذي الفقر » : إزالات لكثير من الغوامض ذات المستويات ..

ونحن بعد العصور : نلتمس المخرج لوجه « الشر » مقترناً بالمرأة ؛ « المرأة شــرٌ كلها » : لا ريب في ذلك ، من وجهة نظر مستويات المعنى الدلالية ؛ لأن « الشر » في المستوى الدلالي الرابع : يعني « الذرية الصرف » ؛ أي الغـاية المقطَّرة أو المصفاة ؛ ومن الألفاظ القاموسية : ما هو شــديد الوضوح لمـن يستوضحه ؛ نجــد في العبارة القاموسية « شرَّ يَشرُّ الماءُ شــرّاً : أي تقاطرَ متتابعاً » •••• وهذا الشر بمعنى ما يُرش من البذور في التراب ، ومن الماء على البذور : بغية الاستنبات ••

وتحتاج المسألةُ : استئناساً ببلاغة الإطناب ؛ لنفهم معنى « التقاطر المتتابع » من مستوى فهم القزويني في الإيضاح للآية الحيوية الشريفة « فأتوا حرثكم » •••

إن التقاطر المتتابع من الماء : صورة حيوية للشر ؛ فيها إثارات « التقطير » الذي يَعني ما تعنيه « أَنْبَقَةُ » الماء لتصفيته ؛ وفيها « التتابع » الذي يعني الانتظــام المنهج والمبرمج ؛ فليس خبط عشواء •• وليس منقطعاً ، بـل هــو « مستمر » ، كما يفهم من التتابع ••

بعد تفاصيل لغوية ، يسوغها الإطناب : بدت « المرأة شراً » لا غير ؛ هــذه هيَ غاية وجودها ؛ لذلك كان الحرص التشريعي على « إتيان الحرث من حيث الأمر » لتحقيق التتابع المستمر من تقاطر الماء بالشر الذي لا بد منه ؛ أي هو أبدي الضرورة ؛ والحرية الباقية : لا تكون إلا بالتزامه ••

هكذا تكون « المرأة ريحانة » : مساوية ، أو مطابقة لوجهها الآخر « المرأة شــر » •• فالوجه الريحاني : وجه الصورة الجمالية الآسية ؛ والوجه الشري : وجه الصورة الغائية المرتجاة •••

إن التمهل بقراءة المادة اللغويــة ومقارنتها بالعبارة النهجية : يقدمان بيانـاً إطنابياً لا اعتراض عليه من ذوي الأذواق البلاغية ؛ مع أننا قدمنا هــذا النموذج في سياق تناولنا « الإطناب بالاعتراض » •••

هذه النماذج الثلاثة : نقلت بلاغة الاعتراض إلى مستوى الكشف الجديد

بعـد وعي الفرض السابع ، الذي دعوناه « التعجيز المنبه للإعجاز » ... هـذا المستوى الكشفي الجديد : فتح أبواب التنبه إلى بلاغة الحياة المعجزة ؛ فكما أن الإنس والجن لن يفعلوا الإتيان بسورة من كتاب الله القرآن .. كذلك لن يفعلوا الإتيان بقطرة واحدة من قطرات المـاء المتتابع ، الذي هو في مقام الشين والراء الرابع : ماء مخصص لحياة مخصصة ذات هدف لا لعب فيه ولا مهادنة .. هـل يظن أحد أن بإمكانه أن يختار لون عينيه .. أو أن يوقف طول أظافره ... لا .. لن يفعل ؛ فهـذا الإنسان من كتاب التكوين المعجز ... وحبذا صحبة الانتباه والخشوع المتيقظ في حضرة الإبداع ... ونعم معرفة الأهم وتقديمها على المهم ..

لكن السؤال : ما هو الأهم ؟

والسؤال الآخـر : كيف نجد الوقت للتفكير بما هو الأهم .. ولنفـرز الاهتمامات إلى مستويات ..

أترك الإجابة حرة ؛ لأنها تحتاج إطناباً لمناقشة الآراء الكثيرة التي منهـا : ما يرى الأهم في البحث عن توفير ثمن كتب مطلوبة لأبنائه وبناته ... ولا يرى الأهم في البحث عن علاج ما يشبه خرس أحدهم ، أو إحداهن [1] ..

٤ – ومن صور الإطناب : التكرير ؛ وهذه عبـارة « الإيضاح » بصيغتها الموضحة لبلاغة التكرير في صور الإطناب :

« وإما بالتكرير لنكتة ، كتأكيد الإنذار في قوله تعالى : « كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » [2] وفي « ثُمَّ » دلالةٌ على أن الإنذار الثاني أبلغُ وأشدُّ .

وكزيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ؛ ليكمل تلقّي الكلام بالقبول ، (كما)

---

١ – لقد أصغيت مرّات الى مناقشات حول الكتاب الجامعي : تثير مثـل العجب إذا قورنت باهتماماتهم بأنواع الأحـذية والألبسة ؛ وفي « رسـائل الجامعـة وعجائب الإدارة والأسرة » : بينات وتفاصيل ..

٢ – الآيتان ٣ و ٤ من سورة التكاثر .

في قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِي آمَنَ : يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ، يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ »[1] .

وقد يكرَّر اللفظ لطول في الكلام ، كما في قوله تعالى : « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ؛ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ »[2] وفي قوله تعالى : « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ، ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا ، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لغفورٌ رحيم[3] .

وقد يُكرَّر لتعدُّد المُتَعَلَّق ، كما كرره الله تعالى من قوله : « فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ »[4] لأ نه تعالى ذكــر نعمةً بعد نِعمةٍ ، وعقَّب كلَّ نعمة بهــذا القول . ومعلومٌ أن الغرض من ذكره عَقِيبَ نعمةٍ غيرُ الغرض من ذكره عَقِيبَ نعمةٍ أخرى .

فإن قيل : قد عقَّب بهذا القول ما ليس بنعمة ، كما في قوله : « يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ ، فَلاَ تَنْتَصِرَانِ »[5] وقــوله : « هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا المُجْرِمُونَ ، يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ »[6] .

قلنا : العذابُ وجَهَنَّمُ – وإن لم يكونا من آلاء الله تعالى – فإن ذكرَهما

---

١ – الآية ٣٨ وبعض الآية ٣٩ من سورة غافر .
٢ – الآية ١١٩ من سورة النحل .
٣ – الآية ١١٠ من سورة النحل ، فتنوا : ابتلوا واختبروا .
٤ – الآيات ١٣ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦ ؛ ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٧ ، من سورة الرحمن ، الآلاء : النعم ، الواحد : إلى ، [والألى] على موازين : عطر ، وعنب ، وجمل .
٥ـ٦ سورة الرحمن : ٣٥ ؛ ٤٣ – ٤٤ .
الشواظ : اللهب لا دخان فيه ؛ الحميم : الماء الحار ؛ آن : اشتد .

ووصفهما على طريق الزجر عن المعاصي ، والترغيب في الطاعات ؛ من آلائه تعالى ، ونحو قوله : « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » [1] لأنه تعالى ذكر قصصاً مختلفة ، وأتبع كلَّ قصة بهذا القول ، فصار كأنه قال عَقِبَ كلِّ قصة : ويلٌ يَوْمَئِذٍ للمكذِّبين بهذه القصة .

٥ — ومن صور الإطناب : الإيضاح بعد الإبهام ؛ وعبارة الكتاب القديم به تقول :

« وهو إما بالإيضاح بعد الإبهام ؛ ليُرَى المعنى في صورتين مختلفتين ، أو ليتمكنَ في النفس فضلَ تمكُّنٍ ، فإن المعنى إذا أُلْقِيَ على سبيل الإجمال والإبهام تشوَّقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح ، فتتوجه إلى ما يَرِدُ بعد ذلك ، فإذا أُلْقِيَ كذلك تمكَّنَ فيها فضلَ تمكُّنٍ ، وكان شعورها به أتم .

أو لتكمل اللذة بالعلم به ، فإن الشيء إذا حصل كمالُ العلم به دفعةً لم يتقدَّمْ حصولَ اللذَّة به ألَمٌ ، وإذا حصل الشعورُ به من وجه دون وجه ، تشوَّقت النفسُ إلى العلم بالمجهول ، فيحصُل لها بسبب المعلوم لذَّةٌ ، وبسبب حرمانها عن الباقي ألم ، ثم إذا حصل لها العلم به : حصلت لها لذة أخرى ، واللذة عقِبَ الألم أقوى من اللذة التي لم يتقدمها ألم .

أو لتفخيم الأمر وتعظيمه ، كقوله تعالى : « قالَ ربِّ اشْرَحْ لي صَدْرِي ، ويَسِّرْ لي أمْرِي » [2] فإن قوله : « اشْرَحْ لي » يفيد طَلَبَ شرح لشيءٍ مّا له ، وقوله : « صدري » يفيد تفسيرَه وبيانه ، وكذلك قوله : « وَيَسِّرْ لي أمْرِي » والمقام مُقْتَضٍ للتأكيد ، للإرسال المؤْذِن بتلقِّي المكاره والشدائد ، وكقوله تعالى « وقَضَيْنَا إلَيْهِ ذلِكَ الأمْرَ : أنَّ دابِرَ

---

١ — المرسلات : ١٥ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ..
٢ — طه : ٢٥ و ٢٦

هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ » (١) ففي إبهـامه وتفسيره تفخيمٌ للأمـر ، وتعظيمٌ له .

ومن الإيضاح بعد الإبهام : باب « نِعْمَ وبِئْسَ » على أحد القولين (٢) ؛ إذ لو لم يُقْصَدِ الإطناب لقيل : نعم زيدٌ ، وبئس عمرو .

ووجهُ حُسْنِهِ – سِوَى الإيضاح بعد الإبهام – أمران آخران :

أحدهما : إبراز الكلام في معرض الاعتدال ؟ نظراً إلى إطنابه من وجـه ، وإلى اختصاره من آخر . وهو حذف المبتَدَأ في الجواب .

والثاني : إيهام الجمع بين المتنافيين ...

ويحسب التوسيع من الإيضاح بعد الإبهام ؛ ومعناه في اللغـة : لف القطن ندفه ؛ وهو في الإطناب : أن يُؤتى في عجز الكلام بمثنى مفسَّر باسمين أحدهما معطوف على الآخر ؛ كما جاء في الخبر : يشيب ابن آدم ، ويشيب فيه خصلتان : الحرص ، وطول الأمـل » .

٦ – ومن صور الإطناب : التكميل ، أو الاحتراس ؛ وتتابع الإصغاء إلى عبـارة الكتاب القـديم :

وإما بالتكميل ، ويُسمَّى الاحتراسَ أيضاً ، وهو أن يُؤتى به كلام يوهِمُ خلافَ المقصود بما يدفعـه .

وهو ضربان :

ضرب يتوسط الكلام ، كقول طَرَفَةَ :

فَسَقَى دِيَارَكِ – غَيْرَ مُفْسِدِها –
صَوْبُ الرَّبِيـعِ ، وَدِيمةٌ تَهْمِـي

---

١ – سورة الحجر : ٦٦
٢ – هو قول من يجعل المخصوص خبر مبتدأ أو محذوف ، أو مبتدأ لخبر محذوف ؛ والجملة مستأنفة للبيان ؛ أما القول الثاني : فيجعل المخصوص مبتدأ ، والجملة قبله خبر ؛ فالكلام حينئذ جملة واحـدة .

وضربٌ يقع في آخر الكلام ، كقوله تعالى : « فَسَوفَ يَأتي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونَهُ ، أذِلَّةٍ عَلى المُؤْمِنِينَ ، أعِزَّةٍ عَلى الكافِرِينَ » [1] فإنه لو اقتصر على وصفهم بالذِّلَّةِ على المؤمنين ؛ لتُوُهِّمَ أن ذِلَّتهم لضعفهم ، فلما قيل : « أعزة على الكافرين » عُلِمَ أنها منهم تواضُعٌ لهم ، ولذا عُدِّيَ الذُّل بـ « على » لتضمينه معنى العطف ، كأنه قيل : عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع . ويجوز أن تكون التعدية بـ « على » لأن المعنى : أنهم مع شَرَفِهم ، وعُلُوِّ طبقتهم وفضلِهم على المؤمنين ؛ خافضون لهم أجنحتهم .

وكذا قول أبي الطَّيِّبِ :

أشَدُّ من الرِّياحِ الهُوجِ بَطْشاً
وأسْرَعُ في النَّدَى منها هُبوبا

فإنه لو اقتصر على وصفه بشدة البطش ؛ لأوهم ذلك أنه عُنْفٌ كله ، ولا لُطْفَ عنده . فأزال هذا الوهم بوصفه بالسماحة ، ولم يتجاوز في ذلك كلّه صفةَ الريح التي شبَّهه بها ، وقوله : إنه أسرع في الندى منها هبوباً ، كأنه من قول ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجودَ الناس ، وكان أجودَ ما يكون في رَمَضانَ ، كان كالريح المرسلة » ..

٧ – ومن صور الإطناب : التتميم ؛ وهو وجهٌ مقابل للتكميل ومتمم له ؛ وعبارة الكتاب القديم :

« وإما بالتتميم ، وهو : أن يُؤتى في كلام لا يُوهِم خلافَ المقصود بفضلةٍ تفيد نكتة ، كالمبالغة في قوله تعالى : « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ » [2] أيْ : مع حبِّه ، والضميرُ للطعام ، أيْ :مع اشتهائه ، والحاجة إليه ، ونحوه « وآتى المَالَ على حُبِّهِ » [3] وكذا « لَنْ تَنالُوا البِرَّ حَتَّى

١ ــ المائدة : ٥٤
٢ ــ سورة الانسان : ٨
٣ ــ البقرة : ١٧٧

تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » [1] وعن فُضَيْلِ بْنِ عِياضٍ : « على حب الله » فلا يكون مما نحن فيه .

وفي قول زُهير :

مَنْ يَلْقَ يوماً - على عِلاَّتِهِ - هَرِماً
يَلْقَ السماحة منه والنَّدَى خُلُقَا

٨ - ومن صور الإطناب : ذكر الخاص بعد العام .. وذكر العام بعد الخاص ؛ ومن عبارة الكتاب القديم في أولهما قوله :

« وإما بذكر الخاصّ بعد العامّ ؛ للتنبيه على فضله ، حتى كأنه ليس من جنسه ؛ تنزيلاً للتغايُر في الوصف منزلة التغايُر في الذات ، كقوله تعالى : « مَنْ كانَ عَدُوّاً لله ومَلائِكَتِهِ ، ورُسُلِهِ ، وجِبْرِيلَ ومِيكالَ » [2] وقوله تعالى : « ولْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيْرِ ، ويأمُرُونَ بالمَعْرُوفِ ، ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ » [3] وقوله : « حافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ ، والصَّلاةِ الوُسْطَى » [4] .

ويقابلُ هذا ذكرُ العام بعد الخاص : اعتناءً بالخاصّ مع إفادة العامّ كما في قوله تعالى ، بلسان نوح عليه السلام :

« رب اغفر لي ؛ ولوالديّ ؛ ولمن دخل بيتيَ مؤمناً ؛ وللمؤمنين والمؤمنات » ..

فوجهُ الإطناب : هو أن الإيمان يعمّ المؤمنين والمؤمنات ؛ وهذا العموم : جاء بعد خصوص منه ؛ هو من دخل بيتَ نوحٍ مؤمناً ، ووالداه ، ونفسه .. ويعتبر ذكر هذا الخاص « لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً » : زائداً في اللفظ ؛ لأنه داخل في العام الذي هو « المؤمنون والمؤمنات » ..

---

١ - سورة آل عمران : ٩٢
٢ - البقرة : ٩٨
٣ - آل عمران : ١٠٤
٤ - البقرة : ٢٣٨

وبلاغة الصورة في استفادة الخاص من المعنى مرتين : الأولى بمفرده ؛ والثانية مع الجماعة المؤمنة ؛

٩ – أشار القزويني إلى صور إطناب أخرى غير الأنواع السابقة ؛ مثل : رأيته بعيني ؛ فالرؤية بالعين معلومة : لكن ذكر العين إطناباً للتأكيد والتحديد ..

- ٧ -
عين الحق

١٠ – وللعين في لغة العرب وبلاغتهم : محاور إطناب وإيجاز ومساواة ؛ لكن أحرار الكاشفين : لا يزالون ينقّبون عن ذوي عيون يحبون مطابقة الحال بمقتضى « حي قيومٍ لا تأخذه سنة ولا نوم » .. ؛ وقد نجد أمثلة من التنقيب الذكي لدى الباحثين في : نظريات المعرفة ونظريات التعبير ؛ ودائماً كانوا يَهمسون بما يشعرون به من أعطيات الإلهام : عندما يستلهمون آيات الله الموحاة في بيان إعجازه القرآني ؛ وللإشارة ذات اللطائف الموصلة إلى الحق : يحسن التأمل بألفاظ هذه الآية الكريمة من سورة فصلت « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ؛ أوَلَمْ يكفِ بربك أنه على كل شيء شهيد .. ألا إنه بكل شيء محيط » .. (٤١ : ٥٣ – ٥٤) ..

هذه حقيقة يراها الملهمون ويمدحون من يسعى لها : كما فعل بشار بن برد ، مع أنه أعمى العينين ؛ وقوله واضح :

أُولاكَ الألى شقوا العمى بسيوفهم
عن « العين » حتى يرى الحقَّ طالبُه ..

ونحن مع « شرقية [1] » في أغنياتِها الصحراوية : « نبحثُ في الصحراء .. عن طاقة الوفاء .. عن معادن الأنبياء .. كيف حوّلوا الوجود إلى الخلود .. كيف سلكوا ينابيع الهدى إلى قلوب العباد .. وكيف أطنبوا بتفاصيل الجهاد .. سلام على المطنبين بجهادهم .. وسلام على خاتم الرحماءِ المعلمين ، كلّيٌّ الرحمة الحنون ، الشكورِ الوفيٌّ من قال « أدّبَني ربّي فأحسنَ تأديبي » ... وعلى من اتبع الهدى وكان للوفاء مدى ..

---

١ – لاحظ : مقدمة أسطورة الصحراء ..
وكذلك : عشر معلقات نقدية حول قصيدة حديثة هي « أسطورة الصحراء » ..

نتـائج خبرية مشتركة

خلاصة البلاغة الخبرية والمعطى الجديد

لمقتضى حال المعاني في بلاغة الخبر : أصول في تبويب علم المعاني القديم [1] ؛ وقد فتحت تلك الأصول بتبويبنا الحديث على هذا النحو المقتضى [2] ؛

في جناح الخبر : عولجت ماهية الخبر وخفق هذا الجناح بصورة مفصلة ؛ رأينا منها : مكونات الجملة وما استدعته من نصوص البلاغة الممارسة شـعراً ، ومن نصوص البلاغة واللغة النظرية ؛ ففي قسم التكوين : حلل بيتان من شـعر ابن الفارض وربط التحليل بأبواب عـلم المعاني الثمانية ؛ لتظهر نظرية التبويب القديم في ممارسة النصوص الأدبية الإبداعية [3] ؛ وفي قسم التنصيص : عرضت ثلاثـة نصوص قديمة من التراث البلاغي العـربي ، وعُرِضَ نص حديث يتعلق بالتراث الألسني الغربي [4] .. وعبر هذه النصوص الأربعة : أوضحت مفاصلها بعناوين داخلية صغيرة تظهر غرض الفقرة أو المقطع ؛ ففي مقدمة القزويني التبويبية مثلاً : وضعت هذه العناوين « علم المعاني والخبر .. في صدق الخبر وكذبه .. في الذوق والتقليد » [5] .. وفي النص الجرجاني المتعلق بمعرفة أسباب التفاضل بين كلام وكلام : وضعت عشرة عناوين صغيرة وناقشت أسلوبه وفـق مقتضى الحـال [6] ...

---

١ ـ لاحظ الأبواب الثمانية في هذا الكتاب (ص ٣٤٨)
٢ ـ أعني ما نراه على (ص ٣٣٧)
٣ ـ ص : ٣٣٩ ـ ٣٤٥
٤ ـ ص : ٣٤٦ ـ ٣٩٢
٥ ـ ص : ٣٤٧ ـ ٣٥١
٦ ـ ص : ٣٥٢ ـ ٣٧٢

أما النصان الآخران « في دلائل الإعجاز للجرجاني » [1] •• والتمهيد الذي وضعه يوسف غازي لترجمة « محاضرات في الألسنية العـامة ، لسوسير [2] » : فقـد تركتهما كما صبهما المؤلفان ؛ لأنني اكتفيت بالتمهيد السابق لهما ، والذي يحمل رقميهما من النصوص الأربعة المختارة لإمعان النظر ، وهما « ٣ و ٤ » [3] •• وختمت « مكونات الجملة ومجتذباتها » : بسؤال جعلت جوابه كالخلاصة ؛ وهو « كيف نقرأ النص البلاغيّ » [4] ؟

وكما رأينا من صورة الجناح الخبري « مكونات الجملة » : كذلك رأينـا « أحـوال الجملة الخبرية وشعبها الخمس [5] » ••• ومعالجة هـذه الأحوال : استغرقت خمسة أبواب من التبويب القديم ، هي « الإسناد الخبري •• المسند إليه •• المسند •• التعلق •• والقصر » •• وسبق تفاصيل الأحوال : تأسيس عام لمعنى الخبر ومستوياته ؛ وقد مثل لذلك بنص شعري قصير ، وبآيات من الوحي المعجـز [6] •• بعـد التأسيس المعنوي للخبر : جاءت أحوال الإسناد الخبري ؛ وبالاستناد إلى « رباعية حديثة » : أعيد التعرف إلى « مكونات الجملة » بالمصطلح التراثي « أحـوال الإسناد الخبري » ؛ وربط بين النحـو والمعنى : فبرز المسند والمسند إليه في تكوين الجملة ؛ فهما أساس الكلام ؛ وأحوالهما في الجملة الفعلية والجملة الاسمية : تظهر أنواع الخبر •• وتظهر أغراضه •• وعلى المسند إليـه : تُبنى معرفـة النوع الإسنادي ، مجازيّه وحقيقيّه [7] ••

في تحليل الرباعية : ظهرت عناصر الإسناد في مثلثها : المسند إليه ، والمسند ؛ والعلاقة بينهما ، التي ينصرف إليها القصد بأحوال الإسناد الخبري •• وظهر نوعا الإسـناد ، ومؤكدات الخبر ، ونوعا الجمـلة ، وأضرب الخبر ، وأغراضه التي يقتضيها السياق •••

---

١ — ص : ٣٧٣ — ٣٧٩
٢ — ص : ٣٨٠ — ٣٨٦
٣ — ص : ٣٧٠ — ٣٧٢
٤ — ص : ٣٨٦ — ٣٩٢
٥ — ص : ٣٩٣ — ٥١٨
٦ — ص : ٣٩٤ — ٣٩٦
٧ — ص : ٣٩٨ — ٤٠٨

بعد هـذا الإجمال التطبيقي : أحلت إلى عبارة الكتاب القديم ؛ ووضعت قـول القزويني في « أحوال الإسناد الخبري [١] » وفي « فصل الحقيقة العقلية والمجاز العقلي [٢] » ..

نبهت مجدّداً إلى « قراءة النص البلاغي »[٣] وناقشت مسألة الإسناد العقلي وخطأ الكتاب القـديم في فهم الأمثلة القرآنية ، ومثلت لذلك بمسألة إبليس [٤] التي التبست على القزويني ومن أخـذ منهم .. وهذه المسألة جوهرية في حيـاة الإنسان قبـل بيانه ؛ لذلك تمهلت في عرضها : ليتضح لطلاب البلاغة أن الحياة أم البلاغة واللغـة جميعاً .. ومن يخطىء في فهم الأم : يخطىء في فهم البنت .. والعكس صحيح ؛ فمن يخطىء في فهم البلاغة : يخطىء في فهم الحيـاة ..

معالجة « الجملة الخبرية وشعبها » : كشف « شمول الحداثة بالثقـة » ، وكشف ما للعبارة القديمة وما عليها ؛ ويمكن التمهل في فهم « معنى المعنى بلازم فائدة الخبر » ومناقشة الجرجاني بذلك [٥] .. كما ينبغي التمهل بالمسألة الخطيرة في فهم « الإسناد العقلي بين النظرية والممارسة » ومناقشة القزويني بهـا [٦] .. ونترك للمتأمل معرفة ما يشبه هاتين المسألتين للتمهل والتبصّر ...

كذلك رأينا بعد « مكونات الجملة » و « أحوال الجملة الخبرية » : « أحوال متعلقات الفعـل[٧] » ... وأحوال القصر [٨] .. وفي هذين المبحثين : أعطيتُ فرصة لمعاني النحو بالعبارة الحديثة .. ووازنت بين عبارة الكتاب القديم وإثاراتها عند الدارس الحديث ..

---

١ ـ ص ـ ٤٠٩ ـ ٤١٣
٢ ـ ص : ٤١٤ ـ ٤٢٤
٣ ـ ص : ٤٢٤ ـ ٤٣٠
٤ ـ ص : ٤٢٥ ـ ٤٣٠ / مناقشة المقطع الخامس عشر ..
وحول هذه المسألة لاحظ ما كتبته في « نهج الإسلام » ع ٢٧ .. بعنوان « خاتم النبيين » .. والمغزى أنه يحرر متبعيه من إبليس والشياطين .. حتى ولو كان جنود إبليس كثيرين وفي كل الأمكنة والأزمنة ..
٥ ـ ص : ٤٠١
٦ ـ تقدمت ملاحظته (حاشية : ٤) ..
٧ ـ ص : ٤٣١
٨ ـ ص : ٤٨٥

وبذلك تم التعرف إلى أحوال الخبر في جملته المفردة •• وجاء دور الجمل المشتركة [١] ؛ وهي الأحوال المعالجة تحت عناوين « الوصل والفصل [٢] •• المساواة والإيجاز والإطناب [٣] » •••

أشير إلى معطيات جديدة كشفها تناول الجمل المشتركة :

أ – من هذه المعطيات : مسألة فهم الشعر القديم في سياق التحليل البلاغي [٤] •• وكذلك تقديرُ الشعر الحديث في مجالِ المقارنة مع عبارة النص البلاغي القديم [٥] ••

ب – ومنها : مسألة فهم القرآن الكريم [٦] في السياق ذاته ؛ أعني سياق التحليل البلاغي ••

جـ – ومنها : مسألة وزن التراث وفهمه في السياق البلاغي الذي يصيب إعجاز الالتفات القرآني إلى بلاغة الحياة في قضية جوهرية مثل قضية المرأة [٧] ••

د – ومنها : قضية « عين الحق » وإثارات البحث عما يجعلها مرئية ورائية ، في أوجه الخلق : إنسانيها وطبيعيّها [٨] ••

هذه المعطيات : أربع جهات للتفكر المجدّد ؛ ولها جهتا الأساس والسقف •• ولها : جهة سابعة تنفتح منها الصلات ، وبها تقام العلائق ؛ وهذه الجهة السابعة : مثل « سي » في السلم الموسيقي ؛ ومثل « الشافّة » في مقامات النفس [٩] •• لذلك تُركتْ حرة من التقييد مع سابقتيها : ليكتشف القارىء بنفسه : الرؤى التي تكشف عادة لمن يتعرف إلى الجهات الأربع الموضحة « أ ، ب ، جـ ، د » •• فهل يساعد الأذكياء أنفسهم بالتنبه وممارسة التفكر [١٠] •• ومع كل ذلك صدق النية وصدق التوجه ؟ !

---

١ – ص : ٥١٩

٢ – ص : ٥٢٠ ؛ ٥٢٤

٣ – ص : ٥٦١

٤ – ص : ٥٣٢ ؛

٥ – ص : ٥٥٣ ؛

٦ – ص : ٥٤٥

٧ – ص : ٥٧٦ – ٥٨٢

٨ – ص : ٥٨٨ وما تحيل إليه ..

٩ – المقام السابع : مقام النفس الكاملة ؛ ونورها شاف لا يرى .. وفي : فن الحياة .. ونظرية الأدب .. والسبر الأدبي : إيضاحات لفهم الأدب وفق مقتضى مقامات النفس ..

١٠– عبقرية الانتباه .. ورياضة الوقوف على أكتاف العمالقة : من أعمالنا المنشورة ..

رسالة الايجاز
في
المجاز
و
الاعجاز

قال الذي عنده علمٌ من الكتاب :
أنا آتيكَ به
قبل أن يرتد إليك طرفُك ..

(سورة النمل : ٤٠)

إجازةُ عيني أن أُحلِّقَ .. رائيًا ..
مِنَ الأرضِ .. فردوسَ الحياة كما هيا
على الحوضِ أرواحُ الطيور تمثَّلٌ
بحاسمه المهديِّ أمسيتُ راويا
ويُصبحُ آني في الزمانِ يُذَلَّلُ
بقرتُ رؤًى التخييلِ فالصدق أنبَلُ
إذا قلت للأشياءِ كوني الأمانيا
تكون .. يصير الأمرُ لا يُتَخَيَّلُ ..

(مثمنات الرضى : ١٩٨٨/١/٢٨)

نجيَّةُ إعجازٍ تَطابَقَ كلُّها
بجزئيٍّ إيجازٍ لتنتجبَ الحُسنى
بكل هنيهاتِ الزمانِ مجازُها
لفائفُ موسيقى يقوم بها المعنى
أكلِّمُ أمي .. صالحٌ صَحَّ غيبُه
فنرجسُه المشهود من حسَن المبنى
حسيناهُ ..! قد قام المسيحُ بقوةٍ
وحولٍ لربٍّ العرشِ من حاله حنَّا

(رباعيات الأم : ١٩٨٨/٢/١٢)

— 1 —

مدخل : للفطنة المذكّرة

في رسالة الإيجاز : نجمع بين أبواب المعاني الثمانية وبين المجاز والإعجاز ؛ ونحمل عليها : عرشَ الطموح إلى بلاغة التصرّف بالحياة من الكلمات ، وإلى الحياة المعنوية في لفيفات الألفاظ ..

تذكر هذه الرسالة : برسالة « النـداء » [١] من مستوى يتجاوز أساليب « الإنشاء والخبر » مع احتفاظه بجوهريتّها جميعاً ؛ تماماً كما في مثال سـابقٍ : قلنا فيه بتجاوز الخبز لأصوله في السنابل والتراب مع وفائه لها [٢] ..

رسالة الإيجاز في المجاز والإعجاز : كذلك ذات أبواب ، وإن كانت أبوابها على مثل بحيرة دائرية ؛ نلاحظ من العنوان « باب الإيجاز ، قصراً وحذفاً » [٣] وهو باب الاتصال البرزخي مع أبواب المعاني الثمانية.. ونلاحظ « باب المجاز[٤] » وهـو باب يصل بعـلم البيان وصوره وما يحسنها من لفظيٍّ صور البـديع ومعنويّها ... ومظاهـر الصور البيانية والبديعية : متحدة بالآيات المعبِّرة في سورة النمل وما اختير منها .. وليست منفصلة كما نجدها في كتبها المخصصة .. أما « باب الإعجـاز » [٥] : فليس للملاحظة ؛ إنما هو للمعايشة ؛ لذلك كانت مؤيداته من الوقائع التأثيرية على مستوى « بلاغة الأنبياء [٦] » .. وعلى مستوى الأمناء عليها من مُتَّبعي الأنبياء ؛ وهؤلاء الأئمة كانوا وسطاء في مناهجهم [٧] : ولاحظنا نجاح وساطتهم بالتأثيرات المشهورة على الأدباء كالجاحظ ، والشعراء

١ ــ ص : ٢٧ ــ ١٢٩
٢ ــ ص : ١٩ ؛ ٣٣١
٣ ــ ص : ٥٦٢ ؛ ٥٦٨
٤ ــ ص : ٥٨٣ ــ
٥ ــ ص : ٥٧٥ ؛
٦ ــ ص : ٥٨٥ ؛ ٥٩٢
٧ ــ ٦٠٢

كالمتنبي ، وناقدي الأدب ومؤرخيه كجبور عبد النور ، وعلماء اللغة وصانعي معاجمها وفقهها كعبد الله العلايلي ...

حديث الإعجاز : يحتاج « خشوع التيقظ في حضرة الإبداع » .. يحتاج تطهراً لدخول الحضرة ؛ وبعبارة نكررها دائماً : يحتاج تفريغ القلب من السوى :

« فرِّغ قلبَكَ من غيري
أملأْ قلبك من خيري » ..

أظهرت التجارب واقعية هذا المبدأ ؛ ولئن كثر رواة العلم : فإن وعاته قليل ؛ لأن الوعي : لا يُبْلَغ بغير تطهر مما يشتت التركيز ؛ أوليس مشهوراً عند الجميع قول القرآن الطهري في سورة الواقعة :

فلا أُقسِمُ بمواقع النجوم ؛ وإنه لقسَم لو تعلمون عظيم :
إنه لقرآنٌ كريم .. في كتابٍ مكنون ، ..
لا يمسّه إلاّ المطهَّرون ..
تنزيلٌ من رب العالمين .. (٥٦ : ٧٦ — ٨٠)

إن تطهير النفس : شرط للتماس مع أرواح المعاني في آيات الإعجاز .. وذلك سبيل الإيجاز : أي اختصار كل الاهتمامات والتوجه القلبي الخالص إلى الوعي الصافي ؛ ولا بد أن تكون « سعادة الوعي » : شراب الواصلين ..

جربت في هذه الرسالة ، كما جربت في غيرها : أن أصل بهذه السعادة .. والنتائج عند الطرف الآخر من أهل التلقي .. لذلك لا أقول ما هي النتائج ؛ فهي مستقبلية ؛ ويمكن أن نطمح إلى القياس على نتائج المتصلين بشخصيات الإعجاز وآثارهم .. ولِمَ لا يطمح المعلمون : ليروا تلامذتهم مثل الجاحظ والمتنبّي وغيرهما من ذائقي البلاغة وممارسيها ؟!... أو مثل محمد إقبال وإيمرسون من المتنصتين إلى « نهج البلاغة » والمكلّفين به ؟!.. أو مثل جبور عبد النور وعبد الله العلايلي المعبرين عن سماعهم وتكليفهم وفق مقتضى الحال لمعجم أدبي أو معجم لغوي .. أو مثل أحمد شوقي وبولس سلامه في بياناتهما الشعرية [١] ... ؟ !

---

١ ـ انظر جيش البلاغة في صناعة الكتابة : ص : ٥٧٤ ـ ٥٨١ وملحق السبر (ص) : ٦٣٧

بلاغة الايجــاز
والعجب من اعجــازه

- ١ -

إيجـاز القصـر

الإيجاز والمجاز والإعجاز : ثلاثة مستويات من بلاغةِ اللسان العربيّ .

الإيجاز : مفهومٌ بلاغي ، يعني اختصار الألفاظ بالتركيز أو بالحذف .

والإيجاز : مصدر ، فعــله المزيد : أوجز ، يقــال : أوجزَ الكلام إوجازاً وإيجازاً ، بمعنى : اختصره ،

والاختصار : يكون بتركيز المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة ، وذلك أرقى الإيجاز ، وإذا تيسّر لبليغٍ مِن البلغاء : فهو من النادر الشاذ ، كما يقول قــائل من الباحثين ببلاغة الإيجاز ،

لذلك بحثوا عنه في : بيان القرآن .. وكلامِ النبيّ .. ونهج البلاغة .. وتوفيقات الشعراء والكتّاب ..

أمثلة الإيجاز المركّز ، أو إيجاز التركيز : كثيرة في آيات القرآن ، وقــد يتبينها المتأني من السورة الأولى إلى السورة الأخيرة ، من سورة : إقــرأ ، أو : العلَق .. إلى سورة : النصر .. مثلاً :

خلقَ الإنسان من عَلَق ..
عَلّم الإنسان ما لم يعلَمْ ..

إن تركيز الأجناس والأمم البشرية في كلمة « عَلــق » ، أي النطفة : مسألة من بلاغة إيجاز القصرِ ، لأن كلاماً كثيراً يمكن قولـه في المعنى الذي رُكّزَ في هذه الجملة الموجزة .. ومثلها الجملة التي تليها ، فالعلم المستكشف مع الأجيال : يُركزه القول « ما لم يعلَمْ » ، ويمكن لفتيان عصرنا وفتياته : أن يذكروا عدداً من العلوم ، طبيعية وإنسانية ، كعلم النفس وعلوم اللغــة .. أو : علم الطب ..

والهندسة •• أو : علم الفضاء •• وأعماق البحار •• وطبقات الأرض •• وهـذا كلّه من علم « ما لم يعـلم » ••

والإيجاز الذي استخدمته في عرضِ هاتين الجملتين : هو إيجاز الحذف ؛ فقد تركت آيتين قبل المذكورتين ، وأصل ترتيبها الموحى :

إقرأ باسمِ ربّك الذي خلَق ••
خَلَق الإنسان من عَلَق ••
إقرإ وربُّكَ الأكرم ، الذي علّم بالقلم ••
علّمَ الإنسان ما لم يعلم ••

وغالباً : أتمّ من سمعني ما حذفته من حديثي ؛ لأن هذه الآيات الأربع : أول ما نزل من الوحي ؛ ومشهورة معلومة في المدارسِ الابتدائية •• لذلك كان التخلّي عن ذكر أولاها مع ذكـر ثانيتها : إيجاز حذفٍ دعا إليه مقتضى حـال البلاغة العصرية •• وكذلك الحال المقتضى عند ذكر الآية الرابعة وحذف الثالثة قبلهـا ••

لقد أكثر مؤلفو كتب البلاغة من ذكر آيات القـرآن الدالة على الإيجاز ، قصراً وحذفاً •• مع أن القرآن ليس مثالاً على بلاغة العرب ، وقد تحدّى الإنس والجنّ على أن يأتوا بآية من مثله •• فكيفَ يُخرَّج ذلك ؟

ربما يدل ذلك على بلاغة العـرب ؛ لأنهم خوطبوا به ؛ وهم شعب يتبارى بلغاؤه بالكلام في أسواق لهم معلومة ، كسوق عكاظ مثلاً ••

وفي عصرنا : أما نفهم سياق حـركة المراكب البحرية والجوية والفضائية ، مع أننا لا نحسن قيادتها •• ولا نصل الى مسٍّ بعضها إلا بالعين أو بالأذن ••

بهذه الصورة : تدلّ بلاغة القرآن على بلاغة اللسان العـربيّ •• لا على بلاغة القوم •• لكنها تفتح لهـم أبواب الممكنات ؛ فأبو الفصاحة ، إسماعيل :

جدهم •• وخـاتم النبيين (ص) : معلّمهم •• ومنهم : أمراءُ الكلام ، كربيبِ محمد ص : علي بن أبي طالب (ع) ، الذي تطلع إلى بلاغته القدامى والمحدثون ، من الجاحظ •• إلى المتنبِّي •• إلى عبد الله العلايلي •• وغيرهم ••

في البيان والتبيين ، يقول الجاحظ :

« وقال علي ، رحمـه الله :

قيمةُ كلِّ امرىءٍ ما يحسن » ••

وفي إشارة التحقيق يذكرون نسخة مخطوطة أخرى ، فيها « قيمة كل إنسان ما يحسن » •• وفيها : قال علي بن أبي طالب ، كرّم الله وجهه ••

والمهم أن هذا القول : مثالٌ على إيجاز القصر ؛ فقد ركز في ألفاظه القليلة ما لا يحصى من المعاني ، كما يُفهم من قول الجاحظ ، معلّقاً على العبارة بهـذه المقـالة ؛ يقول الجاحظ :

« فلو لم نقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة : لوجدناها شافية كافية ، ومجزئة مُغنيةً ؛ بل لوجدناها فاضلةً عن الكفاية ، وغير مقصرة عن الغـاية ؛ وأحسن الكلام : ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهـر لفظه ؛ وكان الله عزَّ وجلَّ : قد ألبسه من الجلالة ، وغشاه من نور الحكمة : على حسَبِ نيَّة صاحبه ، وتقوى قائله •• فإذا كان المعنى شـريفاً ، واللفظُ بليغاً ؛ وكان صحيح الطبع ، بعيداً من الاستكراه ، ومنزَّهاً عن الاختلال ، مصوناً عن التكلف : صنعَ في القلوب صنيعَ الغيث في التربة الكريمة •• ومتى فصلتِ الكلمة على هـذه الشريطة ، ونفذت من قائلها على هذه الصفة : أصحبَها الله من التوفيق ، ومنحها من التأييد •• ما لا يمتنع معـه من تعظيمها صدور الجبابرة •• ولا يذهـل عن فهمها معـه عقولُ الجهلة » ••

إن تعليق الجاحظ على عبارة ، تمثل إيجاز القصر : نوع من بلاغة الإطناب

والإيجاز معاً ؛ هـذه المقالة الجاحظية : إطناب" بليغ" ، يظهر التأثر بما كشف له من معنى هذه العبارة في قيمة الإنسان النابعة من إحسانه ••• وهي ، أي مقـالة الجاحظ : إيجاز بليغ" لمعانٍ كثيرة في كمها ونوعها ؛ فقد أشار إلى كتاب البيـان والتبيين بجملة ، مع أنه شبه موسوعة ؛ « فلو لم نقف من هـذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها شافية كافية ••• » ••• كما أشـار إلى مقومات نظـرية القيمة ، أدباً ومجتمعاً وفلسفة وديناً •• وبكلامٍ قليل •• فألف بين بلاغتي الإيجاز والإطناب بصورة تطبيقية ••

والمتنبّي مثل الجاحظ ؛ وفي شعره ما يؤكد انتقال ما أعجب به الجاحظ من الإمام علي ؛ وقد يكفي التأمل بقصيدته المشهورة :

على قدر أهـل العـزمِ
تأتي العـزائِمُ
وتأتي على قـدر الكرام المكارم ••

لا يخفى على أهل الذوق أن هذا البيت من معنى عبارة الإمام « قيمة كـلِّ امرىء ما يحسن » •• فالمكارم : قيم ؛ وهي تأتي على قدر أهل العزم ؛ أي من إحسانهم تحسب مكارمهم •• ومماّ يحسنونه تأتي عزائمهم فيحسبون من أهل العـزم ••

والدلائل المقصودة : هي بلاغة إيجاز القصر ؛ فعبارة واحدة من الإمـام علي (ع) : أثارت كلاماً كثيراً من الجاحظ ومن المتنبي •••

والوقفةُ مع كلام عـلي ؛ لأنه أقرب إلى الناسِ ؛ فهو أبو ترابٍ ؛ ويحب أن يتعلَّم الناسُ بلاغـة اللسان العربيِّ ؛ وقـد سُمِّي ما جمعه من كلامـه الشريف الرضي : بنهج البلاغة •• وترى في أخبـار عبد الحميد الكاتب وكلام ابن المقفع : ما يغريك بمثل ما فعلا مـن حفظ كلامه •• وكذلك يشدِّد عزمك في عصرنا ما انتهى إليه الدكتور جبور عبد النور في « المعجم الأدبي » •• والشيخ

عبد الله العلايلي في « المعجم الكبير » .. فهذا الأخير : بعد استقصاء كل مادة لغوية ، يُجرِّب رفع الحال البلاغي إلى ما يسميه : فصحاً نهجية ؛ وهي جُمل قصيرة تمثل : إيجاز القصر ؛ كما تمثل أسلوب الشيخ في ترجمة فهمه وتأثره « بنهج البلاغة » ..

ففي الفصح النهجية التي ذكرها لكلمة أدب ؛ يقول :

أ - أدب المرء خير من ذهبه ..

وهذه العبارة إيجاز قصر ، إذا أخذت بمفردها ؛ لأن وراء كلماتها القليلة : معاني كثيرة .. لكنها إطناب إذا قيست بمنبعها النهجي ؛ ففي كلام علي (ع) : « ولا ميراثَ كالأدب » ... فالميراث : قد يكون ذهباً ، وقد يكون غير الذهب ؛ ومع ذلك : فلن يكون كالأدب ..

ب - إلزم الصدقَ فإنه حلية الأدب ..

وهذه العبارة : كذلك تعتبر من إيجاز القصر ؛ لأنها تثير معاني كثيرة بكلمات قليلة .. ولكنها : مركبة من قطرات إيجاز نهجية ، فمن كلمات علي (ع) قوله :

الآداب حلل مجددة ..
وزينتكم الأدب ..
والصدق توأم الوفاء ..

أريد تبصرة طلاب البلاغة بواحدة من الكيفيات الذكية التي يربون بها أنفسهم على اكتساب البلاغة ؛ فالشيخ العلايلي : أحد أعلام عصرنا في علوم اللغة ؛ وهو كما نرى : يجرب أقصى ما تستوعبه مادة لغوية ، مثل مادة « أدب » ؛ ليجعلها تنطق بمثل ما نطق به علي (ع) ؛ .. وقد سبقه كثيرون إلى هذه الكيفية أو غيرها في تعلم بلاغة اللسان العربي من أمير الكلام بهذا اللسان ، بعد ما خصص للوحي والنبوّة ؛ إقرأ مثلاً قطعة « الصديق » في « الدرة اليتيمة » ، لابن المقفع ؛ وقارنها بأصلها في « نهج البلاغة » ؛ وانظر ماذا أنتَ واجد من بلاغة الإيجاز والإطناب .. وكيفية التعلم من الإعجاب ؛ !

في الحكمة (٢٩٥) ، وفق ابن أبي الحديد :

« كان لي فيما مضى أخٌ في الله ،

وكان يُعظمه في عيني :

صِغَرُ الدنيـا في عينه ... » الخ ..

وفي خاتمة الدرة اليتيمة ، وفق تصحيح شكيب أرسلان :

« إني مخبرك عن صاحب ،
كان أعظـم الناس في عيني ،

وكان رأس ما أعظمه عندي :

صِغَرُ الدنيـا في عينه ... » الخ ..

إن ابن المقفع : حاول الاقتـداء بالأسلوب ، ولم يوفق إلى ما وفّق إليـه العلايلي من مجاورة الروح الأدبي ، عند علي ؛ لذلك وقع بما يسميه ابن الأثير في مقـام بلاغة الإيجاز « لغواً من الحديث » ؛ .. أليس لغواً قوله : « كان أعظم الناس في عيني » ؟ .. ومـن الناس : من لا يقاس بهـم من الأنبياء (ص) .. وعلي (ع)لم يقـل هذا ؛ بل حدّد العلاقة بأخوّة في الله ، ابتداءً .. وتركها ابن المقفع صحبة موهمةً .. إلى أن جـاء بالتعليل متأخـراً .. « فصِغر الدنيا في عينه » : عـلة هذا التقدير ..

أشرت إلى تجربتيّ التراث والمعاصرة ، أو : القديمة مع ابن المقفع والحديثة مع العلايلي ؛ لأظهر لطالب البلاغة في اللسان العـربي : أن الكيفية في اكتساب أساليب البلاغة لا تكتفي بالبناء الخارجيِّ للتعبير ؛ بل تبتغي النية العميقة : لأن الصدق حليةُ الأدب ؛ وتوأم الوفـاء ؛ ولأن الأدب : زينة الإنسانِ بما يتحلّى به من صدق النية ؛ فيجيء حُللاً مجدّدة التصوير ؛ ومجدّدة التفكير ..

أرانا مطنبين في إيضاح إيجاز القصر ؛ .. وإيجـاز الحذف مثله : يتطلّب

هذا الإطناب الإيضاحي ؛ ليحرِّر من أوهامٍ الدارسين ومن تقاليدهم التي تربط البلاغة بغير طبيعتها وتعرضها على غير ذوق أصحابها الأصلاء ؛ ولا أمثل للفسادِ ؛ بل أكتفي بالقول : فليقرأ أي أسلوبٍ من أساليب الإنشاء أو الخبر وما يتعلق بهما في أي كتابٍ قديم أو حديث ؛ ليتأكد المهتم بذوقه : أن الفسادَ رفيق تلك الأساليب ، إلاّ ما رحم الله ؛ .. والمفسدون : ليسوا في حقل التأليف النقليِّ ، وحده ؛ بل هم في حقول أخرى : أجهر أصواتاً ؛ وأبلغ أذىً .. « أعوذ بربِّ الفلق ، من شرِّ ما خلق » ..

- ٢ -

إيجاز الحذف

الإيجاز البلاغي : يتربّي على فهم المادة اللغوية ، مجردة ومزيدة ؛ لأن التجريد : يذكر بالأصل .. فهل تنفع الذكرى ؟ !

إيجاز القصر وإيجاز الحذف : يشتركان في مفهوم الإيجاز ؛ وهو مصدر لفعل « أوجز » المزيد ؛ فإذا حذفنا الزائد من حروفه : عاد إلى مجرده الأصل « وجز » ؛

في المادة المعجمية يقولون :

وَجَزَ الكلامَ : يجزُه وجزاً ؛ أي جعله وجيزاً ؛ والوجيز من الكلام : القصير السريع الوصول إلى الفهم ؛ وهو : الخفيف المقتصر ؛ ومثل الوجيز بالمعنى : الواجز ؛ وكذلك الوجز ؛ يقال : رجلٌ وجزٌ ؛ بمعنى سريع العطاء أو الحركة ..

ويقولون في المادة الأصل أيضاً :

وَجُزَ الكلامُ : يَوْجُز وجازة ، إذا قل في بلاغة ؛
وَجُزَ الرجل في منطقه : وجْزاً ، ووجازةً ؛ ووجوزاً ؛ كان وجيزاً ؛
والمِيجاز : الذي عادته الإيجاز في كلامه ..

وعندما تزاد حروف المادة الأصل : تبقى هذه المعاني الأصلية ثابتة فيها ؛

يقال : استوجزَ الكلام استيجازاً ، بمعنى حذف ما فيه من الفضول .. وسبق القول في المزيد « أوجز » ، الذي بدأنا منه ؛ ومن عبارتهم : أوجزَ الكلامُ إيجازاً ، بمعنى قلّ ؛ وأوجز الكلامَ وفي الكلام : اختصره ؛ وأوجز العطيّة : تعجّلها .. وتوجّزَ الشيء : التمسه وسأل إيجازه ...

هذه حركة الزيادة والحذف في مادة المفهوم البلاغي الذي عرف بالإيجاز ، فما هو إيجاز الحذف ، كيف يكون .. وما أدلته ؟

يكون المحذوف : كلمةً ، أو جملةً ، أو أكثر من جملة ؛ .. وتدل عليه قرينة عقلية ؛ أو قرينة من العادة ؛ .. كما قد يستعاضُ عنه بما يقوم مقامه ..

عدّ ابن الأثير أربعة عشرَ نوعاً من أنواع حذف المفرد ، منها حذفُ حرفٍ من الكلمة ، أو حذف المضاف ، أو حذف الموصوف ، أو حذف الصفة ، أو حذف القسَم أو جوابه ، أو حذف الشرط أو جوابه ، أو حذف لو وشرطها ، أو جوابها... أو غير ذلك مما ذكره الباحثون في هذا الموضع ، كما فعل القزويني في الإيضاح .. فقد أشار إلى أنواع أخرى مثل حذف الصلة بعد « اللتيا والتي » .. ومثل حذف كلمة النداء وياء المتكلم في دعاء زكريا ، بقوله « رب » والأصل : يا ربّي...

إن أحكام الحذف : تظهر لعارفي النحو ، أيضاً ، لكن متذوقي البلاغة يرون ما عبّر عنه ابنُ الأثير ، فقد تعجّب من أمره حتى شبّهه بالسحر : لبلاغة أسلوبه المفيد بالصمت عن الإفادة ... وقد يكون السكاكي أكثر واقعيةً وإقناعاً بتعليلاته لبلاغة الحذف وتذوق دلائل الإعجاز من الإيجاز .. ولا بأس من التأمل بعبارته في « الإيضاح » .. أو في « المفتاح » ؛ فقد توقف مع عبارة النبي زكريا (ع) وفتح من لطائفها ثماني مراتب لبلاغة الإيجاز بالحذف ؛ نلتقط أول كلامه وآخره ؛

قال ابتداءً ؛

ومن هذا الضرب قوله : « ربِّ إني وهنَ العظم منّي ، واشتعل الرأسُ شيباً » .. لأن أصله : « يا ربِّ إني وهنَ العظمُ منّي ، واشتعل الرأسُ مني شيباً » ...

وقال تعقيباً :

« واعلم أن الذي فتق أكمام هـذه الجهات عن أزاهير القبول في القلوب : هو أن مقدمة هاتين الجملتين ، وهي « رب » اختصرت ذلك الاختصار ، بـأن حذفت كلمة النـداء ، وهي « يا » ؛ وحذفت كلمة المضاف إليـه ، وهي « يـاء المتكلم » ؛ واقتصر مـن مجموع الكلمات على كلمـة واحدة فحسب وهي : المنـادى ••

والمقدمة للكلام – كما لا يخفى على من له قدمُ صدق في « نهج البلاغة » – نازلةٌ منزلة الأساس للبناء • فكما أنَّ البنَّاء الحاذق : لا يرمي الأساس إلا بقدر ما يُقَدِّرُ من البناء عليه ، كذا البليغُ يصنَعُ بمبدأ كلامه • فمتى رأيته قـد اختصر المبدأ : « فقد آذنك باختصار ما يورد » ••

بهذين المعيارين وما يشبههما : ينظر إلى بلاغة الإيجاز بالحذف ، مفردة أو جملةً ، أو أكثر من جملة ؛

وتلاحظ أمثلة الحذف ، كما هي في الكتب المتداولة ؛ فمعظمها أمثلة قرآنية ؛ ولذلك دلالات انبهار البلغاء والباحثين في البلاغة بهـذا الإعجاز التأليفيِّ الذي يعجز الإنس والجن عن الإيتاء بآيـة من مثله ؛ ولذلك يتعلقون بحبله الموصول بمنبـع الوحي ؛

ولتقدير هـذه الملاحظة نتأمل في زمر الأمثلة الواردة لكل نوع من أنواع إيجـاز الحذف :

أ – تالله تفتأ تذكر يوسف ؛

حذف « لا » تفتأ •• من سورة يوسف ••

ب – حُرِّمَتْ عليكم الميتةُ ؛

حذف المضاف ؛ والأصل : حرّم عليكم تناولُ الميتةِ •• والمثال مأخوذ من سورة المائـدة ؛ (٣)

جـ – وآتينا ثمود الناقة مبصرة ؛

حذف الموصوف ، والتقدير : آيـةً مبصرة ••

د – وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينةٍ غصباً ••

حذف الصفة ؛ والتقـدير : كلَّ سفينةٍ صحيحةٍ ، أو صالحـة •• من سورة الكهف (٨٩) ••

هـ – « ولو أنَّ قرآناً سُيِّرتْ بـه الجبالُ ، أو قطِّعت به الأرضُ ، أو كُلِّمَ به الموتى •• »

حذف جواب الشرط ؛ والتقدير : لكان هذا القرآن •• حذفـه اختصاراً ؛ والآية من سورة الرعد ، (٣١) ••

وقد يكون حذف جواب الشرط : ليأخـذ بالسامع أو القارىء إلى عوالم من التصور والتخييل يوحي بها مقتضى الحال ؛ ومن أمثلة ذلك :

« وسـيقَ الذين اتَّقَوا ربَّهـم إلى الجنـة زُمَراً ؛ حتى إذا جاؤوها ، وفُتِحَتْ أبوابُها ، وقال لهـم خزنتها : سلامٌ عليكم ؛ طِبْتُمْ ؛ فادخلوها خـالدين •• »

إن للبصيرة أن تنفذ إلى جواب الشرط الذي يناله من « إذا جاؤوها » •••• كان لهم ما لا عين رأت •• ولا أذنٌ سمعت •• ولا خطر على قلب بشر ••• لأنها جنَّة : عرضها السموات والأرض •• ولأنهـا جنَّات •• وجنَّات تجـري من تحتها الأنهـار •••

هذه الآية من سورة الزمر •• وللجنة آيات كثيرة في القرآن ، بشرط أو بغير شرط •• فليتأمل محبو الجنَّات في بلاغة آياتها لعلها ترفعهم إلى حضراتها ••

و – ومثلُ الشرطِ وجوابه : القسَمُ وجوابه ؛ فلحذف أحدهما : بلاغة إيجاز ، يقدرها ذائقو علم المعاني ؛ ومن ذلك في سورة « ق » :

« ق • والقرآن المجيد ••

بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ؛ فقال الكافرون : هذا شيء عجيب •• »

وجواب القسم بالقرآن المجيد : محذوف ؛ تقديره : لتبعثنَّ يا حامل القرآن•• أو لتؤيدن حتى يُرغَمَ المنكرون ••

ز – « لا يستوي منكم من أنفق قبل الفتح وقاتل » ••

حذف ما يستدعيه السياق ؛ وتقدير المحذوف : ومن أنفق بعد الفتح وقاتل ••• والآية من سورة الحديد (١٠) تقتضي في سياقها فهم هذا المحذوف ••

ح – « فقلنا : اضرِبْ بعصاكَ الحجرَ ؛ فانفجرتْ منه اثنتا عشرةَ عيناً ؛ قد علِمَ كلُّ أناسٍ مشربَهم •• »

هذا من أمثلة حذف الجملة •• والآية من سورة البقرة (••) •• والسياق يدل على حذف الجملة ؛ والتقدير : فضربَ الحجرَ بعصاه ••• فانفجرت منه •••

ط – « ولقد آتينا : داودَ وسليمانَ •• علماً •• وقالا •• الحمد لله •• »

الآية من سورة النمل (١٥) وفيها حذف قصر بكلمة علم ؛ لأن هذه الكلمة : تجتذب التأمل إلى المواهب العديدة التي وهبها الوهابُ لداود وابنِه سليمان وتفسرها الآيات المفصِّلة بسيرة هذين النبيين الكريمين ، ومن صور ذلك ما نجده في سورة سبأ ؛ وهي صورة خلاَّبة :

ولقد آتينا : داودَ منّا فضلاً ؛
يا جبال أوِّبي معه ؛
والطيرَ
وألنّا له الحديد ••

أنِ اعمَلْ سابغاتٍ ؛
وقَدِّرْ في السَّرد ؛
واعملوا صالحاً ؛
إني بما تعملون بصــير ..

ولسليمانَ : الريحَ
غُدوُّها شهرٌ ورَواحُها شهرٌ ؛
وأسَلْنا له عــينَ القِـطرِ ؛
ومِن الجِنِّ : مَن يَعمَلْ بين يديــه ، بإذن ربِّه ..
ومَنْ يزِغْ منهم عن أمــرِنا :
نُذِقْهُ من عذاب السعير ..
يعملون له ما يَشاء : من محاريبَ ، وتماثيلَ ، وجِفــان
كالجَوابِ ، وقدورٍ راسياتٍ ؛
اعملوا آل داودَ شكراً ..
وقليلٌ من عباديَ الشكور ..

هذا مما ركز في كلمة « علماً » أعطي لداود وسليمان .. وقــد أوجز بدون حذف .. وذلك ما بدأنا به هذا البحث بنوعه الأول : إيجاز القصر ..

جاءت الآية جامعة بين النوعين ؛ والنوع الثاني ، هو ما نحن بصدده ، أعني : إيجاز الحذف ؛ فالمفسرون أمثال الزمخشري ، والبلاغيون أمثال السكاكي : يرون جُملاً عديدة حذفت .. ودل عليها سياق قولهما « الحمد لله » ..

ومن عبــارة الزمخشري : « وعطفه بالواو ، إشــعار بأن ما قالاه : بعضُ ما أحدث فيهما العلم ؛ كأنه قال : فعملا به ؛ وعلماه ؛ وعرفا حــين النعمة فيه ؛ والفضيلة ؛ .. وقالا : الحمد لله » ...

ي – فإن تَوَلَّوْا : فقد أبلغتكم ما أرسلتُ به إليكم ..

هذه الآيــة من سورة هــود (٥٧) ؛ وهي دالَّةٌ على الوجه الآخــر من وجوه الحذف ؛

فالحذف على وجهين ، كما يقررون ؛ أحدهما : « أن لا يُقام شيءٌ مُقامَ المحذوف •• والثاني : أن يُقامَ مقامَه ما يدل عليه » •• (إيضاح : ٢٩٩)

في الأمثلة التسعة السابقة : تم الحذف وأحدث آثاره الإبلاغية بلا إقامة أشياء بدل المحذوف •• في هذا المثال العاشر : أقام مقام المحذوف ما يدل عليه ؛

فجواب الشرط « فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم » : ليس هو الجواب ؛ لأنه سبق « تَولِّي المدبرين عن قبول البلاغ » •• والمعنى التقديري : « فــإن تولوا فلا لوم علَيَّ ؛ لأني قــد أبلغتكم ؛ أو فلا عذر لكم عنــد ربكم ؛ لأني قــد أبلغتكم » ••

ومثل ذلك : « وإن يكذبوكَ فقــد كُذِّبت رسلٌ من قبلك » •• أي : فلا تحــزن ؛ واصبر ؛ فقد كُذبت رســلٌ من قبلك •• فتأس بهم ؛ فالعاقبــة كعاقبتهم : خــيرٌ لك وأذى لمكذبيك جلبوه لأنفسهم ••• والآيــة من سورة فاطــر (٤) •••

في أمثلة الإيجاز بالحذف : ظهرت أدلة الحذف ؛ ففي كل مثال مــن الأمثلة العشرة : دلتنا قرينة سياقية على المحذوف ، عن طريق العقل والفهم ؛ أو طــريق عادات التعبير وما يستدعيه السياق ؛ ولا بأس من العــودة إلى واحد من تلك الأمثلة لترسيخ الفهــم ••

في المثال الثاني (ب) :

حرِّمت عليكم : الميتة ، والدَّمُ ،

ولحمُ الخنزير •••

الآية من سورة المائدة (٣) ؛ ويرى القزويني ومن نقل عنهم : أن العقلَ يدل على الحذف .. وأن المقصودَ الأظهرَ : يدل على تعيين المحذوف ..

فالمقصود الأوضح : أن التحريم يقعُ على تناولِ الميتة والدم ولحم الخنزير.. وهذه المسألة يدل عليها العقل ، لذلك كان الاستدل على حذف المضاف الذي هو « التناول » .. والتعيين به ، أي بالتناول : أرشد إليه التعامل العمليّ المعتاد ، الذي يسمونه « المقصود الأظهر » ؛ اي الأكثر ظهوراً ...

- ٣ -

الإيجــاز المعجــز

وبكل حال ، أسلوب الإيجاز : طريقةُ تفاهمٍ مع الأذكياء ، فهؤلاء : أهــل ذوق ، وأصحاب ألباب ، وسريعاً ما يَفهمون ويتفهمون ..

لكن الباحثين في خصائص الإيجــاز : يجدون لبلاغته مستوياتٍ ، منهــا ما يرتقي مراقي المجاز ، ومنها ما يتجاوز المجازَ ذاتــه ، فينقل إلى مستوى الإعجاز العملي ، الذي يتصرفِ بالكون وفق العلم بالكلمات ..

من أمثلة هذا الإيجاز المعجز : ما يُبحث في إيجاز حذف الجمل المتعددة ، كمشاهد من قصة سليمان مع الهدهد .. وإرساله إلى بلقيس .. ومشاورةِ الملكة لقومها .. ثم إرسالِها هدية إليه .. ثـم إحضار عرشِها من اليمن الى القدس قبل ارتداد الطرفِ ، أي قبل رفةِ الجفن على الجفن .. وفصول القصة في سورة « النمل » ، حُكِيَتْ بخمسة وعشرين آية ، (٢٠ — ٤٤) .. ويمكن أن تحكى بزيادة جمل كثيرة ، إذا لم يستخدم أسلوب الإيجاز بالحذف .. وأحياناً أسلوب الإيجاز بالقصر .. وفي كليهما : ما فــوق الأسلبة والأساليب من إعجازْ يبلــغ مستوى التصرف بالأشياء ..

إن التأمل بفصول القصة : أجدى لمن يحب تذوق إعجــاز الإيجاز ، لأن البحث فيها ، هنا ، من باب « إعجاز الإيجاز » .. وقد شجعني على ذلك : العــلم بمقتضى الحال في هذا الأسلوب ، الذي يوجَّه للأذكياء ، فرجوت نصيباً منه لي ولمن يصغي إليّ ، تواقاً إلى فهم المسألة الإعجازية ، لأن مقتضى الحال : يتطلب ثلاث مطابقات ، مع حال الموضوع ، ومع حال المتكلم ، ومع حال المخاطب ...

إن التأمل بآيات القصة : يُشهِدُ المتأمل مشاهد من فصاحة الكلمات ، وبلاغة الجمل ، ورقي الأسلوب ؛ ومن عجائب الحيوية التي أدهشت ابن الأثير والسكاكي عند التأمل في خصائص أسلوب الإيجاز ؛ فصرّح الأول بسحر هذا الأسلوب ؛ وصرح الثاني بقبول القلوب وتفتح أكمامها من تأثيره ..

لذلك لا بد من الهدأة المطمئنة مع جملة الآيات في سياقها لتبيّن الجمال البلاغي والجلال الحيوي ؛ ألم يُقَلْ : إن الإيجاز هو البلاغة ؟ ..

نصّ الإيجاز المعجز :

15 — ولقد آتينا داود وسليمان : علماً ؛ وقالا : الحمد لله ، الذي فضّلنا على كثيرٍ من عباده المؤمنين .

16 — وورثَ سليمانُ داودَ ؛

وقال : يا أيها الناس ..
عُلِّمنا منطقَ الطير ؛
وأوتينا من كلِّ شيء ؛
إنَّ هذا لهُوَ الفضل المبين .

17 — وحُشِرَ لسليمان جنودُه من : الجنِّ والإنس والطير ؛
فهُم يُوزَعون ..

18 — حتى إذا أتَوا على وادي النمل ؛
قالت نملةٌ :

يا أيها النملُ .. ادخلوا مساكنكم .. لا يحطمنّكم سليمانُ وجنودُه .. وهم لا يشعرون ..

19 — فتبسَّمَ ضاحكاً من قولها ..

وقال : ربِّ أوزعني أن أشكر نِعمتَك التي أنعمتَ عليَّ ، وعلى والديَّ •• وأن أعملَ صالحاً ترضاه •• وأدخلني برحمتِك في عبادك الصالحين ••

20 — وتفقّدَ الطير •• فقال :

ما لِيَ لا أرى الهُدْهُدَ •• ؟
أم كان من الغائبين • ؟

21 — لأعذبنّه عذاباً شديداً ••

أو لأذبحنّه ••
أو ليأتينّي بسُلطان مبين ••

22 — فمكثَ غيرَ بعيدٍ •• فقال:

أحطتُ بما لم تُحِط بِه ••
وجئتُكَ من سبأٍ بنبأ يقين ••

23 — إني وجدتُ امرأةً تملكهم ••

وأوتيتْ من كلِّ شيءٍ •• ولها عرشٌ عظيم ••

24 — وجدتُها وقومَها يسجدون للشمس من دون الله •• وزيّن لهم الشيطان أعمالَهم •• فصدّهم عن السبيل •• فهم لا يهتدون ••

25 — ألا يَسجدوا لله ، الذي يُخرجُ الخَبْءَ في السماوات والأرض •• ويَعلم ما تُخفون وما تُعلنون ••

26 — اللهُ لا إله إلا هو ربُّ العرش العظيم ••

27 — قال : سننظرُ •• أصدقتَ •• أم كنتَ من الكاذبينَ ••

28 — اذهَبْ بكتابي هذا •• فألْقِه إليهم •• ثم تولَّ عنهم •• فانظرْ •• ماذا يرجعون ••

29 — قالت :

يا أيُّها الملأُ ••
إنّي •• أُلْقِيَ إليَّ كتابٌ كـريم ••

30 — إنـه من سليمان •

وإنه : بسم الله الرحمن الرحيم ••

31 — ألاَّ تعـلو عليَّ ••

وأْتوني مسلمين ••

32 — قالت :

يا أيُّهـا المـلأ ••
أفتوني في أمـري
ما كنتُ قاطعةً أمـراً حتى تشهدون ••

33 — قالـوا :

نحن أولو قوَّةٍ •• وأولو بأسٍ شديدٍ •• والأمرُ إليكِ ••
فانظُري ماذا تأمرين ••

34 — قالت :

إن الملوكَ إذا دخـلوا قريـةً أفسدوها ••
وجعلوا أعِـزَّةَ أهلِهـا أذلَّةً ••
وكذلكَ يفعلون ••

35 — وإنّي مُرْسِلَةٌ إليهم بهـديَّةٍ ••

فناظِرةٌ بما يرجعُ المرسَلون ••

36 — فلما جـاءَ سليمانَ ••

قال : أتُمِدُّونَنِ بمـالٍ ••
فما آتانيَ الله خـيرٌ مما آتاكم ••
بـل أنتم بهـديتكم تفرحون ••

37 — ارْجعْ إليهـمْ ••

فلَنَأْتينَّهم بجنودٍ لا قِبَلَ لهم بهـا ••
ولَنُخْرِجَنَّهم منهـا أذلَّةً ••
وهم صاغرون ••

38 — قـال :

يا أيهـا المـلأُ ••
أيُّكم يأتيني بعرشـها ••
قبـل أن يأتوني مسلمين ••

39 — قال عفريتٌ من الجـنِّ :

أنا آتيكَ به ••
قبـل أن تقـومَ من مقامِكَ ••
وإنّي عليـه لقـويٌّ أمـين ••

40 — قال الذي عنـده عـلمٌ من الكتاب :

أنا آتيكَ بـه
قبـل أن يرتدَّ إليكَ طرفُك ••

فلمَّا رآهُ مستقراً عنده ••

قــال :

هــذا من فضل ربي ••
ليبلوَني أأشــكرُ أم أكفر •• ؟
ومَن شــكرَ فإنما يشكر لنفسِهِ ••
ومَن كفــر ••
فــإنَّ ربِّي غنيٌّ كــريم ••

41 — قــال :

نَكِّروا لهــا عَرْشَهَا ••
ننظــر ••
أتهتــدي ••

أم تكون من الذين لا يهتدون ؟ !

42 — فلما جاءت •• قيــل :

أهكذا عرشُك •• ؟
قالت : كأنَّه هو ••
وأوتينا العــلمَ مِن قبلهــا ••
وكنَّا مسلمين ••

43 — وصدَّها ما كانت تعبدُ من دون الله •• إنَّها كانت من قومٍ كافرين ••

44 — قيل لهــا :

ادخُلي الصَّرْحَ ••
فلمَّا رأتــهُ حسبته لجَّــة ••
وكشفتْ عن ساقيها ••

قـال :

إنَّه صَرْحٌ ممرَّدٌ من قوارير ..

قالت :

ربِّ ..

إنِّي ظلمتُ نفسي ..

وأسلمتُ مع سليمانَ للهِ ربِّ العالمين ..

هذه الآيات الثلاثون : حكاية تامة ؛ وفيها للبلاغة كلها صورة مثلى ؛

والفصل الأول منها : تمثله ثلاث آيات ؛ وقد رأينا في المثال التاسع (و) : كيف التقى إيجاز القصر وإيجاز الحذف في واحدة منها ، هي (15) .. وآيات هذا الفصل (15 — 17) : تسمعنا ثلاثة أنواع من الأصوات ؛

الصوت الإلـهي المتجلِّي من الأسماء الحسنى « الوهاب المؤتي العليم » ..

والصوت النبوي المتجلِّي من النبيين الكريمين « داود وسليمان » ..

والفصل الثاني منها : تمثله آيتـان (18 — 19) وهما المتعلقتان بوادي النمل ، ومنهما أخذت تسمية السورة ..

والفصل الثالث منهـا : تمثله تسع آيات ، (20 — 28) ؛ وهي آيـات الحوار النبوي مع الهدهد ، وتكليفه بمهمة إيصال الكتاب إلى بلقيس ..

والفصل الرابع منها : تمثله سبع آيـات ، (29 — 35) وهي آيـات بلقيس ملكة سـبأ ، والاجتماع مع قومهـا والتشاور بشأن كتاب سليمان .. وتجربة الوصول إلى حـلٍّ معه ..

والفصل الخامس منها : تمثله ست آيات ؛ (36 — 41) ، وفيهـا ردت هـدية بلقيس وأحضر قصرها ..

والفصل السادس من الآيات : تمثله ثلاث آيات (44 — 42) ؛ وفيهـا جاءت بلقيس ودخلت الصرحَ •• وأسلمت مع سليمان لله ربِّ العالمين ••

في أي من هذه الفصول : أمثلة لإيجاز القصر وإيجاز الحذف •• وقـد وقفنا مـع الفصل الأول في المثـال التاسع (و) •• وبينا ماذا رأى المفسرون والبلاغيون بالقول « وقالا : الحمد لله » ••

لكننا في الآية الأربعين من الفصل الخامس : نشهدُ إيجازاً عجباً ، لا بالكلمات وحسب ، إنما بالزمن أيضاً •• ولنتأمل مجدِّداً بالآية ، جزءاً جزءاً •• فماذا نجد : إعجازاً ومجازاً وإيجازاً •• ؟

« قال الذي عنـده علم من الكتاب :
أنا آتيك به قبـل أن يرتدَّ إليك طرفك ••
فلما رآه مستقراً عنـده •• »

في التفاسير يقولون : إن الذي عنده علمٌ مِنَ الكتاب ، هو وصيُّ سليمان ، المعروف : بآصف بن برخيا •• كان صديقاً ، يعـلم اسم الله الأعظـم ، الذي إذا دعا بـه أجيب ••

ويقولون بارتداد الطرف : أن آصف قال لسليمان انظر إلى السماء ؛ فنظـر إليها ، ثمَّ ردَّ بطرفـه : فوجده موضوعاً بين يديه •• ففي نظـره إلى السماء : دعا آصف بالاسم الأعظم ، أن يأتي الله به ؛ فحصل بأن جرى تحت الأرض حتى نبع تحت كرسـي سليمان •••

إن المسألة تشرح بصور مختلفة ؛ فللشيخ محيي الدين بن عـربي : تفسير أخّاذ للقضية ، لمن أحبَّ رؤيتـه في فصوص الحكم ؛ « فص حكمة رحمانية في كلمـة سليمانية » ••• وكذلك للشريف الرضي عـرض للقضية في « خصائص الأئمة » ، لمن يريد فهم سيرورة المعجزة وأسلوب التعامل مع المعاني ••

هنا : مثلنا عملياً للجمل المحذوفة بنقل جمل التفسير التي تصل بين وعد آصف بإحضار عرش بلقيس وبين إحضاره فعلاً ..

إن موقف سليمان المعبَّر عنه بجزء الآية الثاني : يحتمل جُملاً كثيرة محذوفة .. كما يحتمل معاني مركوزة في دلالات الألفاظ وتأليفها من غير حذف ..

في الآية صوتان : صوت آصف وصوت سليمان .. وكذلك صوت يقدم الحكاية ويعرف بالذي عنده علم من الكتاب ..

— 3 —

مستوى الإيجاز بالمجاز

وقد سمعنا بهذه الحكاية أصواتاً مختلفة : نملة .. هدهد .. بلقيس .. مستشاروها .. سليمان .. عفريت من الجن .. آصف الذي عنده علم من الكتاب .. وقد سبقت الإشارة إلى : الصوت الإلهي .. وصوت داود ..

جميع هذه الأصوات : تسمع متكلمة بإيجاز قصر .. وأحياناً بايجاز حذف..

لكن أسلوبها الإيجازيَّ : لا يقف عند حدود البلاغة المألوفة ؛ بل يرقى إلى مجاز التصوير .. ويمكن التأمل بكلام النملة .. وبكلام الهدهد :

قالت نملةٌ : يا أيها النمل .. ادخلوا مساكنكم .. لا يحطمنَّكم سليمان وجنوده .. وهم لا يشعرون ..

إن أسلوب النملة : أسلوب خطابي .. كأنها قائدة عسكر .. وترسل إنذاراً لعسكرها ليدخلوا ملاجئهم ، تجنباً لجنود سليمان من الجنِّ والإنس والطير ..

وأسلوب النملة الخطابي هذا : يحقق مقومات الفصاحة لكلماته .. والبلاغة لجمله .. والمجاز التخييلي لمجمله ؛ إذ كيف تفكر النملة وتدبِّر .. وكيف فهمَ عليها سليمان وتبسَّم ضاحكاً من قولها .. ثم استغرق في دعاء الله وشكره امتناناً لإنعامه عليه بفهم لغة النمل ..

كل الكلمات : لها فصاحتها ..

وكل الجُمل : لها بلاغتها ..

والأسلوب : خطابي تخييلي عند النملة •• وأدبي وجداني عند سليمان في استجابته المتأثرة بأسلوب النملة وفعلها ••

وإذا أصغينا إلى الهدهد : رأيناه يتحدث إلى النبي كشاعر •• وتكاد جمله تطرب مما تمتلك من إيقاع وشاعرية ودقة :

أحطتُ بما لم تُحِطْ به ••

وجئتك من سبأ بنبأ يقين ••

إني وجدت امرأة تملكهم ••••

إن الهدهد يقدم تقريراً واقعياً عن وقائع لا مجال للكذب فيها ؛ لأن سليماناً يتابعُ القضية •• ولذلك يوصف أسلوب الهدهد بالواقعية العلمية مع شاعرية تأليفه ، وأدبية تصويره ، وصراحة تعبيره •• وتكفيه الجملة الأولى مثالاً للصراحة « أحطتُ بما لم تُحط به » •• هذه الجملة موجهة للنبي الملك سليمان •• ومن هدهد صغير « مكث غير بعيد » من الملك الذي سمعناه متوعِّداً للهدهد عندما كان غائباً •• وهي على إيجازها القصري : فصيحة الكلمات ، بليغة التأليف ، مثيرة الاهتمام ؛ لذلك فصلت إثارتها بما تلاها من إخبار لسليمان بما لم يكن محيطاً به من قبل إحاطة الهدهد •• هذا على سبيل السياق والواقع الظاهر القريب للمسألة ••

أردت من مثال الإيجاز الجامع في قصة سليمان : أن يُستوعَب هذا الأسلوب البلاغي في مستوياته الثلاثة ؛

المستوى الإيجازي : وهو ما عليه كتب البلاغة المدرسية غالباً ؛ فالإيجاز ، كما يقولون : جمع معانٍ كثيرة في ألفاظ قليلة ، مع الإبانة والإفصاح •• ويكون قصراً : بتضمين المعاني الكثيرة في جمل قصيرة من غير حذف •• وقد مثلنا لذلك في موضعه ••• ويكون إيجازاً بالحذف : يتخلَّى الموجز عن حرف من كلمة أو من تركيب •• أو عن مفردة •• أو عن جملة •• أو عن أكثر من جملة •• ومع تخليه عن المحذوف : لا يتخلَّى عن قرينة تعين المحذوف وتدل عليه •• وقد مثلنا لذلك ••

المستوى المجازي : وهو ما عليه كتب الأدباء ؛ فالأدب شعره ونثره : يقوم

بالمجاز على اختلاف أنواعه وعلائقه ، تشبيهية مثل التشبيه والاستعارة •• وغير تشبيهية مثل الكناية والمجازين : اللغوي والعقلي •• وأصلية ضرورية مثل الخبر والإنشاء وما يتطلبه لهما علم المعاني •• وتحسينية تزاد بالحرية ، مثل مكونات البديع اللفظي والمعنوي •••

وهذه الأدبيات كلها : تدخل في مجال البلاغ ؛ لأن الأدب يحمل رسالة عليه أن يبلغها مراعياً مقتضى حاله ؛ ليحافظ على صدقه •• ومراعياً مقتضى حال المخاطب ؛ ليحافظ على إفادته •• ومراعياً مقتضى حال الموضوع ؛ ليحافظ على موضوعيته ••

ولما قالوا : الإيجاز هو البلاغة ؛ كأنما عنوا أن البليغ يسلك صراطاً مستقيماً في التعبير الصادق عن حقيقة شعوره •• وفي التوصيل الأمين للآخر •• وفي حمل الجوهري من وقائع الحياة •• وتلك هي جهات : النفس والمجتمع والعالم ••

إن القصة الجامعة : حملت في ثنيات تعابيرها صوراً من بلاغة المتكلم وإفادة المخاطَب وتحقيق الموضوع •• وأي أدب يبلغ التخييل الحقّ الذي نقل بلاغة « النملة والهدهد » •• وعجيب علائقهما بنبيٍّ موهوب •• ؟ !

إن ما بين الإيجاز والمجاز من الصلات : وثيق ؛ طبيعة لغوية ؛ ووظيفة أدبية وإنسانية ••• لأنهما في الأصل من حروف واحدة : وجز •• جوز •• الميجاز : كثير الإيجاز •• لكن الإيجاز بلاغة ؛ والبلاغة : مجاز ينقل اللفظ من معنى إلى معنى يلابسه ••• فأين هما من الإعجاز ؟

— 4 —

مظاهر الإعجاز وبلاغتها

- ١ -

الإعجاز بأصوات قرآنية

في الإعجاز : تتغير المادة اللغوية ، فهي من « عجز » ؛ لكن المصدر من مزيد المادة « أعجز إعجازاً في الكلام : إذا أدّى معانيه بأبلغ الأساليب » •• لكن الأسلوب صورة للمعنى ؛ فاذا كان المعنى معجزة : فإن هذا يعني الأمر الخارق للعادة ، والذي يعجز البشر عن أن يأتوا بمثله •• وكلما كان الأسلوب مطابقاً لمعناه : كان أدخل بهذا الإعجاز •••

والذي رأيناه في قصة سليمان : كله من فصول المعاني الخارقة التي تعجز إلاّ مَن أوتيَ مثلَ سليمان •• لذلك تعتبرُ تفاصيل الأحداث على ألسنة شخصياتِها : من الإعجاز الخارق للمألوف ، على مستوى المعاني •• ومن الإعجاز الأسلوبيّ بالإيجاز القصري ••

ولنأخذ جملاً من بلقيس ، وقد صورت مصورة الوحي بيانَها عما وعته بعد لقاء سليمان (ع) ، فقالت :

« وأسلمتُ مع سليمان لله رب العالمين » ••

فهذه العبارة البلقيسية : من إيجاز القصر ، المجازي ، الإعجازي ؛ لأنها عنت كثيراً من المعاني بقليل من الألفاظ ؛ ومن عبارة الشيخ محيي الدين بن عربي ، في الإعجاب بموقف بلقيس هذا قوله :

« أي إسلام سليمان » – لله ربّ العالمين – فما تقيدت في انقيادها كما لا تتقيد الرسل في اعتقادها في الله ••• فكان إسلام بلقيس إسلام سليمان ، إذ قالت « مع سليمان » فتبعته ؛ فما يمرُّ بشيء من العقائد إلاّ مرت به معتقدة ذلك •• كما نحن على الصراط المستقيم الذي الرب عليه لكون نواصينا في يده ، ويستحيل مفارقتنا إياه ؛ فنحن معه بالتضمين ؛ وهو معنا بالتصريح ، فإنه قال : « وهو معكم أينما كنتم » •• ونحن معه بكونه آخذاً بنواصينا •• فهو تعالى مع نفسه ، حيثما مشى بنا من صراطه » •• (١٥٧) ••

ومن هذا الإيجاز القصري الذي أجري على لسان بلقيس : ما أجري على لسان « آسيا » •• ومريم •• وسارة •• وغيرهنّ من صالحات النساء اللواتي ذُكرنَ في القرآن ، أو اللواتي بلّغن رسالة القرآن وحذفها ؛ كأم أبيها ، فاطمة بنت محمد (ص) ، وأمها خديجة ، وابنتها زينب •• ومن اقتدى قدوتهن[1] ••

---

١ – كتب عديدون كتباً وفصولا من كتب باسم السيدة الأسوة الكاملة لنساء العالمين ، على حد تعبير محمد اقبال ؛ أو بلقبها العزيز « أم أبيها » ، كما هو عنوان كتاب فاضل الميلاني . . والكتب عديدة لمن يحبون معرفة أسرة رسول الله (ص) . . ومع ذلك تجد في عصرك الحديث من لم يسمع بلقب السيدة الأغر ؛ لقد أوضحت ذلك في « نداء إقبال » ؛ . . ولا حول ولا قوة إلا بالله . .

والتأمل بعباراتهن : يفتح أبواب الإيجاز الإعجازي ؛

ففي سورة التحريم أجري على لسان آسيا بنت مزاحم ، زوج فرعون قولها :

« ربِّ .. ابْنِ لي عندك بيتاً في الجنَّة .. ونجِّني من فرعون وعمله .. ونجِّني من القــوم الظالمين » .. (التحريم : ١١) ..

وفي سورة آل عمران : نسمع بلاغة مريم وأمِّها وكافلها زكريا بصور مــن التعبير الموجــز المعجــز :

« إذ قالت امرأة عمران :

ربِّ .. إني نذرتُ لك ما في بطني محــرراً ؛ فتقبَّلْ منِّي .. إنك أنت السميع العليم ..

« فلما وضعتْها .. قالت :

ربِّ .. إنِّي وضعتُها أنثى .. والله أعــلمُ بما وضعت .. وليس الذكر كالأنثى .. وإني سميتها : مريم .. وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم..
« فتقبَّلها ربُّها بقبولٍ حسنٍ .. وأنبتها نباتاً حسناً .. وكفَّلها زكريا .. كلما دخــل عليها زكريا المحرابَ وجــدَ عندها رزقــاً .. قال : يا مريــمُ .. أنَّى لكِ هــذا ؟ ..

« قالت : هو من عند الله .. إنَّ الله يرزق من يَشاء بغير حساب ..

« هنالكَ : دعا زكريا ربَّه ..

قال : ربِّ هَبْ لي من لدنكَ ذريةً طيبة .. إنك سميع الدعاء ..

فنادته الملائكة وهو قــائمٌ يصلِّي في المحراب : أنَّ اللهَ يبشِّركَ بيحيى ، مُصدِّقاً بكلمةٍ من الله ، وسيِّداً ، وحصوراً ونبيّاً من الصالحين » .. (٣٥-٣٩)

لقد سبق لنا : أن تشرفنا بهذه الحضرة في « رسالة النـداء » ، بما يتعلق ببلاغة زكريا ويحيى والملائكة ••

وهنا : نريد سماع الصوت المريَميِّ ، الذي تأثَّر بإعجازه زكريّا فدعا أن تكون له معجزة كما لمريم ؛ والمعجزة المريمية : بتنزل الرزق عليها من عند الله •• وكافلها زكريا : يعرف أن هذا الرزق لا يأتي من أي مكانٍ في تلك الأثناء ؛ فسألها متعجِّباً ؛ فأخبرته بإيجاز ممتلىء بالواقعية ؛ لأن الصدق والعفوية بالنسبة لهـا : أمر عادي مألوف •• « هو من عند الله •• إن الله يرزق من يشاءُ بغير حساب » ••

وكلامها مع الملائكة في سياق القصة : موجَزٌ مقتضب •• لكنـه معبَّأٌ بما لا يحاط به من المعاني ••

وسبق لنا أن أصغينا إلى بلاغة أم إسحاق عند معالجة أسلوب التعجب •• فلينتبه إلى بلاغتها الإيجازية من وجهة المعجزة والإعجاز أيضاً ••

أين الإيجاز والمجاز في مثل هذا الإعجاز البياني عن المعنى بعبارة الوحي ؟

(ب)
إشـارتان نقـديتان

بلقيس : ذكَّرتنا بجانب لا نجده في مباحث البلاغة ، ولا أمثلة اللغـة ؛ فقلما يتوقف الباحثون مع الشخصيات التي ينطق بلسانِها الوحي بالتخصيص •• وقلَّما ينبه إلى الصوت النسائي في براهين الإيجاز والإعجاز وما بينهما من المجاز •• مع أن واجب التربية النقدية والذوقية : يستدعي ذلك لمقتضى الحـال التربوي والإنساني والنفسي والاجتماعي •• فالذين يدرسون البلاغة والآداب من الأبنـاء ومن البنات •• والتراث الإعجازي : كان سخيَّ الأعطيات ••

هذه الملاحظة ، شبه المعترضة ، من صميم « رسالة الإعجاز بالإيجاز » •• لأنها تنبه إلى تقويم الخطوط المنحرفة التي تصل الأجيال بكنوز هذا الموروث •• كما تقوِّم خطوط النظـر إلى وقائع الأمور ••

تأييد هذه الملاحظة بإشارتين خاطفتين : يتلاقى المعاصر فيهما بالتراثي ؛

الإشارة الأولى : من « مصطفى ناصف » ، يقول في كتابه « نظريـة المعنى في النقـد العربي » :

« والواقع أن ما شـغل عبد القاهر من المعنى : ذو طابَعٍ ديني ؛ .. كان يبحث عن مناطق غيبية من المعنى ؛ .. يمكن أن تكون نقطة بدء دراسة مقارنة » .. هذه خلاصة الفصل الأول من كتابه : (٧ – ٣٥) ..

لكنه في سياق هذا الفصل الذي سمّاه : « نظام الكلمات » ، يقول :

« والواقع أن صاحبنا – يعني عبد القاهر – لم يحاول البتة : أن يبين مدى تفوق العبارة القرآنية على غيرها من العبارات . ولو سألت أين دلائل الإعجـاز في كتاب عبد القاهر – يعني دلائل الإعجاز في عـلم المعاني – لما كنت مسرفاً . إن جهد عبد القاهر في تبين ملامح العبارة القرآنية لا يكاد يذكر بخير . ذلك أن الكتاب : أقرب في مجمله إلى حديث ما في اللغة . ومن أجل ذلك : يتحدث عن القوة أو التوكيد الذي يرتبط بتقـدم بعض الكلمات أو استعمال بعض الصيغ . ويلاحظ ظواهر كثيرة في بنية العبارة من مثل ما يسمى حذف المفعول به ، ويحاول أن يكشف معنى هذه الظاهرة بالرجوع إلى نماذج كثيرة من بينها آيات القرآن الكريم . وكذلك ظاهرة أخرى مثل الكلمات غـير المحددة أو المنكرة : تحتاج إلى وقفة طويلة . ومن أجل ذلك : كان القرآن الكريم مفيداً في نظر عبد القاهر في تبين قواعد أو أصول عامة يحتـاج إليها دارس اللغـة الذي لا يحب أن يقف عند الآفاق الموجودة في كتب النحو المتقدمة . لسنا نريد أن نغض من عمل عبـد القاهر ، ولكن الفرق بين اللغـة وفلسفتها والأستطيقا اللغوية : لم يكن متماسكاً في عقل عبد القاهر ، فضلاً على من هم دونه » .. (ص ٣٠ – ٣١) ..

هذا النص من الباحث الحديث : ينم عن مستوى صاحبه .. وينمُّ عليـه بمثل التناقض بين ما ختم به الفصل وما يقوله هنا ؛ فكيف يوفق بين قراره بالطابع الديني لشغل عبد القاهر الباحث عن غيبية المعنى وهذا القرار اللغوي الواقعيّ ؟ !

إشارتي هذه : ليست لمناقشة صاحب « نظرية المعنى في النقد العربي » ..

وليست لمناقشة صاحب « دلائل الإعجاز في علم المعاني » ... إنما هي لإثارة الانتباه إلى ما هو الأهم والسلوك إليه على صراط تربوي مستقيم ..

الإشارة الثانية : من « عبد القاهر الجرجاني » ؛ يقول في كتابه « دلائل الإعجاز » :

« وقد أردت أن أكتب جملة من الشعر ، أنت ترى الشاعرين فيه قد قالا في معنى واحد . وهو ينقسم قسمين : قسم أنت ترى أحد الشاعرين فيه ، قد أتى بالمعنى غفلاً ساذجاً ؛ وقسم أنت ترى كل واحد من الشاعرين قد صنع في المعنى وصوّر ... » (ص ٣٧٤)

وبالفعل عرض ثلاثة وثمانين بيتاً للتمثيل على القسم الأول .. وعرض خمسين بيتاً للتمثيل على القسم الثاني .. (ص ٣٧٤ - ٣٩١) ..

ليست الأمثلة المعروضة : ذات طابع دينيّ .. وليس فيها بحث عن مناطق غيبية للمعنى .. وليس فيها كبير حظ لتربية الذوق الموجز المعجز .. بل هي معرض معبأ بالصور الكثيرة المكررة لصورتين اثنتين ؛ أولاهما لمعنى مشترك بين شاعرين ، هو أزهى عند أحدهما ؛ والثانية لمعنى مشترك هو زاه عند الاثنين ؛

ومثال الأول قول للمتنبي مع قول للبحتري :

- بئس الليالي سهرت من طربي شوقاً إلى من يَبيتُ يرقدُها ..
- ليل يُصادِفني ومرهفَة الحشا ضدين أَسهرُه لها وتنامُه...

ومثال الثاني قول للبيد مع قول لنافع بن لقيط :

- واكذِبِ النفسَ إذا حدثتَها إن صدقَ النفس يُزري بالأملْ ..
- وإذا صدقتَ النفسَ لم تترك لها أملاً ويأمُلُ ماشتهى المكذوبُ..

أخذت المثال الذي ابتدأ به الجرجاني أمثلته : لأكون حيادياً في شد الانتباه إلى قيمة ما يقـدمه للتربية المعنوية •• فهو يريد أن يقول إن معنى بيت المتنبي ومعنى بيتِ البحتري واحد ؛ لكن البحتريَّ « أخرجه ، صورة تروق وتعجب »••• ربَّما لأنه صور نائمةً غـير مكترثة بساهر في ليلٍ من التفكر بها •• بينما كان التعميم للمعنى عند المتنبي في ليالٍ بائسة مذمومة ؛ لأنه سهرها طرباً من شوقه إلى من يبيت راقـداً في تلك الليالي ، غير مبـالٍ بمن يسهر شوقاً إليه وطـرباً بشوقه ••• أهذا ما أراد الشيخ الجرجاني قوله ؟

قد لا يكون ما ذهب إليه سليماً : إذا كان يظن أن صورة المعنى عند البحتري « تروق وتعجب » ، وهي عند المتنبي « غفلاً ساذجة » •• ولكن من يعرف أنـه قصد تفضيل صورة البحتري على صورة المتنبي ؟ •• هو لم يقـل شيئاً بهـذا الخصوص ، إلا إذا اعتبرنا ترتيب عبارته التي بدأ بها ذا معنى مقصود •••

ومنهجه هذا : يظهـر في أمثلة القسم الثاني ، الذي يجيد فيه الطرفان •• والمقصود : أن الشاعرين يجيدان إخراج المعنى بحسن تصويره •• فأي معنى هو الذي يستجيده ذو الطابع الديني الباحث عن غيبية المعنى ؟

إن المعنى المستجاد هنا : هو الكذبُ على النفس ؛ لأن الصدق معها « يزري بالأمل » ، أي يَعيبه ويثبطه ، عند لبيد •• ولأنَّ المكذوب المتمادي في تشهيه : هو الذي يبعث الأمل ويُغري به ، عند نافع بن لقيط ••

نعترف ، هنـا ، للباحث الحديث ، مصطفى ناصف : بصواب نظراته إلى جهـد عبد القاهر ؛ فقد سبق قوله : « إن جهد عبد القاهر في تبين ملامح العبارة القرآنية لا يذكر بخير » (٣٠) ••

نحن نفسر هذا الحكم من وجهة نظر المعنى ؛ لأن إدراك المعنى « العباري » في آيات القرآن : يُلزم بالرقابة المستمرة على النفس ؛ وعبر استمرار الرقـابة : لا تقبل وساوسُ إبليس مهما كانت مغرية التنظيم •• وتلمس الإعجاز القرآني :

له أصول تطهّر من الغفلة ؛ لأن الحي القيوم : لا تأخذه سنة ولا نوم .. ولأنّ المسألة كلها في التنبّه ، منذ بدء القصة مع أبوي البشر ...

لذلك نطوي هاتين الإشارتين والملاحظة التي جاءت بهما ونعود إلى الجوّ الإعجازي ، الذي دعانا إليه سليمان وبلقيس .. ونجرّب الانتباه إلى « رسالة الإيجاز والإعجاز » في صوت شخصيات القرآن النبوية خصوصاً ، والهدوية عموماً ؛ من الرجال والنساء ؛ ومن الملائكة أيضاً ..

(ج)

الطريق الإعجازي وبلاغة شخصياته

وهذا أول الطريق الإعجازي الفائق لعبارة القرآن ؛ فالشهود والغيب : عالم واحدٌ ؛ ألم ننتبه لكلام الملائكة وحوارها مع زكريا ومع مريم ... وتتذكر القاعدة بمثالٍ جديد :

– « إذ قالت الملائكة :

يا مريمُ إنّ الله يُبشّرُكِ بكلمةٍ منه ؛ اسمُه : المسيحُ ، عيسى بن مريمَ ؛ وجيهاً في الدنيا والآخرة ؛ ومن المقرّبين ... ويُكلّمُ الناسَ في المهد ، وكهلاً ، ومنَ الصالحين » .. (آل عمران : ٤٥ – ٤٦) ..

– « قالت :

ربّ أنّى يكونُ لي ولَدٌ .. ولم يمسَسْني بَشَرٌ ...

– قال : كذلكِ اللهُ يخلُق ما يَشاء ؛ إذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن فيكون ... ويُعلّمُه الكتابَ والحكمة والتوراةَ والإنجيل .. ورسولاً إلى بني إسرائيل : (٤٧ – ٤٩)

– إني قد جئتكم بآيةٍ من ربكم : أنّي أخلُق لكم من الطينِ كهيئة الطير ؛ فأنفُخُ فيه ؛ فيكون طيراً بإذنِ الله ؛ وأبرئُ الأكمهَ والأبرصَ ؛ وأحيي الموتى بإذنِ الله ؛ وأنبّئكم بما تأكلون وما تدّخِرون في بيوتكم ؛ إنّ في ذلكَ لآيةً لكم

إن كنتم مؤمنين •• ومُصدّقاً لما بين يديَّ من التوراة ، ولِأُحِلَّ لكم بعض الذي حُرِّمَ عليكم ، وجئتكم بآيةٍ من ربكم ؛ فاتقوا اللهَ وأطيعون •• إنَّ اللهَ ربِّي وربُّكم : فاعبدوه هذا صراط مستقيم ••• » (٤٩ – ٥١) ••

إن بلاغة الإيجاز الإعجازية : بلغت من انفتاح كليٍّ بين المنظور وغير المنظور •• فالملائكة ، ومريم ، وربُّ مريم ، وابن مريم : في حضرة واحدة •• وتسمَع أصواتهم بعبارات موجزة معجزة ؛ لأنها معبَّأة بوقائع يقينية ، تقرر على نحو قطعيٍّ خبريٍّ من : الملائكة •• والرب •• والمسيح •• ويستفسر عنها باستفهام تعجبيٍّ من مريم ؛ ولأن بشارة الملائكة تذهل العذراء وتبعث بها رهبة الخوف والحياء والاستبشار معاً ؛ لذلك تذهل عن الملائكة ، وتهرب منهم إلى ربِّها ، كما يستشف من صيحة أسلوبها في النداء الذي حذفت منه الأداة ••• « ربِّ أنَّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر » ؟

إن احتشاد الاستفهام والنفي معاً : من موجبات الصدمة الإعجازية مع إيجاز العبارتين ••

إن بلاغ الملائكة لم يترك لها مجالاً للشك ؛ فقد أخبروا باسم الولد وبمستقبله •• وأعطوا ملامح وخصائص إعجازية مذهلة ؛ لأنها تخرق المألوف •• كتكليمه الناس في المهد ••

لذلك اقتضت الحال من مريم هذه الصيحة التي يمتزج فيها الاستفهام بالنفي أسلوباً : كما يمتزج الرجاء بالخوف شعوراً •• وتلاحظ « أنَّى » في موضعها السياقي ؛ فهي مثل « كيف » التي يسأل بها عن الحال •• ومثل « أين » التي يسأل بها عن المكان •• « أنى يكون لي ولد » ؟ •• كأنها تقول : بأية حال •• من أين ؟ •• وللمقتضى المثير : اجتذبت « أنى » ؛ لتدل على متعدد من المعاني بمفرد من اللفظ •• ومثل « أنى » في دلالة السياق : بلاغة الفعل المضارع المجزوم « يمسَسْني » •• فقد فك إدغام السين ؛ للدلالة على الخفة ؛ ومعلوم أن المسَّ : يغلب على الأمور المعنوية ، بينما يغلب اللمس على الأمور الحسية ، ولو قالت

المعاجم محشوداتِها •• فالموقع في العبارة : يُشيع معنى ألطفِ التماس •• ولكنه الأبلغَ في هــذا الأمر : أن هذا الألطف منفيٌّ أيضاً ، « لم يمسسني بشر » •• وقارن بآية النور : « يكاد زيتها يُضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور » ••

فالعبارة : قلعة براءة ؛ نفت البشر ، دون استثناء •• ونفت المسّ ولو مــن وجهــة نفسية •• فهي في العــذرية الكاملة ، جسداً ونفساً ، فكيف ومن أيــن يكون لهــا ولد ؟ ••

إن في ندائها « ربِّ » : مثل العتاب الحائر الذي لا يجد ملجأً سوى الذي كان يتفقد العذراء في محرابها ، ويرسل إليها من عنده رزقاً بغير حساب ••

وبالفعل : يطمئنها صوت المنادى بعبارات مقنعةٍ لمــن كان في مثل تربيــة مريــم •• ولو أنها معجزة خارقة •••

والإعجاز في السياق الذي تجاوز البداية وصار في الغاية ؛ لقد انبثق صوت المسيح الرسول متحدثاً إلى بني إسرائيه بقبارات موجزة معجزة ••

إن المعنى الرسالىّ الذي جاء به المسيح : هو المعنى ذاته الذي عبَّر عنــه رسُلُ الله جميعاً بصور اقتضتها حال أقوامهم في أزمنتهم وأمكنتهم ؛ فكلهم حملوا معنى قول المسيح : « إن الله ربِّي وربكم ؛ فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم » ••

هذا الصراط : هو صراط الذين أنعم الله عليهم نِعمَه التي لا تقاس بمألوف النِّعَم ؛ فجنته : عرضها السماوات والأرض •• وهي جنات •• والعائشون بها : في نعيم يدوم •• كما وصفت الحياة فيها في آياتٍ معلومة من القرآن ••

(د)

المفــاتيح الموصــلة

شخصيات القرآن : تحمِلُ معنى واحداً ؛ لكن صور التعبير مختلفة •• ومع اختلافِها التصويري : تحقق التوحد في هذا الذي نراه إعجازاً بالإيجــاز ، أو إيجازاً معجــزاً •• وعباراتهم مع إعجازها وإيجازها : واضحة عفوية ، لأنهــا حديث على الفطرة •• وهذه أمثلة منهم بمثابة المفاتيح الموصلة إلى بلاغة أخبارهم وفق مقتضى حــال المعاني :

١ – المثال الأول من أبوي البشر ، آدم وحواء :

« قالا : ربَّنا •• ظلمنا أنفسَنا •• وإن لم تغفرْ لنا •• وترحمْنا : لنكونَنَّ من الخاسرين » •• الأعراف : ٢٣

٢ – المثال الثاني من ابنيْ آدم في سورة المائدة ؛ فالقصة : تنقل صوت هابيل وصوت قابيل ؛ والصوتان : يمثلان نزعة الخير التي تهاب الله « إيل » ونزعة الشر التي تقاومه ، كما مثلها قابيل •• والغرض : بلاغي ؛ يستجلي المعنى من صورة التعبير (٢٧ – ٣١) :

« واتلُ عليهم نبأ ابنَيْ آدم بالحقِّ ، إذ قرَّبا قرباناً ؛ فتُقبِّل من أحدهما ، ولم يُتَقبَّلْ من الآخر ؛

« قال : لأقتُلَنَّكَ •• « قابيل »

« قال : إنما يتقبَّلُ الله من المتقين •• لئن بسطتَ إليَّ يدكَ لتقتُلَني ، ما أنا بباسطٍ يدِيَ إليكَ لأقتلَك ؛ إنّي أخاف اللهَ ربَّ العالمين •• إني أريدُ أن تبوءَ بإثمي وإثمِكَ ؛ فتكونَ من أصحاب النار •• وذلك جزاءُ الظالمين » •••

« فطوَّعت له نفسُه قتلَ أخيه : فقتلَه ؛ فأصبحَ من الخاسرين •• فبعثَ اللهُ غراباً يبحثُ في الأرضِ ليُرِيَهُ كيف يواري سَوْأةَ أخيه •••

« قال : يا ويلتَى •• أعجَزتُ أن أكونَ مثلَ هذا الغرابِ ؛ فأواري سوأةَ أخي ••• ؟ « قابيل »

« فأصبحَ من النادمين ••

« من أجلِ ذلك كتبنا على بني إسرائيل : أنه من قتلَ نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرضِ فكأنما قتلَ الناسَ جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعاً ؛ ولقد جاءتهم رسلُنا بالبيِّنات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمُسرفون » (المائدة : ٣٢)

٣ – الآيــة الأخيرة ، مثل افتتاح الأولى : تؤكد صوت جبرائيل ، الذي يحمل الوحي ويترجم بين الله وبين أنبيائه •• كما يصور أفعال الخلق وأقوالـهم بصور تنقل من مقتضى إلى مقتضى بين الأنبياء وشعوب الأنبياء ••

وأحياناً ينقل أخبار الأنبياء ويصور مواقفهم ومنازلهم بأسلوب إيجاز معجز •• ومن أمثلة ذلك حكايته عن أول نبي بعــد آدم ••

يقال : « أول من أعطي النبوّة بعــد آدم ، عليه السلام ، إدريس وشيث ، عليهما السلام ؛ وكان إدريس أول من خط بالقلم ؛ وقد أدرك من حياة آدم (٣٠٨) ثلاثمائة سنة وثماني سنين ، وقــد ثبت في الصحيحين في حديث الإســراء : أن رسول الله (ص) مــرّ بــه في السماء الرابعة » ؛ •• وفي بعض الروايات : « ن إدريس ، عليه السلام ، كان أول الأنبياء ؛ ثم تلاه نوح ؛ ثم إبراهيم ؛ ثم اسماعيل ؛ وإسحاق ؛ ثم يعقوب ؛ ثم يوسف ؛ ثم لوط ؛ ثم هــود ؛ ثم صالح ؛ ثم شعيب ؛ ثم موسى ؛ وهارون ؛ ثم إلياس » •• (معجم أعلام القرآن : ١٨٩) ••

بقي من أنبياء القرآن عشرة لم تذكر أسماؤهم ، هنا ، هم : يونس ؛ اليسع ؛ ذو الكفل •• أيوب ؛ زكريا ؛ يحيى •• داود ، سليمان ؛ عيسى ••• ومحمّد •• صلوات الله عليهم أجمعين ••

ومن الشخصيات العظمى في القرآن : الخضر ، الذي تبعه موسى كليم الله •• وذو القرنين •• ولقمان •• ومن ذكرنا مع العذراء من النساء •••

غرض هــذا الإحصاء الأسمائي لشخصيات الهدى القرآني : الإصغاء إلى عبارات موجزة معجزة ، أجريت على ألسنتها حيناً •• أو صورت بها أحياناً أخرى ؛ وكنت في اتجاه ذكر هذا النوع الثاني من عبارات القرآن التي صورت إدريس ؛ وإدريس : معلم لغات وكتابة ، كما في سيرته :

« واذكُرْ في الكتاب إدريس ، إنه كان : صدّيقاً ، نبيّاً •• ورفعناهُ •• مكاناً عليّاً » ••
(مريم : ٥٦ – ٥٧) ••

ماذا وراء هذه العبارة من حضرات ؟

لعلنا نفهم : الصدّيق والنبيّ •• لكن رفع إدريس مكاناً علياً : مسألة ذات تفاصيلَ ، تستدعي كلاماً كثيراً ، كما استدعت في قصص الأنبياء ، على اختلاف أساليب الكتاب في تصوير حياة إدريس وحكاية رفعه ؛

ففي « قصص الأنبياء » لعبد الحليم النجار : ذكر أن الناس في أيام إدريس ، تكلموا باثنين وسبعين لساناً •• وقد علّمه الله منطقهم : ليعلّم كلّ فرقةٍ بلسانها •• ورسم لهم تمدين المدن•• وعلمهم السياسة المدنية •• والعلوم•• » (٢٦)

وفي « النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين » للسيد نعمة الله الجزائري : ما يدعو القارىء للتأمل العميق كما يدعو دموعه للجري الحنون ، إذا كان من ذوي الرهافة الودودة •• وفي « النور المبين » : ينقل مؤلفه صوراً مختلفة لمعنى رفعه إلى السماء ؛ منها : صحبته لملك الموت عزرائيل ، الذي زاره بإذنٍ من ربّه ، لأسباب يطول تفصيلها •• وما كان إدريس يعرف من هذا الصاحب الذي يشاركه التسبيح والصيام ولا يشاركه الطعام •• فسأله ذات يومٍ ؛ فلما أخبره : رجاه أن يصعد به إلى السماء •• ففعل بإذن ربّه •• وهناك طلب منه أن يذيقه طرفاً من الموت •• ففعل بإذن ربّه •• أخذ بنفسه ساعةً ثم خلّى عنه •• فقال له عزرائيل : كيف رأيت ؟ •• فأجاب : بلغني عنه شدّة ؛ وإنه لأشد مما بلغني •• ولي إليك حاجة أخرى : تريني النار •• واستأذن له صاحب النار ؛ ففتح له ؛ فلما رآها إدريس : سقط مغشياً عليه ••• ولما أنهض قال لصاحبه : لي إليكَ حاجة أخرى ؛ تريني الجنة •• فاستأذن ملك الموت خازن الجنة : فدخلها •• فلما نظر إليها ؛ قال : يا ملك الموت •• ! ما كنت لأخرج منها •• إن الله تعالى ، يقول : « كلُّ نفس ذائقة الموت[1] » •• وقد ذقته •• وقال سبحانه : « وإنْ منكم إلا واردها [2] » •• وقد وردتُها •• وقال عز وعلا في الجنة : « وما هُمْ منها بمُخرَجين [3] » ••

---

١ ــ آل عمران : ١٨٥ ؛ الأنبياء : ٣٥ ؛ العنكبوت : ٥٧ ؛
٢ ــ مريم : ٧١
٣ ــ الحجر : ٤٨

وفي « بدائع الزهور » للشيخ محمد بن إياس الحنفي : « فأوحى الله تعالى إلى رضوان .. قل لعبدي إدريس : لا تخرج منها » ...

وفي رواية أخرى من « النور المبين » : تفاصيل وتعليل ، منها : « كان ينصب نفسَه وجسده لي ؛ فكان حقّاً عليّ أن أعوِّضَه من ذلك : الراحة والطمأنينه ؛ وأن أُبَوِّئه : بتواضعه لي ، وبصالح عمله ، من الجنَّة ، مقعداً ؛ أو : مكاناً عليّاً » .. (ص : ٧٧) ..

إن مطويّ كلمات حملها جبرائيل « ورفعناه مكاناً عليّاً » : تنشره أبحاث كثيرة .. ومطولات تطنب في رواية الأحداث ؛ لأن فصول القصة : من الإعجاز الخارق ، الذي لا يُبلغ إلاّ بأحلام التخييل .. وأسمح لهمسة شعرية بالتعبير عن ذاتِها ، هنا ؛ ففي أشعار العذريين : أطياب من ذكر إدريس ؛ ومنهم مَن يقول باشتياقه العذري نسبُ تشابهٍ مع اشتياق إدريس إلى الجنة :

وإني لمشتاقٌ إلى ريحِ جيبها
كما اشتاق إدريسٌ إلى جنَّة الخلد ..

فلينظر في « حياة وأخلاق الأنبياء » ؛ لأحمد الصباحي عوض الله .. فقد نقل المؤلف عن البخاري ، مرفوعاً إلى ابن مسعود وابن عباس : أن إلياس هو إدريس ... (ص : ٧٧) ..

وكرر « النور المبين » : أن إدريس هو أخنوخ في الكتاب المقدس .. وأنه عند الحكماء اليونانيين « هرمس الحكيم » .. (ص : ٧٨) ..

وفي « فصوص الحكم » ؛ للشيخ محيي الدين بن عربي : كلام جميل طويل حول « ورفعناه مكاناً عليّاً » .. في الفصل المخصَّص لإدريس ، وهو الفصل الرابع : « فَصٌّ حكمة قدوسية في كلمة إدريسية » .. وقد افتتح كلامه بقوله :

« العلو نسبتان ، علو مكان وعلو مكانة ، فعلو المكان « ورفعناه مكاناً

علياً » •• وأعلى الأمكنة المكان التي تدور عليه رحى عالم الأفلاك ، وهو فلك الشمس ، وفيه مقام روحانية إدريس ، عليه السلام •• وتحته سبعة أفلاك ، وفوقه سبعة أفلاك ، وهو الخامس عشر •• فالذي فوقه : فلك الأحمر ، وفلك المشتري ، وفلك كيوان ، وفلك المنازل ، والفلك الأطلس فلك البروج ، وفلك الكرسي ، وفلك العرش •• والذي دونه : فلك الزهرة ، وفلك الكاتب ، وفلك القمر ، وكرة الأثير ، وكرة الهوى ، وكرة الماء ، وكرة التراب •• فمن حيث هو قطب الأفلاك : هو رفيع المكان ؛

« وأما علو المكانة ، فهو لنا ، أعني : المحمديين : قال الله تعالى : « وأنتمُ الأعْلَونَ والله معكم » في هذا العلو ؛ وهو يتعالى عن المكان لا عن المكانة • ولما خافت نفوس العمال منا : أتبعَ المعية بقوله « ولن يَتِرَكُم أعمالَكم » : فالعمل يطلب المكان والعلم يطلب المكانة ؛ فجمع لنا بين الرفعتين : علو المكان بالعمل ، وعلو المكانة بالعلم ؛ ثم قال تنزيهاً للاشتراك بالمعية : « سبِّح اسمَ ربِّك الأعلى » عن هذا الاشتراك المعنوي • ومن أعجب الأمور : كون الإنسان أعلى الموجودات ، أعني الإنسان الكامل ، وما نسب إليه العلو إلاّ بالتبعية ، إما الى المكان وإما إلى المكانة وهي المنزلة • فما كان علوه لذاته » •• (٧٥)

وفي الفصل الثاني والعشرين ، « فص حكمة إيناسية في كلمة إلياسية » : يعود إلى « المكان العلي » ؛ فيقول :

« إلياس هو إدريس ؛ كان نبياً قبل نوح ؛ ورفعه الله مكاناً علياً ؛ فهو في قلب الأفلاك : ساكن ، وهو فلك الشمس » •• ثم بعث إلى قرية بعلبك ، وبعل : اسم صنم ؛ وبك : هو سلطان تلك القرية • وكان هذا الصنم المسمّى بعلاً : مخصوصاً بالملك » •• (ص : ١٨١) ••

نجد أخبار إلياس في الأماكن التي أشرنا إليها بالنسبة لإدريس •• وقد سمع صوت إلياس مرّةً واحدةً في القرآن الكريم ؛ ففي سورة الصافّات : عشر آيات تخبر عن رسالة إلياس ؛ وهي :

« وإنَّ إلياسَ لمن المرسلين ..
إذ قال لقومه :
– ألا تتَّقون .. ؟
أتدعون بَعْلاً وتذَرونَ أحسنَ الخالقين ؟
اللهَ ربَّكم وربَّ آبائكم الأولين ...
– فكذَّبوه ؛ فإنهم لمُحضَرون .
إلاَّ عبادَ اللهِ المخلَصين
وتركنا عليه في الآخِرين
سلامٌ على إل ياسين .
إنَّا كذلك نجزي المحسنين
إنَّه من عبادنا المؤمنين .. (١٢٣ – ١٣٢)

عبارة القرآن : صورت لإلياسَ صوراً بين المرسلين .. المحسنين .. المؤمنين .. وصورت أسلوبَه الإبلاغي لقومه بثلاث جملٍ استفهامية مختلفة الإيقاعات :

ألا تتَّقون ؟
أتدعونَ بعلاً .. ؟
وتذَرون أحسن الخالقين ، اللهَ ، ربكم ، ورب آبائكم الأولين ..؟.. !

إن قراءة قصص إلياس : تثير عجباً من أحلام التخييل على مستوى المجاز .. وتثير على مستوى الإعجاز : بلاغاً من بلاغات الأنبياء ، له اتساعه المديد في كتابنا « بلاغة الأنبياء » .. بهمسٍ من جوٍّ إلياس : كتب « صفر الحبيب الأول » ، وهو مجموعة أناشيد مستلهمة من أسماء الله الحسنى ؛ وهي مقدَّمة إلى أبي الفصاحة إسماعيل ، صورة من « هديٍ » ؛ ووفاءً لبعض دينٍ أسأل وفاءه اللائقَ ممن يرزق بغير حساب « ألا له الحكم وهو سريع الحساب » ..

هذه نواة « رسالة الإعجاز » ؛ ألقيتها بوادٍ ذي خصبٍ على امتداد زمني يقع بين ١٩٨٧/٧/٢٤ و ١٩٨٨/١/١٥ .

وخصب هذا الوادي : لأنه النية المرجوة لوجه الحسيب القدوس ؛ ليشرح بها صدوراً تحبه ويُحبُّها ؛ ويجعلَ لأصحابها مدداً نافعاً لمقامات النفس جميعاً ..

رسالة الإعجاز بالإيجاز : تعبر أحوال المجاز وفق مقتضى النفس ذات الأنوار السبعة ؛ الأزرق : نور النفس في مقامها الآمريّ .. والأصفر : نور النفس في مقامها اللوامي ، أو الصفّاري ، المحيل كل حساب إلى صفر البدء .. ونور النفس الأحمر ؛ في مقامها الإلهامي .. ثم نورها الأبيض والأخضر والأسود ، في مقاماتها المطمئنة والراضية والمرْضية .. ثم نورها الشاف في مقامها السابع ، الذي هو مقام الصّفاء الكامل ؛ والمهيمن على هذا المقام السابع من أسماء الله الحسنى هو : القهار .. وقبله القيوم : مهيمن المرضية .. وقبلهما الحي : مهيمن الراضية .. ولذلك تفاصيله ومستوياته وفق مقتضى الحال ..

نختم رسالة الإعجاز : براضية الحي ؛ أملاً بانبثاقِ النواة في خضرة الحياة الموعودة مع « بلاغة الأنبياء ومناهج الأئمة » (١) ..

ما ذكر عن أول من خطّ بالقلم بمظهريه : تبصرة بقيم البلاغة الإرشادية ؛ فالمبادىء البلاغية : تعلم كيفيات نشر المعنى من مطوي اللفظ الموجز .. ففي العبارة الموحاة « ورفعناه مكاناً علياً » ملحمة التوق الإنساني لحياة الخلود .. والعبرة لمن يذوق البلاغة ويخلص لفهم مبادئها .. والكتاب الجامعي : يجمع بين المبدأ وتطبيقاته ؛ ليدرك الجامعيون والجامعيات : مبادىء النظرية .. ثم ليتشجعوا في التزامها بالممارسة ؛ والشجاعة والصدق : لا يفترقان ؛ الصدق : مبدأ البلاغة كلها ؛ والشجاعة : في التزام هذا المبدأ ؛ ومن يريد ينابيع الخير الكثير : فهي فيهما ..

أملاً بالوصول إلى هذه الينابيع : قرأت جملاً من الوحي قراءة مبدئية .. ونثرت جملاً من الشعر نثراً مبدئياً .. وأختم هذه القراءة بفصل تكمل به الغاية من « رسالة الإعجاز » ، هو بمثابة « خاتمة لمقتضى الحال في الفطنة والمطابقة » .. وهو تحريض مخلِصٌ على مبدأ البلاغة « الصدق » وعلى ممارستها « الشجاعة » .. والعيش في « الفطنة » : غير الكلام عنها ؛ لذلك ندغو إلى دخول هو الفصل العملي في « الفطنة والمطابقة » ..

---

١ ـ لاحظ : « رسالة الكتابة وجيش البلاغة » مع الطبعة السادسة من « صناعة الكتابة » .. وكذلك : « متجه لنظرية عربية في الأدب والنقد » مع السحب الشرقي الثاني « للسبر الأدبي » ..

اعجــاز الفطنة والمطابقة
لذوق
مقتضى الحــال

(أ)
صلاح شــأن الدنيا بكلمتين

« .. ولا تَغْفَلَنَّ
عن عـلمٍ
ما يَزيدُ في جهلكَ تركُه » ..

الغفلةُ والفطنةُ : طرفا المجال البلاغي ؛ وعلمُ المعاني : علم أساليب تنهى عن الغفلة وتأمـر بالفطنة ..

قد لا يوافقنا الجاحظ على ذكر الغفلة مع الفطنة ؛ لأنه لا يرى بالغفلة خيراً ؛ وهو في ذلك مأخوذ بعبارة موجزة ، يقول فيهـا باندهاش :

« وقد جمع محمدُ بنُ عليٍّ بنِ الحسينِ : صلاحَ شأنِ الدنيا بحذافيرها في كلمتين ، فقـال :

— « صلاحُ شأنِ جميعِ التعايُشِ والتعاشُرِ : مِلءُ مِكيالٍ ؛ ثلثاهُ : فطنةٌ ؛ وثلثه : تغافل » —

فلم يجعل لغـير الفطنة : نصيباً من الخير ، ولا حظـاً من الصلاح ؛ لأن الإنسانَ : « لا يتغافَلُ إلاّ عن شيء قد فطن له » ..

الغفلة غير التغافل ، وقـد أحسن صاحبُ « البيان والتبيين » الإبانـةَ عن إعجابه بالإيجاز الذي جمع صاحبُه بكلمتين : « صلاح شأن الدنيا بحذافيرها » ؛

والغريب في حكم الجاحظ : أنــه صَوَّبَ إلى كلمتين اثنتين من إحدى عشرة ؛ لأنــه فهم جوهر الحكمة « الباقرية » المتركز حــول : « الصلاح والفطنة » ؛ والكلمات التسع الأخرى : لوضع المعنى في صورة ؛ وإظهار قِيَم الإناء اللفظي والشراب المعنوي ؛ فالإنــاء : مكيالٌ هــو الصلاح الشاملُ لشــأن التعايش والتعاشر : والشراب : هو الفطنة بحالتيها ، حالة التيقظ المخبِر عن ذاته بجلاء ، وحالة التيقظ المتحجِّب بالتغافل الذي يشبه الخفاء ..

الفطنة طاقة انتباه : لديها استعداد شامِلٌ لصلاح الشؤون الإنسانية بحسن التعاشر ، ولصلاح الأمور الطبيعية بإتقان التعايش المناسب ؛ فالتعايش مع تراب الأرض وماء الينابيع والأنهــار والبحار : يحتاج فطنة مثــلَ التعاشر مع الأقرباء والأصدقاء ، وإلاَّ عطِش الناس المجاورون لشط العــرب وضاع ماء الرافدين في فراغ البحر الغني عنه .. أو اقتتل أبناءُ الملةِ الواحدة وتبددت قوتهم النافعة ..

علم المعاني : علم الفطنة ؛ وتركُ هذا العلم : يزيدُ في جهل تاركه ؛ والغافل عن أسراره : يُحرمُ من خير كثيرٍ في أي مجالٍ كان عملُه ؛ لأن « أحمدَ العلم عاقبةً : ما زاد في علمك العاجل » ، كما يقول صاحب الحكمة الأولى التي افتتحنا بها ؛ لنحذَر الغفلةَ من الخطوة الأولى في علم المعاني .. وما هو العلم العاجل : إن لم يكــن ضبط اللسان في التعامل مع الكلمات ، ثــم ضبط المشاعر في إنشاء العلائق بين الكلمات .. ؟

إن العلائقَ : كانت همَّ البلاغيِّ واللغوي والأدبي والاجتماعي ، على حدٍّ سواء .. وربما نستطيع اختصار مطوَّل الجرجانيِّ في « دلائل الإعجــاز » .. ومطوَّل « فردينان ده سوسُر » في « محاضرات الألسنية العامة » : بهمٍّ العلائق هــذا ، الذي يسميه الباحث عن « الإعجاز » : تعليقــاً ؛ ويسميه الباحث في « الألسنية » : ربطاً .. ونسميه : « الحضرة وراء الكلمات » ..

تسميتنا : تعريف لعلم المعاني بزي جديد ؛ دعي بالتراث بأوصافٍ أخرى ، نجدها بأسلوب الباحث في هــذا العلم ؛ ولا بُدَّ لنا من الإصغاء الموازن بين الأزياء اللفظية فوق مقامات المعــاني ؛

فالسكاكي يقول :

« علمُ المعاني : هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الأفادة ، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ؛ ليُحترزَ بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما تقتضي الحال ذكره » ..

والقزويني يقول :

« وهو : علمٌ ؛ يُعرَف به أحوالُ اللفظ العربيِّ ، التي يُطابِق مقتضى الحال » ..

خواص تراكيب الكلام : هي أحوال اللفظ .. وهما صورتان لهمٍّ الجرجاني في التفطن لما به يكون الإعجاز ؛ فالإعجاز عنده :

١ – لا يجوز أن يكون في الكلم المفردة ..

٢ – ولا في معاني الكلم المفردة التي هي لها بوضع اللغة ..

٣ – ولا يجوز أن يكون في تركيب الحركات والسكنات ..

٤ – ولا في مقاطع ومفاصل مراعاة الوزن ..

٥ – ولا يجوز أن يكون الإعجاز بأن لم يُلْتَقَ في حروفه ما يثقل على اللسان ..

٦ – ولا يمكن أن تُجعلَ الاستعارة الأصلَ في الإعجاز وأن يُقصدَ إليها ؛ لأن ذلك : يؤدي إلى أن يكون الإعجاز في آي معدودة ، في مواضع من السور الطوال مخصوصة ..

٧ – وإذا امتنع ذلك : لم يَبْقَ إلا أن يكون – الإعجاز – في النظم والتأليف..وأن ليس النظم شيئاً غير توخّي معاني النحو وأحكامه بين الكلم[1] »..

لقد أحسن الجرجاني في تصوير همّه الإعجازيِّ .. كما أحسن في تصوير تعجبه من أمر الناس ومن شدة غفلتهم .. وأصاب مرمى البلاغة من دور اللفظ في تأدية المعنى حين قال :

---

١ – ليت المختصين في الجامعات : يتنبهون لفروع راي الجرجاني السبعة ؛ ليخلصوا اهتمامهم مما يخالف جوهر الرأي البلاغي .. فالذين يهتمون حياتهم لكتابة الهمزة أو ما يماثلها من المعلومات الابتدائية : هل يبلغون معرفة الإعجاز ؟ .. « وما يذكر إلاّ أولوا الألباب » (٢ : ٢٧٠) ..

« إن الألفاظ أدلة على المعاني ؛ وليس الدليل إلا أن يعلمك الشيء على ما يكون عليه ، فإما أن يصير الشيء بالدليل على صفة لم يكن عليها : فما لا يقوم في عقل ولا يتصور في وهم » ..

ويَعجبُ المتأملَ من الجرجاني : دفاعُه عن العلماء الذين ظلمهم الفهم السطحي ؛ فحمل أصحابه ؛ « كلام العلماء في كل ما نسبوا فيه الفضيلة للفظ على ظاهره » .. ورده الاعتبار إلى ألفاظ العلماء ؛ فقد رأى أنهم « يريدون منها الصورة التي تحدث في المعنى والخاصة التي حدثت فيه ؛ ويعنون الذي عناه الجاحظ حيث قال : – وذهب الشيخ إلى استحسان المعاني ؛ والمعاني : مطروحة وسط الطريق ، يعرفها العربي والعجمي والحضري والبدوي ؛ وإنما الشعر : صياغة ؛ وضرب من التصوير .. » ..

لقد أحسن الجرجاني فهم الجاحظ في نظرية اللفظ والمعنى .. واعتبر أصل الفساد في فهم حَمَلة اللفظ على ظاهره : يرجع إلى عدم استيعابهم « أن من شأن المعاني أن تختلف عليها الصور ، وتحدث فيها خواصٌ ومزايا من بعد أن لا تكون » ..

(ب)
نظرية الصورة وجملة الحال

والجاحظ في باب « البيان » من كتابه الشهير : « البيان والتبين » ، هو صاحب نظرية الصورة ؛ وما سماه الجرجاني « نظماً » .. هو عند الجاحظ « البيان » ؛ « والبيان : اسم جامع لكلِّ شيء كشف لك قناع المعنى ؛ .. لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع ، إنما هو الفهم والإفهام .. وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة ، وحسن الاختصار ، ودقة المدخل ، يكون إظهار المعنى .. » ..

ولإظهار المعنى .. أو إحياء تلك المعاني ، « القائمة في صدور الناس ، المتصوَّرة في أذهانهم ، والمتخلِّجة في نفوسهم ، والمتصلة بخواطرهم ، والحادثة عن فكرهم » : يجمع من « بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني » أصناف الدلالات على المعاني « من لفظ وغير لفظ ؛ كالإشارة ، والعَقد ، والخطّ ، والحال التي

تسمى : نِصبة ؛ وهي الحال الدالة ؛ .. الناطقة بغير اللفظ ؛ والمشيرة بغير اليد ؛ وذلك ظاهر في خلق السماوات والأرض ، وفي كل صامت وناطق .. ومتى دلّ الشيء على معنى : فقد أخبرَ عنه وإن كان صامتاً ، وأشار إليه وإن كان ساكتاً ؛ وهذا القول : شائع في جميع اللغات ، ومتفق عليه مع إفراط الاختلافات » ..

والمقنع من الجاحظ : أمثلته التي يتخيرها من أشرف الكلام وأدلّه على ما يكون فيه ؛ وهو القائل بالتخير : سبيلاً إلى جودة اللفظ وحسن الأدب ؛ « لأن ترك التخير : يفسد البيان ؛ ولأن ترك التعلم : يؤدي إلى الجهل » .. ويبدو منهجه مستنبطاً من الأمثلة التي يتشبّع بها ؛ فتصنع في قلبه صنيع الغيث في التربة الكريمة .. ومن الأمثلة التي تخيرها لدلالة الحال على المعاني : عبارة من أبي الباقر الذي أدهشه بكلمتي « الفطنة المُصلِحة » ؛ أعني زين العابدين (ع) ، الذي عرض عبارته بالصورة التالية :

« قال عليُّ بنُ الحسينِ بنِ علي ، رحمه الله :

— لو كان الناسُ : يعرفون جملة الحالِ في فضل الاستبانة ؛ وجملة الحال في صواب التبيين : لأعربوا عن كل ما تخلّج في صدورهم ؛ ولوجدوا من بَرد اليقين : ما يغنيهم عن المنازعة إلى كل حال سوى حالهم ؛ وعلى أن درك ذلك : كان لا يُعدمهم في الأيام القليلة العِدّة ، والفكرة القصيرة المدة ؛ ولكنهم من بين مغمور بالجهل ، ومفتونٍ بالعُجب ، ومعدول بالهوى عن باب التثبت ، ومصروف بسوء العادة عن فضل التعلم . » —

لم يقل الجاحظ شيئاً مباشراً حول هذه العبارة ، كما فعل عندما عرض عبارة الباقر ابن زين العابدين .. لكنها تبدو أصلاً منبعياً لتسمية الكتاب كله « البيان والتبيين » .. كما يبدو ختام فصل « البيان » : مشتقاً منها في التمييز بين الكلام الشريف وضدّه .. وبين الحكماء والجهلاء ...

والتوقف مع دلالات العبارة : يكشف عجباً من « أحوال اللفظ » ، كما

يقول القزويني •• ومن خواص « تراكيب الكلام » ، كما يقـول السكاكي •• ومن شؤون « النظم والتأليف » ، كما يقول الجرجاني ••• بـل يكشف أعجبَ من ذلك في قوله « جملة الحال » ؛ فما هي جملة الحال ، التي لو عرفها الناس •• لأغنتهم عن المنازعة إلى كل حال سوى حالهم •• ؟ !

بعد القرون الطويلة بيننا وبين زين العابدين (ع) : يُعقِّب دارسٌ « البلاغة في تطورها وتاريخها » بقوله :

« مَن يَقرن مباحث البلاغة العَربية إلى مباحث البلاغة الغربية : يلاحظ تواً أن الغربيين عنُوا في بلاغتهم بدراسة الأساليب والفنون الأدبية ، بينما لم يكـد يعنى بهذه الجوانب أسلافنا ، إذ صبُّوا عنايتهم على الكلمة والجملة والصورة ••• ونحن نختلف عنهم – أي عن الأسلاف – إذ استحدثنا في مجال الشعر : أساليب وفنوناً جديدة من الشعر القصصي والمسرحي ومن الشعر الغنائي الوجداني ••• أما في مجال النثر : فإن تجديدنا كان أبعد عمقاً ؛ إذ استحدثنا : المقالة •• القصة والأقصوصة ، وحتى الخطابة : نفذنا فيها إلى نمط جديد هو الخطابة القضائية ••• وهذا التطور الواسع لأدبنا ، في شـكله ومضمونه وأساليبه : حريٌ أن يقابله تطور في بلاغتنا ، بحيث تصور فنوننا الشعرية والنثرية وأساليبها المتنوعة ، وبحيث تكون صورة صادقة لحياتنا الأدبية الحديثة » ••

الذي أردته من تعقيب شوقي ضيف هذا : أن « جملة الحال » المشار إليها بما اختاره الجاحظ من علي بن الحسين ، والد الباقر : تحتضن أوسع مما تتناوله البلاغة الغـربية من دراسة الأساليب والفنون ؛ لأن « جملة الحـال » في فضل الاستبانة وصواب التبيين : تمكن من السيطرة على الوعي إذا عرفت •• وتمنـح برد اليقين ؛ والمنهج المعرفي : مستقيم ؛ تبلغ قواعده وأحكامه بزمن قصير إذا وجد إخلاص الاهتمام •• ولكن أين المخلصون المهتمون بين الأصناف الأربعـة التي ذكـرها ؟ ••

الجهل ، والعُجب ، والهوى ، وسوء العادة : أمور تحول بين صاحبها ومعرفة

جملة الحـال ••• ولو فحص « دلائل الإعجاز » : لوجد الفاحص أن مؤلفـه « عبد القاهر » هاجم هذه الصفات الذميمة بأكثر من نصف كتـابه •• لا يكاد فصل من فصوله : يخلو من الشكوى ؛ لأن الناس« أسلموا أنفسهم إلى التقليد »•• ولأن ما حال بينهم وبين الفكرة السليمة ، هو « اعتزامهم على التقيد » •••

إن سوء العادة : صرف الناس عن فضل التعلم ؛ وهذه خلاصة شـاملة ؛ نجدها في شكاوى الجرجاني •• كما نجدها عند الجاحظ من قبل •• وكما نجدها في حياة عصرنا التربوية واللغويـة ••

لذلك اقتضت الحال أن أجعل محاضراتي في علم المعاني نوعاً من « التربيـة النقدية على البلاغة الممارسة » ، أي النصوص الحية السليمة من الأمراض الذوقية واللسانية والفكرية ، كما ينعتها الجرجاني •• لكنني سرت في « محاضراتي » سيرة من يهتم بالتعـرف إلى ماهية الصحة البلاغية لا إلى أمراض البلاغة •• حاولت التعرف إلى « جملة الحال » قدر المقتضى المناسب : لموضوعات علم المعـاني •• ولطلابها •• وللذوق الذي يُغني عن المنازعة إلى كل حال سوى حالي ••

فهمت من « المطابقة » التي تكررها كتب البلاغة : أن علم المعاني نوع من التقويم ؛ فكأنه رياضة توحد بين الخفي والجلي ؛ وبذلك يكون نوعاً من الطب الذي يشفي من أمراضٍ نفسية مثل « الانفصام » الذي تسببه مع الأيام عـادة الكذبِ والنفـاق •••

لقد عُرِّفَ علم المعاني بما عرفت به البلاغة ؛ فقالوا : « هو تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره » •• أو : « علم يعرف به أحوال اللفظ العربيِّ التي بهـا يطابق مقتضى الحال » ••• وقالوا في بلاغة الكلام : « هي مطابقته لمقتضى الحـال مع فصاحته » ••

وفي ثمانية أبواب علم المعاني : لا نجد إلا المغامرة وراء هـذه المطابقة •• ولكن هيهات ؛ لأنها تقتضي معرفة « جملة الحـال » •• وبين جمال هذه الجملة

الكلية وبين العطار : ما أفسد الدهر ؛ حتى حوّلوا المنح محنـاً والهمة همّاً ..
والصواب التربوي والإنساني : أن يكون الاتجاه صاعداً من المحـن إلى المنح
ومن الهمّ إلى الهمـة ..

(ج)

التجميـل في حضرة مقدسـة

في « مقتضى حال المعاني لبلاغة الإنشاء » : جربت بلوغ « الحضرات وراء
الكلمات » معتمداً « مبادىء التجميل » .. وأشرت إلى قِيَم هذه التجربـة في
خاتمة هـذا القسم .. والمصطلحان جديدان على كتب البلاغة ؛ وتجديد الزي :
لا يعني إلا التفصيل المطابق لمقتضى المعنى ، الذي يبدو أنه الحال ؛ ألسنا نقول :
« والحـال يغني عن المقـال » ؟

نأخذ من خاتمة سورة « المائدة » : آيات تصور حضرة مقدسةً عليا :
« يوم يجمعُ اللهُ الرسلَ ؛ فيقول : ماذا أُجبتم ؟ .. قالوا : لا علم لنا ..
إنك أنت علاّم الغيوب » (٥/١٠٩) ..

إن مبادىء التجميل : تتعرف عدد الجمل في هذه الآية ؛ فترى فيها : سبع
جمل ؛ منهـا ما هو فعلي ، مثل : يجمع ... فيقول .. قالوا .. ومنها ما هو
اسمي ، مثل : إنك .. أنت علاّم الغيوب ... ومنها ما هو خبري ، كالجمل التي
ذكرت .. ومنها ما هو إنشائي ، مثل : ماذا أُجبتم ؟ .. !

إن التعرف إلى أحـوال اللفظ : يعني التعـرف إلى كيفية مطابقته لمقتضى
الحال .. وهـذا يتطلب سؤال كل جملة عن خواصٍ تركيبها المحققة لما يسمى
أبواب الخبر ...

فمثلاً : الجملة الأولى « يوم يجمع اللهُ الرسلَ » ..
تسأل عما بها من : أحوال الإسناد الخبري .. وأحوال المسند إليـه ..
وأحوال المسند .. وأحوال متعلقات الفعل .. والقصر .. والإنشاء .. والفصل
والوصل .. والإيجاز ، والإطناب والمساواة ..

ماذا حققت من هذه الأبواب ؟

١ – هي جملة خبرية ؛ وليست إنشائية ..

٢ – أحوال الإسناد الخبري فيها : تعني نوع الخبر ؛ وغرضه ؛ وطبيعة العلاقة بين المسند إليه والمسند ، أهي حقيقة عقلية أم مجاز عقلي ؟

يوم يجمع الله الرسلَ ..

يوم : ظرف زمان مقـدم على الفعل ، لاعتبارات المعنى الزمانية ؛ فيوم الجمع : سابق للجمع ، موجود قبله في الوجود ؛ لاحتضان العلم بما يكون ...

الجملة : غير مؤكدة ؛ فهي من الخبر الابتدائي .. غرضها الإعلامُ وفائدته..

يجمع الله : فعـل وفاعل ؛ والفعل مسند إلى فاعـله الأصلي ؛ فالإسناد حقيقي ، وفق طبيعة البناء الظاهر والمعنى العميق الرفيع ..

يجمع : مسند ؛ وأحواله : فعلٌ اندفع أمـام فاعله ، تعبيراً عن طبيعـة التبعيَّة المطيعة ...

الله : مسند إليه ؛ وأحواله : اتخاذ مكانه من الاستواء على عرش الفعل ، محاطاً بالزمان المظروف « بيوم » .. مستقبلا بالرسل العائدين من بعوثهم ..

بين الفعل والظرف الزماني : علاقة تضايف ؛ فالظرف : باعتبار المفعولية يتعلق بالفعـل .. وباعتبار التساند : المعنوي : يكون مضافاً ؛ وتكون جملة يجمع : مؤَولة بمفرد مضاف إليه ؛ كأن نقول : يوم جمعِ الله للرسلَ ..

لا قصر في الجملة ..

لا وصلَ فيهـا ولا فصلَ ، باعتبارها جملة منفردة ؛ والفصلَ والوصلَ : لعيار ما بين الجملَ ..

طابَعُ الجملة : الإيجاز ؛ لأنها تحمل معاني واسعة : تحتاج تفاصيل تتمدد فيها وتظهر •• وهذا ما يظهر في الآيات التي تلتها ؛ فحتى نهاية السورة : تُفصِّل وقائع تلك الحضرة •• ويمثل للقــاء الرسل مع ربهم يوم الجمــع : بالحوار الإعجازي العَـجَبِ •• وتمكن متابعة الآيات في السورة ، وهي : إحدى عشرة آيــة ، منهــا :

« إذ قــال الله :

يا عيسى ابنَ مريم •• !
اذْكُرْ نعمتي عليك وعلى والدتك ••••••
« وإذ قــال الله :
يا عيسى ابنَ مريم •• !
أأنتَ قلتَ للناس :
اتّخذوني وأميَ إلٰهَيْن من دون الله •• ؟ !
قــال :
سبحانك ما يكونُ لي أن أقولَ ما ليس لي بحق ؛ •••
قــال الله :
هــذا يومُ ينفعُ الصادقين صدقُهم :
لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار •• خالدين فيها أبداً ••
رضيَ اللهُ عنهم ورضوا عنه •• ذلك الفوز العظيم ••• »

إن التأمل بأحوال التأليف : يفتح للمتأمل أبواب الحضرة الحيوية المؤنسة ؛ ويُلهِم كيفية الآداب البيانية والنفسية •• فيُذاقُ الحال الصدقيّ الضائع في الحضرة : ضوعَ الشذى فوق ما لا يُحصى من تفاتيح البنفسج والورد والقرنفل والفــل والياسمين والنرجس والكولونيا •• وغير ذلك من الأزاهير التي تبعث الطيب •••

ما أعجبَ هذا التأليفَ الذي تنفتح أبوابُ الكلماتِ فيه عن الحضرات ؛ فيتجلى نفع الصدق : جناتٍ •• ورضى •• وفوزاً •• وخلوداً •• ! •

(د)

الصـــدق الخبري والنابهون

هـــذا من الإعجاز المُحضِر لقيمة الصدق ، والتزام الرمل له ، وتقـــدير المرسل لملتزميه ...

هل يصح لمن يتذوق الحال « الصدقي » الصدوق : أن يقيم وزناً لما يخالفه كالكذب مثلاً ؟ !

لا يمكن أن يكون ذلك : لمن يتنبه لاستخدام مسطرةِ المطابقة بين أحـــوال اللفظ ومقتضى الحـــال ..

ألم يعبِّر الجاحظ عن دهشته لكلمتي الباقر (ع) اللتين جمعتا صلاح شأن الدنيا بحذافيرها ، وهما : « الفطنة المُصْلِحَة » .. ؟

ألم نسمع من زين العابدين ، أبي الباقر (ع) : أن معرفة « جملة الحال » تُغني بحال العارف عـــن المنازعة إلى كل حال ؛ لأنها تمنح : بردَ اليقين وتعبيرَ التمكين ؟

الفطنة المُصلحة .. والمعرفة بجملة الحال : مطابقة تحقق الصدق ، توحيداً بين ظاهر أحوال اللفظ وباطن مقتضى الحال .. وبذلك يكون الصلاح والغنى .. فهـــل يبقى مرض انفصام أو ادعـــاء ؟

« الصدق : نور متشعشع في عالمه ؛ كالشمس يستضيء بها كل شيء بمعناها من غـــير نقصان يقع على معناها » ..

هـــذه العبارة من ابن الباقر ، جعفر بن محمد ، الصادق (ع) .. وفصل الصدق في « مصباح الشريعة » : جذابة آسِرَة" بلاغته ..

وجاذبية البلاغة : من طبيعة مقتضى الحال ؛ والإحساس بهـــذه الآخذية : جذب أدبـــاء السريالية إلى الكتابة المستسلمة لما يسميه أندريه بريتون « السنن المتحكمة بصميم الإنسان » إذا صحت الترجمة ..

وبكل حال : اجتذبنا المقتضى الحالي إلى حضرات للصدق ؛ لأن هذا العلم الذي نبحث أحكامه : يُعيَّر بمعايير التصديق والتكذيب ؛ ••

كل الكلام : خبر وإنشاء ؛ وقد حصروا الخبر في الصادق والكاذب ؛ وميَّزوا بين آراء الجمهور العام وآراء أهــل الخصوص العقلي ؛

فالجمهور : يرى صدقَ الخبر في « مطابقة حكمه للواقع » •• ويرى كذبه في « عــدم المطابقة » ••

والعقلانيون : يرون الصــدق والكذب في مطابقة الحكم لاعتقاد المتكلم المخبر أو عدمها •• فإذا كان حكم المخبر مطابقــاً لاعتقاده فهو صادق ، ولا قيمة للصواب والخطأ بالنسبة للواقع •• وإذا لم يكــن حكم المخبر مطابقاً لاعتقــاده فهو كاذب ، بغض النظــر عن صلته بالواقع ••

إن التأمل بهــذين الرأيين : يظهر نزعة الجمهور الواقعية المتجهة إلى الخارج المادي الحسي ، ولنقل الطبيعي الظاهر •• ويظهر نزعة المفكرين ، أمثال « النظّام•• والجاحظ » ، إلى الداخل النفسي والإنساني الذي بمستوى الاعتقاد •• وهــذا لا يكون إلا على صعيد الأمثل أو المثال بالنسبة لصاحبه ••

وهــذا التمييز : يفصِّل فيه الجاحظ تفصيلاً يظهــر معياراً ثالثاً : ليس بالصادق ولا بالكاذب ؛ ويلخص صاحب « الإيضاح » تفاصيل الرأي الجاحظي ، فيقــول :

« فالصدق ، عنده : مطابقة الحكم للواقع مع اعتقاده •• والكذب : عــدم مطابقته مع اعتقاده •• وغيرهما ضربان : مطابقة مع عــدم اعتقاده •• وعدم مطابقة مع عــدم اعتقاده • » •• (ص : ٨٨) ••

بهــذا التخريج : وحَّد الجاحظ بين الواقع الخارجي والواقع الداخلي ؛ فجعل للصدق شرط المطابقة من وجهيها ؛ فالخبر الكلامي الصادق : هــو الذي

يطابق حكمه الواقع والاعتقاد معاً ... فإذا قيل : « يأكل الناس الطعامَ ويشربون الماء » .. كان حكمُ الخبر ، أي المفهوم المعنوي الذي يحمله ، صادقاً ؛ لأن ذلك صحيحٌ في الواقع الخارجي المحسوس .. ولأن القائل ليس مازحاً ؛ فالمسألة أكيدة ؛ وفائدة الخبر : لا تحتاج برهاناً ؛ بل تحتاج اقتناعاً بالجد لتأمين الطعام والشراب للناس الذين لا يعيشون بغير طعام وشراب ...

هذا صدق الخبر .. أما كذبه : فيكون بعدم مطابقة حكمه للواقع ، ولو اعتقده المخبر .. وبذلك يصير الواقع مقياساً لا يمكن الخروج منه ؛ لأنه الكليّ .. وتصير قيمة الاعتقاد نسبية ؛ وتختلف مقاماتها : بنسبة مطابقتها للواقع ؛ فكلما حققت مقداراً من المطابقة الواقعية : تقدمت نحو الصدق ... فإذا سمع قائل يقول : « لا يوجد في الكون شمس ولا قمر » .. فإن مقالته كاذبة الحكم ؛ لأن مفهوم خبره النافي للشمس والقمر : يخالف الواقع الكونيّ .. وقد يكون معتقداً كلامه ؛ كأن يكونَ أعمى العينين ، ولم يرَ في حياته شمساً ولا قمراً .. أو أن يكون كفيف البصيرة ، سجين الظلام النفسي .. فحكمه نسبيّ ، ولا يُلزم غيرَه ، ولو مات مجاهداً في الدفاع عنه والإخلاص للإقناع به ؛ وكثيرون في تاريخ الكلام : يجتهدون للإقناع بعماهم عن واقعية الشمس والقمر ..

نقل الإمام الصادق عن رسول الله (ص) : أحاديث في المطابقة ، نثرها في أبواب مصباح الشريعة المئة ؛ منها :

« من خالفت سريرتُه علانيتَه : فهو منافِق ، كائناً من كان ؛ وحيث كان ؛ وفي أي زمان كان ؛ وعلى أي رتبة كان » .. (ص : ١٤٦٠) ..

إن هذا الحديث الشريف : يجتذب حكماً قرآنياً متصلاً بحقائق المجتمع التعاملي وبحقائق الحياة الممتدة في الزمان والمكان والإنسان .. نجده مفصّلاً في سورة « المنافقين » .. وقد أحسنت مناقشة الآية الأولى في كتاب الإيضاح ؛ لأنها أوضحت العلاقة بين الكلام المعلَن وبين السريرة المضمرة ؛ فكانت العلانية مطابقة للواقع الاجتماعي ،لكنها مخالفة لسريرة معلنها واعتقاده .. ولهذا أوجب

أهل العقل المتأملين بالحال ومقتضى المطابقة : أن يربط الصدق بالانسجام بين اللسان والقلب ، بين الظاهر والباطن •• والآية الأولى التي استوقفت أصحاب « الإيضاح » ، هي :

« إذا جاءكَ المنافقون ••

قالوا :

نشهد إنَّك لرسول الله ••

والله يعلم : إنك لرسولُه ••

واللهُ يشهدُ :

إن المنافقين لكاذبون » ••

لاحظ « الإيضاحيون » : أن الله كذَّبهم في قولهم المطابق للواقع ؛ لأنهم لم يعتقدوه ••

السورة كلها للتأمل بهذا البيان الواقعي الدائم ؛ ليكون الإنسان حذراً من العدو الأصليِّ ، الذي هو الكذب •• أليس إبليس : بدأ بالكذبِ ؛ فخدع أبوي البشر بقسمه : فصدقاه ؛ لأنهما لا يعرفان شيئاً عن الكذب ؛ ولم يكن لهما عزمٌ على الخروج من طبيعة الصدق ، التي هي فطرتهما •• وقد أحسن الإمام الصادق بتخريج هذه المسألة بصورة نادرة ؛ فقال (ع) :

« والصادق ، حقاً ، هو الذي ، يصدق كل كاذب : بحقيقة صدق ما لديه •• وهو المعنى الذي : لا يسع معه سواه ، أو ضده •• مثل « آدم » — على نبينا وآله وعليه السلام — صدَّق إبليس في كذبه ، حين أقسم له كاذباً ، لعدم ما به من الكذب في آدم ••

قال الله تعالى : « ولم نجِدْ له عزماً » ••• لأن إبليس : أبدع شيئاً كان أول من أبدعه ، وهو غير معهود ظاهراً وباطناً ؛ فحشر هو بكذبه على معنى لم

ينتفع به ، من صدق آدم (ع) على بقاء الأبد •• وأفاد آدم بتصديقه كـذبه : بشهادة الله ، عــزّ وجل ، له بنفي عزمه عما يضاد عهده في الحقيقة على معنى لم ينتقص من اصطفائه بكذبه شيئاً ••

فالصدق : صفة الصادق حقيقة الصدق ، يقتضي تزكية الله تعـالى لعبده ، كما ذكـر عن صدق عيسى (ع) في القيمة بسبب ما أشار إليه من صدقه ، وهو طهارة الصادقين من رجال أمة محمد (ص) ؛ فقال تعالى : « هـذا يومُ ينفعَ الصادقين صدقُهم » •• (ص ٣٥)

سبق التوقف مـع حضرة « الصدق » في سورة « المائدة » •• ودرست « مبادىء التجميل » تمثيلاً للتوصل إلى « الحضرة وراء الكلمات » بمعنى الغاية من عـلم المعاني •• ومن الاهتمام بالدلائل الموصلة إلى حضرة المعنى في مظاهـر الإعجـاز ••

إن جهود البلاغة لبلوغ « الحضرات وراء الكلمات » : تظهـر الصدق في المطابقة صراط البلغـاء ؛ لذلك قالوا بالصادق والكاذب من الكلام •• كما قالوا ببعد ثالث غـير الصدق والكذب ••

إن ما ليس بكاذب ولا بصادق في مناقشات الأخباريين : أكثـر وضوحاً في أساليب الإنشاء ؛ فالإنشاء كله : لا يحكم بالتصديق والتكذيب ؛ لأنه لا يقـرر بل « يتمنى أو يرجو •• ينادي للتنبيه أو يقسِمُ للتأكيد •• يستفهم أو يعقد •• يأمر أو يتعجَّب •• ينهى أو يمدح •• يعرض ويحضّ أو يذم •• » ••

هـذه الأساليب الإنشائية ، كما أوضحت في القسم الأول مـن « مقتضى الحـال •• » : إنما هي إشاراتُ الحال إلى ما هو ممكن الآن وفي المستقبل •• والحكم بقيَم ما تؤديه : موقوف على ما يُجنى أو يتحقق منها ؛ فهي أسـاليب الإنشاء ؛ بمعنى طموح الإبداع ، مكانياً وزمانياً وإنسانياً •• والمنشئون الطامحون : يؤثرون أو لا يؤثرون •• وتقدير قيم الأحكام التي تحملها أحلامهم : ليس كتقدير الأحكام التي تحملها وقائع الأخبـار ••

في كتاب « الإيضاح » : جاء القزويني برأي الجاحظ في نوع من الخبر « غير صادق ولا كاذب » •• فقال : (ص ٨٨)

« واحتج بقوله تعالى – أفْتَرَى على الله كذِباً •• أم به جِنَّةٌ – ؟ •• فإنهم حصروا دعوى النبي (ص) الرسالةَ في : الافتراء والإخبار ، حال الجنون ، بمعنى امتناع الخلو ، وليس إخباره حال الجنون كذِباً ؛ لجعلهم الافتراء في مقابلته ؛ ولا صدقاً ؛ لأنهم لم يعتقدوا صدقه ؛ فثبت أن من الخبر ما ليس بصادق ولا بكاذب » ••

أوردت نصَّ القزويني ، حرفياً ؛ ليرى معي المنتبهون : أن المثال الذي اعتمد عليه ، ليس خبراً ؛ بل هو من أساليب الإنشاء الطلبي بالاستفهام •• والآية من سورة « سبأ » ؛ وعندما يتعرض لها المفسرون ، يقولون : « أفترى » بفتح الهمزة للاستفهام ، واستغنيَ بها عن همزة الوصل » •• وتمام الآية :

« أفترى على الله كذِباً ؟ ••
أم بهِ جِنَّةٌ •• ؟ !

بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد » (سبأ :) ••
من العجب : أن نجد في كتب البلاغة الرصينة مثل هذه الغفلة ، التي تسرح بصاحبها : حتى يصدر حكماً بشأن الخبر ، بناءً على مثالٍ من أمثلة الإنشاء ••• والقزويني ، قبيل ذلك : يميز بين الخبر والإنشاء بعد ذكر أبواب المعاني التي حصرها بثمانية ، فيقول :

« ووجه الحصر : أن الكلامَ ، إمَّا خبرٌ أو إنشاء ؛ لأنه إمَّا أن يكون لنِسْبته : خارجٌ تطابقه ؛ أو لا تطابقه •• أو لا يكون لها خارج » •• (ص : ٨٥)

ويعتبر الإنشاء باباً سادساً •• وهو ذو تفاصيل معلومة •• ويعتبر أساليبه : مما ينظر إليها في أبواب « الجملة » ، التي نعني بها « الفصل والوصل •• الإيجاز

والإطناب والمساواة •• » •• كما يعتبر للخبر أبوابه الخمسة الخاصة ، وهي « أحوال الإسناد الخبري •• أحوال المسند إليه •• أحوال المسند •• أحوال متعلقات الفعل •• القصر » ••

ومما هو أشد إثارة للعجب : أن نجد في هذه الكتب الرصينة أمثلة عديدة ممَّا يفسد الذائقة البلاغية ، تعبيراً •• والذوق المجتمعيّ والإنسانيّ ، حياة •• كالأمثلة التي تروج « الغدر والكذب » ، في سياق ترسيخ قاعدة من قواعد البلاغة ؛ وإنني : لشديد الحرج من ذكر هذه الأمور ؛ لذلك سأعترف بوقوعي في مثلها أو ما هو أشدّ منها خطأ ، وأستغفر الله لهم ولي •• وأرجوه أن يقدر ما في نيتي من رغبة « تنظيف النهر » ليشرب أبناء الخلق من مائه الطهور ••

في « دلائل الإعجاز » : فصل من سبع وثلاثين صفحة ؛ بُدىء بالبسملة ؛ ثمّ :

« إعلم أنه لما كان الغلط ، الذي دخل على الناس في « حديث اللفظ » : كالداء الذي يسري في العروق ، ويفسد مزاج البدن •• وجب أن يتوخى دائباً فيهم ما يتوخاه الطبيب في الناقة •• »

ثم •• ختمه بفقرة استعد بها للدخول في فصل آخر ؛ بدأه بالبسملة ؛ ثم :

« ما أظن بك أيها القارىء لكتابنا : إن كنت وفيته حقه من النظر ، وتدبرته حق التدبر : إلاّ أنك قد علمت علماً أبى أن يكون للشك فيه نصيب وللتوقف نحوك مذهب : أن ليس النظم شيئاً إلا توخِّي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه بين الكلم » ••• (ص ٤٠٣ وفي غيره ٣٥٤) ••

المراد هنا : مسألة المطابقة بين القول والاعتقاد ••• وقد لاحظنا : حكم البلغاء في الصادق وغيره •• وفهمنا أمراً من غفلةٍ وقعت في تأكيد النوع الثالث من الخبر ، الذي ليس بصادق ولا بكاذب •••

هنا نلتفت إلى « حديث اللفظ » ؛ فقد اجتهد الجرجاني فيه : ليثبت أن الشاعرين يقولان في معنى واحد ؛ وقد ميَّز بين قسمين ؛ في أحدهما : يوفق الشاعران بتصوير المعنى •• وفي ثانيهما : يكون التوفيق لأحدهما دون الآخر •• وقد حشد خمسين بيتاً للتمثيل على إجادة الطرفين •• وثلاثة وثمانين بيتاً للبرهان على إجادة احدهما وتقصير الآخر ••

ولننظر بالمثال الذي افتتح به إجادة الطرفين •• ولنفكر بما سبق لنا من حديث الصدق البلاغي واشتراط المطابقة للواقع والاعتقاد ••

أخذ بيتاً من « لبيد » •• وقال : إنه من نادر قوله •• ثم جاء ببيتٍ من « نافع بن لقيط » •• وهو يريد أن نرى « في كل واحد من البيتين : صنعته تصويراً وأستاذية على الجملة » •• (ص ٣٨٣) ••

والبيتان هما :

— وَاكْذِبِ النفسَ إذا حدَّثتَها
إنَّ صدقَ النفسِ يُزري بالأمَلْ

— وإذا صدقتَ النفسَ لم تترك لها
أمَلاً ، ويأمُل ما اشتهى المكذوبُ[1] ••

في البيتين : معنى واحد ؛ ويقول الجرجاني •• « أنت ترى كل واحد من الشاعرين قد صنع في المعنى وصوَّر » ••

صحيح : أنهما صورا الكذب صورة مغريةً بهجر الصدقِ ؛ لأنه يقتل أملَ النفس •• فهما يوجهان إلى عدم المطابقة بين الحديث وبين النفس •• بل يطالب أولهما بالكذب على النفس « واكذبِ النفسَ إذا حدَّثتها » ••

إن الإعجاب بمثل هذه الصنعة الكذبية : لا يثير إعجاب المربين من الآباء

---

١ — تقدمت الإشارة لهذين البيتين .. لكننا هنا : نوضح منهما أمراً آخر ؛ فلتكن لنا فطنة ..

والأمهات والمعلمين •• ولا يتفق مع معرفة المبدعين الذين جربوا التطابق مع أنفسهم بصورة يحققون فيها الانسجام مع فطرتهم ، أو قواهم الداخلية التي تفوق تشبيهات الكاذبين علـى أنفسهم ، والتي تحقق أصـالة الأصلاء من المبدعين •• ومذاهب الأدب الحديثة والقديمة : تؤكد ضرورة الصدق مع النفس ؛ لأن « ذات الكاتب الإبداعية » لا تحقق إلا بالصدق مع النفس ••

والعجيب : أن الباحث في « إعجاز القرآن » والمنافح عنه ، هو الذي يختار مثل هـذه الأمثلة « المكذوبية » •• وهو يعرف : أن القرآن معجز البيـان ؛ وليس فيه : أي إعجاب بهـذا الكذب الذي يرى الجرجاني في حاملـه « صنعة وتصويراً ••• » ••

وعلى هـذا تقاس بقية الأمثلة التي حشدها مؤلف « الدلائل » •• وينبغي أن نتذكر ما أسلفناه من حديث رسول الله (ص) ؛ فمنذ قليـل أصغينا إليـه في « مصباح الشريعة » ؛ وهو : « من خالفت سريرته علانيته : فهو منافق ؛ كائنـاً مَن كان ؛ وحيث كان ؛ وفي أي زمان كان ؛ وعلى أي رتبة كان » ••

أعاذنا الله •• وأعاذ الشيخ الجرجاني •• وأمثاله : من الغفـلة التي تروج لمن « يكذب النفس إذا حدثها » ••

يقول باحث حديث ، هو « مصطفى ناصف » : كلاماً يدعو للتأمل فعلاً ، منـه :

« الواقع أن فهم اللغة ، في كل التراث العربي ، تلعب فيه فكرة « الما صدق » إلى حد كبير : وبعبارة أخرى : الما صدق جزء هام من المعنى ؛ ولنضرب لذلك مثلاً ، قوله تعالى « ولكم في القصاص حياة » •• حينئذ لا يتساءل عبد القاهر عن مفهوم الحياة ، المرتبط بالقصاص ، ولكن يبحث فيمن تصدق عليهم هذه الحياة المستفادة من القصاص ••• وهكذا نجد المعنى ، في الحقيقة ، ضائعاً تماماً في مثل هـذا الشرح •• والواقع أن عبد القاهـر : يخدعنا في سذاجة بحثه في شئون المعنى كثـيراً » •• (ص : ٣٣) ••

لا أريد مناقشة كل ما قاله صاحب « نظرية المعنى في النقد العربي » •• فهو : واضح في فصل « نظام الكلمات » وفي فصل « فلسفة المعنى » ••

والإرادة عندي : متجهة إلى معنى الكلمة الأولى التي بدأنا بها كلامنا ، وهي أسلوب نهي عما يوقعنا في خطر الجهـل •• أم نسيناها ، لهذا الذي يثير العجب من الغفلة عن جوهري الأمور بما هو عرضي لا قيمة له •• كأننا لا نعـرف قول المسيح (ع) : « ما نفع أن تربح العالم إذا خسرت نفسك •• ؟ •• ومن ثمارها تـعرف الشجر •• » ••

لا أُذكِّرُ بعبارة البدء ؛ فليفحص القارىء انتباهه ؛ ولينظر بأول الكلام ••• إنما أتابع حديث المطابقة ؛ فقد أتم الإمام الصادق (ع) باب الصدق بما نقله من صاحب « نهـج البلاغة » ؛ فأورد هذا :

« وقال أمير المؤمنين (ع) :

« الصدق : سيف الله في أرضه وسمائه ؛ أينما هوى بـه : يقده ؛ فـإذا أردت أن تعلَمَ : أصادق أنت أم كاذب •• ؟ •• فانظر في صدق معناك وعقـد دعواك •• وعيِّرهما بقسطاس من الله تعالى ، كأنك في القيامة ؛ قال الله تعـالى : «والوزنُ يومئذٍ الحقُّ » ؛ فإذا اعتدل معناك : بفوز دعواك : ثبت لك الصدق•••
« وأدنى حـد الصدق : أن لا يخالف اللسان القلب ولا القلب اللسان ••

« ومثل الصادق الموصوف بما ذكرناه : كمثل النازع لروحه ،إن لم ينزع ، فماذا يصنع » ؟ •• (ص ٣٥) ••

أكد في اختتام الكلام : قالة المسيح بصورة بلاغة أخرى ؛ فالمسيح : بصر بالأهـم الذي هو ربح الذات ؛ لأن ذلك هو الجوهري ؛ وأي ربـح مع ضياع النفس : لا يجدي صاحبها شـيئاً ••• وهنا ظهـر الرابح بصورة المجاهد الذي يخلص نفسه ، وينتزع روحه من أنياب الهلاك المحدق به من جهات الكذب كلها ؛

فمثل الصادق : مثل المعارك في منازعات الحياة : يريد انتزاع نفسه من المهلكات ؛ لأن من لا يخلص روحه : فلا جدوى لما يصنعه ؛ فهو هباء ... ولعلنا لم ننس قول من أدهش الجاحظ بقوله : « لو كان الناس : يعرفون جملة الحال ، في فضل الاستبانة .. وجملة الحال في صواب التبيين : لأعربوا عن كلّ ما تخلّج في صدورهم ؛ ولوجدوا من برد اليقين : ما يغنيهم عن المنازعة إلى كلّ حال سوى حالهم » ..

هل ذكرنا صاحب « جملة الحال » ؟ ..

كذلك : ليفحص فاحصٌ نفسه ؛ وليقد إلى تتمة القول في مكانه مما تقدم .. فغرضنا ، هنا : كلمة « المنازعة » ؛ لتشرح لنا من الداخل معنى صفة الصادق « النازع لروحه » من كل المنازعات ؛ لتسلم إلى برد يقين حاله الفطري الذي يكشف له ، بالمطابقة ، عين اليقين ، ويمنحه من برده ..

في النقد العالمي الحديث : يسعى الأذكياء وراء المعنى ، ويتبعون أحوال اللفظ البنيوية : توسلاً لنسق الكلام ، علّه يبوح بالمخبوء فيه من كنوز المعنى .. ومن المحاولات الحسنة في سياق المطابقة : ترتيب صاحب « مبادىء النقد الأدبي » لما يمكن تسميته « نظريات المعنى » ؛ وهو ، أعني « ريتشاردز » : يسميها « نظريات نقدية » ؛ وهي في كتابه سبعة ، ترتيبها كما يلي :

١ – فوضى النظريات النقدية : ٤١ ..
٢ – نظرية سيكولوجية في القيمة : ٨٦
٣ – تخطيط لنظرية سيكولوجية : ١٢٨
٤ – الطريق المسدود أمام نظرية الموسيقى : ٢٢٤
٥ – نظرية في التوصيل : ٢٣٢
٦ – نظرية العدوى ؛ لتولستوي : ٢٤٥
٧ – نظريات الحقيقة والكشف : ٣٢٥

إذا تأملنا ما قـاله في المستوى السابع من نظرياته : نحسب أنه سمع كلامنا حول الصدق وسجله •• أو نحسب أنه ترجم كلام الصادق في باب الصـدق •• ولنسمع ••

لقـد اختار أقوالاً قديمة وحديثة ؛ منهـا : لأرسطو •• وردزورت •• كولردج •• ومنها : لكارليل •• وكروتشه •• وبيتر ••

ذكـر أن « بيتر » يقـدر الوضوح والدقـة ، ويقول :

« أما عن الحقيقة ، أو الصدق : فلا مزية أو براعة بدونهما ؛ وفضلاً عـن ذلك : فـإن كل ما نسميه « جمالاً » : ليس في نهـاية الأمر إلا « الصدق » في وصف الدقـائق ؛ وما نسميه « تعبيراً » : ليس إلا التكيف الدقيق : بحيث يطابق الرؤيـة الباطنة » •• (ص : ٣٢٦) ••

أما أخبرنا الإمام الصادق بأمثلة عملية من النبي وعلي : تقنع أبنـاء العصور بهذا الذي يردده بعد العصور أذكياء اللغات •• ؟

يختم ريتشاردز هذا الفصل الثالث والثلاثين من كتابه ، بقوله :

« وحينما نفهم نظريات الكشف هذه ، على حقيقتها : يتضح لنا أنها أقـدر من جميع النظريات التقليدية الأخرى ، على تفسير قيمة الفنون •• فهـذا الكلام الذي يبدو أنه يدور حول « الحقيقة » ظاهـرة غير باطنة • ولكي نتمكن مـن تفسيره : يتحتم علينا أن ندرس اللغـة من زاوية غير مألوفة وبدقة ليست شائعة •• ولكي نصنع ذلك : لا بد لنا أن نتخلص أولا من بعض العادات الفكرية الراسخة في أذهاننا •• وأن نزيـل تلك العقبات الكأداء التي تقف في طريقنا » ••

(ص : ٣٣١) ••

تبـدو نظريات الحقيقة والكشف : أقصى وسائل فهم المعنى •• ويبـدو الصدق •• روحاً لها •• ولا يكون التعبير صادقاً : إلا إذا طابق الرؤية الباطنة ••

وهذه الباديات كلها : صور مثل الترجمة لآراء سمعناها في تراثنا من قبل حول الصدق الذي يتحقق بالتطابق مع الواقع والاعتقاد ..

(هـ)

صاحب الأهم لمن يلتزمه

فهل انتبهنا إلى قيم هذه التلاقيات بين تراثنا القديم ووقائع العالم الحديث ؟

هل نذكر ما بدأنا به ؟ ..

هل فكرنا بقائله .. ؟

من قال عبارة البدء في حديثنا هذا ؟ ..

« ولا تغفلن عن علم ما يزيد في جهلك تركه » ..

نحن نعتقد : أن الغفلة عن علم « الحقيقة والكشف » يزيد في جهل الغافل ، ولو كان : « قزوينياً .. أو جرجانياً .. » أو غيرهما ..

لذلك بدأت بالعبارة المنبهة ، وهي عبارة لها في تجربتي البلاغية : مداها الحميد ، لقد نبهتني إلى أكثر من « غفلة » تفوقت بها على غفلة القزويني والجرجاني ، وأعوذ بالله من هذا التفوق الذي يجعلني أعظم غفلةً ، ولا بأس : فقد يرضي « الحقيقة والكشف » أن أعترف بالصدق وفق « مقتضى الحال » ، لتكون سلامة النية للمعنى ..

كتبت « مجتمع العرب وشخصيتهم في البلاغة » ، وألقيته بصورة محاضرة في « جمعية المعلمين » الكويتية .. ثم على « طلاب الدراسات العليا » في بيروت... ثم أرسلته كتاباً بين الناس .. وشجعت على ذلك دراسات ورسائل وردتني بشأنها ، من أغربها الدراسة القائلة بأن هذه المحاضرة : تمثل المفتاح المساعد على إعادة كتابة التاريخ العربي ، لأن المحاضرة من ندوتين ، الندوة الثانية منها بعنوان « مرايا الشعب » ، ومنها ما يؤكد أصالة أبناء الشعب ، وأنهم منبع الشاعرية والثقافة والكرم والتعاشر .. وهم الذين يصوبون الذوق المنحرف ، ويعيدون المغرور إلى حجمه الزائف ..

كانت التجربة التصحيحية ، عبر قاعدة « المماتنة » وشخصياتها المدعية والشعبية ..

ذكر صاحب الدراسة أن اكتشاف « شخصية العــرب في البلاغة » وتصوير مجتمعهم فيها : مسألة ، برأيه ، تساوي ، « اكتشاف الآلة الكاتبة » ..

لم أتوقّف كثيراً عند هــذا الرأي : لكنني انتبهت ، فيما بعد ، « لغفلة » خطرة ، لابستني في الندوة الأولى ، بعنوان « مرايا الملوك والقادة » .. ويؤسفني أنني أثنيت على موقف الرشيد في مسألة « أحسن بيت قالته العرب في التشبيه » .. كما جاء في « نضرة الإغريض » .. والحق أن يذمّ الرشيدُ والأصمعيُّ معــاً ، في ذلك المجلس ؛ لكنني غفلت عن الجانب الشعبي ، وانسقت مع الجانب البلاغي المحض ؛ فقرأت القصة أمام طلاب الدراسات العليا والناس : من مستوى حدوثها في الحيــاة ؛ من مستوى التعبير الأدبي عن تلك الأحداث الحيوية ؛ ثم من مستوى القاعدة البلاغية ، التي كانت التشبيه .. كان ينبغي أن أسأل عن عطاء المسألة .. لكنني لم أفعل ، فخسرت نفاذ الفطنة ..

ملخص الحكاية : أن الرشيد تبارى مع وزرائه الثلاثة .. وحكم الأصمعيُّ بينهم .. فحكم للرشيد بالفوز ؛ لأنه اختار ثلاثة أبيات في التشبيه ، هي أحسن ما قالته العرب في هذه الصورة ؛ أو هي ثلاث صور ، بأربعة أبيات : الصورة الأولى تصف الذباب .. والثانية تصف بغام الناقة ، أي بصاقها .. والثالثة تذكر الثآليل ؛

وجائزة هذه المعرفة : ثلاثة ألف ألف درهم ؛ حصة الأصمعي : عشرها .. وما بقي ربحه الرشيد من وزرائه ، بمثل لعب القمار ..

نعم ، كان الغنى العــربيُّ : أفحش من فاحش .. وكان هارون الرشيد : مفخرة ، بالنسبة لعصره وعصر شارلمان ، الذي يتندر الناس بتأخر حضارته عــن حضارة الرشيد ... لكننا في مستوى « مقتضى الحال وبلاغة المعاني » : نفكر تفكيراً مجرداً ؛ فيه بحث عن الصدق المطابق للحق .. للواقع والاعتقاد ..

تبــديد تلك الملايين التي أنتجت ما أنتجته ، فيما يتعلــق « بالذبــاب .. والبصاق .. والثآليل » .. لا يليق بمثل الرشيد مهما كان لديه من الأموال ؛ لأن أبنــاء الناس : لهم حقوق بأموال من هذا النوع .. ولأن هذه المعرفة التي أثمرها « مجلس التشبيه » : ليست الأهم بالنسبة لما كان يمكن ...

مع ذلك : غفلت عن كل هذه المعاني ، سنة ١٩٧٤ ، أي قبل ثلاثة عشر عاماً ••

كان الرشيد العباسيُّ هــذا : يعيش في عصر « العبد الصالح ، الذي كان معروفاً في العراق بباب الحوائج الى الله » •• وقد قال الرشيد للربيع : « إن هذا من رهبان بني هاشم » •• يعني به ذلك العبد الصالح الذي افتتحنا حديثنا بكلمته المنبّهة « لا تغفلن » ••

وهذه الكلمة نبهتني إلى غفلتي التي ذكرتها •• وإلى أمثالها •• وأستغفر الله لي ولأمثالي من الغفلين ، مع اعتبار الفروق ؛ فأنا ، عند قولي السابق ، كنت أعظمهم غفلة عن الأهم •• وأعوذ بالله « الحي القيّوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم » ••

ليستفيد طلاب « علم المعاني » مما أفادني : أذكر نص العبد الصالح وباب الحوائج ، الذي أخــذت منه « الكلمة المنبّهة » ؛ وهي من مختــارات الشيخ « عباس القمي » في « الأنوار البهية في تواريخ الحجج الإلـهية » ••

هذا ما اختاره « عباس » من كلام العبد الصالح ، بعنوان « نـبَـذ » :

١ – « أولـَى العــلم بك :
ما لا يصحُّ لك العمل إلا بــه ؛

٢ – وأوجب العمل عليك :
ما أنت مسؤول عن العمل بــه ؛

٣ – وألزم العــلم لك :
ما دلَّك على صلاح قلبك ، وأظهــر لك فساده ؛

٤ – وأحمد العــلم عاقبة :
ما زاد في علمك العاجــل ؛

٥ – فلا تـشـْغـَلـَنَّ :
بعلم ما لا يَضرُّكَ جهــله ؛

٦ – ولا تغفلن :
عن عــلم ما يزيد في جهلك تركه .. »

لو عمــل الرشيد بالقاعدة الخامسة : هــل كان يشتغل « بعلم ما لا يضره جهله » ؟ .. وهــل يضره ألا يعلم ما علمه عن تشبيه « الذباب بالسكران » .. وتشبيه « بصاق الناقــة ببيت العنكبوت » .. وتشبيه « أماكن الريش الساقط من عنق النعامة بالثآليل » .. ؟

لو ســأل نفسه ، أو قاسها بمعنى القاعدة الثانية : هــل يكون قراره أن مسؤوليته تقع في ذلك العمل الذي قام به مع وزرائه وأصمعيّ زمانه ؟ ..

لقد انتهى حكماء من العالم الحديث إلى أن أعظم شــيء : هو معرفة الأهم وتقديمه على المهم .. وفي كتاب « دع القلق وابدأ الحيــاة » لديل كارنيجي : تفاصيل لذلك ، وهي مع ما لشروح « كارنيجي » المقنعة بأهميتها : تمثل جزءاً من كلمة هذا العبد الصالح التراثية .. ولأنه باب الحوائج ، كما كان معروفاً في العراق : نذكر اسمه ؛ ليقصده أصحاب الحاجات ؛ وهو يلبيهم بأهمّ ما يحتاجه الإنسان الذي يريد أن يربح نفسه والعالم معــاً ... إنه ابن الصادق الذي اجتذبنا إلى صــدق المطابقة ...

هو : موسى بن جعفر ، المعروف : بالكاظم ؛ عاش ستة وخمسين عامــاً ؛ وقيل : ستين ؛ (٧ صفر ١٢٨ ، أو ١٢٩ إلى ٢٥ رجب ، ١٨٣ ، أو ١٨٧) ..

صاحب الكلمة المنبهة « إلى منهج الفطنة لما هو الأهم » هذا هو : الإمام السابع ... وما نسينا النظرية العالمية السابعة في « الحقيقة والكشف » عن المعنى وما يعنيــه لأذكياء أصحاب الفنون والعــلوم الإنسانية .. وعما يعــين عــلى « الاستبانة .. والتبيين » ؛

ومن نَسِيَ : فقــد غَفِلَ عن عــلمٍ ما يزيد في جهــله تركه .. أعاذنا «الحي القيوم ، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم » ؛

أعوذ بعزّ اللهِ من كل مُحْرِجِ   فعزّ عزيزي في الفراديس مَخرجي ...

إعجـاز خاتمي في العقـل

تذكرنا « رسالة الإيجاز في المجاز والإعجاز » : برسالة « النداء » في القسم الأول من « علم المعاني ومقتضى الحال » •• فهناك وهنا : وجدنا أنفسنا مع أمثلة قرآنية ونبوية قبل كل شيء •• ثم لاحظنا انجذاب العاملين في الأدب والبلاغة إلى هذا المنبع العذب لتعلمه وتعليمه ••

ولا يجادل أحد في « فائقية » رسول الله (ص) ؛ فهو أفصح الناطقين بهـذه اللغة الشريفة ؛ وحتى عند الباحثين من غير المسلمين : تقدر منزلته الأولى والأعلى على مستويات البلاغة والحضارة جميعاً ؛

فقد عده « مايكل هارت » الأمريكي ، صاحب « المئة الأول » : رأس المئة ؛ وأعظم تأثيراً في كوكب الأرض من كـل الشخصيات العظمى التي وطئت هـذا الكوكب ••

وقد عد أحاديثه « موريس بوكاي » ، الفرنسي ، صاحب « دراسات مقارنة بين الكتب السماوية » : بمثابة الأناجيل ؛ من جهة أن الأناجيل نقلت سيرة المسيح نقلاً غير حرفي •• وهـذا الطبيب الفرنسي : يريد أن يميز القرآن عن غيره من الكتب المنزلة ؛ لأن القرآن دوّن كما تنزل على قلب النبي العربي (ص) : فهو الوحي الصافي •• أما الأحاديث النبوية : فهي نطـق نبوي أخرج بألفاظه ، كما سمعت ووعيت منه •• ولم تدون في فترة نزول القرآن : لكي لا يختلط الأمـر على الناس [١] ••

رأيت في ختام هذه الرسالة : أن أضع نصاً تاماً من كلام رسول الله (ص)

---

١ ـ لاحظ تفاصيل هـذه الملاحظة في :
أ ـ مقدمة « تفسير الحديث النبوي في دروس عصرية » .
ب ـ مقدمة « تفسير القرآن المرتب : منهج لليسر التربوي » .

نقل بعنوان « العقل » .. وهو يجمع بين البلاغة والتأثير ؛ لأنه أجوبة لشمعون ابن لاوي المسيحي الذي ناقشه رسول الله (ص) طويلاً ؛ ثم اعتنق الإسلام فقال : « أخبرني عن العقل ما هو ؟ وكيف هو ؟ وما يتشعب منه وما لا يتشعب ؛ وصفه ؛ وصف لي طوائفه كلها [1] » ...

فقال الرسول (ص) :

ـ ١ ـ

« إن العَقلَ عِقالٌ من الجهل ، والنفس مِثل أخبث الدَّوابّ ، فإن لم يعقل حارت ، فالعَقلُ عِقالٌ من الجهل ؛ وإن الله خلق العَقلَ ، فقال له : أقبل فأقبلَ ، وقال له : أدبر فأدبر ، فقال له الله ، تبارك وتعالى : وعزّتي وجلالي ما خلقتُ خلقاً أعظم منك ولا أطوع منك ، بك أُبدي وأُعيد ، لك الثوابُ وعليك العِقاب .

فتشعّب من العقل الحِلم ، ومن الحِلم العِلم ، ومن العلم الرُّشد ، ومن الرُّشد العَفاف ، ومن العَفاف الصّيانة ، ومن الصِّيانة الحياء ، ومن الحياء الرزانة ، ومن الرزانة المداومة على الخير ، وكراهية الشر ، ومن كراهيةِ الشّر طاعة الناصح .

فهذه عشرة أصْناف من أنواع الخير ، ولكل واحد من هذه العشرة الأصناف عشرة أنواع ، فأمّا الحِلم : فمنه ركوبُ الجميل ، وصُحبةُ الأبرار ، ورفعٌ من الضّعة ، ورفعٌ من الخَساسة ، وتشهّي الخير .. ويقرّب صاحبه من معالي الدرجات ، والعفو ، والمهل ، والمعروف ، والصمت . فهذا ما يتشعب للعاقل بحلمه .

وأمّا العلم : فيتشعّب منه الغنى وإن كان فقيراً ، والجود وإنْ كان بخيلاً ،

---

١ ـ كلمة الرسول الأعظم ؛ للسيد حسن مهدي الشيرازي ؛ نقله عن الجزء الثالث ، من « ناسخ التواريخ » ، كما أشار إلى ذلك ؛ ص ٩١ .

والمهـابةُ وإن كان هيِّناً ، والسلامةُ وإن كان سقيماً ، والقرب وإن كان قصيّاً ، والحياء وإن كان صلِفاً ، والرّفعة وإن كان وضيعاً ، والشرف وإن كان رذلاً ، والحكمة ، والحظوظ ، فهذا ما يتشعّبُ للعاقل بعلمه ، فطوبى لمن عَقِلَ وعلم .

وأمّا الرّشد : فيتشعّبُ منه السّداد والهدى ، والبر والتّقوى ، والمنـالة والقصد ، والاقتصاد والثواب ، والكرم والمعرفة بدين الله . فهذا ما أصاب العاقل بالرشد . فطوبى لمن أقام به على منهاج الطريق .

وأمّا العفاف : فيتشعّبُ منه الرضا والاستكانة ، والحظ والراحة ، والتّفقد والخشوع ، والتّذكّر والتفكّر ، والجـود والسخاء ، فهذا ما يتشعّبُ للعاقل بعفافه رضاً بالله وبقسمه .

وأمّا الصيانة : فيتشعّبُ منها الصلاح والتواضع والورع والإبانة ، والفهم والأدب ، والإحسان والتّحبّب ، والخير واجتِناء البشر . فهذا ما أصاب العاقل بالصّيانة . فطوبى لمن أكرمه مولاه بالصّيانة .

وأمّا الحياء : فيتشعّبُ منه اللّين والرأفة ، والمراقبة لله في السّر والعلانية ، والسلامة ، واجتناب الشّر ، والبشاشة ، والسماحة ، والظفـر ، وحسن الثناء على المرء في الناس . فهـذا ما أصاب العاقل بالحياء ، فطوبى لمن قبل نصيحة الله وخاف فضيحته .

وأمّا الرزانة : فيتشعّبُ منها اللطف والحزم ، وأداء الأمانة وترك الخيانة ، وصدق اللسان ، وتحصين الفرج ، واستصلاح المال والاستعداد للعدوّ ، والنهي عن المنكر وترك السفه . فهذا ما أصاب العاقل بالرزانة ، فطوبى لمـن توقّر ولم تكن له خفّة ولا جاهليّة ، وعفا وصفح .

وأمّا المداومةُ على الخير : فيتشعّبُ منها ترك الفواحش ، والبعد من الطيش، والتحرّج ، واليقين ، وحبّ النجاة ، وطاعة الرحمان ، وتعظيم البرهان ، واجتناب

الشيطان ، والإجابة للعبد ، وقول الحق . فهذا ما أصاب العاقل بمداومة الخير ، فطوبى لمن ذكر إمامه ، وذكر قيامه ، واعتبرَ بالفناء .

وأمّا كراهية الشّر : فيتشعّبُ منها الوقار ، والصّبر ، والنصر ، والاستقامة على المنهاج ، والمداومة على الرّشاد ، والإيمان بالله ، والتوفر ، والإخلاص ، وترك ما لا يعنيه ، والمحافظة على ما ينفعه . فهذا ما أصاب العاقل بالكراهية للشر ، فطوبى لمن قام بحقِّ الله ، وتمسّك بعرى سبيل الله .

وأمّا طاعة الناصح : فيتشعّبُ منها الزيادة في العقل ، وكمال اللبّ ، ومحمدة العواقب ، والنجاة من اللّوم ، والقبول ، والمودة ، والإسراج ، والإنصاف ، والتقدّم في الأمور ، والقوة على طاعة الله ، فطوبى لمن سلم من مصارع الهوى . فهذه الخصال كلّها تتشعّبُ من العقل .

ـ ب ـ

فلمّا بيّن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، محاسن العقل ، قال : يا رسول الله ما علامة الجاهل ؟ فقال :

إنْ صَحِبْتَهُ عَنّاك ، وإنِ اعتزَلْتَه شَتَمَك ، وإنْ أعطاك مَنّ عليك ، وإن أعطيته كفرك ، وإن أسررت إليه خانك ، وإنْ أسرّ إليكَ اتّهمك ، وإنْ استغنى بَطِرَ وكان فظّاً غليظاً ، وإن افتقر جحد نعمة الله ولم يتحرّج ، وإنْ فرح أسرف وطغى ، وإن حزن أيِس ، وإن ضحك فَهِقَ ، وإن بكى فإنّه يقع في الأبرار ، ولا يحبّ الله ، ولا يراقبه ، ولا يستحي من الله ، ولا يذكره ، إن أرضيته مدحك وقال فيك من الحسنة ما ليس فيك ، وإن سخط عليك ذهبَتْ مِدْحته ، ووقّع فيك من السوء ما ليس فيك ، فهذا مجرى الجاهل .

فلمّا بيّن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، علامة الجاهل ، قال شمعون : يا رسول الله ! وما علامة الإسلام ؟ فقال :

علامة الإسلام : الإيمان ، والعلم ، والعمل .

فقال شمعون : وما علامات هذه الثلاثة ؟ فقال :

علامة الإيمان أربع : الإقـرار بوحدانية الله والإيمان بكتب الله ، والإيمان بأنبياء الله ، [والإيمان بدين الله] .

وعلامة العـلم أربع : العلم بالله ، والعلم بمحبَّة الله ، والعلم بأمانـة الله ، وحفظه حتى وقت أدائه .

وعلامة العمل أربع : الصَّلاة ، والصِّيام ، والزكاة ، والإخلاص .

- ج -

فقال شمعون : يا رسول الله ! أخبرني عن علامة الصَّادق ، وعلامة المؤمن ، وعلامـة الصابر ، وعلامة التائب ، وعلامة الشّـاكر ، وعلامة الخاشع ، وعلامة الصالح ، وعلامة الناصح ، وعلامة الموفَّق ، وعلامة المخلص ، وعلامة الزاهد ، وعلامة البارّ ، وعلامة التقي ، وعلامة المتكلّف ، وعلامة الظّـالم ، وعلامة المرائي ، وعلامة المنافق ، وعلامـة الحاسد ، وعلامة المسرِف ، وعلامة الغافـل ، وعلامة الكسلان ، وعلامة الكذّاب ، وعلامة الفاسق ، وعلامة الخائن ؛ فقال رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم :

أمّا علامة الصَّادق فأربع : يصدقُ في قوله ، ويصدِّق وعد الله ووعيده ، ويوفي بالعهد ، ويجتنب الغـدر .

وأمّا علامة المؤمن فأربع : يرأف ، ويرحم ، ويفهم ، ويستحي .

وأمّا علامة الصَّابر فأربع : الصبر على المكاره ، والعزم في أعمال البِرّ ، والتّواضع ، والحِلم .

وأمّا علامة التّائب فأربع : النصيحة لله في عمـله ، وترك الباطل ، ولزوم الحق ، والحرص على الخـير .

وأمّا علامة الشاكر فأربع : الشّكر في النّعماء ، والصّبر في البلاء ، والقنوع بقسم الله ، ولا يحمد ولا يعظم إلا الله .

وأمّا علامة الخاشع فأربع : مراقبة الله في السّر والعلانية ، وركوب الجميل ، والتفكّر ليوم القيامة ، والمناجاة لله .

وأمّا علامة الصّالح فأربع : يصفّي قلبه ، ويصلح عمله ، ويصلح كسبه ، ويصلح أموره كلّها .

وأمّا علامة الناصح فأربع : يقضي بالحق ، ويعطي الحقّ من نفسه ، ويرضى للناس ما يرضاه لنفسه ، ولا يعتدي على أحد .

وأمّا علامة المؤمن فستّ : أيقن بأنّ الله حقّ فآمن ، وأيقن بأنّ الموت حقّ فحذره ، وأيقن بأنّ البعث حق فخاف الفضيحة ، وأيقن بأنّ الحساب حقّ فحاسب نفسه ، وأيقن بأنّ الجنّة حق فاشتاق إليها ، وأيقن بأنّ النار حقّ فظهّر سعيه للنجاة منها .

وأمّا علامة المخلص فأربع : يسلم قلبه ، ويسلم جوارحه ، ويبذل خيره ، ويكفّ شرّه .

وأمّا علامة الزّاهد فعشر : يزهد في المحارم ، ويكفّ نفسه ، ويقيم فرائض ربّه ، فإنْ كان مملوكاً أحسن الطاعة ، وإنْ كان مالكاً أحسن المملكة ، وليس له محميّة ، ولا حقد ، يحسن إلى من أساء إليه ، وينفع من ضرّه ، ويعفو عمّن ظلمه ، ويتواضع لحقّ الله .

وأمّا علامة البارّ فعشر : يحبّ في الله ، ويصاحب في الله ، ويفارق في الله ، ويغضب في الله ، ويرضى في الله ، ويعمل في الله ، ويطلب إليه ، ويخشع لله ، خائفاً مخوّفاً ، طاهراً مخلصاً ، مستحيياً ، مراقباً ، ويحسن في الله .

وأمّا علامة التّقيّ فست : يخاف الله ، ويحذر بطشه ، ويمسي ، ويصبح كأنّه يراه ، لا تهمه الدنيا ، ولا يعظم عليه منها شيء لحسن خلقه .

وأمّا علامة المتكلّف فثلاث : يجادل فيما لا يعنيه ، وينازع من فوقه ، ويتعاطى ما لا ينال .

وأمّا علامة الظالم فأربع : يظلم من فوقه بالمعصية ، ويملك من دونه بالغلبة ، ويبغض الحق ، ويظهر الظلم .

وأمّا علامة المرائي فأربع : يحرص في العمل لله إذا كان عنده أحد ، ويكسل إذا كان وحده ، ويحرص في كل أمره على المحمدة ، ويحسن سمته بجهده .

وأمّا علامة المنافق فأربع : فاجر دخلة ، يخالف لسانه قلبه ، وقوله فعله ، وسريرته علانيته ، فويل للمنافق من النّار .

وأمّا علامة الحاسد فثلاث : الغيبة ، والتّملّق ، والشّماتة بالمصيبة .

وأمّا علامة المسرف فاثنتان : يفخر بالباطل ، ويأكل ما ليس عنده .

وأمّا علامة الغافل فأربع : العمى ، والسّهو ، واللّهو ، والنّسيان .

وأمّا علامة الكسلان فأربع : يتوانى حتى يفرط ، ويفرط حتى يضيع ، ويضيع حتى يأثم ، ويضجر .

وأمّا علامة الكذّاب فأربع : إن قال لم يَصْدُق ، وإن قيل لم يُصَدِّق ، والنّميمة ، والبُهتان .

وأمّا علامة الفاسق فأربع : اللهو ، واللغو ، والعدوان ، والبهتان .

وأمّا علامة الجائر فأربع : عصيان الرّحمن ، وأذى الجيران ، وبغض القرآن ، والقرب إلى الطغيان .

ـ د ـ

يا شمعون !

إنّ لك أعداء يطلبونك ، ويقاتلونك ، ليسلبوا دينك من الجن والإنس .

فأمّا الذين من الإنس : فقوم لا خَلاق لهم في الآخرة ، ولا رغبة لهم فيما عند الله ، إنّما همّهم تغيير النّاس بأعمالهم ، لا يغيِّرون أنفسهم ولا يحاذرون أعمالهم ، إن رأوك صالحاً حسدوك وقالوا : مُراءٍ ، وإن رأوك فاسِداً قالوا : لا خيرَ فيه .

وأمّا أعداؤك من الجن : فإبليس وجنوده . فاذا أتاك فقال : مات ابنك ، فقل : إنّما خلق الله الأحياء ليموتوا ، وتدخل بضعة مني الجنّة ، إنّه ليسري . فإذا أتاك وقال : فذهب مالك ، فقل : الحمد لله الذي أعطى وأخذ ، وأذهب عنّي الزكاة ، فلا زكاة عليّ . وإذا أتاك وقال لك : النّاس يظلمونك وأنت لا تظلم ، فقل : إنّما السَّبيلُ يومَ القيامة على الذين يظلمون النّاس ، وما على المحسنين من سبيل . وإذا أتاك وقال لك : ما أكثرَ إحسانك ! يريد أن يدخلك العُجب ، فقل : إساءتي أكثر من إحساني . وإذا أتاك وقال لك : ما أكثر صلاتك ! فقل : غفلتي أكثر من صلاتي . وإذا قال لك : كم تعطي النّاس ؟ فقل : ما آخذه أكثر ممّا أُعطي . وإذا قال لك : ما أكثر من يظلمك ! فقل : من ظلمته أكثر . وإذا أتاك وقال لك : كم تعمل ؟ فقل : طال ما عصيت . وإذا أتاك فقال لك : ألا تحبّ الدنيا ؟ فقل : قد اغترّ بها غيري ..

إنّ الله ، تبارك وتعالى ، لما خلق السفلى ، فخرت وزخرت وقالت : أيّ شيء يغلبني ؟ فخلق الأرض فسطحها على ظهرها ، فذلّت . ثمّ إن الأرض فخرت وقالت : أيّ شيء يغلبني ؟ فخلق الله الجبال فأثبتها على ظهرها أوتاداً من أن تميد بها عليها ، فذلّت الأرض واستقرت . ثم إن الجبال فخرت على الأرض فشمخت واستطالت وقالت : أيّ شيء يغلبني ؟ فخلق الحديد فقطعها ، فذلّت . ثم إن الحديد فخر على الجبال ، وقال : أيّ شيء يغلبني ؟ فخلق النّار فأذابت الحديد ، فذَلّ الحديد . ثم إن النّار زفرت وشهقت وفخرت وقالت : أيّ شيء يغلبني ؟ فخلق الماء فأطفأها ، فذلّت . ثم إن الماء فخر وزخر وقال : أيّ شيء يغلبني ؟ فخلق الريح ، فحرّكت أمواجه ، وأثارت ما في قعره ، وحبسته عن مجاريه ، فذلّ الماء . ثم إن الريح فخرت وعصفت وقالت : أيّ شيء يغلبني ؟ فخلق

الإنسان ، فبنى واحتال ما يستتر به من الريح وغـيرها ، فذلّت الريح . ثـم إن الإنسان طغى ، وقال : من أشدّ مني قوة ؟ فخلق الموت فقهره ، فذلّ الإنسان . ثم إن الموت فخر في نفسه ، فقال الله عزّ وجل : لا تفخر فإنّي ذابحك بين الفريقين : أهل الجنّة وأهل النّار ، ثم لا أحييك أبداً ! فخاف » .

إن هذا النص النبوي : خلاصة إعجازية هادئة ؛ لأن كل ما نجده في بلاغات الأنبياء وفي مناهج الأئمة : إنما يدور على محاور هذه المعـاني .. وإن واقعية هذه الصور : تفوق مستويات التصوير البلاغي والتخييل الشعري ؛ لأنهـا ذات وجود يقيني معجز ؛ ألا يعطي التأمل بخاتمة النص : هذا المعطى الإعجازي الذي يمثل فيه عالما الشهود والغيب معاً .. تدبر حوار الخالق مع أنواع مخلوقاته التسعة التي ذكرت .. ثم تمهل مع أسئلة شمعون وأجوبتها : فهي نظـام وجود كامل ؛ وقد فصلت تفصيلاً تقسيمياً : يبرز أهمية السعي لترسيخ « مبادىء التجميل » ؛ لمن يريد الربط بين شكل النص وتلك المبادىء ..

في النص : مثـل مصور لقوى الإنسان الداخلية ولمسرح الإنسان الكوني وارتباطاته به .. ونستطيع عرضه على نصوص إعجازية أخرى ...

— 7 —

المعذرة والعِبْرَة المُبْصِرة

أعتذرْ عـن تجاوز الحدود ، وألتزم ما ختمنا به ؛ فقـد تمّ خطُّ الصعود في كلام خاتم أولي البلاغ ؛ ويستطيع المتأملون من أولي الألباب : رؤية خَبْءِ الخطة المشعّ من يمين « الخشوع المتيقظ في حضرة الإبداع » .. وإذا أخلصوا الوفـاء : فلا بُدّ أن يروا فوق الدنيا وفيها « هندسة معمارية فريدة » ؛ يخفق فوقها جناحان : يخبران اليقينَ وينشئانِ البديع ؛ فهل يتزمل المتزملون أم يتدثر المتدثرون ؟

فَلْنَرْجعِ البصرَ في « عمارة مقتضى الحال » : عائدين مما نراه « بدءاً جديداً لعـلم معنى إعجازي » ؛ وهذه خطة « رسالة الإيجاز بالمجاز والإعجاز » نختم بها : لنرى من ذراها مستويات الخطط التي بدئت « بمكونات الجملة » ..

وتمت في « صور المساواة والإيجاز والإطناب » •• وما بينهما •• كما نرى « حدود البلاغة تحت التاج » وما جاء قبلها من عمائر « الأرقام العشرة » في الجزء الأول من : « علم المعاني ومقتضى الحال » ••

وهذه خطة البدءِ الجديد لعلم معان إعجازي تُرجى منه الكشوف ، تمّ الخَبْءُ فيها تحت هذا العنوان المألوف : « رسالة الإيجاز في المجاز والإعجاز » :

تمّ بحول الله وقوته ، يوم الاثنين :

في دمشق : ٢٢ شباط ١٩٨٨

٥ رجب ١٤٠٨

من الأعمال المنشورة للدكتور أسعد علي

إصدارات عالمية :

في أضواء القرآن طبعة خاصة ١٩٨١ باريس

«صدر عن الاتحاد العالمي للمؤلفين باللغة العربية في باريس»

السَّبر الأدبي ، ط ١ ١٩٨٦ م ، ط ٢ ١٩٨٩ م ، ط ٣ ١٩٩٠ م .

«صدرت عن لجنة تنسيق المؤلفات العالمية»

أبجديات التوحيد ط ١ ١٩٨٦ .

«صدرت باللغة الانكليزية ـ واشنطن» .

إصدارات أخرى :

- تفسير القرآن المرتب منهجٌ لليُسر التربوي . ط ٣ ١٩٩٠ م دار السؤال .
- معرفة الله والمكزون السنجاري (١ ـ ٢)

  «رسالة دكتوراه الفلسفة» ط ٣ معدلة ١٩٩٠ م دار السؤال .
- روضات معرفة الله والقيم النقدية . الطبعة الأولى ١٩٩٠ م .
- الإبداع والنقد ، ج ١ ط ١ ١٩٩٠ م دار السؤال .
- فن المنتجب العاني وعرفانه

  «أبو الفضل محمد بن الحسن المنتجب العاني الخديجي المضري . . .»

  رسالة دكتوراه في الأدب . ط ٣ معدله ١٩٩٠ م دار السؤال .
- صناعة الكتابة (١ ـ ٣) بالاشتراك وملحقان . ط ٦ ، معدلة ١٩٨٧ م

  دار السؤال .
- فن الحياة فن الكتابة . ط ٦ ، ١٩٨٨ م جامعة دمشق .
- علم المعاني ومقتضى الحال (١ ـ ٢) . ط ١ ، ١٩٨٩ م جامعة دمشق .

محتويـات

القسم الأول من : عـلم المعاني ومقتضى الحال

مقتضى الحال في بلاغـة الإنشـاء

محتــويات

القسم الثاني من : عــلم المعاني ومقتضى الحال

مقتضى الحال في بلاغــة الخبر